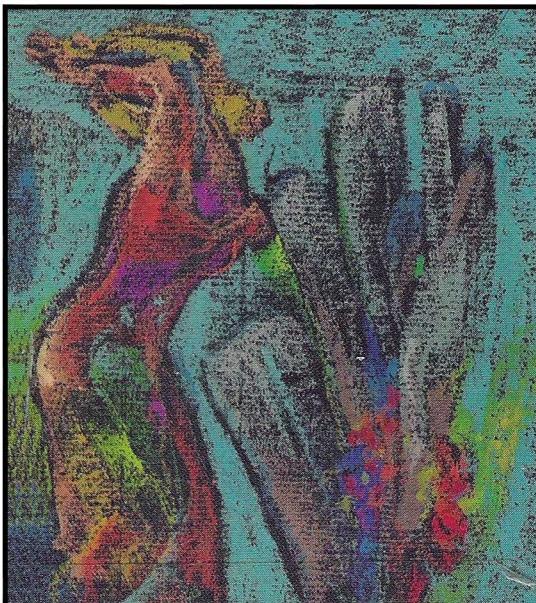


حِيدَرْ حِيدَرْ

وَلَمْ يَرُكْ لَا شَانِبَرْ

»شِيدَ الموتِ«

رواية



Gävle Stadsbibliotek



SAMBINDNINGEN  
890 09 85 4085 D1

BTJ  
© Bibliotekstjänst AB



٢٣٣



# وليمة لأعشاب البحر

( نشيد الموت )

\* حيدر حيدر  
\* وليمة لأعشاب البحر  
\* جميع الحقوق محفوظة للدار  
\* الطبعة السادسة 1998  
\* الناشر : ورد للطباعة والنشر والتوزيع  
سورية - دمشق 3321053

\* الإشراف الفني : د. مجذ حيدر  
\* لوحـة الغلاف : د. أحمد معـلا  
\* الإخراج الفني : دار الحصاد للطباعة والنشر والتوزيع  
\* التـوزيع : دار ورد 3321053 ص. ب: 4490  
دار الحصاد: هاتف/فاكس 2126326

Copyright © 1998 by Haydar Haydar  
© Ward for publishing and distribution

All rights reserved. No part of this publication may be reproduced or transmitted in any form or by any means, electronic or mechanical, including photocopying, recording, or any information storage and retrieval system, without permission in writing from the publisher.

حيدر حيدر

وليمة لأعشاب البحر  
( نشيد الموت )

رواية



«وأنا الصياد الذي لا يرتاح أبداً .

الصياد الذي لا وطن له .

والتي أقصدها ماتزال تطير أمامي ؛

وأنا سأتبعها ،

مع أنها قادتني إلى ماوراء الجبال ،

عبر بحار بلا شموس ،

داخل الليل والموت» .

«هرمان ملقيل»



الخريف \_\_\_\_\_



وكان صباحاً ماضياً .

في سماء صافية ، النوارس وهي تخفق بدت كأنما تعلن عن غبطتها بذلك الطيران الأبيض الواهن . وفوق الأعشاب وأوراق الدغل ، كان الندى يتلألأ تحت شمس خريفية .

- انظر . انظر هو ذا البحر !

قالت الفتاة ذلك ، ثم أسرعت خطاهما باتجاه الشاطئ الصخري ؛ وعلى نحو تلقائي خلعت حذاءها ثم اندفعت كالفقمة حافية صوب البحر .  
- انتبهي . الأشواك ستدميك .

ولم تلتفت . سبقته خافقة بذراعيها كجناحي طائر في فضاء أبيض . السرعة والريح رفعتا تنورتها الخضراء فبدا كالرخام فخذها الناصعان المكتنزان . جرى الرجل ملوحاً في الريح حقيقة الطعام . كانت الفتاة تتبايناً هابطة المنحدر بين أحجم الدغل القصير وكتل الصخور الرمادية .

فجأة اختفت .

على حافة المنحدر الغباري ظهر البحر . بدا جليلاً بأبهة ملكية ، شرساً وهو يصدم الصخور ثم يتطاير زبداً متناهراً ، ثم ينحسر كطفل وادع .

- آسيا . آسيا . ناداها بصوت مبتهج .

تردد الصدى بين ممرات الصخور وأفق البحر .

خمن أنها مختبئة في مكان ما ، وانتظر ظهورها المباغت . تقدم متعرضاً فوق الحصى والشوك . الحقيقة مدلاة فوق ظهره وفي عينيه وهج

الشمس . كان يغتني ويصفر عابراً الشَّعب المترعرج ، المؤدي إلى مكانهما القديم . المكان الذي سُمِّيَاه فيما مضى : سرير البحر .

- إذا لم تظهرى فهناك امرأة أخرى على الشاطئ .

إذ وصل الكهف المعشب ، المطل على البحر ، قذف بالحقيقة على التراب المندى .

تعرى واستلقى فوق الغضار المعشب .

كان وجهه يستقبل لفع الأشعة . خارج الجفنين المطبقين راح بياض الأشعة يتحول إلى أحمرار طيفي . داخل مدار الطيف الملؤن ، ابتدأت الأشياء تقبل وتنسحب بلمعان غريب ساحر .

\* \* \*

يحسَّ الرجل بأنه مطارد ، وأن شخصاً ما يتعقبه . رجل لا يعرف ملامحه بدقة . كان ينتظر المفاجأة في المنعطف القادم . وكانت هناك منعطفات كثيرة في هذه المدينة المتوحشة التي فقدت أمانها .

إنه يخطو مسرعاً . متوجساً أبداً . متأهباً أبداً . كان الخوف يسري هناك في الفقرات التي ستلتقي الضربة من يد تتأهب لتطعنـه من الخلف .

وتلمسـت يده المدية في الجيب الخلفي . لا بد أن الفقرات كانت ترتعش وهو يقترب من المنعطف المظلم . أحسـ بالمقبض الأملس ورأس النصل . كانت الموسى في وضع يتيح انتضائـها بسرعة في آية لحظة .

وتذكر بأن الفتاة سألهـ يوماً : أين تعلمتـ الطعن بالسكين ؟

فقال مبتسمـاً : في المدرسة .

وضحكـت باستغرابـ : في المدرسة ! لابد أنها كانت مدرسة حربية ! وقال : لا . كان ذلك تدريبيـاً شخصـياً زـمن المراهقة . اللوح الأسود في صدر القاعة ، كان مسرحـ التدريب . يقفـ على مسافةـ أمـتـار منه ، يلوحـ بالمـدية ثم يقذـفـها فـتهـزـ السـيـورـةـ إذ تـلـقـيـ الطـعـنةـ . كانـ يـنـتـشـيـ بيـنـماـ الـطـلـابـ مـأـخـوذـونـ بـهـذـهـ الـبـرـاعـةـ لـفـتـيـ شـقـيـ يـكـرـهـ المـدـرـسـةـ وـالـكـتبـ وـالـمـدـرـسـيـنـ . وـهـوـ يـشـرـحـ المـوقـفـ كـانـ الـفـتـاةـ تـغـرـقـ فـيـ الضـحـكـ . وـسـأـلـتـهـ إـنـ كـانـ قـدـ طـعـنـ شـخـصـاـ فـيـ حـيـاتـهـ ، فـقـالـ بـأـنـ ذـلـكـ حـدـثـ مـرـةـ لـأـمـرـ تـافـهـ .

- وهـلـ مـاتـ ؟ سـأـلـتـ فـزـعـةـ .

- لا . الـانـسـانـ لـاـيمـوتـ بـضـرـبةـ مـوـسىـ طـائـشـةـ . جـرـحـ طـفـيفـ ضـمـدـ فـيـ

المستشفى ثم خرج الفتى على الأثر . كان يروي الحدث بنبرة اعتزاز مشوبة بخجل مراهق .

قالت الفتاة : ها . كنت مشاغبًا إذن !  
ورد الرجل : لا . بل كنت خائفاً آنذاك .

\* \* \*

كانت مدينة جميلة ، مطوية بالبحر والغابات . لكنها كأي مدينة عربية كانت موحشة ، محكمة بالإرهاب والجوع والسمسرة والدين والحدق والجهل والقسوة والقتل .  
مدينة تكره الغرباء .

ورغم جوارها للبحر والغابات فهي تبدو حزينة . إن الحب ينمو داخلها نمو النباتات بين شقوق الصخر ، مهدداً بالموت متى حاول الوقوف تحت الشمس .

تلك هي بونه المضيئة . مدينة الحزن والبحر والخوف والحب والذاكرة .

\* \* \*

جاء صوتها من البحر . سمعه وهو داخل المدار الراقص في سماء الطيف الوردية . كانت تناديه ليأتي . ظهرت هناك بيضاء ، سعيدة كأميرة فوق الصخور ، بينما الماء يقطر كحببيات الماس من جسدها المتوجج تحت الشمس . لوحت بذراعيها ثم مدت لسانها مداعبة . صرخت : هيا يا حلوف تعال . ! ثم هوت نحو الأعماق . وهي تطفو لاح جسدها وشعرها وثوب البحر الملون تحت شفافية الماء . وردة عائمة يضئها البحر والشمس . هكذا بدت هناك في عمق اللَّج الأخضر . كانت الفتاة والرجل والبحر الآن ، بعيدين عن المدينة . في تلك المساحة من العراء ، أبتدأ يمرحان كطفلين خارج قوس الحصار .

\* \* \*

ورأى رجلا طويلا يشبه الشامبانزي يعترض طريقهما ، كان الوقت نهاراً خريفياً . واجتاحته دفقة توجس . توقفت الفتاة مرتيبة . في عينيها لمعان خوف . أدركت للتو أن معركة ستحدث . وبدا الرجل الذي يرافقها في وضع طبيعي صامت . كانت المطواة في الجيب الخلفي . وفكر الرجل

الغريب : ياللقدارة !

وسألها الشامبانزي : من يكون هذا ؟ وأشار بوجهه الكالح نحو الرجل الغريب . وردت الفتاة : إنه صديقي ! قالت ذلك بثقة وتحمّ وهي تدخل معه في حوار برقى بلغة محلية خاصة .  
وسمع الشامبانزي يقول ممتعضاً : ولكنه غريب . مالذي يفعله هنا ؟

وتنفس الغريب بصعوبة .

قالت الفتاة بنزق : لكن أنت ماشأنك ؟ إنه معي وكفى . وانبثق من منعطف قريب ، فتى أكرت الشعر ، يشبه الخنزير ، صاح وهو يقترب : اسمعي . من قال لك أن ذلك مسموح ! أنت امرأة منا والغرباء لا حقوق لهم هنا .

أصابع الغريب كانت تمسك الآن مقبض المطواة . شعر بأنه يكاد يختنق كانت المسألة تنضح تفاهة وقدارة وغيظاً . غضبة صاحت الفتاة : لو كان فرنسيأً لما اعترضتماه ! أي كلوشار !

أصابعه مرت فوق المقبض وعلى مهل ضغط المكبس . بتؤدة كان يحرر المدية من رتاجها . الآن هو في وضع القتال . عندما نطقت كلمة «كلوشار» اتجهت نحو صديقها . أمسكت نراعه واندفعا شاقين الطوق العدائى .

قال الشامبانزي : هاو الشريفات لا يصاحبون الغرباء . فهمت !  
وقال الآخر : نعرف جيداً من تكونين . ومد لسانه بحركة بذئنة .  
الفتاة التفتت . رفعت رأسها ثم مدته قاذفة بقصة مدوية غطتها .  
سأله الغريب صديقته وهما يبتعدان : أما كان ينبغي أن تحدث معركة ؟

قالت الفتاة : لا . لم يكوننا أكثر من خنزيري شوارع !

\* \* \*

- يالك من كسول يخشى البحر !

وهوت في مركز الطيف الوردي نقطة من مياه ماس البحر فانطفأ الطيف ، وراح النقط تقاطر منحدرة فوق سفح الجسد النضر .  
فتحت حقيبة الطعام والبيرة ، فامتدت مائدة صغيرة فوق صحف

قديمة . كانت الشمس وردة مشتعلة في سمتها السماوي ، والنوارس تعبر الفضاء في موازاتها . أشار إلى الطيور البيض بعينين مبهورتين . وقالت الفتاة : أترغب أن تكون نورساً ؟

بأصابعه مسح على عضلات ساقيها الباردتين الناصعتين . كانت الآن أمامه ، ناهضة كففة مولودة من زبد البحر .

وسأله بماذا يفكر الآن . وقال : أشتريك . وصاحت : احشم أيها الفاسق !

امتعض ساخراً . نهض أمسك رسغها ووخره : نحن الآن في المطهر . لسنا في مسجد الله أو كنيسته . هذه برارينا ونحن هنا آلهة هذه البراري . تناولت زجاجة بيرة وفتحتها .

- افتح الراديو .

- نخبك . خطف الزجاجة من يدها وطوقها . تحتهما امتد حقل من العشب والزهر التلجي المتناثر . الأفق البحري كان شاحباً ، موحشاً ، وجديداً ، يدوي بالأصداء . في تلك اللحظة تراءى العالم غريباً ، مبهجاً ، حافلا بالغموض . كان هذا يصطدم بطيف قديم . طيف عبر ذات مساء في ذاكرة السفر قبل أن يطأ هذه الأرض الجميلة المتوجسة .

## - 2 -

كفجر أفريقي مشمس ، هكذا تبدو آسيا .

تقول وهي تعانق مهدي جواد : لماذا لانذهب إلى البحر ! هما الآن داخل غرفة ضيقة غرفة مغلقة ذات نافذة واحدة ستارتها بيضاء . من هذه الغرفة يمكن سماع دوى البحر .

- أيهما أحبت إليك : الغابة أم البحر ؟

- في الغابة لنا ظلّ شجرة وفي البحر صخرة . هذا هو وطننا في هذه المملكة الواسعة . منذ زمن لا تذكر بدايته نفتهما المدينة ، فاستولت عليهما حالة قنوط .

وفي مساءات الخريف الأفريقي العاصف ، يغسل المطر الغابات والصخور وجدران المنازل ، وإذ يتوقف المطر تهجع المدينة تحت صمتها المقفر . الرجل والفتاة سجينان داخل الغرفة الضيقة وداخل جسديهما . يتوقان للاغتسال بماء المطر المنهر . يسمعان بصمت صوت

البحر عميقاً ، عميقاً . ثم يهدى الصوت . تسأل الفتاة التي تحب البحر : ترى ما الذي يحدث الآن للبجع الأبيض العاشق في فجوات الصخر !

تقول ذلك بغتة تحت شجرة اسني . بعد أن تغلق عينيها العصفوريتين ثم تنام كحمامة بيضاء داخل ليل الحجرة القانط . في سن الطفولة الأولى للحب عشقاً الشواطئ والعشب . يسافران نحو التلال وكطفلين يجمعان شعاع الشمس ومحار البحر . نصال العشب المبتلة تلسع أقدامهما ووجهيهما . إنهم يتواريان هناك في عمق الدغل بعيداً عن البشر . رائحة آسيا ورائحة العشب توحدهما بالأرض الممتدة لساناً صخرياً في جوف البحر . بعد الأيام الأولى من الطفولة ، تسأل الفتاة التي نما حبها : لماذا ينمو الأطفال بحيث لا يعودون يطالون الندى ومحار البحر ؟ غمامه وردية تنهمر مطرأً دافئاً فيتبلل الوجهان . تحت جسديهما ترتعش قشرة الأرض . نورس مقبل يغير اتجاهه بقوة الريح الصادمة . موجة بحر تندفع فتزيل آثار الأقدام ، ومن عمق الظلام السحيق يرتفع صدى تحبيب .

- ولكن لماذا لا يرغبون بالغرباء هنا ؟ يسأل مهدي جواد في الأيام الأولى للصدمة . وتدھش آسيا الأخضر : تسألني ! ثم تصمت .

- لعلها الغريزة . تقول .

ويستفهم عن سياق الكلمة . تضحك : غريزة الحفاظ على النوع . يقهق مهدي بكل جسده : وهل الغرباء يهددون بالانقراض ؟

- بلـى . ربما !

- بلـى ! من أي نوع غير بشري نحن إذن ؟

- نوع مختلف عنهم .

- أي نوع . أعني كيف يروننا ؟

- عناصر غريبة عن الجسم أو عن القبيلة إذا شئت .

قال مهدي : نوع من الغزاوة ! وضغط على الكلمات . لقد أدرك أنه ارتكب خطأ لفظياً .

وقالت آسيا بتقطيب : ليس بهذا المعنى تماماً . إنهم يخشون كل قادم من وراء الحدود . لقد جرح المستعمر الروح والجسد . واستطردت : فيما مضى تجرعنا آلاماً حادة أنت لم تذوقوا ممارتها . من أقصى الجزائر إلى أقصاها لا يوجد بيت بلا جرح . الجراح لم تندمل بعد ولا بد أن تفهم ذلك . في وجهها لاح حزن جارح بينما كان جسدها يرتعش

كفابة تنوع بأصداء القتلى .

نفح مهدي جواد زفيرأ مضغوطاً . حصد حفنة من عشب ، ضغطها براحتيه ثم نثرها باتجاه الشاطئ .

الأصيل الآن يسيل فوق البحر ، وفي الجو انتشر الصقيع .  
القشعيرية نتائ حبيبات برونزية فوق جلد آسيا المحروق .  
- انظر . ومدت ذراعها العارية .

قبل اللحم الراعش . كان هناك طعم الشمس والملح والزمن الحزين . وراحت الفتاة ترتعش : برد الجو . هل نعود ؟  
ونهضت . قامتها وصباها ارتفعا باسقين كشجرة دردار نبتت الآن على أبواب البحر .

### - 3 -

الوصول إلى المدينة في الأيام الأولى كان ذهولاً . بدت الأشياء كأنها تتفتح في غابة عذراء . كل شيء ظهر غريباً ، وغامضاً وساحراً . المنازل البيضاء وسطوح القرميد . مقاهي الأرصفة ولغة الناس . تلك الوجوه الشديدة السمرة ، الشاحبة . ثم هذا النبض الحي للفتوة الأفريقية وهي تنطلق بكل عنفوانها الغاضب . لابد أنهم يتهمون الحياة التي كانت محترمة عليهم فيما مضى . لم يكن يدرى إن كان سعيداً في تلك اللحظة . كان ناجيًّا من العاصفة ، لكنه كان محطماً ، وطافيأً كزورق قذفه الموج بعيداً . المقهى الرصيفي يغص بالناس . كان مطلأ على ساحة مشجرة . وفي أوراق الشجر تموالت ريح رخاء .

في الساحة الأهليليجية تناثر شرقيون وغاربة وفرنسيون ، لكنه لم يكن يعرف أحداً . كانوا يشربون البيرة والقهوة والشاي الأخضر ويشرثون بلهجات مختلفة . ولأنه لا يعرف اللغة المحلية طلب بالفرنسية قهوة سوداء .

عندما خرج من العراق لم يكن حزيناً . فقط أحسن بانقباض غامض وهو يغادر .

ورأى الفجر رماديًّا فوق دجلة . كانت الأشعة الأولى للشمس تشتم كالМАس فوق الماء . وبعيداً عن شط العرب اتجه طائر أبيض يهيم وحيداً باتجاه البحر .

للمرة الأولى ينفصل مهدي جواد عن بيت القبيلة .

الوداع الطقوسي للطفل الذي يقطع حبل السرة ويغادر الرحم في تلك الليلة . أخذت في لون المرارة وشقة النحيب ، ترفع القرآن بيد وباليد الأخرى صحنًا من الطحين . على الكتاب المطهر يضع راحة كفه ثم يعبر بخشية وجلال منحنياً بقامته ورأسه تحت قوس الطحين . تتممات وأدعية تنطلق من أعماق السلالة التي تودع طفلها . أقسم بهذا المقدس وبهذه النعمة أن أكون وفيأً وألا أنسى في الغربة البعيدة رائحة البيت والارض والخبز وصلوات الأجداد والحليب والدم وصرخة الحسين وهو يذبح بسيف الشمر . ويقول له صوت غريب ، قوي ، صلب ، ينهر الدمع : كن شجاعاً ولا تُطل الغياب . انتبه لنفسك في بلاد الغرباء . ويكتلو عليه همساً : قل لن يصيّبكم إلا ماكتب الله لكم . وكما يحدث في حفل تراجيدي غامر بالرعب والنار والحب تنطلق الزغردات مع النحيب . أصوات الأمهات والعمات والأخوات والصديقات النادبات في احتفال خروج مهدي جواد مع أصدقائه الهاربين تلك الليلة التي امتحن قمرها ثم انغر صداتها في عمق الليل الغارق في مهرجان من الفزع ورائحة القتل العميم .

من نافذة السيارة الخاصة رأى السهوب القاحلة . فكر بأن هذا الانفصال ربما كان ضروريأً لاستنشاق هواء غير ملوث .

عندما اقترب من مستنقعات الأهوار دهم مهدي دوار . طيوف من الضوء والنار والدم والاصوات ، هجمت السيارة تخترق المستنقعات . قصب البردي والغرب هادئ . مهدي جواد اجتاحه حزن جارح .

هنا ماتوا .

كان يفرّ الآن من أرض الجحيم . جواز سفره ممزوج ، ورأسه مليء بشظايا حلم تبدد ، وبالاصوات :

زمانك انتهى بين فراراتك واحتباءاتك في أوكرار بغداد والبصرة والعمارة والحلة والناصرية ، وبين مقبرة الھور التي كفت أطفالها بطحالب الماء .

ومن البصرة إلى بونه ، بدأ الرحلة طيران حمامنة بيضاء ، داخل حلم غامض فوق خريطة بلون الدم والهزيمة .  
أخيراً ، هو ذا مهدي جواد ينجو بجلده من طقوس المذبحة .

الغرفة التي سكنها وسط المدينة كانت شبه عارية . احتوت سريراً قديماً وخزانة حائط وكرسيين من خشب ، وطاولة .

كان قد أمضى أكثر من شهرين في فنادق الدرجة الرابعة . ينام في التاسعة وينهض في السابعة . إدارة الفندق لم تكن تسمح بالتأخر ليلًا ، وكان على الغرباء الانصياع للأوامر والقوانين دونما مناقشة .

يوم انتقاله إلى غرفته الجديدة أحس بفرح رغم إرشادات الحاج محمد الذي زار بيت الله ثلاث مرات : لا ضوضاء . من نوع السهر الطويل . لاخمرة . احذر إدخال النساء . نحن قوم شرفاء لأنوئجر إلا الشرفاء . أنتم شيوخ جئتكم من أرض الانبياء والرسل لتعليم أطفالنا القرآن ويتقوى الله والسير على الصراط المستقيم .

كان الحاج يتحدث بلغة فصحى . ثم بانسياب تلقائي راح يسرد حياته الخاصة .

علاقاته ببار التجار والمحافظ وبقية المسؤولين في بونه عرج بعدها على التقوى والأمر بالمعرفة والأشعة النورانية القادمة من الحجاز ومكة ، وغبطته الصوفية بزيارة قبر النبي « صلعم » .

مهدي جواد غفا على ترنيمات الشيخ المأذوذ بوهج دينه العظيم الذي امتد إلى المشارق والمغارب مطهراً الأرض من أرجاسها وخطاياها الجسيمة . عندما استيقظ كان الحاج قد خرج مع رسليه وتقواه .

قال وهو ينهض متوجهًا نحو الشرفة : لا بد أن بلاد المسلمين نسخة طبق الأصل ، وجفيع مدن العرب تحمل اسمًا حركياً للسيدة المقدسة : مكة المكرمة .

\* \* \*

لقاء الغروب كان غريباً . بغتة تلك الفتاة . أمام بوابة ثانوية القدس اوغسطين : مساء الخير . قالتها بالفرنسية . صديقتي تلميذة عندك وهي التي حدثتني عنك . شجعتني أن أعرض عليك إعطائي درساً في العربية . واه . ياللصدمة المباغطة ! قال شيء في أعماقه . ارتباكه ظهر في رجفة عينيه واهتزاز الحقيقة التي كان يحضنها كتلميذ هو الآخر . ولم يكن هناك وقت لاستيعاب الصدمة العذبة : ولكن أين ؟  
- في بيتنا . قالت الفتاة الطويلة الصلبة البيضاء ذات الشعر المذهب .

- ذلك ممكн ؟

- ولماذا ؟ قالتها بالفرنسية .

- لا . لا لشيء . كنت أعتقد أن في الأمر صعوبة ما .

عفوية هذه الطفلة وابتهاجها المفاجئ كزهرة عباد شمس ، أو حيا إليه أنها ربما كانت غريبة عن المدينة . لابد أنها ليست عربية وتعيش وحيدة مع أمها أو جدتها الفرنسية .

حوارهما كان قصيراً ، ملجلجاً . وهي تهم بالمعافرة قالت : في بيتنا أو بيتك لافرق . صديقتي ترشدك ، وإذا شئت آتنيك .

بصعوبة لغوية شرحت الأمر ، وبصعوبة خارقة حاول أن يستوعب ما حدث .

ومن المدرسة إلى ساحة المدينة تموجت صورة الفتاة طيفاً أو ضربة شمس . أ تكون هي تلك التي هجس بها وهماً قبل أن يغادر . الحدس الذي ينسجه خيال الشوق إلى امرأة تنتظرك في مكان ما من العالم . امرأة الحلم والصدمة التي تباغتك كجنبية بحر ذات غسق ، تأخذك فتبحران في لجة الليل والقمر والعواصف والموت .

ولكن كيف حدث ذلك أيها الرجل الملعون ! أيها اللاشء العائم والفائض عن حاجة العالم . هذه اليقظة وهذا الشيء الصلب !

كانوا في المدرسة والمدينة يحكون أموراً غريبة ، وفزعـة ، وكئيبة عن المدينة والبشر . أسانذـة الشرق الذين سبقوه وعرفوا المدينة أكثر . كنـ حذراً . المدينة شرسـة وفـظـة . لـانتـأـخـرـ لـيلـاً . الـبـونـيـونـ لاـيـحـبـونـ الغـرـباءـ . وـلـأنـفـهـ سـبـبـ يـسـرـقـونـكـ أـوـ يـذـبـحـونـكـ . أـوـ هـامـ الثـورـةـ اـنـتـهـتـ وـهـؤـلـاءـ الـأـفـارـقـةـ مـتوـحـشـونـ . مـغـلـقـونـ كـالـحـجـارـةـ . بلـ زـمـيـتـ يـحـكـمـهـ الـدـينـ وـالـشـرـطةـ وـعـصـابـاتـ آخرـ اللـيلـ التـيـ تـغـتصـبـ وـتـقـتـلـ مـنـ أـجـلـ دـيـنـارـ .

هـكـذـاـ تـحـدـثـواـ باـسـتـعـلـاءـ وـلـؤـمـ وـاحـتـقـارـ . كـذـكـ ثـرـثـرـواـ عنـ الـمـالـ وـالـنـسـاءـ الـمـوـمـسـاتـ وـعـمـلـيـاتـ التـهـرـيبـ ، وـفـيـ غـمـرـةـ سـذاـجـتـهـ وـجـهـلـهـ لـأـسـرـارـ الـمـدـيـنـةـ اـسـتـبـدـلـوـاـ مـنـهـ بـعـضـ الدـوـلـارـاتـ عـلـىـ نـحـوـ خـارـجـعـ .

في الأيام الأولى كان خائفاً وغربياً ومذهولاً ، داخل المدينة الخارجية حديثاً من ليل الاستعمار الطويل . المدينة التي تحولت إلى مصيدة وسوق لأنبياء الشرق والتعريب القادمين من مطالع الشمس المحمدية .

## - 4 -

عندما التقى صاحب مهيار الباهلي : الله بالخير . ياللشيطان أنت هنا ؟ لم يخبروني . أية كواكب إبليسية قدفت بك إلى هذه الأصقاع ؟ بهذه الطريقة الاحتفالية تعانقا . لقد قدم المدينة بعد شهرين من افتتاح المدارس .

إثر العناق الحار قال مهدي جواد بابتهاج تهريجي : ها قد التقينا أخيراً لِنُطَعِّمُ المغرب بلوثة الماركسية . أنتم في الأيديولوجيا والفلسفة ونحن في اللغة .

في المقهى بدا مهيار مبتهجاً . كان مسحوراً لأنه هنا .

وهو يرشف القهوة ويدخن ، تلمع عيناه بوضوء حاد يقول : نحن الآن في الأرض المقدسة . هذه هي الأرض التي فاجأ العرب أنفسهم فيها بالثورة .

ثورة المليون شهيد يارجل . عندما هبطت من الطائرة ركعت فوق أرض المطار ولثمت التراب .

ويوضح مهدي : باهي . مازلت على حماستك القديمة . ولكن قل لي : وأنت تقبل التراب هل تأكدت من أن رائحة الدم لم تكن عطنة ؟

- دعك من هذا اللمز . دعك . سنزور يوماً أضরحة الثوار ومواقع المعارك . أقول لك : جزائر الثورة منارة مشعة في ليل هذا الذل العربي . ثم يضيف : أنا فرح ك طفل افتقد أمه ثم لقيها بعد غياب . تصوّر أنني في قلب أصداء الثورة . أولاً عيّلوني في معهد أبناء الشهداء . ثانياً وجدت بيّتاً لدى أرملة عاشت في الجبال مع الثوار . كانت مع طاهر الزبيري بالذات .

أردف مهدي جواد ساخراً : ثالثاً . لاكمال طهارتكم الثورية أرى أن تتزوج من هذه الأرملة المناضلة . هكذا تحقق حلم الوحدة الثوري .

من نافذة مقهى «المغرب» يظهر القسم الغربي من ساحة المدينة . هناك لمعت الشمس فوق المقاعد الحجرية وبين الأوراق ، ممددة كهرة بيضاء .

يندفع مهيار بالأسئلة : وضع العراقيين . البعثات العربية . المجتمع الجزائري . الثقافة . لا يترك فسحة طويلة للأجوبة . أحياناً يجيب نفسه . إنه يشرح الخلاف داخل الثورة وصراع السلطة الذي أطاح

بين بيللا . يلوح معجباً بهذا الثوري المطاح به غداً : بن بيللا أبو الاشتراكية . أنا أرى فيه كاسترو العرب . أعني كنت أتوسم تحوله نحو الماركسية . بومدين هذا لا يوثق به . عسكري ، إقليمي . رأس إسلامي وجناح أفريقي أما قلبه فجزائري . وفي المناسبات يلبس بزة عربية . أنا أتحدى طبعاً عن السلطة . أما الشعب فمعجزة . لقد هزم حلف الأطلسي يارجل . تصوّر !

وهو يتحدث ، تشيل عيناه نحو الأعلى مواكباً خيوله الجامحة بين دخان سجائمه . مهدي جواد يقول في سره : كعادته هاهو ذا صاحبنا يحلق .

- لم تزالك أشعة القديسين . أنا خائف على حماستك أن تخمد .

- علينا أن نكون هكذا في هذه الأزمنة .

- ولكن لماذا تطرح الأمور كلها مرة واحدة ؟ لديك وقت طويل لترى بوضوح أكثر . الثورة والبشر هنا أكثر تعقيداً مما تتصور . الناس في المعركة شيء وما بعدها شيء آخر . تمهل قليلاً يا أخي !

- ينبغي أن نبحث عن كيفية الاتصال بالثوريين . أنا أعرف أن حزب الطليعة الممنوع يعمل سراً هنا !

قال مهدي جواد : يبدو أن رأسك مليء بذكريات ونوايا حسنة . بعد وقت ليس بالقصير ستقول كما قال البيير كامو : معهم أنا مجهول ولأخرج من غربتي أذهب لأحدق في البحر .

- لا . ليس الأمر هكذا . كامو كان محابياً لأنه فرنسي .

- لكن الذين تحلم بهم تحولوا إلى مايشبه المستحاثات التي تحجرت . الإرهاب حجرهم . هنا البشر كتيمون كجبيل من جرانيت . فيما بعد تقرأ الذعر في الوجوه . قبلك حاولت اختراق الصليب . محال .

- لماذا ؟

- وجفون لا يتحققون بأحد بعد شتاهم . الثورة دخلت عصر الحيض وأصدقاؤك الوهبيون في باريس وأوروبا الآن .

- أوروبا ! ما الذي يفعلونه هناك ؟

- يبدو أنهم نقلوا مشروع ثورتهم إلى باريس . أقاموا هناك نوعاً من «رابطة العادلين أو المنفيين» إسوة بشيوعي القرن التاسع عشر بعد فشل الثورة الألمانية وقدوم بسمارك .

- غريب !

لما فاه بعبارة : ولكن المعركة هنا ! بدا معتكراً كسماء غائمة .  
أشعل سيجارة من أخرى وطلب أيضاً قهوة سوداء . وتنهد .  
رجب مهدي جواد أن يقول بأن عصر الهروب تشرق شمسه من  
الشرق والغرب .  
لكن مهيار الباهلي قطب حاجبيه وقال باحتفالية : اوه . ياله من  
أمر محزن !

- 5 -

وكان رجلاً مصاباً بلوثة الحروب . مثقف مسحور ببلانكي ومجد  
الكومونة والإغارة على سانتا كلارا . السلاح . السلاح . من يملك  
كلمة الله على الأرض . حفنة من الرجال الصلب الشجعان تتضخ التاريخ  
على قدميه . هكذا بدأ محمد ثم علي بن محمد في سواد البصرة ثم أبو  
طاهر القرمطي وتشي غيفارا ثم مهيار الباهلي . وكان بصراويحاً من سلالة  
الفرات الأوسط والباهليين القدامى والحسين بن علي . السلالة التي حملت  
دمها على كفها وكفتها الأبيض فوق جسدها وسارت إلى حتفها فلم  
ينتصر سوى موتها . ويوم خاض مع خالد أحمد زكي ومجموعة الأهوار  
حرب العصابات الخاسرة ، كان يتواهم أنه يواصل ميراث الخسائر  
الدامية والأ茅ولات التي تترافق لتتشكل ذات صباح أو مساء الصرخة التي  
تحتزنها القرون القديمة لتدوي في القرن العشرين أو الثلاثين أو  
الخمسين ، هادمة جدران زمن الاستبداد والجوع والإبادة الجماعية  
لشعوب قهرت واستذلت ثم ما لبثت أن دفنت تحت السطوة الوحشية للخلفاء  
والأمراء الخلقاء والجرايات الدمى والأحزاب المستذلة والراكعة .

هكذا كان يحلم أو يتواهم وهو يقاتل ويُسجن ويتحدث . مهيار  
الباهلي الرجل التحيل ، الصلب ، المأخوذ بمطاردات تاريخية ورؤى تشبه  
رؤى القديسين أو المجانين ، في العصر الذي لم يكن عصره ، لحظة كان  
الصيادون يرون بدقة لامتناهية طيور رأسه الخضراء والبيضاء فيطلقون  
عليها بلا رحمة لتتساقط مضرجة بدمائها فوق البحيرات وفوق العشب ،  
لكنه يظل مطبقاً عينيه أبداً ليستولد طيوراً جديدة بأجنحة قوية يطلاقها في  
الظلمة العربية الدامسة . طيور تخفق ، وهي تعرف أنها ستموت الآن أو  
في الفجر القادم ، وهو لا يستطيع أن يرتاح أو يتوقف عن الحلم - الموت

الذى اتشحه مدركاً في السر العميق أن قلوبهم معه وسيوفهم عليه إذ ناخ عليهم الدهر - السيف ، الدهر - المال ، الدهر - الفزع ، فهووا فريسة دهر السلطة الدموية التي تقول كونوا كما أريد أن تكونوا فكانوا ، بلا قيمة إلى يومبعث والنشور .

\* \* \*

الدرس التمهيدى بدأ في بيت آسيا الاخضر . ذلك البيت - المسرح لكل أحداث بونه وتجليات الزمن المضاء والمعتم .

منذ الوهلة الأولى بدأ إحباط اللغة . فتاة تلفظ العربية وتكتبها كالأطفال . وفكرة مهدي بهذه الورطة اللعينة وهو يحاول تعليمها بداية النطق الصائب والقواعد الأولى للكتابة .

كان خطها رديئاً وغير مقروء . وهو يحاول تصويب الخط لمح أصابعها المصقوله والطويلة .

مرتبكة ، لكن إصرارها كان واضحاً . وإذا سألته إن كان هناك من أمل قال بعناد : بلـى . لفظها بالفرنسية . وسألته إن كان يعرف الفرنسية فقال : أعرف مفردات قليلة . وقالت : حسن هذا سيساعدني كثيراً . ثم أردفت ببحة خجلـى : أنا حزينة لأنني أجهل لغتي . أنت تعرف أنهم نفونا عنها منذ الطفولة .

- أعرف .

في فسحة الاستراحة بدأ حوارهما حول الحالة اللغوية وصعوبة التفاهم بين العرب المشارقة والجزائريين . وسألها إن كانت تقرأ أدباً باللغة الفرنسية ، فقالت بأنها قرأت «الغريب» لكامو ورواية مالك حداد «سأهديك غزالـة» كما قرأت الأحمر والأسود لستاندال والشرط الانساني لمالرو . سألهـى إن كانوا مترجمين للعربية ، وعندما قال بأن مالك حداد يشعر بأن الفرنسية منفاه قالت : إنها منفانا جميعاً نحن العرب الجزائريـين .

واستطردت مدھوشـة : هل قرأت مالك حداد ؟

وقال : مترجمـاً إلى العربية !

على هامش الدرس الخاص ، كانت الفتاة تطرح أسئلة عامة ، ذكية حيناً وطفولية حيناً آخر . أسئلة تتراوح بين الشخصي والعام بين العقل والفطرة . سيول من الأسئلة الغربية :

ما الفرق بين العرب والإسلام؟ هل الأنبياء مرسلون حقاً من الآلهة أم خرجوا من الأرض؟ كيف كلام الله موسى، وهل عرج محمد فعلاً إلى السماء كما تقول كتب الدين؟ وإذا ما صعد الإنسان إلى القمر ما الذي يبقى من الأديان والآلهة؟ أنت لماذا أتيت إلى بونه؟ ما الذي تحب وماذا تكره في حياتك؟ مارأيك بتحرر المرأة؟ هل تهوى المغامرة في الحياة؟ معلوماتها عن الشرق والعرب كانت ساذجة، مشوّشة.

هل حقاً ت يريد أن تفهم وهي تسأل أم أنها تتسلى بالوقت؟ في الأيام الأولى لم يأخذ أسئلتها بجدية. كان يجب باقتضاب وأحياناً بلا مبالاة. وأحياناً بتواطؤ.

عندما سالت بالحاج إن كان للعرب حضارة كالأوروبيين، سأّلها ما الذي كانوا يقولونه لكم قبل الاستقلال.

- فرنسا أم الحضارة والحرية.

- ولكن أي فرنسا منها. ماشوا أم فولتير؟  
باغتها المفارقة.

وقال مهدي جواد بأنهم لم يكونوا عادلين على ما يبدو. لابد أنهم حدثوكم كثيراً عن حماسة البدو وتاريخ الرعاة والفتحات الهمجية. هكذا كانوا يسمون عقولكم. وهكذا نسوا في غمرة انتصاراتهم ماذا صدرّوا للعرب. غير أننا نعرف جيداً أنه لا بودلير ولا روسي ولا مالرو هم الذين قدموا إلى هنا.

كانت الفتاة تستمع وهي تخط على الورق خطوطاً وإشارات.  
ورأى مارسمت. الشكل كان يشبه زورقاً أو سمكة. وبدأت على نحو تلقائي تطوق الشكل بدواائر لولبية كالنابض. وسأّلها مهدي جواد ماذا ترسم فقالت: الجزائر.

- 6 -

وهما الناجياني أو الهاربان على ماتقول اللوائح الشخصية والمسافة عن البلد الذي وقع تحت وطأة الزمن العسكري.  
الوطن إذن؟ آه. ياللشقاء.

ولكن من الذي أوصل هذا البائس إلى مضائقه المسدودة فوضعه لقمة سائفة بين أننياب ابن أبي ضبيعة الكلبي سليل هرمونات القتل

## والتناسل والبكتيريا القومية ؟

وفي بونه الساحات والمقاهي والشوارع وشواطئ البحر ، كان التأثير العميق ينحو إلى التبرئة . فالهجوم على المحور الرئيسي كان يشير إلى قيادة الحزب اليمينية والمتواطئة والتي راهنت على انقلاب 14 تموز والزعيم الأوحد والتطور اللارأسمالي .

غير أن الأمر كان يتجاوز ذلك . وعلى مدى عام كانت محصلة الحوار أكثر خطورة ، وأعمق دلالة من هذا الذي طفا أخيراً على السطح ، فأطاح بحزب كان يحرك مئات الآلاف في اللحظات الحرجة ، والذي تأبهى ، أكثر من مرة خلال النزوع الأخلاقي للسياسة ، أن يستولي على السلطة ! أوه يالكلمة الرؤوفة والساخرة !

أبداً . بل بقسوة : هو الجبن وشلل الإرادة الذاتية والخط الأعرج . ويوم كان الانقسام على أشدّه والحزب يعبر شتاته : موته أو حياته ، كان الباهلي مع رهان السلاح وكان مهدي جواد يدعو للتنسيق بين حرب المدن والأرياف .

لكن كل شيء كان يبدو وكأنه يأتي بعد فوات الأولان ، ذلك أن اللحظات التي يُختطف فيها التاريخ لصالح القوى الجديرة بالحياة كانت قد مضت إلى غير رجعة .

وفي ذلك الزمن لم يكن الرهان على إدراة بوصلة الوقت ، إنما كان رهاناً على إنقاذ ما يمكن إنقاذه في برهة انفلات المبادرة ودخول شمس العراق تحت الخسوف الرمادي ، حيث لن يعرف لا الحزب ولا الرب متى ستشرق الشمس من جديد .

من أجل ذلك حدث ما حدث ، من الانقسام إلى انتفاضات النزع ثم الهروب للحفاظ على بذرة النوع والبقاء .

وفي تلك الحقبة لم تكن هناك خرائط براءات أو مساومات . انقسم الناس داخل الحزب وخارجـه ، فاستنشاط الثوريون واتهموا القيادة بالتخاذل والتواطؤ ، وعلا الحديث عن الانشقاق وراح الخط التاريخي للرهان على البورجوازية الديمقراطية يُقصَف بالتهم والخيانات والانخذال .

وفي تلك الآونة كان رأس الحزب هو المطلوب . رأس يوحنا المعمدان الذي تريده سالومي عاهرة القيسـر .

و يوم كانوا ينشقون ويصرخون ويتهمن و يذهبون إلى الموت  
المحقق ، كان الجنرال الكلي القدرة يوطد سلطته من خلال حلفه التاريخي  
مع العسكر وأعوان رأس المال و رجال الدين والتقطير الشوفيني للسم  
القومي : هاي . هتلر ، هاي كريم ، هاي عارف ، وسائل الهابطات التي  
ستأتي و تصرخ بصوت طاغ :

الله - الأسرة - العشيرة - الطائفة - الملك . أنا الله على الأرض . أنا  
الشعب . ويومذاك ستتصدر الأوامر في كل أرجاء البلاد : من دخل بيت  
الجنرال أب الشعب جميعه فهو آمن ، ومن دخل بيته الخاص وانزوى فهو  
آمن . أما من دخل بيت الحزب فالوطن في حل من دمه المهدور .  
ومن يومها ابتدأ شهيد و زفير الدم الذي سيستمر إلى يوم الدينونة .

## - 7 -

- أنت لم تقاس من الجراح كما قاسيينا . في كل بيت لا يزال الدم  
ينزف .

مزج طفولي ناضج . يتذبذب بإضاءة شمس تخترق سحاباً كثيفاً .  
هكذا يبدو الوجه السري لفتاة لاتتقن اللغة على ما يبدو ، لكنها تحس نبض  
الحياة وما جرى لقومها خارج نطاق اللغة .

وفي الأعماق يبدو أن موت الأب ترك ندبة . شعور شفاف بفقدان  
الأمن و فقدان الثقة بالحماية .

سي العربي كان الملاذ والمثال ، وكان الوطن . بعد أن استشهد في  
معارك حرب التحرير ، فقدت الطفلة دفعة التوازن مع العالم .

إن جرحها يشتعل إذ ينطلق الحديث عن الحرب والثورة . عن الوجه  
العفوي ، العاري كسبه ، تنحسر أشعة الطفولة . تردد موجات البحر نحو  
أعماقها عائدة إلى مركز الإعصار الأول .

ذات فجر دموي هو المثال مرة واحدة ، فتصدع بيت سي لخضر ،  
ومنذ تلك اللحظة هجرته طيور الغبطة .

الآن يعرف مهدي جواد اتجاه الريح . لكنه عاجز عن إيقاف دفق  
الألم .

إنه يقول لفتاة المفجوعة شيئاً عن الألم الجماعي . شيء غامض  
تكتنفه سود عصبية على الهدم . وهو يتحدث يشعر بالحاجة إلى تفاصيل

ووقيع . غير أن هذا ولسبب ما ، يبدو سخيفاً وخارجياً عن نطاق الدرس .

مملكة الجراح أكثر اتساعاً وعمقاً مما تتصورين . يقول أو يه jes لنفسه .

الدرس هو المهم في هذه اللحظة . وهذه الفتاة لا بد أن تنجح . على هامش هذا النهر تجري مياه كثيرة . أنهار وبحار عصف بها المد والجزر في أزمنة مضت .

وفي غرفة مهدي جواد وبيت آسيا لخضر ، كان الدرس الخاص يسير في مجراه . وفي مجرى الدرس كانت تنامي بينهما صداقة خاصة .

برغم يتفتح في جو عاصف ، كان ينمو بهدوء وتصميم وتوجس .  
- أشعر بتحسن . فيما مضى كانت العربية وغرة . الآن أحبها .  
- حسن .

وسائل بفتحة : عندما أستطيع الحديث جيداً بالعربية هل سأتغير ؟  
- ماذا تعنين بالتغيير ؟

- هل أصبح عربية التفكير ؟ عفوأ . ماقصدت هذا . عنيت : هل أصبح بصيرة أعرف نفسي والآخرين جيداً ؟  
بصعوبة أو صحت فكرتها التي ظلت غامضة .

قال مهدي : مؤكـد . النطق لا يكفي . عندما تعتادين التفكير بالعربية يمكن أن يحدث تغيير في إدراك بعض المسائل الخاصة .

- الحق أقول لك : أنا لم أفهم ماذا عنيت تماماً !  
وادركت الفتاة عبر محاكمة سريعة أنها لم تحسن التعبير عن فكرتها .

أحسـت بالمسافة . شيء ما في مكان بعيد كان يفصلها عما تبني .  
بدا الأمر جارحاً على نحو ما .

وقالت الفتاة : لا أدرى لماذا أشعر بأنني منقسمة .  
وداهم مهدي جواد إحساس جارف بالألم .  
وتتساءل في غمرة المد والجزر كيف قسمهم الغزاوة وكيف عزلوهـم عن سياق نموـهم .

نهضت حالة انكسار . مرأة علاها صدأ . كل منها كان يرى سطح الآخر . وكانا راغبين في النفاذ إلى ماوراء السطوح . ووراء جدار اللغة تراءى آخر مستتر : الزمن الشبيه بصاعقة تشق الصخر إلى نصفين .

كان هذا الوشم الغريب ، القابض للقلب ، يكشف البصيرة ويحجب المدى ، مكتفأ في لحظة مريرة ، الوضع الشخصي لرجل وامرأة يعبران غربة تاريخية عارضة .

\* \* \*

في المساء سجل مهدي جواد يومياته : « هنا لا أحسن التفكير كما ينبغي . اختلاط غريب في الأشياء . يبدو أنني أعيش حالة عوم فوق سطح المدينة . ولكنني مسحور بهذا الغموض الكامن خلف سذاجة الأشياء . أفريقيا لغز أخاز ، مخاتل كامرأة ، وبونه ساحرة وشرسة ببئرها وشجرها الناهض ، وبهذا الدفق الشمسي للطقس والبشر .

أن تكون حراً ، ليس هذا كافياً للسير فوق خط مستقيم . إن خطوط الآخرين تبدو منكسرة أو منحنية ، والمنفى هو السير على خط آخر للحفاظ على التوازن . لماذا هذه الغربة اللعينة في خضاب الدم !

ينبغي التأكد ، دونما اندفاع مع أمواج الرغبة ، فيما إذا كانت آسيا لخضر تشكل ميلاً في حركة اتجاه البوصلة .

\* \* \*

الطرقات على الباب كانت عنيفة غروب ذلك اليوم . توجست آسيا . سالت بعينيها وظلال وجهها . همس مهدي : ربما كان مهيار . هل نفتح ؟ ورفعت الفتاة رأسها نفيا . بعد صمت قصير توالى الدقات أكثر عنفا . بينهما اعتقلت الكلمات . بدأ التوجُّس يتحول إلى وحش يداهم . بين الغضب والخوف قال مهدي : لنفتح الباب ! وضفت الفتاة كفها على فمه : اصمت !

وتواجهت العيون . زوايا حادة ولامعة بدأت تتخاطف .

كان هناك ضوء لامع في العيون يتكسر ويختبئ . وأحسن مهدي جواد مرة أخرى بان هناك شيئاً قذراً يرتدي قناع الخطر . وقال لنفسه : أَفَ . يالبلاد العرب المليئة بكل أصناف الكلاب !

الآن هم خلف الباب . ومرَّ العراق كسهم مُراش بالنار .  
وقال وهو يضغط أسنانه : لو تحت قبضتك صندوق من القنابل  
اليدوية .

وللمرة الأولى امتدت راحة كفه نحو صدر آسيا تجس نبضها .  
خفقان القلب يكاد يثُب فوق الثوب . كان النبض يرتفع ليملأ الغرفة داخل  
صمت يرتعش . ورأى وجهها الشبيه بزهرة عيَّار شمس . وجه مخطوف  
بالفزع .

وارتفع الطرق متواتراً ، عنيفاً كطلقات . وتوجعت آسيا : اوه . إنه  
البوليس . ياللفصيحة !

كانا يجلسان على كرسين متحاورين وأمامهما الكتب والدفاتر  
والأقلام . ولأنهما تباطأ في فتح الباب راح الباب يرتجح كائناً يخلع .  
هونا الطفل يفاجأ لأول مرة في حالة متلبسة . بدت آسيا لخضراء  
كائناً تنازع تحت طعنات خنجر . لون وجهها تحول إلى بياض ، وببطء  
كان الدم يسحب منه .

وهي تهوي برأسها فوق كتف مهدي تراءت كمن يغوص داخل قبر .  
- آي . يايوما ! وشهقت .

وبحركة اندفاعية تخلص من كفها المتشبثة بذراعه . وثبت عن  
الكرسي فصار أمام الباب . صرخ بصوت وحشي مزق الصمت والخوف :  
من ؟

وهو يحل رتاج الباب بعنف مضطرب كانت المدية في يده : البوليس  
هو البوليس دائمًا . ماعداد هناك مايخسر . كان يرتد إلى زمن آخر .  
على العتبة فوجيء بوجه الحاج محمد . لحيته المزروعة بالبياض  
كانت ترتجف ووجهه الأصفر ينضح حقداً : أهـ . ياللخراء أهـ أنت ؟

- لماذا لم تفتح ؟

- لماذا لم تتكلم ؟

- ما الذي تفعلينه هنا ؟ وجهه الكلبي كان يمتد فوق كتف مهدي نحو  
آسيا .

- اسمع . اسمع . خطقه وعبر به العتبة وقدف به إلى الخارج وهم  
يغلق الباب :

- تكلم معـي . إنها تلميذـتي وهذه غرفـتي وـنحن لـانـ فعل منـكـراً .

فهمت؟

- تلميذتك! هاه . هاه . اسمع ياشيخ أنا لست غبياً . أعرف مثل هذه الخدائع . كما اعرف هذا النوع من الطفلات .

كان الباب موارباً وكانت آسيا تسمع . فجأة قدمت . اقتربت من الحاج وجذبته نحو الداخل . هزته بكتفه : حل عينيك جيداً . أنا لست منهن . هذا أستاذي وهو يأتي علينا كواحد من أهل البيت . إذا كان رأسك مليئاً بالأحماض والميكروبات فنحن أناس أنقياء وشرفاء . إسأل عن عائلة سي العربي لخضر إذا كنت لا تعرفها . بونه تعرف من نحن . فهمت؟

الحاج محمد الملئ كرشه بنور الله وتقواه هرّ رأسه ساخراً :  
أنا أعرفك . يومياً أراك معهم في ساحة المدينة . هيhe . طفلات آخر زمان . بنات الشيطان . أعود بالله . سترك يارب !

صدمت آسيا . لكانما مشئها تيار كهربائي فعلا صوتها : أنت حاج  
تقول أنك زرت الكعبة وبيت النبي ثم تكذب . لا تخجل !؟

وبحقن صاح الحاج : هذه الثرثرة لا تفييك . هيا . هيا معي إلى  
البوليس لنرى هناك من الصادق ومن الكاذب . أنت ياشيخ أبق هنا . أما  
هذه الأبلية فتأتي معي .

- لا . لن نتحرك من هنا . اذهب وحدك واحضر البوليس .  
كان الغروب يتمطى داخل الغرفة بطلاله الصفراء . تحت هذه الظلal  
انعقدت محكمة الرجل الذي شعر بانثالام دينه .

بدأ الحاج محمد مهاناً . لقد دنس بيته بتجاوزه امرأة مع رجل غير  
متزوجين بشرعية الرسول . هدر رعد صوته المتنقم :  
اسمع . على الغرباء ألا يرفعوا أصواتهم في بلادنا . ذلك أفضل  
لهم . فهمت ! أنت هنا للنور لا للنار . يزيينا خماج من أعداء الله .

الجملة الأخيرة حملت تهديداً . وفي أعماق الرجل الغريب المدعو  
مهدي جواد ، تحرك شعور غامض . إحساس بالعربي والوحشة وفقدان  
الأمن .

غثيان اختلط برغبة عاصفة في الصراخ والطعن : أن يقتل هذا  
الخنزير ويقذف به من الطابق الرابع .

وقال بهدوء ساخن : امهلنني إلى الغد وسأخرج من غرفتك .  
- بلى . بلى . عليك أن تخرج حالاً وإلا خرجت بالسيف . أفهمت؟

أمسك مهدي بذراع آسيا : هيأ إلى بيتك .  
 اضطرب الحاج . ببربر صوته كلمات محلية مختلطة .  
 - هل تريد أن تذهب معنا لنشرح الأمر هناك ؟  
 كان الوقت متاخراً . ومن البيوت خرج الجيران يستطاعون  
 الفضيحة .

الحاج محمد زائر مهد رسول الله وعاشق كعبته ، بدا بائساً تحت ذلك الغروب الكابي . كان مرتبكاً يتعثر باختلالات عقله وأسئلة الجيران الذين خرجوا ، وبالدمدمات الأخلاقية التي يطلقها ذهنه الملئ بالأموال والصلوات والكتب الجنسية .

- 8 -

فلة بو عناب .

يقول مهيار مارايك أن تتعرف عليها ! ثم يضيف :  
 امرأة غريبة . مزيج مستهترة مع مناضلة خائبة . امرأة حرة .  
 ويسأله مهدي جواد : عمن تتحدث ؟ فيقول مهيار : عن المرأة التي  
 أسكن عندها يارجل . هل نسيت ؟  
 - لا . ولكن ما المناسبة ؟

- إنسانة مبهمة . عاشت حياة مثيرة وغنية خلال الحرب . قضت  
 فترة مع قيادة الجيل إلى جانب الزبيري . وقد حدثتها عنك .  
 - وكالعادة نفختني كبالون .  
 - باللون مثقوب .

تعلو ضحكتهما وهما يعبران ساحة بونه الظلليلة .  
 يعلق مهدي جواد وهو يثبت كذكر الماعز نحو أوراق الشجر :  
 مهيار . يخيل إلي أن ماسيبيقى من هذه المدينة : هذه الساحة . إنها هنا  
 في القلب . واحة مقدسة هل تراها مثلي ؟  
 يضحك مهيار الباهلي غامزاً بعينه : معلوم عيني . مفهوم . المرفأ  
 الآسيوي .

- أبداً . بل تذكرني بحدائق شط العرب وشجر البصرة .  
 بيت فلة بو عناب في الطابق الأول من شارع عبّان رمضان . تفتح

الباب امرأة نحيلة . في وجهها قسوة وشحوب . صدر ضامر : أهلاً .  
أهلاً . مهدي جواد . هل أنا مخطئة يامهيار ؟  
- هو بعينه . ذئب ليالي بونه المتوحد .

- لا . لا يامهيار أنت تظلمه . بل قل عاشقها العامري !

هكذا بلا مقدمات ، تهدم هذه المرأة الجدران بمثل هذه الفجاءة .  
يجتازان ممرا طويلا . تقودهما المرأة نحو صالون واسع . بلاط  
نظيف تغطيه البسط وبعض الطنافس القديمة . ديوان مغطى بشرشف  
زهري . مدفأة الجدار عليها مزهرية وضع فيها ورد اصطناعي علاه  
غبار . على الجدار علق سيفان صغيران تحتهما طبق نحاسي مغربي  
أصفر . الجدار المقابل تزيينه سجادة حائط . لوحة صيد تقليدية لمنور  
مذعورة يطلق عليها النار بدو فوق جياد رامحة .

أعلى الديوان صورة داخل إطار لمقاتلين بينهم امرأة بثياب القتال .

- هذا أنت ؟

تبتسم بمرارة مستترة : أيام العز .  
كانوا واقفين .

- تفضلوا ارتاحوا . تسأل : مارأيك ياسي مهدي ؟  
نظر اليها سائلاً .

- بالبيت طبعاً !

- جميل وهادئ . أنت محظوظة على مايبدو .

- هذا ماورثته من الثورة . حصيلة عمر ضائع في الريح ياخويا يا  
مهدي .

كانت الآن تجلس فوق البساط الأرضي . ساقاها التفتاً فبرز أعلى  
فخذها الأيمن . فخذ أسمر مناسب . إنها تتصرف بحرية بعيدة عن  
الإثارة .

قالت وهي تشعل سيجارة : شاي أخضر أم عراقي ؟

تطارف مهيار : جائعون . جائعون . ياست الفل .

فلة تدخن بعصبية . تسال مهدي : منذ عامين أنت هنا . لماذا لم  
نرك ؟

وعلق مهيار : غارق في بحيرات العشق .

- ضحك فلة . ظهر فكها العلوي البارز فبدا وجهها كريهاً .
- ما كان هناك وقت . قصدت مناسبة .
- أنا أعرف كل المشرقيين . خاصة العراقيين . هل ما يقال عنك صحيح ؟
- مازا ؟
- أنك منظو . ثم رفعت ذراعيها باسطة راحة كفيها مشيرة إلى العجرفة .
- من يقول ؟
- جماعتك .

وقال مهدي جواد : آ . الموبوؤون ! أنا محайд . عنيت لست اجتماعياً جداً .

وعلقت فلة : غريب ! لما العرب ينهشون لحوم بعضهم بعضاً على هذا النحو المقرف . أتعرف ! لقد تحدثت بهذا المهيار . تصور أنني فتحت لهم بيتي على مصراعيه . نتحدث . نسمع الموسيقى . أحياناً يأتون ومعهم صديقاتهم . نشرب ونرقص . ولكنني لم أنج منهم . فضحوني في المدينة . أشعروا عني : مستهترة وإباحية وصاحبة بانسيون للقوادة . إنني أعرف مدینتي وناسها . عقول صغيرة كعقول الضفادع لا يرون أبعد من أخاذتهم ومعدهم . ومع ذلك لأبالني . أنا امرأة حرة عشت في أوروبا وفي بلاد عربية متحررة . غريب . هؤلاء الشرقيون المتنورون أكثر منا لماذا يتصرفون بمثل هذه الخسفة ؟ يا إلهي كم نحن مخدوعون بهؤلاء الصغار !

كانت تثير شرير بشكل عاصف ومحروم . لابد أنها تناولت شيئاً من النبيذ قبل قدومهما . سأّلها مهيار إن كان عليه أن يخرج ليأتي بالخمر .

- لا . يوجد ما يكفي .

نهض مهيار ليحضر المائدة . وسألتهما إن كانوا يشربان القهوة أولاً . جاء صوت الباهلي من المطبخ : ها . فلة دوختينا بسيرة الشاي والقهوة . هذا المعترض الجاثي قربك سكير محترف . في الصباح يتناول قهوة بالنبيذ ومن الظهيرة إلى الظهرة القادمة يظل مخموراً .

وصاح مهدي : لا . لا . أبداً . فلة أرجوك لاتصدقني هذا المأفون . هو رجل اتهامي . أنا انسان صالح يخشى الخطيبة والآخرة .

ابتهجت فلة بو عناب . بشبق فتحت عينيها السوداويتين وفمها الشهوانى : واضح . واضح هذا في عينيك . أنا أعرف جيداً تقوى العراقيين .

- عندما تحتاجنا نابينا ياسى مهيار . صرخت من الصالون .

واستطردت هامسة : ولكن اسمع . مهيار ليس منهم على مايبدو إلا توافقني ؟ يظهر لي بتقواه وكأنه ولد في صومعة . أشك أنه شرقي وسليل الصحارى الحارة . قالت عبارتها الملغومة عن مهيار وهي تسحق بعصبية سيكارتها .

وقال مهدي : مهيار من العتبات المقدسة . نجفي . هل تعرفين هذا ؟

- نجفي ! مازا يعني ذلك ؟

- هؤلاء ربع عاشوراء . من شدة التكفير والندم والتجریح فقدوا حرارة الجنس . ياللصرخة التي علت من المطبخ ! ضحكا عالياً أكثر . وقال مهيار . أشئ رائحة وشایة . شنو عيني هل بدأت النمية ؟

صاحت فلة : فضحناك يانجفي . ياعاشورائي .

- قابل . قابل مايقوله المعترض . هذا البصراوي اللعين مؤسسة دنس ونميمة . انتبهي . عيني .

جاءت فلة بكأسى نبيذ أحمر من البار الصغير . قدمت لمهدي كأساً ثم رفعت كأسها . نخبك . هو يغسل الخضار والفواكه أما نحن فنجلبى . وشربا : أنا أرى تشابهاً بين طبيعتينا . يخيل إلى أنك رجل حز من الداخل ! فجأة قالت عبارتها الأخيرة بدھشة طفل .

كانت تتحدث بلغة فصحى وبلهجة شرقية . استوضحها فقالت بأنها عاشت زمناً في مصر وذهبت إلى دمشق وحلب مع وفد النساء الجزائريات : كنا نمثل جبهة التحرير إبان الحرب . لم نذهب إلى العراق . كان مايزال رجعياً قبل ثورة الـ 58.

- وكيف ترين العراق الآن ؟

- أفضل مما كان قبل الثورة . نحن نكره الاستعمار . أي نظام وطني يأتي بعد التحرير أفضل رغم سيئاته .  
ها قد بدأت تتحرك في أرجاء البيت . كقطة تشب من الممر إلى

المطبخ فالصالون . تطلق كلمات وصيحات . بدينامية مدهشة تتحرك وكأنها في سن العشرين . فلة بو عناب على أبواب الأربعين ، لكن حركاتها المصطنعة تبدو مع ذلك متقدمة كراقصة باليه . وهي تتب وتنغنى لحناً مصرياً ترتفع تنورتها الزرقاء . فقط تلك المسافة من الركبة حتى الحوض تبدو المثيرة . اسمرار مصقول وشهي . ماتبقى يبدو مجوفاً ، هشاً كفزاعة حقل .

وهي تماماً الكأسين تغمز بعينيها : أنت مغتبط يافندم ؟ يوميء موافقاً . إنها تتحدث بلهجة مصرية غالبة . بعد وقت يكتشف أنها مزيج لهجات وحركات وأخيلة جامحة .

- رغبت أن أبقى في مصر . القاهرة أم الدنيا . أنا عشت المصريين عبادة . ناس طيبون للغاية .

ترفع ذراعيها باستعراض : هناك تعلمت الرقص وهويت التمثيل . صديقاتي وأصدقائي هناك عرفوني على منتج سينمائي .

- منتج أم مخرج ؟  
- لا منتج . هو قدمني للمخرج .

رشاقتها وهذا الهزال في الوجه الغضاري المتسلق بكابته . في مكان ما من هذه المرأة شرخ تحاول ستره . وهي تضحك باستهتار بار . تقول : لماذا تندesh ؟ أنا لم أكن هكذا . كنت جميلة ورشيقة كزهرة . لذلك سموني باسم الوردة . كان هذا قبل خمسة عشر عاماً . هل بامكانك أن تصورني وأنا في الخامسة والعشرين ؟

- هل قلت أنك ذهبت إلى مصر في وفد نساء جبهة التحرير ؟  
- بلى . بلى . ومالو ؟ ياشيخ هناك أوقات للعمل وأوقات للحياة .  
هل أنت طهراني كأخينا مهيار ؟

- لا . ولكن . . أعتقد أنني لم أفهم عليك جيداً .  
- كان هناك اقتراح أن يبقى قسم من الوفد ممثلاً دائماً للثورة . أنا كنت مع من سيبقى .

- مانوع الفيلم الذي كنت ستمثلين فيه ؟  
- عن الثورة الجزائرية طبعاً .

مهيار نادى من المطبخ : هيا . هيا . جهزت الخضار والكؤوس .  
صاحت فلة ضاحكة : ايه . لاتنس الحساء .

وأضافت : كل مساء لابد أن يتناول بورمة حساء . هذا القس .

- لتعاونه .

ونهضا إلى المطبخ .

- آه . يا عزيزي مهيار أنت لا تعرف إشعال الغاز ومع ذلك تتنطع لتحضير المائدة . مهدي لماذا لا تزوجه ليكتمل ؟

- أزوجه ! وهل أنا عرّابه !

وغمزت فلة : يبدو انه متئم بالثورة الجزائرية . لكنه يخشى الأفريقيات .

- ما الذي تخشاه فيهن يا سي مهيار ؟

- لبؤات . ورثن من الغابة شراستها .

تقول فلة مستفزة وهي تجهز مقلاة اللحم : لبؤات ياقديس ! والحرارة والجلد الطري هذا تنساه . هاه . نحكي والا . . .

- حرارة وطراوة الافعى .

ترشقه بحفلة ماء فيرتبك . طفل بوغت في لحظة غفلة . تعرو فلة حالة هرج فاحش . تأخذ جرعة نبيذ من كأسها : اللبؤة تبحث عن ليثها . نحن الأفريقيات ننتشي بالقوة . هنا المرأة لاتخون إلا الرجل الذي لا يروي أرضه جيداً . ها . ها .

مع ضحكتها الفاسقة تمد يداً تحت المائدة وتجس مابين فخذلي مهدي . يتتساعد الدم فتتخطى الرغبة لوحنة الدمامنة . امرأة من نار تحت عصف النبيذ الناري .

انجلت الغمرة في هذا الحضور الأولي . قال الصحو العقلاني للشهوة المجنونة : كن عاقلاً أيها الشيطان وابتعد الليلة قليلاً .

وإذا تأودت فلة وهدللت شفتيها ثم فتحت ساقيها تحت المائدة ، انتعظ اللعين خارقاً قماش الشرف والحضرمة المتزنة : هيا . اهدأ أيها الأرقط الذي لا يستحي

ينهض مهدي جواد إلى المطبخ متذرعاً بالفاواكه انعطافاً عن الفضيحة . فلة بو عتاب الثراثرة ، المظللة بالشهوات المقدسة ، تضع اسطوانة راقصة وتبدأ الرقص طائرة في فضاء صحو .

## - 9 -

برنامج الدروس يومنا في الأسبوع . خلال ساعة أو أكثر ينتهي الدرس . مهدي جواد يبذل جهوداً مكثفة في المراحل الأولى ، خلالها تبدو آسيا لخصر بذكائها الفطري الحاد ، نموذج الطالبة الجادة .

كانت مصرة على المناقشات العامة بعد الدرس ، شعور سري خاص نما بينهما غب حادثة الغرفة . كل منهما انتابه شعور غامض حول إثم كانوا بريئين منه .

مالذي يفعله رجل وامرأة إذا مانفردا في غرفة مغلقة ؟  
دود رأس الحاج محمد وجراييم سلالته ، كانت تشير نحو الفاحشة .

غير إن آسيا لخصر المولودة في كهوف جبال بونه الوعرة ، الطفلة التي تدمت بماسي حرب التحرير ، كانت تحلم بشموس مضيئة وبشر أنقياء وعالم صحي في عصر الاستقلال المزدهر .

إنها تسأل بغرابة عن الفساد القائم . فساد النفوس . لابد أن الحرب لم تغير شيئاً . هل يشعر العرب بالنندم على ما فعلوه ؟ هل يخافون التحول إذا ما خرجوا إلى سطح البحر فيعودون إلى نقطة الصفر ليحتموا بأصداف الماضي ؟

ثم تسأل إن كان عرب المشرق أكثر صحة !  
يبتسم مدرس اللغة فيقول : كلهم عرب . كلهم ماض وأمواج حنين إليه .

- لا . لا أصدق . لا بد أنكم معاصرؤن أكثر . صدمتكم كانت أخف .  
بين الفرنسية والعربية تحاول أن تعبر . لكنها لم تكن تعرف أنها تقترب من طبقة النار .

- هذه مسألة معقدة . لكل بلد استثناءات .

تقول آسيا : نحن نعيش عقدة الذنب أمام الأوروبي . الاستعمار نعم . غير أن في دمنا بلازما فاسدة . إنها مستمرة على ما يبدوا وهذا هو المحزن .

- ليس تماماً . القدر التاريخي فكرة فاسدة هي الأخرى . هذه الطفلة الغريبة . لماذا تحاول أن تفتح أبواب الرصد المغلقة بأختام الجن . إنها تتقدم بعفوية نحو الممرات السرية . وهذا الرجل الملتبس مايزال

كاماً خلف مصراع غامض . آسيا الأخضر لا تعرف منه غير القناع ، وهذا الرجل لا يعود كونه صدفة فارغة إلا من الأصداء طرحها البحر . حملته الريح ذات غسق لعين فوصل شواطئ بونه البعيدة وهو حطام . وما كان يود أن يقول شيئاً عما مضى ، ولا عما يحدث تحت سماوات البدو . لقد قيلت الأشياء بشكلها الفاجعي والكاريكاتوري ، وانتهى زمن ما في تلك البلاد النائية .

السماء . السماء . غبراء ورمادية تحت هذا الغسق .

هاهـما يجلسان متحاذـين في صالـون الـبيـت . زـند آـسـيا سـائـب فوق مـائـدة مـسـطـيلـة . إنـها تـنجـز مـاتـبـقـي مـن وظـيفـة الـدـرـس .

بحـيـاد يـراـقب الـوـجـه الـطـفـولي ثـم يـنـحدـر نحو مـجـرى الصـدر . يـسـتـغـرق وـهـو يـقـرـأ خـطـوط خـرـائـط الـوـجـه وـالـأـنـف وـالـعـنـق : هـذـا الرـأـس الرـوـمـانـي المـنـحـوت !

ترفع رأسـها وتسـأـل سـؤـالـاً حول الوظـيفـة . تحت المنـضـدة تـتصـاصـم الـقـدـمان : عـفـوا . هل اـنـتـهـيـت ؟ يـتـناـول الـكـرـاس ليـبـدا التـصـحـيـح . خـطـها خـربـشـة طـفـل اـبـتـدائـي . أـخـطـاء النـحـو وـالـإـعـرـاب قـلـيلـة . هل المـنهـج الـعـلـمـي هو الـذـي أـكـسـبـها هـذـا العـيـل المـتـقدـم في قـوـاعـد الـلـغـة !

- باـهـي . أـنـا مـغـبـط . أـعـتـقـد أـنـك سـتـنـجـحـين هـذـا الـعـام .  
- وـاثـق ؟ سـائـلـه بـفـرـح .

- بـلـى . إـنـما أـكـدـي لـنـفـسـك دـائـماً أـنـك تحـبـين الـعـرـبـية . هـذـا الإـيـاهـ مـهمـ

- بدـأت أحـبـ الـعـرـبـية حقـاً كـما بدـأت أـدـرك أـنـها لـغـتي وـأـرـغـبـ أنـ تـنـتـحـاورـ بـهـا مـعاً .

لـقد قـالـت آـسـيا شـيـئـاً قـابـضاً حول عـبـارـة مـالـك حـدـاد عن منـفى الـلـغـة . كانت تـتـحدـث عن الـاستـعـمـار الثـقـافي الـاقـسـي وـالـأـنـسـي منـ السـيـاسـي وـالـاـقـتـصـادي : غـرسـوا في ذـاكـرـتـنا أـنـ الـمـسـلـمـين وـالـعـرـب كانوا غـزـاة وـفـاتـحـين . استـعـمـلـوا إـسـبـانيا وـصـقلـيـة وـوـصـلـوا إـلـى بـوـاتـيـهـ . كانوا يـؤـكـدونـ لـنـا أـنـ الـقـرـآنـ مـأـخـوذـ منـ الـأـنـجـيلـ وـالـتـورـاـة وـالـلـغـة الـعـرـبـية لـغـة دـين وـشـعـرـ لـغـةـ عـلـمـ ، وـهـذـا سـبـبـ تـخـلـفـ الـعـرـبـ فيـ الـعـلـومـ وـالـحـضـارـةـ الـحـدـيـثـةـ .

- هـذـا طـبـيعـي . قالـ ذلكـ وـهـو يـهـزـ رـأـسـهـ . وـاستـطـرـدـ : إـنـهـمـ مـنـطـقـيـوـنـ

ومنسجمون مع غایياتهم . الاستعمار في النهاية ليس العنف فقط إنما التزوير والاستلاب والقطيعة مع الآنا الجماعي .

قرع الباب بهدوء . دخلت لا لا فضيلة الأم . حيث ثم رحبت ب بشاشة وديعة : هل أستطيع الجلوس قليلاً ؟  
- أهلا . الدرس انتهى . قال المدرس .

بدت لا لا فضيلة امرأة طويلة ، ممثلة ، تخطت الأربعين . نضارة وجهها كانت ترسم امرأة في الثلاثين . عن سريرة في صفاء الينابيع هكذا أعلنت ابتسامتها الطفولية .

سألت عن دروس آسيا وتقدمها . ثم تشغب حديثها حول البيت والمتابع والجيران والناس الذين تغيروا عما كانوا عليه في الأزمة الماضية . كانت تتدفق بعذوبة مفعمة بمرارة ودهشة : في الأيام القديمة كان العباد أفضل . كانوا يحبون بعضهم البعض أكثر . الان لا أحد يحب إلا نفسه . في الماضي كان العبد يقطع اللقمة عن نفسه ليطعمها لجاره المحتاج أقول لك يا أستاذ ورأس النبي أيام الثورة وال الحرب كانت الاشتراكية موجودة . ما في بيتي وبيتكم للجميع . لا أحد يملك شيئاً . المؤونة والمواشي والطعام والأرض كانت للمجاهدين والشعب . الناس كانوا قلب واحد ودراع واحد وصوت واحد . الاستعمار والغربي جمعنا . ماننتهت الحرب حتى عاد الانقسام . أنت ترى بعينيك الآن كيف يموت الإنسان جوعاً في الطريق ولا من يبالي به .

كانت تتحدث بأسف عن الفساد والأنانية والغيرة والحد و الاستغلال والكذب الذي استشرى زمن الاستقلال .

بانسياب مطر كانت كلماتها العفوية تسيل . ترامت على وجهها ظلال أسى . أسى جارح ولكنه صادق عن زمن مشرق ولئي وزمن قاتم جاء فحول الناس . من حالة الحب والتضحية والتعاون ، إلى حالة غريبة من الحقد والكراهية والأنانية وألوهية المال .

وسألتها مهدي جواد إن كانت آسيا قد أخبرتها عن حادثة الحاج محمد ، فأجبت بامتعاض : بلى . بلى . ذلك الحلوف . هذا دليل على ما كنت أقول . آسيا تفهمي دائماً بالمبالغة . أقول لها : يا بنتي البشر فسدوا وانقسموا حتى صار الواحد عدو الآخر وعدو نفسه . ما عادوا كما كانوا أيام حرب التحرير . ما كادت الحرب تتوقف ويأتي الفرج حتى ظهرت كل الشياطين والعفاريت المخبأة في الرؤوس والصدور . كم هو محزن أن يصلوا إلى هذا الوضع ! الأعداء يشمون بنا الآن ويقولون :

شوفوا الجزائريين بعدها كيف فسدو . الحق أقول لك يا ولدي : أنا لا آفهم ماذا حدث ولمادا . كيف كانت الحرب تؤاخيمهم في الحياة والممات ضد أعدائهم والآن يتحولون وحوشاً يمزقون لحوم بعضهم بعضاً . قل لي : هل ينبغي أن يكون هناك دائماً عدو حتى نتحد !!

دخلت آسيا ومعها القهوة واللليب حاملة صينية فضية بقوائم . كان مهدي جواد يدخن منصتاً لحديث للا فضيلة المؤسي : أية امرأة حكيمة !

واستطردت : آ . ذلك الحاج الدجال ، الخامنئي . عندما روت لي آسيا الحادثة غصّت بالبكاء . قلت : لماذا تبكي ؟ مهدي واحد منا وليس غريباً . انسان عاقل وشريف . آه يا ولدي هؤلاء الناس أنت لاتصدق كم هم أشرار وسيئون : لكن أنا أعرف ماذا ربّيت في بيتي . عائلتنا معروفة . بناتي بنات شهيد ضحي في سبيل الوطن والحرية . قبل أن يستشهد كان يقول لي دائماً : فضيلة ، لا وصية لي عندك غير الدراري . ربّيهم تربية تليق بنا كمسلمين . نحن نقاتل حتى لا يلوث الاستعمار شرفنا . بيت الانسان شرفه . ومن لا يحافظ على بيته لا يحافظ على وطنه . بيت سمي العربي ينبغي أن يظل نقىًّا . كل بيت في الجزائر قد ينهدم لكن الشرف ينبغي ألا يتهدّم . لاتنسى ذلك يا لالا . للا فضيلة تحكي بشقة وكبارياء . تروي كيف طرد الفرنسيون كالكلاب دون أن ينالوا من شرف الجزائر الصابرية والقوية : بالدم والذراع طردناهم يا ولدي . تتعطف نحو الحاج محمد : بعد هذا يأتي حلوف يدعّي أنه حج إلى بيت رسول الله ويبيغي تلويث شرفنا وسمعة ابنتي ! أنا قلت لآسيا : لماذا لم تمسكى بلحية ذلك الكلب وتبصقى فيها ! والله ، الحلوف ولد الحلوف يستحق أكثر . كصفحة بحر في يوم غارب يلوح وجه آسيا . الأسى كان هاجعاً تحت الماء ، لكن ذكرى الأب تلتفح كريح السموم . تزيح الرمل لتخرج حنايا الحجر الصد .

هي ذي تصب القهوة بصمت كئيب .

تستطرد الأم بسيلان تعارفي : بعد موت سمي العربي رفضت الزواج . قلت أكرّس حياتي للتربية أولادي . إخوتي قالوا إذا لم تتزوجي لن ترحمك حجارة الناس . الزوج غطاء وحماية . زوجوني من يزيد ولد الحاج مرغمة . السعادة ليست مهمة . الشرف هو المهم . الحمد لله نحن مستورون يا ولدي . ربي يعيشك لمساعدة آسيا .

لابد أن الحياة غير نقية كما نتصورها ونحن أطفال . والذى يتجلى أكثر عندما نرحب ممارسة حريتنا . الحياة هي الصراع ضد الشر والموت .

وتتصف محدثة في أفق البحر .

- يبدو أن البشر لا يرضون بغير قوانينهم السائدة .

- متى بدأت تكتشفين ذلك ؟

- بعد أن تعرفنا .

- هذه تجربتك الأولى ؟ عنيت ألم يكن هناك آخر ؟

في عمق الماء يسري زورق شراعي تحت سماء صحو . وجه آسيا وشأه الأسدي . يختطف البحر المديد ذاكرتها الخضراء .

- كان هناك شاب فرنسي اسمه كلود . معاً نتدرّب في زورق شراعي . كنا فتيات وفتياً منتسبين لنادي الزوارق الشراعية . البحر كان مدینتنا . بين السماء الزرقاء والماء الأزرق يشعر الإنسان بالبقاء . ساعات طويلة ونحن مفصلون عن العالم . كأطفال نلعب في عالم غريب مضاء . آه . في البحر يكتشف الانسان الحلم . كم كنا نبدو بعيدين عن جراثيم المدينة والبشر !

وبونه الآن خلفهما . مدينة بيضاء تتوهج تحت شمس أفريقية حادة . جبال غابات وحجارة تبدو تحت الضحى في لون حرارة الشمس . مهدي جواد صامت . يتملّى الماء الساجي وهذا الفضاء الأبيض العاري . الزورق نقطة بيضاء تتحرك باتئاد . لا ريح . والأفق محمو المعالم . سأله : أتحب الزوارق الشراعية ؟

نظر نحوها بحيدار : لا أدرى ! البحر هو الله في قلبي .

- ذات يوم سبّح في مركب . سترى كم سيكون الأمر مبهجاً . تمدد فوق الرمل الأبيض شابكاً كفيه تحت رأسه . سماء فارغة ، عميقـة ، ومجوفة . كبركان أبيض كانت الشمس داخل سمتها وهي تتفجر بعـلـابـيـن الأـشـعـة .

نوبة الحياد داهنته . كانت الأشعة تفصله عن الفتاة الآن . كطهير مذعورة تقدمت أشباح العالم القديم . خرجت من البحر ودؤت أصوات كانت تحترق تحت لفج النار وصدمة الأسلام الكهربائية ، وغاص الجسد داخل محلول حار . صعد المحلول إلى الرأس . وببدأت الخلايا تتحلل

بفعل الحرارة وانفجارات الدم التي غطّت أغشية المخ .  
 كانوا يهدون وينوحون ويعترفون ويتساقطون كالنيازك داخل الأقبية وفي الشوارع المظلمة ، وعلى ضفاف الأنهار ، وفي عمق مستنقعات البردي . وقال مهدي جواد للأشباح : ابتعدى . أريد أن أنجو .  
 ونجا .

في زنزانة «الابيار» يقول بشير حاج علي عن جلاده : «عند وصولي يستقبلني في الظاهر بشاشة وهدوء ويدثثني باللغة القبائليه . فجأة يبدو أنه مهتم بمنزل بوعلام خلفه : أين هو ؟ فأجيبه : لا أعرف . على كل حال لن أدلّك عليه . هل سمعت بالشهامة القبائليه ؟ وكان يشعر بغيط حاقد على من أجل هذه القضية . وهو مهمّ بمصحّة الصادق حجرس وعبد الحميد بن زين وبشروط حياتهم . وكان يقول لي : النضال السري شكل من أشكال التسلّل ، حيث ينتقل الإنسان من باب إلى باب . أعطني كلمة اليهم وأعطيه عناوينهم ، وسأذهب إليهم لأطمئنّهم ولن يحدث لهم شيء . ولم أجبه » .

تسأل آسيا لحضر : ها أنت صامت كالمعتاد !  
 وببلاغة مفعولة يبتسم مهدي جواد . لكنه لا يجيب .

- بماذا تفكّر ؟

- بالبحر .

- أنت مكتئب من قصة الفرنسي ؟

- مسألة شخصية لاتعنيني .

- كنا أصدقاء فقط .

كان الرمل حاراً . وعلى الصخور الرمادية في البحر ، وقف نورس يفلي ريش صدره الأبيض . فوقه حوم طائر آخر ثم مالبث أن هبط قربه . تحانيا وراح كل منهما يغلّ منقاره في ريش الآخر .

قالت آسيا وهي تشير نحو طيور الماء : انظر . ما أجملهما ! اثنى جانباً فرأى الطائرين يتعانقان . هبت نسمة بحرية مشبعة برائحة ملح البحر .

- هكذا كنتما في عمق الماء ؟

الجملة سقطت سهواً . حاول استدراها لكنه أدرك انقباضه المفاجيء :

ياللخراقة !

من زاوية عينه المواربة لمح وجهها البارد كحجر . مثل هذه الحالة كان صعباً تمييز ما إذا كانت مغبونة أو مؤذة . وجه مرهف يمتلك خاصية الغبطة والحزن وهما يتماوجان تحت أصيل من هدوء . في مثل هذه اللحظات كانوا يفتربان وينفصلان .

وقال خارقاً حالة الركود : وجهك كطقس المدينة . أنا شمس حادة و أنا مطر . أأنت كئيبة الآن ؟

افترت وهي تداعب سوالف شعرها لافة سنابله حول أصابعها : يبدو أن بيننا نقطة عماء . بقعة مجهلة لم نكتشفها بعد . بعد صمت أوضحت : وأنا صغيرة كنت أرى في بابا صديقاً . مذ مات وأنا أبحث عن أبي صديق . هل تفهمني ؟ سيكون محزناً أن تكون مثلهم . وسيكون جارحاً لا تدرك ذلك .

- مازا عنيت بمثلهم ؟

كانت متكتئة فوق بياض الرمل . وجهها يستقبل لمعان الوجه والبحر : في اليوم الاول يتعرف العربي على امرأة . وفي اليوم الثاني يرغبها في سريره . وفي اليوم الثالث تتحول إلى عاهرة في قاموسه الجنسي . هذا كريه . ليس كريهاً بل مقرز !

الآن هي مؤذة إذن ! هكذا انفصل الحزن عن الغضب وظهر الانقسام . لقد تضرج وجهها فبدت في قمة هيجانها : هؤلاء الخنازير أنا أكرههم . أمقتهم مقت الكلاب . إنهم يملؤون هذه المدينة بالعواء والبول . هل فهمت مازا أعني ؟

أصابعه تغوص في رمل حار ، والبحر مشعر . ملايين من مصابيح خضر تطلقها قناديل الجسد . آسيا الأخضر تضيء تحت بهجة البحر .

- آسفة . ربما تكلمت بحمامة غير مقصودة . أأنت مؤذى ؟

- هل نعوم ؟

قام هو عن الرمل . نفض كفّيه . كانت ماتزال ممددة على الرمل كفالة مراشة بسهم : هيا . تناول معصمها ناتراً الجسد إلى أعلى . اندفعاً بصلب واخترقاً الموج .

قبل أن يغوصا بعيداً رشقها بالماء . صاحت : لا . لا . الماء بارد . وكانت ترتعش . ورأى الماء يتقاطر ملأاً فوق جسدها البهبي .

- انظري !

- ماذا ؟

- لو ترين كم أنت ملأة الآن ؟

- اوه يادين الرب . كم تبالغ كأي قروي . قالتها بالفرنسية .  
عندما غطسا معاً في حرير الماء وخرجا ، شاهدا النورسين  
يُخفقان متجاوريْن فوق حقل البحر الممتد .

\* \* \*

كتب مهدي جواد في ذلك المساء : «المنفى اغتراب جديد يضرك وجهًا لوجه أمام نفسك . إنه يضرك أمام المرأة .وها أنت تراجع هيروغليفيا الزمن في استراحة الحرب . ثمة عطب داخل الإنسان وداخل الكتلة يُرى الآن بوضوح أشد في هذا المنفى . التجربة قالت ذلك بمرارة وفاجعة الدم ، ربما . لكن الأشياء ماتزال هلامية سابحة كقناديل بحر . إنها لمسألة غير تافهة أن تسأل : في عالم اللامنطق وانعدام القانون . في العالم المحكوم بالطغيان وسطوة الآلهة والقتل وميراث الأجداد المنكريين . عالم النزوة والمزاج والفردية كيف تفكر وتتحرك . كيف تتقدم . بل كيف تتشكل ؟ !

هل باستطاعة الحب أن يتجاوز الحالة ؟ وهل تأسيس حالة حب على نحو صحي ضد عالم النفي اللاعقلاني ينقذ العالم والنفس ؟  
ليكن السؤال هكذا : الإنسان أولاً أم المجتمع ؟ وهل بالإمكان بناء عالم جديد بإنسان قديم ؟ » .

- 10 -

في الاجتماع السري بحي الكاظمية ، تحدث مهدي جواد لخليته عن الوضع الراهن . حدد بنقاط واضحة الخطين المختلفين للحزب ، خط جبهة الكفاح الشعبي المسلح وهو خط «ظافر» ، والخط التحريري الملحق والتابع للبورجوازية الحاكمة وهو خط آب التصوفى . الخط الأول ممثل بالقواعد المؤمنة بخوض نضال مسلح في الريف والمدينة لإسقاط سلطة البورجوازية وإقامة حكم الديمقراطية الشعبية ، الخط الثاني ممثل بقيادة اللجنة المركزية المتواطئة مع حكم البورجوازية ، والتي ماتزال تؤمن بالعمل السياسي السلمي وتراهن على الانقلاب العسكري الثوري .

بعد ذلك انتقل إلى شرح خطة العمل ، مركزاً على الطاقة الخلاقة لقواعد الحزب التي اجتازت عبر مراحل نضالها أقسى الظروف . هذه القواعد الآن ملقي على عاتقها مهمة هدم العالم القديم وبناء عالم جديد للبروليتاريا العراقية قائدة المستقبل .

ثم شرح مسألة عزل القيادة الانتهازية التحريرية ، وانبعاث قيادة جديدة على مستوى المناطق . وأكَد على ضرورة السرية والاختفاء والسلاح الذي سيوزع على الخلية قريباً : قواعد الحزب ماتزال متماشة رغم المحنة ورغم توسيع القيادة . خلايانا في الجيش سليمة . في الديوانية هناك فصيل مسلح . الرفيق ظافر ومجموعته يحضرون لكفاح شعبي في الأرياف . القتال لإسقاط السلطة الفاشية هو المهمة المركزية الآن . علينا أن نتمثل قول لينين : «إن مدرسة الحرب الأهلية لاتذهب سدى بالنسبة للشعوب ، وإنها لمدرسة رهيبة حقاً . إذ أن هذه المدرسة تعلم الطبقات المظلومة شأن الحرب الأهلية . تعلمها الثورة الظافرة» .

واصل مهدي جواد شحن خليته : إن حزبنا الذي تمرّس بالكفاح منذ تأسيسه على يد الرفيق المناضل «فهد» هو الآن أمل ملايين الشعب العراقي . هذه الملايين التواقّة للانعتاق من عبودية واستلال رأس المال والتحرر من الاضطهاد القومي - الفاشي لها . الآن يجتاز الحزب مرحلة اختبار دقيقة وحاسمة . نحن الآن في معركة فرضت علينا . كان لابد أن نحضر لها . لكن توسيع القيادة وذيليتها للبورجوازية هي التي وضعتنا في هذا المضيق . وإذا ما هزمتنا فإن دماء الحزب ستكون في عنق تلك القيادة التحريرية . والآن في هذه المعركة الشرسة واللامتكافية يقف الحزب على مفترق الفناء أو الوجود . الانقلاب العسكري الذينفذته الطغمة الفاشية يستهدف رأس الحزب . لقد بدأوا عمليات الإبادة والمطاردات والتصفيات . في كل مكان البورجوازية الصغيرة بمؤسساتها العسكرية وجهاز استخباراتها ومعها القوى الرجعية المعادية للبروليتاريا والاشتراكية العلمية ، تفتح علينا النار . وإذا ما سقط حزبنا ، دخلت المنطقة كلها الحلف الامبرالي - الرجعي . إنها معركة حياة أو موت كما ترون .

بإلهاب كان مهدي جواد يتحدث أمام خلية من سبعة رفاق . لم يكن واثقاً من النصر أو الفشل . الحزب في خطر والمعركة فرضها العدو . معركة دفاع عن النفس ولا بد من خوضها حتى النهاية .

عندما سأله أحد الرفاق : ولكن كيف فوجئنا بالانقلاب ونحن

نتعاون مع السلطة البرجوازية . هل نستطيع القول يارفيق مهدي أننا خُدعنا ؟ توترت أعصابه . وقد ضاغط اندفع نحو قسمات وجهه . أجاب وهو يكَّر أسناته : أجل . خُدعنا يارفيق . القيادة كانت ضيقَة الأفق عندما راهنت على حسان عسكري هزيل . هذه هي الحقيقة . كانت تقول : باستطاعتنا ونحن في السلطة أن نقضي على أي تحرك معاد . إن سلطة الزعيم تحت تصرُّفنا بعد أن تسلينا إلى مراكز القوة ومؤسسات الدولة . هكذا كانوا يوهموننا .

وقال رفيق آخر : لقد تحملنا مسؤولية تصفية عناصر قومية معادية في الساحات والشوارع على مرأى من الشعب . كان السلاح بيدهما والشعب إلى جانبنا فلماذا لم نقم سلطة دكتاتورية البروليتاريا الثورية بدلاً من سلطة الزعيم الأوحد ؟

وشرح مهدي جواد المشحون ضد انتهازية القيادة ، بأن قيادة الحزب ، رغم وجود تيار ثوري يطالب باستلام السلطة ، لم تتخذ قراراً باستلام الحزب للسلطة السياسية : كانت قيادة جبانة وذليلة للبورجوازية والديكتاتورية . إن قيادة حزب شيوعي تتخلّى عن تعاليم لينين في استلام السلطة بالعنف ، وتنهج النضال السلمي - الديمقراطي ليست أكثر من قيادة بيرورقاطية ، تحريفية ، جبانة ، تقدم حزبها بطوعية لسكين الرجعية . تحت أي شعار ؟ تحت الشعار الجبان : عدم نضج الظروف الموضوعية ، والمراءنة على أنظمة البورجوازية الصغيرة الديمقراطيّة . هذا هو الشعار الذي أودى بنا إلى المذبحة أخيراً .

وسائل أحد الرفاق عن التحالف مع الديكتاتورية العسكرية ، وهل كان الزعيم يثق بالحزب وخطنا الاشتراكي . وقال مهدي جواد : فيما بعد ثبت عكس ذلك . في البدء ناور بنا . بعضًا الحزب صفتُ خصوصه . أعطانا بعض المراكز والمؤسسات الإدراية . وبعد أن شُلّ خصوصه شعر بخطر الحزب فانقلب عليه . كان الزعيم يلعب ، كأي عسكري معزول شعبياً ، لعبة التوازن ليبقى هو .

كانوا في وكر شبه مظلم . خارج الوكر كان هناك رفيق حارس ، مسلح برشاش يخفيه تحت دشداشة . وكانوا يتوجسون المداهمة . وتحت ليل العراق كانت فرق الاغتيال الموالية للنظام تجوس كالذئاب في الشوارع والأحياء الشعبية . وإن سأله رفيق عمالي عن المسؤول عن هذه اللعبة القذرة التي ندفع ثمنها الآن ؟ ضرب مهدي جواد جدار الكهف بقبضته : القيادة . القيادة اليمينية هي التي خدعتنا . وقال الرفيق :

القيادة . القيادة . دائمًا القيادة منذ الرفيق ستالين حتى الآن . عندما يقع الخطأ القاتل نمسحه بالقيادة لنبرئ أنفسنا . نحن ماذا فعلنا ؟

وسائل مهدى : أنت يارفيق مارأيك ؟ في اعتقادك أين يكمن الخطأ ؟  
وقال الرفيق العمالى : ما أعرفه من خلال إدراكى البسيط والمتواضع كعامل أن على حزب ماركسي - لينيني - علمي ألا يخطئ في مسائل استراتيجية . ولكنها نحن نرى خطأ قاتلاً . حتى تكون علميين لا بد لنا أن نرى الأخطاء بكل أبعادها . نحن نقول القيادة ولكننا ننسى أننا نحن الذين رفعناها إلى مستوى المسؤولية . إذن هي لم تأت من مجرات الفضاء ، لماذا لم نرفع قيادة تمثل الاتجاه الثوري الصحيح ؟  
- هذا صائب و حقيقي .

- إذن . لماذا نمسح بها كل الأخطاء ؟

- كانت هي التي تصوغ القرارات وقراراتها كانت خاطئة . التاريخ أثبت ذلك .

- وما العمل الآن ؟

- عزلها و اختيار قيادة جديدة .

- ومن الذي يضمن ثورية هذه القيادة ؟

- خطها الجديد وممارستها .

وقال الرفيق العمالى : يارفيق مهدى . عفواً . أردت أن أصل إلى نقطة أمسكتني بطرفها . أريد أن أقول : لماذا استيقظنا فجأة على أخطاء القيادة وبدأنا تهشيمها ؟ لماذا لم تتضح هذه الأخطاء سابقاً ؟ العفو . أريد أن أسأل : أين الصوت الذي ارتفع ضد هذه القيادة سابقاً ؟ الحقيقة أن سؤالي يتوجه نحو الديمقراطية الحزبية .

- مازا تريد أن تقول بالتحديد ؟

تلعثم الرفيق العامل . وضع يديه على ركبتيه ، ثم مالبث أن هرش شعره الأشعث : نحن في بيت الحزب . وهذا اجتماع مصير . موت أو حياة كما قلت . ليكن موقفك و موقف الرفاق مني ما يكون . سأجهر بما أعتقد . سأقول بأن الديمقراطية كانت مفقودة وأن قواعد الحزب ما كانت سوى أدوات تنفيذية . والآن نحن نذهب إلى المذبح وليس إلى استلام السلطة . الخطأ قديم . لعله كان في صلب الحزب . أعني كان في البنية التنظيمية والسياسية . لم تكن القيادة هي المخطئة وحسب . الخطأ محصلة تراكم تاريخي ونحن جميعاً مسؤولون عنه . هذا ما أحاسه كعامل

بسقط في خلية شيوعية . أقول ذلك بألم وأنا ذاهب إلى الموت . أنا مع حزبي حتى النهاية . وسائل دفاعاً عنه حتى آخر نقطة دم . إنه حزبي وحياتي وأملني وسأستشهد من أجله ولو كان على خطأ . الشيوعي يموت واقفاً ولا يركع . هذا ما ينبغي أن يكون .

بعد أن وزعت المهام على الخلية ، خرج مهدي جواد مغبوناً من الاجتماع . الرفيق الذي كشف عن سريرته سقى الأشياء بأسمائها وهو يضع المبضع في الجرح . كان أكثر شجاعة منه عندما قابله المسؤول المنطقى فيما بعد .

وهو يخطب الخطى في الشوارع المظلمة ، فكر بأن الصراع ربما لا يكمن هنا . إن آلاماً ومايس لاحدود لها تحيل بها الأيام القادمة . وأن تكون شيوعياً حقاً يعني القتال حتى ترتوي الأرض بدمك . وقال لنفسه : الحزب لا يخطئ .

كان يقولها دائماً في وجه أشباح الشك .

- لماذا لا تكون هناك كومونة عربية ؟

كان يفكر بالكومونة تلك الأمثلولة الساحرة الشبيهة بشمس ساطعة لا تطفأ على مدى التاريخ .

ليكن هناك مايكون . الإنتماء إلى الحزب هو الإنتماء إلى الحياة ، والموت في آخر المطاف لابد أن يأتي ، فلقت من أجل موقف عظيم . تلك هي المسألة بخطتها وصوابها .

عصفت برأسه كلمات بشير حاج علي سجين معقل «بوراسون» في الإبصار : «إنهم لا يعرفون باسكال . لكن شهود باسكال سيعکرون عليهم لياليهم ما بقوا على قيد الحياة . وشاهد القرن العشرين ليس وحيداً . إن ملايين النساء والرجال يستمعون إليه في اللحظة التي يقرر فيها أن يتكلم . هؤلاء الرجال والنساء في الجزائر وفي كل مكان ، رغم العزلة كنت ومازال أستأنس بحضورهم الخفي . تحت الماء الذي يقتل ، وفي قلب اللهيـب السردابي ، وعندما كانت أصابعـي المتورمة والمكسـوة بالدم تحاول أن تتحرك تحت ضغطـ القـيـود لتـبرـهنـ لنـفـسـهاـ أنهاـ ماـزـالتـ تـخـتـلـجـ بالـحـيـاةـ ،ـ اـسـتـطـعـتـ أنـ أـمـيـزـ خـلـفـ موـشـورـ الدـمـوعـ التـيـ كانـ مـنـ الـمـسـتـحـيلـ حـبـسـهاـ ،ـ خـيـطاـ رـقـيقـاـ رـمـيـ إـلـيـ كـبـرـهـانـ عـلـىـ التـضـامـنـ مـنـ الـخـارـجـ وـبـوـاسـطـتـهـ تـشـبـثـ بـعـالـمـ الرـجـالـ الـأـحـيـاءـ وـالـمـنـاضـلـينـ مـنـ أـجـلـ الـحرـيـةـ» .

وفي تلك الليلة كان مخموراً . شرب حتى شارف الانطفاء . هذى وصرخ . كان مطوقاً . نمر في قفص راح يدور في غرفته كمموس . ظلام تلاه برق ثم دوى فأصداء . أصوات راحت تخرج من الفضاء والشجر والصحاري وقصب البردي والشوارع والسجون وساحات الإعدام لقد تناول حقنة مضادة لليسأس وأقبل عليه سرب من طيور الليالي السود وكان هاوياً في قرار سحيق مهزوماً ومنفياً ووحيداً في هذه الصحاري وبين يديه وتحت عينيه وفي الطبقات السفلية ما كان يرى غير الغبار والدم والجثث وانطلقت أشباح سُدَّت مدارج الأفق وأبتدأ بالأصبع والصوت والكلمات وأدرك أنه مقتول الليلة وسائل الفراغ واللاشيء أين الأسلحة وكانت يصادون كما تُصاد الوعول المحاصرة وما كانت هناك أسلحة وسائل الغبار والدم والجثث كيف نقاتل بلا أسلحة ولماذا لم تكن هناك بنادق ورشاشات وقنابل خلال ثلاثة عاماً ؟

وهو مستلق على السرير يحدق في سقف عار ، قرأ جملة وردية مفزعـة : أكنت مخدوعاً يا مهدي جواد ؟

لكنه في مساء هادئ ساقراً عبارة لشاعر الماني مجنون : «عندما نفسك المتلهفة تتخطى زمنك ، تمكث حزيناً على شاطئ بارد بين أهلك وأنت لا تعرفهم .

ولكن مهما يكن العام بارداً وبلا غناء في وقت ما ، فمن حقل أبيض يندفع ورق أخضر ، وغالباً ما يغنى طائر في وحشة» .

## - ١١ -

شربت فلة بو عناب حتى انخرمت . من رأسها خرجت أصدائـة قديمة وراهنة . أصدائـة عن الحرب والأحلام الجديدة ، وأصدائـة عن الوحل الذي تغوص فيه . الوحل الطائف في الشوارع والمؤسسات والنفوس الخامجة .

- فلة . ألا ترين أنك تبالغين ؟ !

وترد المرأة الخائبة : أنت لا تعرف هؤلاء الناس . البشر هنا أشارار ووسخون أكثر مما تتصور .

- لا . لا أعتقد . لكل شعب أشاراره . هذا الذي يطفو الآن ليس عمق الشعب الذي قاتل .

- ولكن إلى أين رحلت تلك الروح ؟ تسأل وعيناها محورتان .

يبدو مازوماً ومحرجاً . بل هو منقبض . يحاول أن يوضح لفلة خيط الحزن الشخصي من خيط حزن البشر . التداخل الذي جاء من شدة الإفراط في الوهم . كانت هناك أخيلة شاسعة . أحلام طفت ، رؤى شعرية امترجت بأفراح عن أزمنة مزدهرة تولد من الحرب والثورة : أنت يا فلة كنت مأخوذه برؤى قمرية .

- ولكنهم سرقوا الثورة واغتالوها . القوادون الذين لم يحاربوا .  
لماذا ؟ تصرخ فلة بصوت جريح مؤذى .

ويقول مهيار وهو ينظر إلى لوحة النمور التي تصاد في مضيق : إذا استمر صرائك على هذا النحو ست فقد الأشياء توازنها . شيء من الهدوء يضع الأمور في نصابها . بالعقل عيني بالعقل .

تنكمش المرأة على نفسها . كتلة النار الداخلية تتضاءل ، لكنها لا تخدم . ترى إلى جه مهيار الباهلي النحيل والمحروق . الوجه المنحوت كصخرة جرانيت ، يسقط بصرها على جسده الصغير الهش . السؤال الذي يؤوجج الخيبة القديمة : لماذا هذا الرجل بهذه الضائقة العضوية ؟  
الحس الآخر للمرأة يتوقف .

- كنت وما أزال أحب الرجال الأشداء . الكومندان طاهر كان صلباً كصخرة وحنيناً كالحمل . وهو يتحدث يلفحك دفع ناري قادم من فوهة بركان . رجل كالإعصار عندما يغضب وكالبحر الهادئ إذ يصفو . فلاج عنيد لكنه طوباوي يحلم باشتراكية الأرض . الفلاحون شجر الثورة ووقودها هم الذين أبقوا الجذوة متقدة حتى النصر ويتابع سي طاهر : انظري يا فلة إلى هؤلاء الجياع والحفاة والمقملين كيف يقدمون كل شيء . كل شيء يا فلة : الطعام واللباس والمأوى والحيوانات والدم . هؤلاء البحر ونحن السمك ، الآن نحن بينهم كما كان رسولنا محمد مع المهاجرين بين الأنصار في يثرب . المستقبل لابد أن يكون لهم بعد تحرير البلاد من طاغوت فرنسا .

بعد أن تتناول من كأسها جرعة نبيذ تسأل وهي تترنح داخل طيوفها القديمة : الآن قل لي ياسي مهيار ما الذي ناله هؤلاء ! أ��واخ الصفيح . الديزنيطاريا والبلهارسيا . القمل وروث الحيوانات . التشرد في زنقات المدن بحثاً عن الخبز في صناديق القمامه ومخلفات المطاعم . الخدمة كالكلاب في الفنادق والمقاهي والخمارات . كيف حدث هذا ولماذا ؟ وعلاه . وعلاه ! قل لي يرحم والديك !

مهيار الباهلي المنصت بانتباه لفلة بو عناب والماخوذ بثورة المليون شهيد ، يعتصره ألم داخلي . يبدو هادئاً تحت شكل خارجي يخفي عرقاً من فولاذ . عرق يتوق لفأس مسنونة الحد تقدح شرفتها ناره المختزنة .

لكن الزمن يبدو غادراً ورمادياً ملعوناً على سطح هذا الكوكب المعتم الذي خرج من ذاكرة الخالق والخلق . وتحت هذا الاحتلال يبدو لمعان العرق الفولاذى في صخرة مهيار ينوء بالصدأ والغبار . هذا ماتقوله الفصول المتراكمة وساعات الرمل المتواترة وهذا الصوت الجريج المرغرغ في حلقة هذه العناية .

و قبل أن يلتحق الباهلي بحرب الأهوار ، كان يتحول في الجامعة بعد هزيمة حزيران نحو الماركسية . لقد سقط الراهن على الخط القومي - البورجوازي بهزيمة عبد الناصر . وفي كلية الفلسفة وباحثة جامعة بغداد كانوا يستقرُّون تحوله الجديد : شيخ نجفي بعمامة ماركسية . ويضيفون : من الحسين إلى عبد الناصر إلى ماركس . ها عيني ! أين تتوطد الثورة ؟

باستفزاز يلمحون إلى أصوله الشيعية وأسرته المتدينة التي تنتمي إلى الأسياد الحسينيين .

ويوم انطلقت المظاهرات وبدأت الاشتباكات في جامعتي بغداد والبصرة شارك في الاصطدامات والحوارات . كان يمتلك منطقاً جديداً متماسكاً ويتمتع بقدرة فائقة على إدارة دفة الحوار ومركزته حول مفاضل محددة وأساسية في سياق عقلاني مقنع .

التاريخية . التاريخية . هذا ما كان يرددده في أصل كل حوار . لقد كان مقتنياً أن اكتشاف ماركس الأساسي يكمن في المادية التاريخية لأن الجدل قديم منذ هيراقليطس أما هيجل فقد بلوره فيما بعد . هذه التاريخية في منهجه كانت توصله إلى الواقع والخصوصية الذاتية لكل شعب وكل أمة . وانطلاقاً من هذه التاريخية كان يرى الحلقات والطبق العربية الثورية : ثورة الرسول محمد والحركات السرية المضادة بعد تدجين الاسلام . انتفاضة الزنج . ثم القرامطة . ومن هذه النافذة سيثبت يوماً إلى أعماق الهرور بحثاً عن بقايا هؤلاء .

هكذا كان الشيوعيون الأرثوذكسيون وخريجو اليسوعيات السوفياتية يرون فيه اختلاطات تحريفية ولوثات قومية مختلطة .

بجرائم أجداد منقرضين .

لكنه كان يقول بأن هناك التباساً في الامور وخللاً في الوعي التاريخي . لقد قرأتم ماركس وللينين وأنجلز واستكثُرتم تحملون كلماتهم المقلّع وترشقون بها ، وهكذا تعتقدون أنكم محسنون ضد المبالغة . إنما ، أترون جيداً وصواباً كيف يتشكل العربي الجديد في العصر الراهن ؟ ذلك القديم كان مبلوراً ومحضناً ومنيعاً بالإسلام . الآن نحن نعبر إلى الزمن من جديد . من أين ؟ من الفراغ والسديم المطلق أم من ميراثنا ؟ هل الثورة هي القطع التاريخي الكامل ؟ أنا أرى في ماركس أو لينين محمداً جديداً محمد القرن العشرين . ماركس أو لينين العربي هذا ما يحتاجه في هذا العصر المضطرب .

وفي تلك الأيام الصعبة كان مهدي جواد في كلية الآداب يناديه : عيني يامسيو عقل . يبدو أنك تعيش وهو رجل التاريخ . فمن الذي يتقمصك منهم ؟

ويرد متخطياً النك الذي يرى فيه خفة لاتلقي بثورى بأن ما ينقصنا في هذا الوقت الرخو والمسيئ هو إيمان وبسالة الصحابة الأوائل . بمثل أولئك يُقدح الزناد في الحجر البارد وتسطع الشمس من جديد .

والآن هو ذا مهيار الباهلي يستلقي على أريكة في صالون العنكبوتية . المرأة التي تلقته أول مانزل أرض بونه . أخذته إلى بيتها وأعطيته غرفة فيها سرير وطاولة وكرسي . مسحت عنه وعثاء السفر : أنت وأنا سنعيش معاً . أنا أرملة تؤجر غرفة في بيتها لتعيش . هذا البيت يسمونه نزل المشارقة . لكنه ليس بansonna للدعارة كما وسموه . قبلك جاؤوا إلى هنا . فلسطينيون ومصريون وسوريون و العراقيون . تصرفوا بحرية وطلقة . عشت معهم زمناً لكنهم تكشفوا فيما بعد عن خساسة وندالة لاتحد . وصموني بالقحبة والقواعد . أمل الا تكون مثلهم . أتوسم فيك النقاء وأنك ناس ملاح .

في البدء بدا متوجساً . حاول أن يسأل لكنها صادرت أسئلته : اسمع يا خويا ياسي مهيار يرحم والديك . أنا لست عاهرة بل امرأة حرة . اختار الرجل الذي يعجبني ولا أعتقد فيك ذلك الرجل . أنا أحترم المشارقة فقط . أتخيلهم أكثر حداثة ووعياً واحتراماً للمرأة من الجزائريين الخُمَاج . ربما أكون واهمة لكن هذا هو الأمر . فهمت ؟

وفي مساء خريفي توجز له تاريخها . الفرنسيون قتلوا أسرتها في

مدينة قسطنطينية في مجررة الـ 45 فتركت في بيت عمتها . بعد أن كبرت تزوجت في سن العشرين وأنجبت ولداً . الزوج كان سكيراً ، فاسقاً يهوى المومسات . طلقته ورحلت إلى العاصمة وهناك عاشت حياة غير سوية . عملت ساقية في بار يرتاده الضباط الفرنسيون .

لقد أحببت ضابطاً فرنسياً برتبة كابتن كان يأخذها معه آخر الليل إلى منزله . وذات مساء فوجئت بأربعة ضباط من زملائه يدخلون البيت ويسيرون وفي أواخر المساء يرغمنها أن تنام معهم : لقد ضاجعني جماعياً . كم كان الأمر كريهاً ومقززاً !

بعد اندلاع الثورة وجدت نفسها في خلية سرية من خلايا جيش التحرير . كان الرأس يدوي بأصداه التأثر من أولئك الخنازير الذين ولدوا فيها عن طريق ذلك الابن الزاني الذي أحبته فقدتها إلى الوحل .

- أنا وجميلة بوعزة كنا معاً في خلية واحدة . ومعاً وضعنا حقيقة القنابل في بار الضباط الذي أعمل فيه في شارع العربي بن مهدي . بعد ذلك هرّبوني إلى الجبل ووضعوني تحت أمرة الكومندان طاهر .

ينقل مهيار الباهلي مسبحته الكهرمانية من أصابع يده اليسرى إلى اليمنى . وهو يتأمل وجه فلة يو عنّاب يلتبس عليه ماسميّه . الحقيقة والوهم . الظلمة والضوء . يسحب نفساً عميقاً من سيجارته فيرى بين خيوط الدخان البيضاء صور المجاهدين بثياب القتال عبر الأدغال والوهاد الصخرية من جبال جرجرة إلى قمم الاوراس وهم يعبرون تحت حلقة الليل والرصاص والمطاردة . العصابات التي دوّخت حلف الأطلسي ومرّقت هيبيته في الوحل .

كلمة لاكوسٌ عن «الفلّاقة» الذين سيبيدهم خلال أربع وعشرين ساعة ، تدوي كصحن في أعماق وعيه . تلك الساعات الأربع والعشرون سُجلت فيما بعد بأنها أطول الساعات التي عرفها التاريخ .

## - 12 -

أول اشتباك بينهما حدث في غرفته الجديدة . كان الحوار يتقطّع حول حرية المرأة وكيفية ممارستها في عالم يقيم حجراً على الحرير بحيث لا يرى فيهن أكثر من موسمات أو زوجات شرعيات للمطبخ والسرير .

كان الصدام حاداً ظهيرة ذلك اليوم . امتد الجدل نحو الآفاق

الحضارية والمناخ النفسي . الجدار وصدمة الاختراق وكيف يتجاوز الإنسان شرطه .

لأول مرة يحتمد مهدي جواد في وجه آسيا . استفاض أكثر مما ينبغي كاشفاً عن سريرة أفكاره العامة .

كانت آسيا تتبع وقائع حركة تحرر المرأة في فرنسا من خلال الصحف والكتب وكانت مفتونة بسيمون دي بوفوار .

عندما سألها عن مفهومها للحرية ، أوضحت بعبارة الوعي والتحرر الاقتصادي ، ثم شرحت التعارض بين الوعي الحقيقي والوعي الزائف .

- باهي . هذا واضح . ثمة عيابان إذن ، وعيك والوعي الزائف . أنا أريد أن أسأل عن الفعل . أعني كيف تتحركين أو تعبرين داخل هذا التعارض ؟

- طبعاً بوعي . ينبغي ذلك .

- لماذا قلت : ينبغي ؟

- لأنني لا أستطيع الآن .

- ولكن متى تمتلكين هذه الاستطاعة ؟

- عندما يتقدم المجتمع أكثر .

احتدم : والآن . الآن ماذا تفعلين قبل هبوط ملائكة التقدم ؟

- أتعلم لأتحرر اقتصادياً ثم أستقل .

- واللواتي لم يتح لهن ذلك . أسيرات الجهل والأسرة الأبوية ومجتمع الذكورة والله وميراث القتل والواحد ؟

- لا أدرى . ربما كان ضحايا .

- أنت أيضاً ضحية . ترغبين المسرح والسينما والمقاهي والسهر الليلي . تريدين أن تكون معاً في تلك الأماكن وفي الأوقات التي نشتتها مع ذلك لاتفعلين شيئاً ليتحقق ذلك .

- أعتقد أن هذا مقياس التحرر الآن ؟

- ما هو المعيار إذن ! هل الحرية تتجزأ ؟ صدمة اختراق الجدار لماذا لا تكون الآن ؟

- تذكّر ماذا فعلوا بنا في وضح النهار . منذ قدومك إلى هذه المدينة

هل رأيت امرأة تسير وحيدة في الشارع بعد الساعة الثامنة؟ من أي كوكب أنت؟ تريدين أن نخرج معاً في الليل لتسمى هذا حرراً! هذه فضيحة في بلادنا. إنك تعرف أنهم مازالوا الأقوىاء وباستطاعتهم إيهادنا بقسوة.

امتزج الغبن بالغضب. لاحت على شاشة رأسه بلاد رازحة تحت عصور الظلمات والرجال والسلالس وجراشيم الله المهيمنة والخصاء. كانت آسيا جالسة وكان هو مستندًا إلى الجدار يدخن بعصبية: لا تحزنني إذا قلت لك أنه جبانة. وأنك مازلت مسكونة بجرائم الأجداد. وأن تحريرك الاقتصادي مغارة جوفاء. أنت حرة داخل أربعة جدران وداخل قفصك الصدري. ظهورك معنوي يتم تحت غطاء تلفيقي. لست قادرة ولن تكوني على كسر أغلالك الداخلية. الدم واللثيم متكرران بعبودية لفلاك منها. في دم جميعكم ماتزال نطفة الحرير تنبع.

بعصاب راح يصرخ ويضرب الجدار: لماذا يكون ذلك. لماذا؟ على مهل نهضت. فتحت المسجلة. صدح صوت فيروز بالحزن: «الفحتنى ريح السفر». بدت مُربكة وسط الغرفة الضيقة وفي عينيها لاح بريق دمع. تمسكت وجلست على السرير: مهدي. ألا تعتقد أنه تهيني؟ غالبت إجهاشاً صاعداً وهي تضغط صدغها. مهدي جواد تنفس بعمق. على صدره رزح ثقل بدأ يزيحه بالتنفس وفتح الذراعين. كان الفضاء يرى من النافذة مشحوناً بمطر.

- أهينك! الحوار الحر تسمينه إهانة؟ المسألة ليست شخصية كما توهمت. أنا أحلم بتأسيس صداقة عميقه معاً. صداقة متعادلة.

- ولكن ماذا تريد مني؟ قُل. هيـا. قالت الجملة بعصبية.

- ماذا أريد منك؟ ماتريدين أنه أنت. أن تكوني قناعاتك. ألا تنقسمي مثلهن فيكون في داخلك امرأتان. واحدة حرة والآخرى عبدة. كيف ترتضين أن تكوني جريئة وخائفة، صادقة وكاذبة في آن؟

صَفَعَت بکفيها حافة الفراش: ولكنهم يرصدونني. يتعقبونني كمذنبة أو خاطئة ارتكبت إثماً. المرأة هنا مهانة وضعيفة. إنها حشرة تحت عيونهم. وأنت تعرف ذلك.

حرّك رأسه بعنف: أجل. أجل أعرف. ولكن انظري كيف نحن محاصران كجرذين داخل هذه الجدران. لماذا لانسير داخل عيونهم الحادة. لماذا لا تفهميهـم بالسلوك أنهـ لست عبـدة لرغباتـهم وأن حرـيتـك

تخرج من قوانينك الداخلية لا من قوانينهم الدينية والعمياء ! إنهم يحكموننا بالطقوس البائدة . طقوس الصحراء والحرير .

صوته كانت طبقاته تعلو لا شعورياً . كان يدرك أن في الحوار ميلاناً وخللاً ، ومع ذلك كان يتبع قذف الحجارة نحو البحيرة الراكرة . في آسيا لخضر كان يلمح لوحة إمرأة العصور القديمة . ينزع بشوق عارم ليبني مع هذه المرأة الجديدة بيتياً على مداخل البحر . بدا هذا مستكناً وهاجعاً كجذوة تحت طبقات الرماد . وقال وهو تحت موج العاصفة : أنا أكره الخوف . أكرهه لأنه يحول الإنسان إلى حشرة تبحث عن جحر أمان . أريدك قوية وناهضة كشجرة لا تكسرها الريح . هل فهمت ماعنيت ؟ العبارة الأخيرة أطلقها اللاشعور اللعين المفلت . كان يخاطبها بحميمية . كشيء خاص . كجزء منه ما زال غضاً . لقد استعمل كلمة : أريدك . انزلقت من هناك على نحو تلقائي وهما ما زالا في طور الصدقة الأولى .

هذا الرجل يهدي . كمن يقاتل ضد الفقدان ويأسه . ضد بؤسه الخاص ربما .

آسيا التي انجلت غمامه حزنها سالت : وإذا ما أطلقوا النار ؟ !  
إذ ذاك تذكر مهدي جواد بصمت أنه أعزل في غابة تطفح بالقتلة  
وأنه يخرّف وحيداً .

\* \* \*

أماسي بونه رطبة وأسيّة . الحدائق وساحة المدينة والشوارع شبه المقفرة . سلام وسكنينة يسylan فوق الشجر وجدران المنازل والحوانيت المقفلة . لقد هجعت المدينة ، المطوقة بالبحر والأدغال ، هجوع طفل . صوت البحر يأتي من الغرب والشمال مصدراً وحزيناً في هذا الغسق .

وحيداً يعبر المدينة الآن . كان خارجاً من أحد أقبية الخمر السرية . بعد التاسعة تغلق المقاهي . ومن الداخل يحكم رتاج البارات الخاصة . وفي مركز المدينة الرئيسي عدد محدود من هذه البارات والأقبية ، كانت فيما مضى أو كاراً سرية للمناضلين ومخازن للأسلحة .

في هذه المقاهي التي تتحول إلى بارات بعد التاسعة ليلاً ، يلتئم شمل الأوروبيين الذين لم يرحلوا والذين تعاقدت الدولة معهم كخبراء ،

ومعهم يسمح للمسؤولين من رجال الدولة والحزب أن يحتسوا الخمر حتى ما بعد منتصف الليل .

داخل هذه الأقبية السرية يتجمع رهط من سكارى المدينة الشعبين . شباب يتفجر بالحياة والغضب وكراهية سجون الأسرة والمدرسة والعمل . مجاهدون متقاعدون مفعمون بحزن قديم وذكريات الحرب ، تفيف تحت ظلال الخمرة والدخان والصخب . عمال مرهقون تمنحهم الخمرة حالة سلام ونشوة بعيداً عن استلاب العمل النهاري . متشردون عاطلون يهودون التسكم والشجارات والحنق ورفض العالم . ثم هؤلاء الأزواج المحبطون والمخذلون والمهانون الذين تقودهم سفنهم إلى خليج هذه المرافئ بعيداً عن أعراض الحزن والمرارة وصدمات النهار .

يراقبهم وهم يحتسون بعصبية . يغنوون ويصرخون ويرقصون ثم يتشاررون . يتجلّى الفرح الجزائري صاخباً كالغضب الدامي . بعد الكؤوس الأولى يشتعل الرأس . الدم الأفريقي الساخن ينحر ويبدأ الفوران كقدر فوق نار . وإذا يصل حالة الغليان ينبعق الصراخ . صرخ الألم والحزن والفرح النادر ، غير أن الشجار المسلح بالمدى كالمعتاد ينتهي غالباً في مركز البوليس .

مهدي جواد كان منقبضاً في ذلك المساء بوحشية داهم البوليس القبو واعتقل اثنين من الفتيان ، أحدهما كان مشطوباً بسكين في وجهه كعلامة عار له .

يتجه نحو البحر . يداه في جيشه وفي الرأس صدى أحزان مختلطة ولوحات غيوم سريالية . كان يحب أن يسير في الأغساق داخل الشوارع ، وداخل هذا التوجس الغامض للمدينة الغريبة .

من أين ينبعق هذا العنف على هذا النحو الهمجي ؟ ولماذا يتحول فرح هؤلاء البشر إلى حالة دمار ؟

فيما مضى كان هذا مفهوماً ومسوغاً ضد الغزاة . أن توجه هذه الطاقة نحو الطغيان والعسف الخارجي . لكن الآن لماذا تنحرف نحو الداخل ؟

الجزائري طبعه وعر . أفريقي والأفريقي دمه ساخن . ليست آسيا وحدها التي قالت ذلك . الكل كانوا يرددون هذه البديهة . ولكن ألا يمكن أن يكون للمسألة وجه آخر خارج الطبيعة العضوية ؟

كان يفكر بهذه الأسئلة وهو يجتاز الساحة المظالمة .

ساحة بونه الراشحة بقطرات مطر .

وجاءته موجة . كيف كان يراقب قسوة الطبيعة في البراري والجبال وهو يرعى أو يصطاد . كيف كان الشجر والسلاحف والطيور والحيوانات تتقي عنف الطبيعة بقوة ذاتية ولدتها تلك الطبيعة ذاتها في هذه المخلوقات .

وموجة . مئات سنوات الاضطهاد ، تولد في أعماق الانسان معاكس هذا الاضطهاد . لابد أن آلية القمع الاستعماري أنتجت خميرة العنف ، هذه الخميرة ترسّبت في الداخل غشاء حماية وأمان ، شبيه لحاء الشجر أو قواعق أصداف البحر وحراسف السمك لصدّ قسوة الطبيعة .

وقال لنفسه تحت هدوء الليل : عنف الاستعمار لا يختلف عن عنف الطبيعة إلا في التنظيم ، لكنه في اندفاعه الوحشي ونتائجـه يتـساوى مع الزلازل والصواعق والفيضـانـات التي تـشـوه جـمالـ الطـبـيـعـةـ .

هـكـذاـ شـوـهـ القـعـمـ الاستـعمـارـيـ جـمـالـ النـفـوـسـ وهـدـوـءـهاـ بـتـكـ الخـمـيرـةـ المـضـادـةـ التـيـ تحـولـتـ إـلـىـ كـتـلـةـ صـلـبـةـ تـلـقـ شـطـاـيـاـ تـدـمـيرـهاـ الذـاـتـيـ فـيـ هـذـهـ المـرـاحـلـ الـإـنـقـالـيـةـ . مرـاحـلـ عـبـورـ الـأـنـسـانـ منـ جـحـيمـ اـغـتـارـاهـ عنـ نـفـسـ وـكـابـوسـ الـمـاضـيـ ، إـلـىـ شـجـرـتـهـ الأـصـلـيـةـ الـأـوـلـىـ .

غير أن بشير حاج على المناضل الشيعي والشاعر نزيل سجن «بوارسون» في «الابيار» والذي غُذِّب حتى الموت بعد الاستقلال في عصر بوخروبه ، يدحض هذا الاستنتاج التحليلي بشهاداته : «الادعاء بأن الموجة الاستعمارية بعد مدّها وجزرها المكتسح ، وبعد انحسارها النهائي والفووضوي قد تركت في وعينا الجماعي طعماً مريراً للعنف ، واستودعت رمالنا أكواماً من العادات المقيمة . لاشيء أكثر ريبة من مثل هذا الكلام .

ثمرة متغنة للاستبداد : ذلك هو التعذيب ، وكذلك هم الجلادون . إنه ثمرة متغنة للمجتمعـاتـ المقـسـمـةـ إـلـىـ طـبـقـاتـ .

بمرأى حقول البحر اللمعة ومصابيح زوارق الصيد ، ينجلـيـ انـقـابـهـ . تـنـقـشـ ضـيـابةـ الحـزـنـ وـالـمـرـارـةـ . هيـ ذـيـ المـدـيـنـةـ التـيـ حـلـمـ بـهـاـ يـوـمـاـ . مـدـيـنـةـ الـعـشـقـ وـالـسـلـامـ وـالـأـمـانـ الرـوـحـيـ . مـدـيـنـةـ كـلـ المـدنـ . مـحـطةـ وـقـتـيـةـ لـلـذـيـ فـقـدـ الـسـقـرـارـ وـفـقـدـ الـرـاحـةـ وـالـأـمـانـ . هـنـاـ تـتـوـقـفـ القـطـارـاتـ وـقـتـاـ ثمـ لـاتـلـبـثـ أـنـ تـرـحـلـ نحوـ مـدـنـ أـخـرىـ مشـابـهـةـ . وـفـيـماـ مـضـىـ كـانـ الحـزـبـ وـالـرـفـاقـ بـيـتـاـ وـمـدـيـنـةـ . الـآنـ بـيـتـدـىـءـ الشـتـاتـ ، وـالـمـنـافـيـ تـفـتحـ

أبوابها ، والطغاة يتناسلون كالدود في البالوعات ويدق الجنرالات - الآلهة الأرض بأحذيتها الإسمانية .

قُلْ وَدَاعاً إِذْنَ لِلْسُّتُّرَ وَالْبَيْوَاتِ وَالسَّكِينَةِ الْهَابِطَةِ عَلَى عِبَادِ اللَّهِ الْهَاجِعِينَ .

وَقُلْ تَحْتَ هَذَا الْلَّيلِ لَا شَيْءٌ سُوِيٌّ صَفِيرُ الْقَطَارَاتِ وَالْبَوَاحِرِ وَدُوَيِّ إِقْلَاعِ الطَّائِرَاتِ . هَذِهِ الْأَصْدَاءُ وَحْدَهَا الَّتِي سَتُدْوِي إِلَى الْأَبْدِ كَالرِّياحِ فِي صَحَارِيِّ الْقَلْبِ .

### - 13 -

بَيْنَ آسِيَا لِخَضْرِ وَمَدِينَةِ بُونَهِ وَشَجْ قَدِيمٍ . لَقَدْ تَأْلَفَتْ مَعَ مَدِينَتِهَا كَمَا يَأْلَفُ طَفْلَ رَحْمَ أَمَهِ . غَيْرَ أَنْ قَسْوَةَ بُونَهِ الْخَارِجَةِ مِنَ الشَّمْسِ وَالدَّمِ السَّاخِنِ وَالْخَمِيرَةِ الدَّاخِلِيَّةِ ، تَتَرَاءَى نَوْعًا مِنَ الضَّغْطِ الْفِيُزِيَّائِيِّ لِجَدَارِ الرَّحْمِ . وَمَعَ أَنَّ الْفَتَاهَ الَّتِي لَمْ تَغَادِرْ مَدِينَتِهَا تَتَوَهَّجْ شَوْقًا لِرَؤْيَةِ شَمْوَسِ الْشَّرْقِ وَالْعَالَمِ الْفَسِيْحِ ، إِلَّا أَنَّ الْحَنِينَ إِلَى الْمَرْكَزِ ، وَلِلرَّحْمِ الْأَمِّ ، يَبْدُو الأَقْوَى وَالْأَعْمَقَ .

عِنْدَمَا تَسْأَلُ مَهْدِيُّ جَوَادُ عَنْ حَنِينَهِ لِلْبَصَرَةِ ، يَرَدُّ بِأَنْ جَمِيعَ الْمَدَنِ تَنْسَاوِيَ فِي النَّهَايَةِ : فِي كُلِّ مَكَانٍ بَحَارٌ وَشَمْوَسٌ وَحَجَارَةٌ وَضَوْضَاءٌ وَبَشَرٌ وَذَكْرِيَّاتٌ وَأَكَاذِيبٌ . وَكَانَ يَكْذِبُ .

مِنْ زَمْنِ اعْتَكَرَ سَلامُ قَارَتِهِ الرُّوحِيِّ . تَخَلَّختْ خَرِيطَةُ الْأَوْطَانِ فَانْشَرَطَتِ الْأَرْحَامُ مَعَ هَبَوبِ رِيَاحِ الْطَّغَيَانِ وَالْحَسَارِ وَالْمَطَارِدةِ .

- أَتَحْبِبِينَ بُونَهِ ؟

تَرَدَّ آسِيَا بِهَدْوَهُ فَجَرَ طَفُولِيَّ مَنْدَى : هَنَا وَلَدَتْ . وَهُنَا شَرِبَتْ أَوْلَى قَطْرَةِ حَلِيبٍ . فِي بُونَهِ بِلَلَّنِي أَوْلَى مَطْرٍ وَسَفَعَتْنِي أَوْلَى إِشْرَاقَةِ الشَّمْسِ . أَوْلَى بَحْرِ عَمْتِهِ هُوَ بَحْرُ بُونَهِ الدَّافِئِ . وَأَوْلَى أَمِّ كَانَتْ لَا لَا فَضْيَلَةً وَأَوْلَى أَبِي الْعَرَبِيِّ .

- هَنَا تَعْرَفْتَ عَلَى كَلْوَدِ !

كَانَ مَغْتَاظًا مِنْ هَذَا الْحَسَنَ الطَّفُولِيِّ ، لَذَا جَابَهَا بِهَذِهِ الْفَظَاظَةِ . تَجَهَّمَتْ مِنْ عَبَارَتِهِ . إِنْ ذَكْرَى الْفَرْنَسِيِّ تَوْجِجْ شَيْئًا غَامِضًا . شَيْءٌ كَانَ خَابِيًّا فِي فَجْوَةِ مَظْلَمَةٍ . فِي هَذِهِ الْفَجْوَةِ بَدَا كَأنَّمَا اصْطَدامَ الْقَاتِلِ بِالْعَشِيقِ يَوْمًا فَتَخَلَّختْ ذَرَاتُ الْمَرْأَةِ .

النار والبحر . هكذا تبدو آسيا . اليكترا المجللة بحداد مستتر على موت آغا ممنون الأفريقي .

بثقة كأنما تدفع تهمة : لابد أن تعرف أنتي لم أكذب في حياتي . كان صديقاً ليس إلا ذلك الذي ينفصلك سراً . فهمت !

وتابع إثارتها : صديق أو عشيق لا يهم . المهم أن فرنسيأً قتل أباك . كم بدت العبارة لئيمة .

لكنها بدت كأنما سقطت بعفوية . لقد نفذت بقسوة مدية إلى أعماق القلب .

- آه . يا يوماً . . .

شهقت كمن اخترقت قلبه طلقة . انهرت بانتحاب مطر مفاجيء . في قطرات عينيها تراءت قسوته السادية . لم يكن يقصد هذا محض إثارة انفلتت كردة فعل مبالغة : لابد أنتي أخرق وغير متوازن . هجس وهو يضغط أسنانهندماً . إن ذكرى الأب تنتقل عبر مسام آسيا نبضات كهربائية تفتح جراحأً على مداخل القلب .

- سامحيني . لم أعنِ إيزاءك .

كان صدرها يختلج باحتفال الحزن والمرارة التي صعدت إلى الحلق . تحت لمعان الدمع والهياج ، بدت جميلة ومشرقية . هذه الأميرة الحزينة المحطمة . الآن هو يحبها أكثر مما مضى .

- وأسفاه . أنت لم تفهمني . كم هذا محزن !

قالت ذلك بفرنسية تقطعها شهقات .

بدأت النوبة تهدأ . ومع أنه كان مغبوناً إلا أنه كان راغباً في توضيح شيء ما . ذلك الشيء كان معلقاً في الحلق .

وهو ينطعطف نحو الداخل فاجأه الحصار . كان الآن متهمأً : لماذا لا يحق لها . هل كانوا جميعاً قتلة ؟

وتذكر احتجاج الكتاب والمفكرين الفرنسيين على الأعمال البربرية التي مارسها الاستعمار . أستاذ القانون في السوربون قدم استقالته احتجاجاً على التعذيب : «علمت الآن من أخبار الإذاعة بأن «علي بومنجل» قد ألقى بنفسه من شرفة عالية في الجزائر وسقط ميتاً حتى ينجو من التعذيب . وحينما كنت أقود حركة المقاومة في شمال أفريقيا ، كان علي بومنجل أحد تلاميذي في كلية الحقوق في الجزائر ففجعني خبر موته .

وما دامت حكومة بلادي تمارس هذه الوسائل الإرهابية التي لم تمارس ضد أسرى الحرب الألمان ، فإبني لا أستطيع الاستمرار في القاء دروسي في كلية الحقوق الفرنسية» .

\* \* \*

كان سي العربي لخضر يقود شاحنة محمّلة بالبطيخ على طريق بونه - سوق اهراس في طريقه إلى الجبل ، وإذا أوقفت الدورية الفرنسية شاحنته ، هجس بالخيانة . خلال دقائق كشفت عناصر الدورية عن الأسلحة المخبأة داخل البطيخ المجوف . كانت هناك مسدسات وقنابل يدوية مرسلة للثوار .

قيدوه وعصبوه عينيه وأخذوه إلى المركز . سأله فأنكر . ضربوه وعذبوه بأسلاك احتزت عظامه ، لكنه لم يعترف . عندما قابلوه بالمخبر العربي الذي وشى به ، يصدق في وجهه : بيوع . قواد . ولد القحبة تبيع وطنك لعدوك يا ابن الزانية ! وأعادوا الأسئلة . تابعوا التعذيب عبر جلسات متواصلة ، ابتداء من التقطيس بالماء ، وكم الفم بضمام خاص ، إلى اللدغ بالكهرباء وحرق الخصيتيين والقضيب . وصاح سي العربي تحت الآلام : أقتلوني وأريحوني من التعذيب . وببرودة كان الجlad يجيب : قتلك بسيط . لا . نريد أن نشوّي خصيتك حتى تعرف . ومن جديد راحوا يلصقون السلك المكهرب على الخصيتيين ليبدأ التيار بتمزيق المسام .

ظل سي لخضر صامداً طيلة أسبوع تحت وحشية التعذيب .

لقد تخطى عذابه الجسدي متشبّثاً بأعمدة الروح العاصفة .

عندما رفض الاعتراف ، وهدر الاعصار فيه : تحيا الجزائر والموت للكولون والخونة ، أطلق أحد الجنود النار عليه من مسافة متر واحد فقط . كل رصاص الرشاش أفرغ دفعه واحدة في جسد الأخضر فهو كشجرة صنوبر مهشمة داخل حفرة بين الغابات .

وتقول آسيا ذات أصيل شفاف : لقد كتموا موته عنا . قالوا : سيعود يوماً لأنه ما زال حياً . مذ غاب وأننا أنتظرك عودته . لابد أن يرجع كعادته ومعه الأزهار والخبز والشوكولا وأخبار الحرب .

**الشّتاء** \_\_\_\_\_



- ١ -

خلال الأشهر الأولى بدا وضع الأسرة غامضاً . كان الرجل الغريب القائم من أقاصي الشرق يدخل ويخرج كالريح . صمود . قليل الأسئلة مطوق بالخجل والحياء .

يقول لنفسه وهو يقطع المسافة بين حي (اللورانجري) في شارع الكولونيل لطفي وبيته : مع الزمن تتوضّح الأشياء .

بينَدَ أن الصوت الذي يرجّ البيت كإعصار ، يُسمع لأول مرة . صوت رجل يأمر وينهي ويحتذّ . أمر ما في البيت لا يرضيه . يتوقف الدرس برهة . تراجع آسيا ناهضة عن كرسيها وتخرج من الصالة .

على الجدار لوحة زيتية لرصف بحر . في منعطف الرصيف رسمت نخلة . رسم ابتدائي . اللوحة الزرقاء والبحر هادئ بلا زبد . مهدي جواد يدخن ويتأمل اللوحة بانطباع بارد .

على أرض الصالون ديوانان فرشا بسجاد نظيف . فوق الديوانين طنافس ومخدات من حرير ملوّن طرّزتها لا لا فضيلة بخيوط مذهبة تنم عن ذوق ونظافة . وعلى الأرض سجادة فوقها فراش زهري يحاذى الجدار . وفوق النوافذ أسللت ستائر بيضاء حريرية مرصّعة ، خاطتها الأم بإتقان امرأة تحب الهدوء المنزلي .

البيت ينبعض ويضيء ، بسيطاً ، أنيقاً نقائعاً روح لا لا فضيلة . السيدة التي تغدو وتروح داخل البيت كموسيقى أو نسيم صيفي . يرتفع أكثر صوت الرجل قادماً من بهو الغرف الداخلية . الأم تناقش بهدوء واثقة .

عادت الفتاة متجمة . تجلس واضعة رأسها بين كفيها . مهدي جواد الغريب عن البيت لا يفقه شيئاً . إنه مرتبك . وليخرج من إحراجه يسأل الفتاة عما بها .

- لاشيء .

صمت . إحساس الغربية يطفو شرائعاً تائهاً في محيط . يرغب أن يخرج إلى الشوارع . يهمس للفتاة برغبته تقول : لا . أبقى . أمور صغيرة لامعني لها .

فجأة رجل طويل جهم أسمى بعينين حادتين ووجه كجرف هاوية ، يلتج الصالون . يلقى تحية مقتضبة ثم يسلم وهو واقف .

خلفه تدخل للا فضيلة : مهدي أستاذ آسيا . تشير إلى الرجل الجهم : يزيد ولد الحاج . زوجي .

بين يزيد ولد الحاج والغريب طاولة المائدة المستطيلة . عليها انتشرت الكتب والدفاتر . للا فضيلة تحاذى رجلها وعلى وجهها علقت ابتسامة جهود لتكون رضية . دعته للجلوس فرفض : لدى أعمال كثيرة في الحانوت والمقهى .

بعد سلامه المتعالي سأل أسئلة سريعة عن الصحة وعن دروس آسيا فأجاب مهدي بإيجاز . كان الرجل يسأل بصلف ولا مبالاة ، وعلى وجهه ارتسمت علامات مقت لم يستطع إخفاءها .

إذ ألحَّت آسيا وأمها على يزيد أن يجلس ، صافح مهدي وخرج مسرعاً . تلك كانت المقابلة الأولى بينهما . المقابلة التي بدت غير ودية . شعر مهدي بالغم والدهشة من هذا النفور الغامض . ورأى الضيق واضحاً في محيي المرأتين .

فيما بعد سيسأله الرجل الغريب أي ذنب ارتكب ؟ أهناك التباس في الأشياء ؟ ولماذا بدا الرجل عدوانياً على ذلك النحو ؟ خروجه نشر ارتياحاً . للا فضيلة بعد أن ودعته عادت منشرحة : يزيد رجل صعب . وعر . لكن قلبه أبيض كالحليب . متاعبه التجارية كثيرة ومشاكله في بيته ومع زوجته الأخرى لا تترك له وقتاً للراحة . تراه يضحك ويُسخر فتقول : ما أمنعه . فجأة ولأنفه سبب يتغير . يختلف معارك وشجارات لاتنتهي . هو متعب ويتعبنا معه . هكذا انسابت اعتذاراتها .

يتوجه بصر الأم نحو ابنتها كأنما تطلب الموافقة . آسيا صامتة . تحت صمتها نفور واضح من يزيد ولد الحاج .

تتابع لا لا فضيلة : فيما مضى لم يكن هكذا . مثل الطفل يضحك ويلعب . لا أدرى ما الذي غيره ؟

- الخطر يقرع الباب . خائف على نفسه من التأمين .

آسيا تمزج العبارتين بهجوم مستبطن . بدت كأنما تقيس نبض الأم .

رفعت لا لا فضيلة صوتها بتأثر : معه حق يا البنّي . إنه خائف على تجارته التي تعب من أجلها . لقد كافح في ظروف صعبة حتى حصل على ما حصل عليه . وهاهي الدولة تؤمم كل شيء . إنه يقول : هذا رزقي جمعته بعرق جبيني والآن تريد الدولة أن تستولي عليه . العمال في المقهى والمتجر ماعادوا يطيعونه . صاروا يعملون على هواهم . فيما مضى كانوا يشتغلون من الفجر حتى أواخر المساء . والآن يقولون : الدولة حددت ساعات العمل ونحن لن نعمل أكثر من القانون . لقد شرح لي بأن الدولة تحرضهم ليستولوا على المقهى والمخزن ومزرعة الأبقار في بن مهيدى . ما هذا الوقت الذي يصبح فيه الأسياد خدماً والخدم أسياداً ؟ أليست هذه القيامة ؟ قُل الحق يا ولدي !

آسيا صامتة ، منتشرة بهذه الأخبار . لكنها ممتنعة من أنها .

من جديد يرتفع صوت الأم : أين الدين ؟ سيدنا محمد وربنا هل أمرا بذلك ؟ أليس هذا مخالف لشرع الله ورسوله (تبعد لا لا فضيلة الناطق الرسمي باسم يزيد ولد الحاج وفلسفته العادلة) . كلنا اشتركتنا في طرد الكولون . البلاد لنا جميعاً . (يزيد ولد الحاج كما روت آسيا لمهدى في وقت ما ، جمع تجارته من السوق السوداء إبان الحرب ولم يكن يدفع ديناراً واحداً للثوار) . وهذه الاستراكية كفر وكولون جديد . إنها تسرق أموالنا وأراضينا . وقفنا ضد بن بيللا لأنه أراد أن يعمل من الجزائر شيوعية . الشيوعية عدوة الدين (كريم بلقاسم وأيت أحمد صاحا في وجه بن بيللا : لاعروبة ولا شيوعية . هذه جزائر المسلمين من عرب وبربر) . كيف يتساوى جميع الناس والله تعالى قال في كتابه العزيز : إننا خلقناكم فوق بعض درجات ؟ (لا لا تردد هواجس ووسوسة يزيد) .

تبعد لا لا فضيلة ملئها بأفكار وفلسفه يزيد ولد الحاج . الفلسفة التي يلقنها لها وهمها في الفراش في أواخر الليل . لقد نسيت لا لا فضيلة بتعاقب الزمن والفصول سي العربي شهيد غابات اهراس الذي رحل ولم يأخذ معه شيئاً إلى قبره .

تحت هذا الأصيل الباهت تلوح آسيا متوحدة . مرمية على ساحل مهجور . بيضاء كحجر رخامى . إنها تبدو هادئة هدوء عاصفة وراء موج يتقدمن من الأفق . بشجن تسمع أصاء الأم . وتصمت شففاً . في الأعماق يخبيء صمتها البارد فلذة من فولاذ محسوسة في جدار منجم . والأب القديم حي . مقيم في أعماق المنجم لا يبرح . طويل ، أبيض ، واسع الجبهة ، عريض الصدر ، وراسخ كجبل . محياه ينشر البساطة ، لكنه ممتنٍ بحيوية الرجل العامل بين القرى والمدينة . بلا كلل يعمل ليلاً نهاراً ليقدم للأسرة الخبز والفرح . وتتابع آسيا ذات ضحى : عندما انطلقت شرارة الثورة ، أرسل إليه رizi عمر قائد الولاية ليتحقق بالثورة فلم يتلّكا : الوطن بحاجة إليك ياسي لخضر ماريك ؟

وكما اندفعت الآلاف ثم الملايين التي سُلبت العمل والارض والكرامة ، اندفع الاخضر حتى لا يظلّ عبدأ أو أجيراً في مؤسسات الغزاة ومزارع الكولون . تقدم كما تقدمو . واضعاً نفسه وأسرته وشاحنته الصغيرة تحت تصرف الثوار . وفي مساء يوم خريف قدّم دمه وجسده ، كما يليق بتأثير عامل يفتدي وطن الحرية والخبز ، القادر .

وهي تروي شيئاً عن ذكريات طفولتها الخاطفة معه ، يكتسي وجهها فرحاً وقتياً : كنت صغيرة ومدللة . كان يأخذني معه في الأصائل إلى ساحة المدينة . حبه لي كان غريباً . نجلس في مقهى الأوليان الذي تجلس فيه الآن تحت أشجار الدردار . يعرف أنتي أحب الكلاس والشوكولا . يطلب لنفسه قهوة بينما أنطلق عبر الساحة وأنا أمتّص صفائح الكلاس . أشرد مع الأطفال وهو يتحدث مع العمال . بعد حين يناديوني ، فأصطمع اللامبالاة . صوته حتى الآن مايزال يدوّي في رأسي : آسيا . هيا . هيا إلى البيت . أرفض فيجري ورأئي : يا الشيطانة هيا نروحوا . غداً سأستيقظ في الخامسة . يضحك من عبشي وأسعد لأنّي أراوهه . العالم جميل وصلب في عالم يملؤه أب . أنت هل فقدت أباك صغيراً ! هنا في الصدر شيء ناقص . ضلع أو حنان أو جدار منيع يقع . الطفل في غياب أبيه مرمي للريح والذئاب . إنه عار فوق قمة ثلج أو في صحراء . أعظم فرح للإنسان أن يكون تحت دفء جناح أب وأن يكون هذا الأب صديقاً . بعد أن يمسكني يحملني بين ذراعيه ويدلي قدامي على كتفيه هكذا . أضرب صدره ووجهه : لا . لا . لنبقى هنا لا أريد الذهاب إلى البيت . بابا . بابا . ويغرق في الضحك . يغموري بقبلاته الحنونة ثم يضمّني إلى صدره : غداً يأحببتي . غداً انظري لقد غابت نوّارة الشمس

و هبط الليل . لدئ عمل و ماما تنتظر . لقد تأخرنا . وفي الطريق يشتري لي لوح شوكولا لتهدا ثورتي . ثم يبدأ يحكى لي حكاية الارنب الذي تأخر عن البيت ففاجأه الذئب في الغابة . حكاية ليلي والذئب .

- كم كان عمرك يومذاك ؟

- خمس سنوات .

- و عمر بابا ؟

ترفع وجهها نحو وجه مهدي . تصمت قليلا يرف الطيف الماضي ويشحب . الحاضر والماضي يشتباكان في محرك أشعة .

من الذاكرة وأعمق الغابة يلمع برق ناري . يقبل من الوجه الشرقي لسماء بونه التي اشتعلت الآن .

عندما تشرق الشمس في صباح خريفي ، يدخل من النافذة الزرقاء شعاع يداعب أجفان آسيا الحالمة بعودة الأب الشهيد ..

وهي تفتح جفنها تفاجئها لوحة لوجه غريب ، تنعكس مع أشعة الشمس . واضحاً تراه كأنما لأول مرة .

- كان في مثل عمرك الان !

## - 2 -

هم الان في مدار الحصار . مقاومون ومطاردون وقتلى وسجناه وفارون .

الحصان العسكري الذي راهنت عليه قيادة اليمين ، سقط . وما كان لدى الحزب أسلحة . المقاومة الشعبية التي درب الحزب فصائلها للدفاع عن الجمهورية ، أوقف الزعيم قبل إعدامه تدريبيها توجساً من سيطرة الحزب . أغلق المكاتب ووضع السلاح تحت تصرف الشرطة وجهاز الاستخبارات .

سقط الزعيم وجاء جنرال آخر فوق الحزب تحت السكين .

لقد عانى الاعتماد على الفلاحين نقصاً خطيراً . لم تكن هناك مجموعات مسلحة لرفاق مدربين ومعدين للكفاح المسلح ، تنشط في أوساط الفلاحين وتتجذبهم . قيادة اليمين لم تشجع الفلاحين على تصفية أعدائهم الطبقيين ، كما لم يتعلموا كيف يحافظون ويدافعون عن مكتسباتهم بقوة السلاح .

سلطة الديكتاتور المغامر ، هوت بانقلاب عسكري جديد .

كانت خطة الدفاع قد أقيمت على أساس خسارة أو ربع العاصمة بغداد . من يسيطر على العاصمة يخطف رأس السلطة . تنظيمات الحزب المدنية والعسكرية تركزت في بغداد . وفي مثل هذه الحالة أبعد الريف عن مسرح المقاومة وأصبح الانسحاب نحو ريف مهملاً ومزاحاً عن مسرح القتال مستحيلاً .

بدأ الحزب الآن بين فكي الموت . يجني حصاد الصراع بين يمين كان مخدوعاً بجمهورية وطنية ديمقراطية يقودها عسكري أحمق يبحث عن مجده الشخصي ، وبين يسار منهك باختدامات فكرية تنظيمية يخطط لکفاح مسلح طريقاً وحيداً للوصول إلى سلطة ديمقراطية ثورية .

خط «ظافر» وخط «نجم» يخوضان معركة الدفاع السلبي . الهجوم الذي خططت له القيادة الجديدة على ساحة السبع وساحة هولنيد وأم الجوزة للانطلاق نحو معسكر الوشاش والرشيد ، فشل . لم ينفذ لأن القوات المعادية المرابطة في تلك المواقع انسحبت .

قاده القطعات من الضباط القادة في سلاح الجو والمدرعات والفرقة الخامسة في الوشاش وكركوك والسليمانية والموصى ، ألقى القبض عليهم . أعدم من أعدم رمياً بالرصاص ومن تبقى وقع رهن المحاكمة والتعذيب .

هكذا كانت قواعد الحزب المبعثرة تخوض نصالها المسلح معزولة وبأسلحة محدودة تحت ظروف قاسية ، عبر الأحياء والشوارع .

كان القتال يتركز ضد الحرس القومي ، والشرطة والاستخبارات . قتال الدفاع الذاتي . الدفاع السلبي الانتحاري .

انتشرت أخبار سيئة عن لواء الديوانية . يبدو أن مجموعة نجم تتعرض لحالة إباده .

في هذه اللحظة كان الانقلابيون يخوضون حربهم التأرية . إنهم يردون الصاع لما سموه مجازر الشيوعيون ضدهم في عهد الزعيم الأول . المجازر التي غلقت فيها جثثهم في الساحات والشوارع تحت المصابيح حتى أنتن الهواء من روائح القتلى .

الآن بدا كأن التاريخ ينقلب متارجاً في هذه البرهة بجثث الشيوعيين الذين يدفعون الثمن .

لقد شكلت فرق الحرس القومي واستخبارات الجيش والباحث ،

وبدأت مداهمات الأوكار والبيوت والأحياء التي تتركز داخلها خلايا الحزب .

دمهم اليوم مباح . من يستسلم ينجي بالاعتقال . ومن يقاوم يقتل . وبالمنشورات والاذاعة ترتفع الكلمات : العراق للقومية العربية وليس لعملاء موسكو . فليأخذ حذراً كل من يلجم إرهابياً أحمر .  
لقد بدأ التطهير .

على مداخل شوارع أحياء الشيو عيين وضفاف دجلة كانت الجثث تتعرّف . وفي شارع الرشيد والسعدون وابي النواس كانوا يقذفون بهم من سيارات خاصة وقد ثقبوا بالرصاص في الظهر والرأس أو ذبحوا بالمدى من الوريد إلى الوريد . وما كانوا ليستسلموا . كانوا يقاومون ببساط واستبسال .

هجوم على مواقع الحرس القومي . إغارة على مراكز الشرطة والاستخبارات . كانوا يقتلون ويُقتلون ويستولون على بعض الأسلحة . أي نصر صغير كان يرفع معنوياتهم ويعطيهم إحساساً دافقاً بضرورة المقاومة في معركة الإبادة .

نشرات القيادة الجديدة ، كانت تحت على الاستمرار في خوض الكفاح المسلح والاستيلاء على السلطة . إنه الامتحان التاريخي للحزب ، حزب «فهد» والطبقة العاملة . وكانوا يستشهدون بمقولات لينين حول ضرورة الوصول إلى السلطة بالعنف الثوري ، محذرين من الانقسام والانحراف والتخاذل ، مؤكدين بأن القيادة الانتهازية وزمرة الجبناء والمعترفين ، سيكون مأواهم مزبلة التاريخ .

\* \* \*

تحت هذه الغمرة تلقى مهدي جواد مع خليته ثلاثة مسدسات مع رشاش من نوع براوننج . نقلها رفيق من حي الشاكرية . كانت مرفقة برسالة من مسؤول الخط العسكري لطيف الحاج : تسليم الرفاق محدود . حاولوا بسلاحكم هذا الاستيلاء على بعض أسلحة سلطة القمع . لا تخاذلوا . الحزب يقاتل بضراوة واستبسال . أخبار سارة تصلكم قريباً . ستفتح جبهة جديدة في الأرياف . النصر لحزينا والموت لعملاء أميركا .

غمرته غبطة مشوبة بإنقاض . هجس بعبارة : حرب اليائسين . وهو يدفن طيور الانهيار قال لنفسه : عليك أن تكون جديراً بالحزب

في هذه اللحظة الحاسمة .

وبحزبه كان إيمانه لا يحذّر يومذاك . طرد من الجامعة لأنّه شيوعي محرض وقادّ مظاهرات . وأكثر من مرّة نقل من عمله التدريسي . كما تعرض على مدى أعوام للمراقبة والتحقيق والاعتقال . ثم طرد من الوظيفة لبِّئه افكاراً إلحادية وأمية معادية للعروبة المقدسة .

نصف حياته عاشه تحت التهديد والنّبذ والتشرد والمطاردة . وها هونا النصف الآخر يمتحن في حرب اليأس .

- ولكن لماذا المبادرة لم تكن في يدينا ؟ لماذا . . .

حالة الحصار ضغطت كمبكس . هجمت موجاً أهوج ينفرد بزورق شراعي في عرض البحر .

أكثر من أي وقت مضى كان يشعر البرهة بالعزلة والاختناق . كان مع رفاقه الآن شبيه نمور حوصرت في غابة .

وما كانت المسألة تتركز في صيده . لقد علمه الحزب كيف يتخطى فرديته . لكن قتله الآن هو رصاصه الرحمة .

- لابد أن خطأ قاتلاً قد ارتكب فيما مضى !

وقال مهدي وهو يخرج من وكره : على من يظلّون أحياء أن يبحثوا عن جوهر ذلك الخطأ ، أما نحن فعلينا أن نقاتل حتى الموت .

\* \* \*

داخل غرفته في مدينة بونه البعيدة جداً اليوم عن مهرجان الدم كتب في اليوميات : «الزمن القديم يضغط موجاً من الأشباح . وهذا المنفى استراحة محارب مهزوم داخله تراجع حسابات الزمن . لكي تظلّ جديداً لا بد أن تشنّ حربك الداخلية في وجه أمواج الانهيار . الانتصار على النفس القديمة مطهر نحو المستقبل ، والزمن يطحن جيلاً ليرقى جيل آخر . التاريخ كما لم يبدأ منك فهو لاينتهي بك أيضاً . لعل طاقة التغيير هي هذه القدرة الداخلية على العبور فوق جسر الصدمة . إثبات أن الخطأ كان غرّضياً .

لعل هذا هو الدليل على استمرار الحياة والانتصار على الموت . الروح الحية التي تنمو أبداً كالعشب في جميع الفصول تحت أمطارقادمة» .

- 3 -

الحرب .

هذه المبالغة التي تشهر شعباً بنيرانها ليصاغ مرة أخرى بتركيب جديد . أحرقت المدن والقرى والغابات والصخر والبشر ، وتركت الأرض وما عليها يباباً .

ولكن ها هم يطلعون من رمادها .

وبضراوتها كانت تفجر ينابيع الحب والبذل والتضحية بلا حساب . كانت تزيل الملكية وتحول الأشياء إلى مشاعر وتلحم الأجزاء التي انقسمت . كل ما هو مضيء وانساني كان يشع بينهم عبر أنهار الدم وتحت لمعان سياط التعذيب .

وعندما كانوا في مضائق الخطر والموت ، هبوا كعاصفة . الآن ما الذي حدث بعد النصر ؟

ويقول مهيار الباهلي : السلب فيهم ترسّب أمام مشهد التهديد . كانوا معروضين للإبادة . الإيجابي . غريزة الحياة صعدت لتواجه غريزة الموت . كانوا متساوين أمام الخطر . ويرد مهدي جواد : كانت حرب المجموع . لم يكن هناك تمييز أو فرز . حرب الشعب الطبقية وحدها التي تلغي السلب . لقد عادت الشرور بعودة الملكية بعد النصر . هذا ما يبدوا .

وقال مهيار : يبدو أنهم منقسمون ببغضاء وراثية قديمة . هذه البغضاء عادت لتمزقهم من جديد . لقد قاتلوا واستشهدوا ليكونوا أحراراً في مدنهم وقرائهم وشوارعهم وساحاتهم ومقاهيهم ومدارسهم ومنازلهم . انظر كيف يصطادون بعضهم بعضاً كما كانوا يصطادون ماضيهديهم . هذا الانحراف الأعمى لماذا حدث ؟

وقالت فلة بو عناب بأن الجزائري بسيط وطيب . يحب ويكره بدرجة واحدة . البسطاء والفقراء والمجاهدون لم يجنوا من الحرب غير حصاد النبذ والجوع . لهذا هم الآن حاقدون .

- ولكن العالم القديم اللاعقلاني لم تحرق الحرب كل قلاعه . لقد ارتدوا إلى وعيهم القديم . حدث انعطاف . عودة نحو الدارة المغلقة . انظر اليهم كيف عادوا للدوران حول معابدهم الأولى . معابد الأجداد الذين انفروا . تحت ضوء هذه الدورة الأنتربولوجية نفهم خصوصية الماركسية ! يقول مهيار المولع بأنتربولولوجيا الشعوب .

كانوا يسرون على كورنيش البحر في ذلك الغروب الربيعي . فلّة بوعناب هي التي اقترحت ذلك . في أعماقها رغبة إشهار تحررها مع رجلين غريبين في وضح النهار داخل مدينة متزمنة . طلبت من مهيار أن يشعل لها سيجارة فسألتها ممتعضاً إن كان ذلك ضرورياً . فسألت باستغراب عن الخطأ في الأمر . وردَّ بأن النساء لا يدخن عادة في الشوارع أمام الناس .

- ولكنني لا أريد أن أتصرف كامرأة ياسي مهيار !

- غريب !

بتأنف أشعل لها سيجارة .

شرراً كان العابرون بهم يلتقطون ، ونكاية بهم كانت فلّة تنفس الدخان نحوهم . وإذا يديرون ظهورهم تمّ لسانها بحركة بذئبة ثم تبصق : كل شيء مسموح لهم أما النساء فليس لهنّ سوى فتح الفخذين . يا الحلاليف . طيز امكم ! تفوه .

- برافو فلّة . تعجبيني . هذا الهاتف قرب البحر يغلنف منه مهيار التقى . ينظر إلى مهدي ازوراراً : معلوم تعجبك لأنها من سلالتك أيها الفاسق .

ظظ . إلى الجحيم أخلاقك العمومية . أنا لست أخلاقياً .

تقهقه فلّة في فضاء العراء البحري : آي . آي . يا للأخلاق الباهلية التي ستغير العالم !

كان البحر ساجياً ، وعلى الصخور وقف الصيادون يدلون بشصوصهم في الماء . نهضوا هناك كتماثيل منتصبة على حافة البحر . وقالت فلّة : تعينا من السير . لو نجلس في مقهى . وطلبوها قهوة وعصيراً وبيرة .

خلال ساعة ونصف تناثر الحديث بينهم دونما ضبط أو تركيز . شتات مبعثر قذفته الذاكرة والحضور الجماعي لأشخاص جلسوا حول مائدة بدا وكأنهم يهونون اللحظة أكثر مما ينشدون الراحة والصمت . مهيار الباهلي استائز بالنصيب الأولى للتنظير حول صدمة الحلم لأرض اليوتوبية الثورية التي لم تنجز ثورتها الديمقراطيّة لحظة قطع العسكر سياق نموها الشعبي فقدموها لقمة ساعنة لهم وللتجار والبiero-قراطية والنهب الامبرالي . وإذا حاولت العنابية وهي ترشف العصير الإشارة

لأول مرة بروح إيجابية إلى التقدم الاقتصادي ومزارع الكولون التي ألمت مع البنوك والبتروال والثورة الزراعية والتعريب ، علا صوت سي مهيار بأن المهم هو الإنسان . التأميم ليس الاشتراكية ، وهذا الذي يحدث ليس أكثر من ترقيع مزيف لا يمحو الاستياب الجوهرى للإنسان . اشتراكية بروح العلم لا بروح الدين هذا ما ينبغي أن يكون . كل هذا البناء الاقتصادي ينهض على الرمل لأن الإنسان الجديد غائب والبلاد متزال تدور في مدار سوق الكولون المهيمن .

وعلى نحو احتقالي ختم محاضرته : القانون الأيديولوجي أعلى من القانون الاقتصادي . عندما تكون المقدمات خطأ فالنتائج خطأ . الوعي العميق بالتاريخ غائب وهؤلاء يهشمون التاريخ ويعيدونه مليون عام إلى الوراء . في عصر الذرة والفضاء والعقل المتفجر يحكموننا بقوانين آلهة البدو و تعاليم القرآن . خراء !

كان مهدي جواد يتملىء البحر من خلال الزجاج المغبّش ، مراقباً الدوران الأبله لطيور النورس التي تقترب من الصيادين وقد شحيبت ظلالهم فوق الصخور . ولكي يبعد عن رأسه طنين الكلمات الضخمة التي يطلقها عقل السيد الباهلي الملتح ، كان يسلس العنان لخياله ، متقمصاً ريش طائر بحري يجب مع آسيا الأخضر كل محيطات وجزر العالم ، بعيداً جداً ونائياً . حتى الأقصى عن كل الكواكب العربية الملعونة التي أفسدتها الروائح الكريهة وحمامات الدم وسفلس السياسة . تحت ظلال المساء الهابط كانت عيناً فلة بو عناب تبرقان وهي تدخن وتنتصت ، مندهشة من تلك القدرة السرية ذات الإيقاع التراجيدي لكلمات مهيار الباهلي المرنة في جدران وعيها رنيناً خارقاً يعيد لها أصداء مجد الثورة الأولى في الجبال عندما كانت تستمع لهذينات سبي الزبيري وهو يصور لها جزائر المستقبل المشعة إشعاع الراديوم والماس والليورانيوم وحليب الطفولة وينابيع جرجرة والاطلس والأوراس الأشم .

انفجر السياق خروجاً من دائرة التاثير وضغط الزمن الهابط كالرصاص ثقيلاً ومملاً عندما سأله مهدي فلة في فسحة صمت ، إن كان مهيار يحاضر عليها دائماً على هذا النحو . انفجر في قهقهة أطلقتها المرأة العنابية من قيungan بطنها ورأسها : آخ . آخ . دائماً ياخويا . ليته كان بارعاً في الامور الأخرى كما في الكلام !

وافتئَ مهيار : العمى ! يبدو أنكما متفقان علىي . عيني . اسمعي أنا رجل متزوج ومخلص لزوجتي . وأشار إلى مهدي : أنا لست كهذا الفاسق

الذى يبدل النساء كما يبدل الأحذية .

وأرددت العنابية تحت سialة ضحكتها الإباحية : سامع ياسى مهدي . سامع ! رجل وفيّ لامرأته على بعد خمسة آلاف ميل . وأين ؟ في بونه بلد الخير والبركات والعاهرات المقدّسات ! ها . ها . ها .

شحب المساء فخرجوا إلى الليل الرطب اتقاء للفضائح التي نشرتها العنابية .

بونه ملأة بالأضواء وفي عمق البحر شعّت مصابيح الصيادين . وسوسست فلة وهي تحتك احتكاك قطة بخاصرة مهدي : يحكون عنك في بلادنا .

- مازا ؟

همست في أذنه : أنك عاشق مهرة بيضاء .

- ولكنني لست مخلصاً كصاحبنا .

دؤت بالضحك وهي تقرص زنده : عيني . عيني . يسلم لي الفهم . وصرخت في عرض الكورنيش : ياخويا . مارأيك لو تتبدالان السكن ! كلمتها كانت تصيب مهيار .

قال مهيار : لامانع لدى .

وقال مهدي : نحن لانسطو على عنب الجيران .

ابتسم الباهلي : الشيوعيون ضد الملكية الخاصة .

\* \* \*

شيء ما بدأ بينهما ، نمو عشب يحاول كسر القشرة الخارجية للأرض . سر شبيه بوسوسة موجة لشاطئ في نهار صيفي .

في أوقات الخلو بين البيت والبحر ، كان ذلك السر يتشكل .

وفي الأشهر الأولى كانت آسيا الأخضر تتحدث بالأسئلة .

مهدي جواد كان يجيب باختزال وإبهام ، وأحياناً بصمت .

- لماذا تبدو صامتاً معظم الوقت . نحن الجزائريين نرى في الصامت أبله . لماذا لاتعطي نفسك بإنسیاب ؟ ضئلين وباطني . في وجهك حزن غريب وحزان . أما زلت تشعر أنك غريب ؟ مرة ذكرت «كامو» ووجهه للطبيعة . «كامو» أحب بحرنا وشمسنا وغاباتنا لكنه حايد عن الآلام التي برّحتنا . ما معنى أن يكون الإنسان عربياً ؟ هل يعني هذا كراهية

الفرنسي ؟

75

رشق الأسئلة كان يوقف مجرى الدرس .

إنه ينبيء بشيء آخر أبعد وأعمق من السر الصغير الذي ينمو بين تلميذة ومعلم في غرفة مغلقة .

لماذا تريد هذه الفتاة فتح مصاريع الأبواب المرتجة . الأبواب التي أغلقتها الكراهية والتعذيب والكذب والأنانية والموت ؟

ويوماً أثراً يوم راح يتضح أن هذه الطفلة الشبيهة بحقل عشب ، ت يريد أن تتعلم كيف تنمو قوية لتصمد في وجه العواصف القادمة . العواصف التي تتحسسها تحسس الخيول للمطر قبل هطوله .

«حالة حصار» كتب مهدي جواد العبارة على صفحة الكراس المفتوح وهو منكب على المنضدة يستمع للأسئلة ولا يجيب . كان من عادته تسجيل عبارات خاصة أوقات الضيق والشروع . أعاد قراءة الكلمة فارتعد . محاها . تناول سيجارة وأشعلها .

دوهم بالكافوس القديم . الأشباح اللعينة هجمت قادمة من فضائها الأسود . وحضر الوطن البعيد لوحه حمراء كشفق .

رقشت اللوحة فتغيرت الألوان . صارت قوس قزح مالبث أن انكسر . جاءت شمس ساطعة خارجة من حجرات وممرات مظلمة .

وسمع أصوات طيور تصيح وتئن بينما الرصاص يخطفها . الجوع والمطاردة والتشرد والفرار من وكر إلى آخر تحت رب الموت . اغتيالات بغداد والموصل والبصرة والحلة ، ثم فاجعة الأهوار .

- اسمك . خليتك . أماكن الاجتماعات . الأوكرار . نوع الأسلحة ومصادرها . قيادتكم خانتكم . إنها في قبضتنا . أتريد الأسماء . استمع : عامر عبد الله . عبد القادر اسماعيل . ذكي خيري . العbelli . صلاح أحمد . جميران . عبد الأمير عباس . صلاح أحمد . السباхи . كلهم اعترفوا . كتبوا براءاتهم . لقد سمعها ورأها الشعب على شاشة التلفزيون وعلى صفحات الجرائد . كالفيران سقطوا وكشفوا الجهاز كاملاً .

الضرب . الضرب . الضرب .

الدم . الدم . الدم .

إذالم تعرف على القيادة الجديدة ستعدم كلب . ابن القحبة . ماكو شيوعية بعد اليوم في العراق . شنو هاي الشيوعية . صار مأواها

المجاري والبواقيع . أنتم شنو ؟ حفنة جواسيس . عملاء لموسكو . سيدتكم باعتمكم . مصالحها معنا . أنت مو عارف أنو السوفيات تجار : قواد ولد القحبة شنو هاي القيادة المؤقتة الجديدة ؟ كالأخطبوط كل ماقصصت له ذراعاً ظهرت أخرى . هيا اكتب كل ماتعرفه عن حسن العبيدي ، والياس ديمترى ، والعلاوى ، والأحمدى ، وخليل كرم . اعطوه الأوراق . اسمع إذا كذبت تعرف نهاية الصامدين في قصر النهاية .

الصمت يدوى . والرأس مختلف ومختلط . والعالم مظلم ومضاء بنور مبهر . أصوات المعذبين والطلقات والصرخات .

آه . يالهذا الجنون الدموي . دوني جبل شامخ ، صلب . ينهار . يتداعى وينهار .

ويستفيق . لا . لا . ليس هذا العراق . تلك حالة من الهذيان القديم عن رجال كانوا يغدون ويضحكون . كانوا يهودون إطلاق النار ويع恨ون الحياة الخطيرة والموت .

والآن انتهى كل شيء كما يحدث في مسرحية عابثة .  
غاب صباح قديم وجاء صباح آخر .

قالت آسيا : أنت متأكد أنك هنا ؟

- بلى . بلى . وأرغب أن أظل هنا طويلاً .

من الرواق جاء صوت لالا فضيلة : القهوة .

وتناولت الفتاة الطبق النحاسي من أمها .

مهدي جواد كان يدخن باضطراب ظاهر .

قالت آسيا : مرير أن يشرك الانسان الاخرين في آلامه .

انتبه ، ابتسם ببلاهة : ربما . إذ اكان لديه مايقوله .

- في حياتك ألم تلق ضيقاً ؟

- حياة عادية ليس فيها مايشير .

- ولكن كيف تكون حياة الانسان عادية ؟

- عندما يكون محابداً لايهتم بالأشياء .

- أنت كذلك ؟

- هل ثمة مايوحى بغير هذا ؟

- هذا الشرود !

- كل ما في الامر إنني انسان غير مندمج كثيراً .  
 تصب القهوة . زنداتها عاريان . زغب أصفر ينام هناك على مسيل  
 الزند المعصفر . كانت ترتدي «الغندورة» الشعبية الملونة .

- ولكن ما معنى غير مندمج ؟  
 - لا اجتماعي . أشعر بالقصور عن الاندماج مع الآخرين .  
 - هل سالت نفسك لماذا ؟  
 - بلـى . دائمـاً أسـائل .  
 - وهـل حـاولـت الانـدماـج ؟  
 - حـياتـي كلـها مـحاـولات .  
 - وـالـنتـيـجة ؟  
 - الإـحبـاط .  
 - ومن المـمـتنـع ؟  
 - لـست أـدـري . أـحـيـاناً أـفـكـر أـنـني رـبـما كـنـت أحـمـل أفـكـارـاً ضـارـة .  
 أفـكـارـاً مـتـطـرـفة ، قـاسـية ، صـعبـة التـحـقـيق . إـنـهـم يـقـولـون : عـلـيـكـ أـنـ تكون  
 وـاقـعـياً . لـمـاـذا لـاتـجـري مـعـ التـيـار ؟ وـأـسـأـل نـفـسي إـنـ كـنـت حقـاً أـسـبـح ضـدـ  
 التـيـار ؟ وـلـكـنـ إـذـا اـنـدـفـعـتـ مـعـ التـيـارـ فـإـلـىـ أـينـ سـأـصـلـ ؟ فـيـقـولـونـ : إـذـا بـقـيـتـ  
 هـذـاـ عـلـيـكـ أـنـ تـقـبـلـ العـزـلـةـ . أـحـدـ مـاـ لـيـسـ مـعـكـ . لـكـيـ تـحـيـاـ مـعـ الآخـرـينـ لـابـدـ  
 أـنـ تـتـنـازـلـ . أـمـيـ كـانـتـ تـقـولـ : يـاـبـنـيـ الـأـرـضـ الـوـاطـئـةـ تـشـرـبـ مـاءـهـاـ وـمـاءـ  
 غـيرـهـاـ مـنـ الـأـرـاضـيـ الـعـالـيـةـ . وـكـنـتـ أـرـدـ عـلـيـهـاـ وـأـنـاـ صـغـيرـ : وـلـكـنـيـ أـكـرـهـ  
 الـأـرـاضـيـ الـوـاطـئـةـ لـأـنـ النـاسـ جـمـيعـاً يـطـؤـونـهـاـ يـاـمـيـ وـأـنـاـ لـأـرـيدـ أـنـ أـشـرـبـ  
 الـأـمـائـيـ . وـتـقـولـ أـمـيـ يـائـسـةـ : سـتـمـوتـ وـحـيدـاًـ وـلـنـ تـجـدـ مـنـ يـكـفـنـكـ وـيـمـشـيـ  
 وـرـاءـ جـنـازـتـكـ . وـبـنـزـقـ كـنـتـ أـجـابـهـ أـمـيـ : إـلـىـ الجـحـيمـ لـأـرـيدـ كـفـنـاـ وـلـاـ  
 مـشـيـعـينـ . أـرـيدـ أـنـ أـمـوـتـ عـارـيـاًـ تـحـتـ الشـمـسـ فـيـ غـابـةـ أـوـ صـحـراءـ ، تـأـكـلـ  
 جـثـثـيـ الصـقـورـ وـوـحـوشـ الـبـرـ . هـذـاـ أـفـضـلـ وـأـهـدـأـ لـنـفـسـيـ مـنـ صـلـوـاتـ  
 الدـجـالـيـنـ وـقـبـورـ الـمـسـلـمـيـنـ الـمـظـلـمـةـ .

كـانـتـ الفتـاةـ تـحـدـقـ فـيـهـ مـتـكـئـةـ عـلـىـ مـرـفـقـهـاـ وـنـقـنـهاـ تـنـامـ كـعـصـفـورـ بـيـنـ  
 رـاحـةـ أـصـابـعـهـاـ ، مـذـهـولـةـ مـنـ هـذـهـ الـأـحـجـيـاتـ . هـوـ لـمـ يـكـنـ يـنـظـرـ إـلـيـهـاـ . كـانـ  
 بـصـرـهـ يـتـوـزـعـ بـيـنـ الـفـضـاءـ الـخـارـجـيـ وـلـوـحةـ الـبـحـرـ الـمـعـلـقـةـ عـلـىـ الـجـدارـ  
 الـمـقـابـلـ . وـبـدـاـ وـاـضـحـاـ أـنـهـ يـرـمـيـ إـلـىـ تـحـيـيـدـهـاـ عـمـاـ لـاـ يـرـيدـ الإـفـصـاحـ عـنـهـ .  
 وـسـأـلـتـهـ إـنـ كـانـتـ أـسـرـتـهـ شـدـيـدةـ التـعـصـبـ فـقـالـ : أـكـثـرـمـنـ أـسـرـتـكـ .

- ولكن من أين جاءتك القوة على المواجهة ؟

- منذ الصغر أحسست أنني قوي لا أخاف . كنت أرعى وأصطاد الطيور وأشتبك في شجارات دامية في الحي . الأطفال كانوا ينقسمون إلى عصابات . كنا نقتل بالعصي والأيدي ونشتبك بالسلاكين . سكاكيين المطبخ المسنونة . الأحياء الشعبية شرسة . المتشردون الحفاة والوسخون كانوا يتشارون في حينا كالذباب . الجوع والبيتم ووحشية الآباء علمتنا القسوة . طفولة أرقعة الولحل والأمراض والجوع تبني الحقد والكراء . كان العالم ملطفاً على نحو ما . جزء من الطفولة عشتها في الطبيعة بين الرعي والصيد . الطبيعة علمتني الحرية وشحنتني بالصلابة . كنت أتملي طويلاً الأشجار الشامخة والصخور وأراقب الهوام والوحوش من أعلى الشجر وهي تتصارع . الأشياء والحيشات والحيوانات وهي تغالب وحشية الأعاصير والرعد والأمطار . أقف طويلاً تحت المطر وفي مهب العاصف لأمتحن قدرتي . المغامرة الأولى فتك بي وكانت تودي بحياتي . فيما بعد اعتدت الأمر . صرت آوي إلى الكهوف والمغاور الصخرية . الأطفال في حينا كانوا يسمونني القط البري . وأنا في الثانية عشرة مات أبي . أمي تزوجت من رجل قاس كان يعمل حمّالاً في سوق المدينة . أبي الذي مات لم يترك لنا شيئاً . في بيت عمي كانت الحياة قاسية . كان يعود مخموراً في آخريات المساء وليس في جيبي شروى نقير . تسأله أمي عن أجرته واحتياجات البيت فيصرخ ويتشتم وينهال عليها . بوحشية كان يضربها بقبضته وبالعصا . أمي كانت تُغول وهي تطوقني خوفاً منه على . أحياناً ينزعني من أحضانها ويقذف بي خارج البيت . تلتقطني أمي من وحل الزقاق . تلفلفني وتهرب بي نحو بيوت الجيران طالبة الحماية . بعد أن كبرت استمر ذلكulum في ضربي كما يضرب الكلب . كنت أحتمل ضرباته الوحشية ثم لا ألبث أن أهرب إلى البراري لأنام أياماً في الكهوف وإذا يغضبني البرد والجوع أعود . فيما بعد وقعت أمي فريسة مرض السل . ثم ماتت .

ولكن من أين جاءت هذه التهويمات . هذه الانبعاثات الطفولية الخرقاء ؟ أية مناسبة حمقاء فجرتها ؟

كان واقعاً الآن تحت تأثير موجة الندم .

سامحيني ثرثرت أكثر مما ينبغي . هذه أمور شخصية ما كان يجب أن . . .

- لا . لا لماذا تعذر ؟

موج الاشعاع الداخلي طفا على وجهها فبدأ ساطعاً كصفحة بحر تحت شمس : كنت تفيض بأشياء خارجة من نبض القلب . الآن أعرف حزنك .. أفهمك أكثر .

وهما يشربان القهوة ، ولجت الصالون فتاة . جمالها الوحشي والصاعق ملأ المكان . حيث بالفرنسية ثم صافحت باستحياء : أختي منار . قالت آسيا ثم تابعت : تعارف مباشر . منار تحب الرقص والموسيقى وشارل أزنافور وجوني هوليداي والتنس والشوكولا . ولكنها لاتطبيق اللغة العربية . إنها تعرفك قبل أن تراك . حدثها كثيراً عنك .

ضحكة منار الارتجاجية هزّت الصالون . في عينيها وعلى شفتيها القرمزيتين ، غنى طفل جامح ، مفعم بحيوية . صبت لنفسها في قدر زجاجي مزيجاً من القهوة والحليب ، وتناولت أكبر قطعة كاتو . كانت تأكل وتشرب بهم وصمت ولا مبالاة .

مهدي جواد بدا مربكاً ، ومصعوقاً . بين الأختين انطلق حوار سريع بالفرنسية . كانتا تبسمان بإشراق طفولة . للحظة أحس بالعزلة والخارج وفكـر : آسيا ومنار لا تبدوان أختين . وجه أفريقي أسمر يحاذـي وجهـا رومياً أبيض .

انتبهت آسيا كأنما ضبطته : نحن لانتسابه . ما رأيك ؟ واستطردت ساخرة : دائمـاً أقول لهذه الكحلة أنت لست أختي ؟

سأل مهدي إن كان أحد من السلالة قد تزوج من أجنبية فقالـتـ بأنـ جـدهـاـ كانـ متـزـوجـاـ منـ فـرـنـسـيـةـ مـاتـرـالـ حـيـةـ وـهـيـ تحـبـ هـذـهـ الـكـحـلـةـ أـكـثـرـ منـيـ .ـ مـاتـدـخـرـهـ مـنـ أـمـوـالـ تـعـطـيـهـاـ مـنـهـ .ـ تـقـولـ عـنـيـ :ـ أـنـتـ فـورـمـ فـرـنـسـيـ يـتـقـمـصـ رـوـحـ الـعـرـبـ .ـ أـخـتـيـ دـلـيـلـةـ تـخـتـلـفـ عـنـاـ .ـ مـنـ يـرـانـاـ لـاـيـصـدـقـ أـنـنـاـ أـخـواـتـ .ـ أـنـاـ أـشـبـهـ بـاـبـاـ كـثـيرـاـ .ـ بـاـبـاـ كـانـ جـمـيـلاـ وـأـبـيـضـ .

ـ لـكـ أـخـتـ ثـالـثـةـ ؟

ـ مـتـزـوجـةـ مـنـ عـاـمـلـ جـزـائـريـ يـعـمـلـ فـيـ مـدـيـنـةـ نـيـسـ .

الفيلا الزرقاء الموشحة بالهدوء في حي اللورانجي راسية تحت الأصيل . من خلال النافذة والستارة البيضاء ، كانت ترى أعلى شجرة الدردار القائمة في شارع الكولونيل لطفي حارسة شجر البرتقالي المزهر . انسال غروب بونه العذب أشعة شفقية على الجدران وتراب الأرض وأوراق الشجر . تهب نسائم رخية فترتعش الستارة وتندفع إلى الصالون

روائح زهر الليمون . تحت هذه العذوبة الخارقة للقلب ، تتراهمى الغبطة والسلام وأنس العائلة .

فجأة تقول منار : سندخن . بهرج وجرأة ترمي المشروع . تضحك آسيا : أنت ستدخنين ؟ غريب !

تهزج منار : أنا أعرف أنك تدخنين . لماذا أنت يحق لك وأنا لا ؟ كانت الآن تشعل سيجارة تناولتها من علبة مهدي .  
ـ وإذا مادخلت ماما ؟

تقول منار وهي تسعل من الدخان : أبتلع السيجارة هكذا . قلبت السيجارة واضعة طرفها المشتعل داخل فمها وبدأت تنفث الدخان من الفلتر وأنفها .

ـ ياحلوفة . أنت محترفة إذ ن وأنا لا أدرى ؟

وانخرطوا في ضحك امتزج بسعال منار .

قال مهدي : أتكرهين اللغة العربية فعلا . منار ؟ أو صحت بأنها تحسها صعبة غير مفهومة . ولأنها مادة ثانوية غير مهمة في قسم التجارة والمحاسبة فهي لاتهتم بها .

بصعوبة وإحراج راحت تشرح فكرتها مازجة عباراتها بكلمات فرنسية ولهجة محلية . وسألها إن كانت تفهم حديثه معها تماماً فقالت : قليلاً .

عن طريق آسيا سأل منار عن إحساسها بهذا العجز .

بطفولة فطرية ابتسمت . حرّكت يدها بارتباك فوق سطح الطاولة . كانت ترسم أشكالاً سريالية لامعنى لها : لا أدرى . أنا لا أحسن بضرورة العربية . ولسبب ما اندفعت آسيا بين المزاح والجد : نحن عرب ونريد أن نتعلم لغتنا الأصلية . اللغة التي سلبهما منها الكولون . هناك صعوبات لكنها لغة أجدادنا الأوائل الذين قدموا من الصحراء .

بالفرنسية والعربية كانت تشرح . سألهما مهدي عن عبارة الصحراء فقالت : نحن من ولاية الصحراء . من باتنة . ولاية عربية من زمن الهلاليين .

مع دخول للا فضيلة سحقت اللفافات ببرؤوس الأصابع تحت الطاولة ثم أسقطت تحت الأقدام بحركات مسرحية مرتبكة .

للأم قدّمت القهوة باحترام وتواضع . للا فضيلة سأله مهدي عن

تقدّم ابنتها في الدروس . قال مدرس اللغة : آسيا ذكية وتقدّم بسرعة غير عادية . والتفت الأم نحو منار : ولكن منار لاتفقه من العربية حرفاً . ضحكت منار باستهتار . وبلا مبالغة نهضت : بدأ برنامج «أم تركي» في التلفزيون .

ابتسمت لالا : برنامج «ام تراكي ناس ملاح» خير من العربية  
والفرنسية يا الكحله !

أكملت الأم قهوتها بسرعة ثم خرجت .

سألته وهو منفرد إن كانت تقدم حقاً في اللغة.

- بالتأكيد . إنما ينبغي التخفيف من الحوارات العامة .

- وهل سانجح ؟

- و لم لا ؟

## - وساقاً كتبًا بالعربية؟

- أَوْه . مُؤَكِّد يَزَّى أَسْئَلَةٍ يَا ثَرَاثَةٍ . أَفَ !

تناكده : وأستطيع أن أفهم عليك وأنت تتحدث بالكلمات الصعبة ؟  
كانت ترقص بكل جسدها وهي تسأله فرحة باكتشاف الايقاع الطفولي  
للغة .

الطفلة - المرأة التي تجتاز عتبة الرشد إلى مجرات العوالم الغامضة والغريبة وهي تخيلها مجرات من الفرج والغبطة .

في مجرى هذه الأشهر واللقاءات كان مباغتاً بهذا الكنز . الأقحوانة التي تنمو في باراري بونه بين الصخور والشوك وصرخات الريح الوحشية .

\* \* \*

يكتب مهدي في اليوميات : أمر مهم أن يكافح الانسان ضد وحش العزلة وضراوة العالم المسموم . أن يدق بلا كلل أبواب الكهف للخروج إلى الأشعة والضوء . الحياة يمكن أن تكون جميلة وعذبة رغم الشقاءات . التوق للاندماج شوق لحياة حقيقة تتحقق بين رجل وامرأة يتهدان لمحابهة قسوة العالم . افرء جناحيك وانهض كالبلجع في ثلج الفضاء العاصف .

آه . لماذا ننسى في غمرة الألم والرداة صوت موسيقى البحر

ورنين الأمطار وصعود الأنساغ تحت اللحاء القاسي للشجر . إنه الدفء يشع من عيني امرأة . هذه التي على وشك الصراح : لماذا لانتضام كالطير في ليالي الصقيع ثم تنهض مع أشعة الفجر وتحن نفني !

#### - 4 -

صباحات أفريقيا عذبة ، رغم برودتها القاسية . فجر حزين وغامض كأسرار الغابات ، يحمل في هبوب ريحه روائح مفعمة بالبراري وشفوف البحر .

إن الغموض الذي يوشي غلاف المدينة ، يطوقها بشفافية الأسى والصمت . هذه الموسيقى المموجة بالأسرار ، تنجلی تحت الفجر الرطب حيوية وشوقاً .

العمال وال فلاحون والطلبة ، وهذه الطيور الصائحة عبر الغابات وفوق مياه البحر ، توقعها شمس بونه ، فتتدفق بكل دينامية أفريقيا العذراء .

وصباحات هذه القارة المضاءة والخضراء ، تقول شيئاً متناقضاً يصل منابع الدهشة . ما أعزب هذه القارة وما أقصر الإقامة هنا ! هذا ما يحسه الغرباء بعد وقت .

إحساس المنفى يتوقف مع انفجار الحب . وكما يتجلّى الجنس إليها أفريقياً مقدساً يرمز لقوة الجسد والطاقة البكر في هذه القارة الحارة ، يشعر الغريب الوافد وكأنه طير مهاجر من طيور لقالق القطب هبط خطأ أو تعباً هنا .

لابد أن إدراك أفريقيا والاندماج بدمها ، أفريقيا المتوجهة ، الغربية ، الغامضة ، المتثبتة ، المشعة بحجرها الناري الذي لم يمس ، يحتاج وقتاً طويلاً وقلباً جاهزاً للانفطار .

الوحش الاستعماري سمي هذه الطاقة المخزونة والمشعة في أعماق البشر والبحر والشمس والغابات ، باسمة : الوحشية ! هذا البريق يرى ساطعاً الآن من شرفة بيت مهدي جواد الجديد .

بعد شهر عشر على غرفة في الحي الغربي من المدينة .

عندما طرده الحاج محمد قال له : أنتم معلمون ياشيخ . والشيخ يأتون إلى هنا للتدرис القرآن لا من أجل النساء .

رجب السخريّة من الحاج مادام مطروداً لامحالة . قال للحاج محمد : أنت مخطيء يا حاج . القرآن يتلوه حجاج بيت الله . والمعلمون لا يجرون النساء على المجيء إليهم . هن اللواتي يأتين باختيارهن . واستطرد مغيظاً : عندنا في الشرق مثل شعبي يقول : عضو الغريب حلو . وكل جديد وله لذة . والأمثال يا عمي الحاج خلاصة تجارب الشعوب كما لا يخفى على فهمك اللبيب .

وفاجأه مهدي هازئاً : يا عمي الحاج بصلة محمد على رأسك هل أحببت في حياتك ؟

وقال الحاج : واحدة . واحدة على سنة الله ورسوله .

- طبعاً تزوجتها ؟

- أكيد

ولكن الله قال : انكحوا ماطاب لكم . ورسولنا المعظم كان مثالنا جميعاً ونحن على سنته . لقد تزوج أكثر من عشرين امرأة بين شرعية وخليلة ومتعة . وكان صلوات الله عليه وسلم يقول : تناسلوا . تناسلوا فإبني مفاحير لكم الأمم . استبدل الغضب بالحاج : الرسول تزوج حسب الشرعية . أما أنتم فتريدونها شيوعية . والله تعالى قال في كتابه العزيز : إذا ابتليتم بالمعاصي فاستتروا .

وصرخ مهدي ضاحكاً : يا عمي الحاج رغبنا الاستئثار فإذا بمخابرات ربي تقرع علينا الابواب الموصدة .

وضاق صدر الحاج بالحوار فصاح : هيا . هيا عجل يا خويا . يرحم والديك . المستأجر الفرنسي سيأتي بعد ساعة . يزي تمسخر . وقال مهدي : سأسرع يا عمي الحاج . مؤكداً أن المستأجر الفرنسي سيملاً لك جدران الغرفة بسور من آيات الله والأحاديث النبوية .

\* \* \*

أصيلاً قرع الباب . لا لا فضيلة وأسيما ومنار . قالت الأم وهي تنزع خمارها الأبيض وعباءتها السوداء : حبيباً نزورك في دارك . مبروك السكنى الجديدة . واش راك ، لا بأس ؟  
- أهلاً بكم . لا بأس .

وجلسوا . أسيما على السرير . منار وأمها على كرسيين من الخشب .

- البيت متواضع . العفو منكم . تعرفون حياة الغريب هنا . ظهر الامتعاض على وجه آسيا . هذه «الغريب» كم تجرحها . ويوماً قالت : يبدو أنك تتلذذ بتكرار هذه الكلمة . أشعر بالإساءة وأنت تقولها . قالت ذلك رداً على عبارة سجلها بالفرنسية في دفترها « *l'étranger reste étranger* » الغريب يظل غريباً .

عندما قرأتها تناولت القلم بعصبية شطبتها : لاتعد إلى تكرار هذا ما عدت غريباً . أنت واحد منا . فهمت !

- هذا ما تريدين لكن المسألة ليست هكذا .

- أوه . كم تثير الحنق أحياناً . لماذا هذه الحساسية المريضة ؟

- سأوضح لك يوماً معنى الغربية الداخلية . شعور الندم بقدوم الإنسان إلى العالم خطأ .

أثنت لا لا فضيلة على الغرفة . سألت كيف انتقل وتخلس من الحاج محمد الذي وسمته بالحلوف .

قال مهدي : أسكن الحاج غرفتي القديمة مهندساً فرنسيًا زاد له الأجرة ضعفين . لو تأخرت ليلة في الخروج لرمي بأمتعتي إلى الشارع .

- أوه . يالجزائريين الأجلاف ! علقت منار .

ورد مهدي : لكن هذا الحاج لايمثل الجزائريين .

وقالت لا لا فضيلة : دينهم المال . وحق ربي اليهود متآلفون أكثرمنا .

تنوّجه إلى آسيا : تصوري حاج مسلم يفضل الرومي على العربي من أجل الدر衙م . حؤسى على تاريخ هذا الحلوف يطلع «غومي» مخبر لفرنسا أيام الثورة .

وهي تتناول الراديو قالت آسيا : يوماً خلينا منه . الرجال ماتوا والخنازير تأكل الوطن . هذه بلادنا .

انعطفت بتيار الحديث . سألت أختها : منار ، يا الكحلة . مازا تحبين من الأغاني العربية ؟ ضحكت منار ضحكتها الارتجاجية : هل يغنى توم جونز بالعربية ؟

حنان فيروز الدافيء صدح .

- منار . مارأيك بفيروز ؟ سأله مهدي .

- آسيا مجنونة بها . أنا أحب لها : تك . تك . يم سليمان .

حول الثقافة والحضارة الأوربية انطلق حوار مقتضب . طرحت على شكل أسئلة وجهها مهدي لمنار . كانت تجيب بالفرنسية . آسيا ترجمت الجمل الصعبة . لخصت فكرتها بأن الأوروبيين عفويون . أكثر صدقًا مع الحياة منا وأقل تعقيداً . يعبرون عن أحاسيسهم ببساطة وحرية ، أما العرب فمتعصبون محكومون بشروط التقاليد الموروثة . ليسوا أحراراً من الداخل .

جاهداً حاول مهدي أن يوضح الفرق بين العرب القدامى والعرب المعاصرین . كيف يحاول الجيل الجديد التعبير عن الحياة ببساطة وصدق وحرية : الجيل القديم مازال الأقوى في الوقت الراهن . لكن الصراع بين الجيلين سيكون مستقبلاً لصالح الأجيال الجديدة المتطرفة . سألت لا لا فضيلة : يعني أنا من الأجيال القديمة . وبيننا حرب ؟

ضحکوا . قالت آسيا : لا يا يوماً . أنت «مودرن» . مادمت معنا فانت من الجيل الجديد . المهم ألا تكوني من حزب عمي يزيد . قالت الام : لكل جيل زمانه وتقاليده . كتاب الله يقول : نحن وجدنا آباءنا على سنة ونحن على آثارهم لمقتدون . استشهدت بالأية خطأ .

شع الجو حافلاً بالغبطة . سأله مهدي : شاي أم قهوة ؟ صفت آسيا بمرح : شاي . شاي عراقي . أموت بالشاي العراقي . أنا سأجهز لكم الشاي . ونهضت نحو المطبخ . رفعت منار كالعصفورة : آسيا . ياعراقية . أنا لا أحب الشاي . اعمل قهوة وإلا نقول مافي قلبي .

- لا يوجد حليب . قال مهدي .

حسمت لا لا فضيلة الخيار : شاي . شاي عراقي . نحن في بيت سمي مهدي نشرب كما يريد وفي بيتنا كما نريد . احترام العادات والتقاليد واجب .

نرفزت منار : هوه . أف . عدنا إلى التقاليد . حتى في القهوة والشاي لا توجد حرية عند العرب . وقلبت شفتها السفلی امتعاضاً .

قال مهدي : باهي . آسيا تعد الشاي وأنا القهوة .

\* \* \*

اسطوانة يزيد ولد الحاج تدور . تديرها لا لا فضيلة بينما منار وآسيا تعبثان بالمسجلة والأشرطة . تروي بداية هجرته من منطقة القبائل

البربرية إبان حرب التحرير . ثم توضح كيف كان فقيراً معدماً اضطر للعمل في السوق السوداء إلى أن أثرى بجهده وعرق جبينه . ثم كيف تزوج من امرأة أصيبت بمرض عقلي فدمرت حياته وجزءاً من ثروته : الآن يزيد رجل نشيط . رجل ذو نفوذ وكلمته هي العليا عند الوالي وقاد البوليس ومسؤولي الحزب .

تشعر بالاعتزاز والنشوة وهي تتحدث عن علاقاته مع بعض الوزراء والضباط الكبار ورجال الأعمال الفرنسيين : ومع ذلك يخشى التأمين . تهديدات بومدين بالاشتراكية تشجع العمال . لقد بدؤوا يسرقون ويطالبون برفع أجورهم . ويهددون باستلام مصالحة .

توقف قليلاً لتسأل مهدي : قل لي ياسي مهدي . عندكم في العراق كاين اشتراكية ؟

يضحك : في العراق وسوريا ومصر وسائر بلاد العرب لا يوجد غير النهب والقتل والأكاذيب . الحكماء العرب ياخالة للا حلاليف وطغاة وأعداء لشعوبهم . هؤلاء يتحدثون عن الاشتراكية كما يتحدث الحاج محمد عن الدين . ولكن كما الدين بريء من الحاج كذلك الاشتراكية بريئة من حكامنا .

تسأل للا فضيلة بعفوية شعبية : ولكن الدين هل يسمح بهذه الاشتراكية ؟ انتبهت آسيا : يوماً . الدين هل يسمح بالظلم ؟ صرخت من المطبخ

قالت الأم : حاشا لله .

ونبضت آسيا بفتحة : من يملك لابد أن يظلم من لا يملك . هذا قانون البشر .

تقول الأم بدهشة : ولكنك تعرفين قلب يزيد الحنان وكيف يعامل العمال والناس !

- أنا لا أتحدث عن عمي إنما عن الأغنياء الذين يكرهون الفقراء . دائمًا الأغنياء يثرون من غرق الفقراء . هذا كان من بداية العالم . بن بيللا سار بالجزائر نحو الاشتراكية . لماذا قلبوه ؟

للا فضيلة تؤرجح رأسها . تسوي حزامها الذهبي الذي قدمه يزيد لها في ليلة العرس . ترشق عبارات مبهمة عن الجيل الجديد الذي لا يعجبه شيء . حبها الجارف لابنتها يطغى :

- لا أعرف يا ابنتي . لا أعرف . أنتم متتعلمون وتقهرون أكثر . نحن

قدامي ولم نتعلم . يلعن أبو الظلم والظلأم . والله أنا ، وأنت تعرفين ،  
أقطع لقمة الخبز عن نفسى وأعطيها للفقراء .

في الجلسات السرية بين مهدي وأسيا ومنار ، كانت آسيا تسمى  
يزيد ولد الحاج «الغول» . منار تلقبه «بهتلر» البيت وتبدأ تقليد صوته  
الأمر . الصوت العسكري : لا لا . أين كنت اليوم ؟ مانوع الطعام الليلة ؟ لا  
لا . بناتك يستعملون التلفون ياسين . اسمعي . بعد الساعة السابعة لا أحد  
خارج البيت . لا لا لا . يأمر كما ربي . وتكلم آسيا مقلدة : منار .  
جهزي العشاء . آسيا . أوقدى الحمام . أطفئوا هذا التفزيون . فيلم  
خامج . بومدين حوال الجزائر إلى «بورديل» . طاح الدين والشريعة  
خربت . لا لا هاتي . لا لا تعالى . لا لا . روحي . يزيد ولد الحاج الله -  
الطاغية والأمر الناهي ، أكره كلمة عليه أن يقال له «لا» في وجهه .  
من رأس ماله استمد طغيانه . بهذا المال كان يخيل إليه أنه يحرك  
دفة العالم ويوقف الأرض عن دورانها ساعة يشاء . لقد امتدت فروع  
تجارته من وهران غرباً إلى قسنطينة وعنابه شرقاً .

فروع تجارته وصلاته مع المسؤولين ورجال الأعمال ، ورحلاته  
إلى تونس والمغرب وفرنسا ، أوحى إليه يوماً بأنه مؤهل لحكم الجزائر  
حاماً ديمقراطياً أفضل من حكم بومدين العسكري وبين بيللا الشيوعي  
الأحمر . بذلك وسوس للا لا فضيلة في مساء مخمور .

آسيا لحضر سمعت طرفاً من هذيانه في تلك الليلة الصيفية فظلت  
تضحك حتى غفت .

### - 5 -

إذ يهدأ الاعصار تنحس الأمواج وتسقر . إيقاع رتيب ومتناهم  
للمياه وهي تصافح الشواطئ بوداعة وأنس . لقد تلاشت الريح الززع ،  
بعد أن بعثرت الأشياء مخلفة وراءها الحطام والصدى .

ثمة هبوط رخو للأشياء وهي تتموضع في القاع دونما ضجة . في  
هذا الوقت الشبيه بنهاية حرب ، يعتكف الناجون من الزلزال ليقدموا أمام  
المرايا حسابات الخطأ والصواب .

ربما كانوا الآن أقل صداعاً ، وأكثر هدوءاً ، لكنهم بوضوح يرون  
ما وراء الجدار .

غير أن استراحة المحارب تحت هذا الأصيل الرخي ، تبدو في

موشور ما أقل عنفاً مما يتبيني .

هذه الاستراحة ضرورية لطيور الأفق بعد رحلة المحيط .

ونحن نراجع في حجرة النقد والنقد الذاتي السرية ، نسأل : آه .  
ولكن لماذا حدث ذلك .

غير أن السؤال الأكثر تنفيضاً لمهدى جواد في منفاه هو الحصول  
على الجواب الحاسم : أين يكمن العطب ؟  
لكن السد الناهض كجبل من صوان عصي على الكسر : كيف تبني  
من جديد ولا تتحطم ؟

كانت الأسئلة اللاجواب عليها تتناقل في رأسه كأنشطارات ذرية  
تهوي من سماء بعيدة على شكل فراشات من الثلج .

في مدار هذه الشلالات الباردة والحرارة ، يأتي صوت آسيا كالنذير  
ذات ظهيرة : كلما اختمرت الأرض بالمطر ينهض عشها أقوى وأنضر .  
آنذاك كانت تتحدث باستبطان مجازي عن جوهر علاقتها الموشكة  
على البوح .

وكان مهدى جواد ساقطاً على غير ماتشتئي رياح سفنه ، بين  
أرخبيل الماضي والزمن الراهن . بين الأرض التي تميد تحت قدميه  
والأراضي الصلبة المترائية على أبواب البحر .

- كم كانت الهوة عميقه . وكم كان الخراب كثيفاً !

في تلك الأزمنة . أزمنة العواصف ، بدا مريراً التنبؤ بأن رب هذه  
الأرض كان يزحف ، وهو ينسل من عصور الرمل والشمس ، ببطء  
السلحفاة .

\* \* \*

في المدارات التي تلامس المركز لتنحسر عنه أحياناً ، كانت  
الحوارات تختدم .

في المدن والأرياف والشوارع والساحات والمقاهي والجامعات  
وداخل الأوكرار السرية .

كانوا جميعاً يتربّون كسفينة ياغتها إعصار ، تحت الضربة التي  
شدّت مبادرة الحزب فراح تشرطه يميناً ويساراً ، أفقياً وعمودياً .  
ولعمق الصدمة وفجائتها ظهر على شاشة مهدى جواد ذلك الذهول

والاضطراب المفجعين للصواب .

ولكن أين توارت تلك الجحافل التي كانت تفيض كالسيل لحظة كانت صرخة الحزب تعلو في الفضاء !  
هكذا انشطر العالم .

اللجنة المركزية على ضفة المراوغة وشاطئ النضال السلمي  
الديمقراطي والبورجوازية الوطنية .

والقواعد النامية تحت وهج الثورات المسلحة في الفيتنام وكوبا  
والاورغواي والمقاومة الفلسطينية ، على الضفة الأخرى .

كان الزلزال يرجأ أرض العراق ، وبين الترنح وصدمة الموت ، رأى  
مهدي جواد السماء والشجر وشواطئ الأنهر وهي تكفن الفتى  
والجرحى .

وفي المعقلات ، أمام فوهات البنادق وشفرات الحراب ، سقط  
المتخاذلون كالطير في الأشراك . لقد أعدم سلام عادل وجمال الحيدري  
أعضاء القيادة الثورية . وفي معسكر الوشاش والرشيد اخترق الرصاص  
أجساد الجنود والضباط ، بينما كانت فرق الاغتيال القومي تقوم بمهام  
صيدها في شوارع وأحياء بغداد والموصل والحلة والديوانية .

تحت هذه الغمرة بين لمعان الدم والاستشهاد والبسالة ، فرق قسم من  
قيادة اليمين إلى موسكو ، واحتوى قسم آخر بقواعد الثورة الكردية في  
السليمانية . ومن موقع قيادة البارزاني ، شنت قيادة اليمين هجوماً  
ضارياً ضد من سمّتهم الانشقاقيين من دعاة الخط الصيني والكويبي  
المغامر ، ودعت كوادر وقواعد الحزب للالتفاف حول القيادة الشرعية  
الأمينة للتاريخ نضال الحزب .

كانت خلايا القواعد من الكادر الثوري وقيادة بغداد ، تتحين  
لحظات الانفراج والهدوء النسبي في المطاردة وال Zukrakas التي تداهم  
البيوت والأوكار السرية ، لتقوم بحملات دعائية مكثفة ضد افتراءات  
اللجنة المركزية التي خانت الحزب وكشفت أوراقه إبان تعاونها مع  
الديكتاتورية العسكرية .

وتحت هذه الغمرة كانت مجموعة الكادر اللينيني بقيادة العلوي  
وجماعة بغداد بقيادة عزيز الحاج ، ووحدة اليسار بقيادة أمين خيون ،  
تدعوا إلى توحيد فصائلها تحت شعار خوض كفاح مسلح طويل الأمد .  
لكن الصدع كان عميقاً ، والضربة اخترقت القلب . كانت الحالة

تشبه استفافة ما قبل خفقة الموت . لقد حزمت السلطة أمرها هذه المرة ، ولكي تكون جديرة بأخلاق الخلفاء الذين أبادوا الزنج والقراطمة ، صممت أن تكون وفيية لميراثهم .

هكذا ابتدأت عملية صيد وإبادة الحزب تجري وفق منهج شديد الدقة ، والتركيز ، والفعالية .

وفي أعماق مهدي جواد نزيل سجن الحلة ، كان المشهد يتراءى ملوناً بالدم والنيازك المشظاة .

مشهد أول خلية سرية تكونت في بيت حمدان القرمطي وبابك الخرمي وعلي بن محمد وسبارتاكوس ، بغية تدمير العالم القديم الاستبدادي .

وفي الطرف الآخر ، داخل القصور والقلاع وبيوتات الحريم وثكنات الحرس الامبراطوري ، رُسمت الخرائط والخطوط السرية لتحركات الجيوش والخلفاء والجنرالات للحفاظ على هيكل ذلك العالم المقدس . هيكل الوحش الصحراوي العائم فوق بحار البترول والتعازيم الخرافية للدين الحنيف .

هذه الخطوط والخرائط والوثائق القديمة ، بدا كأنما الآن يعاد إخراجها وترتيبها وقراءتها من جديد تحت ضوء العصور الحديثة .

لقد بدأ المحققون السادسون في أقبية التعذيب والمعتقلات ، وداخل القلاع العسكرية ووزارات الدفاع والداخلية والأمن القومي ، يحلّون رموز الشيفرة بوضوح ومهارة : ضرورة التحطيم الذي لهيولى الجنين الماركسي النامي في رحم الأرض العربية إلى أبد الأبدية .

الربيع —————



يبدو أن الشتاء يتأنب للرحيل . كمسافر هونا يجمع غيومه وعواصفه وأنباب صقيعه . يضعها في حقائبها السماوية ويهاجر إلى ماوراء البحار .

الضوء الذي سطع في سماء بونه وفوق حجارتها وذرًا أشجارها يتبىء بذلك .

لكن هذه الشمس الأفريقية تبدو أشد حدة من شمس الصحراء . الشمس القريبة من خط الاستواء والمنعكسة على جلود وأدمغة البشر ودمائهم المحرورة .

بين ممرات الحدائق والساحات وفوق الطرق المؤدية إلى الجبال وعلى الشواطئ البعيدة ، الحب يفيض وينتشر .

أشعة شهر مارس التي تكسر حدود المدينة تتتدفق كالشلالات ضامة تحت أجنحتها وطيوفها ، العشاق والطيور وحشرات الأرض الدابة بين الأعشاب وتلال البراري .

أصوات . أصوات وهمسات غريزية تطلقها هذه المخلوقات الرائعة التي لا تحب الموت .

احتفال عذب لكون ما يزال عامراً بالحنين للبدائية الأولى .

بدائية الجسد الدافق بالدم والشهوة وتصالب أشعة الطبيعة داخل الشرابين .

حيوانان صغيران ينحدران بين التلال الشرقية باتجاه البحر تحت أصيل بدت شمسه معلقة كأجنحة الطيور فوق أشجار الأفق .

ما الذي أتيت من أجله إلى هنا ؟

ولأن السؤال كان صدى للهاجس الداخلي ، اختلط عليه الصوت والسؤال تحت هذا الأصيل الشفاف ، الجارح للقلب .

فراراً ، فراراً نحو أرض لاتقسو . نحو رحم دافئ .

وما كان متأكداً من السؤال أو الجواب . وفي ذلك الزمن ما كان متأكداً حتى من جلده أو رأسه أو دوران الأرض . كانت الأمور تتربّع في خريطة عقله ومجرى دمه على نحو سريالي يشتت كل العقلانية القديمة التي أسسها ببدأب منطقى من خلال وهم تغيير العالم بسلطة نور العقل الكاف لسحر نور الله في مخلوقات ماوراء الطبيعة .

وما كانت عبارته أو جوابه بالدقة المطلوبة . إنه يعبر أحياناً بمواربة أو بمجاز يستعصيآن على آسيا لحضر التي احتجت بالفرنسية : أنت اثنان . واحد مع نفسك وآخر معى . لماذا ؟

من بين شفتيه خرج لحن أغنية شعبية . تررٍ . تررٍ . لا . لا .  
تلّاه صفير حزين ينشد الرعاة أو الخائفون على دروب القرى في الليالي  
الخالية من النجوم .

في ذلك الأصيل ، تحت تأثير بخار البحر ولمعان الأشعة فوق الماء وزقو النوارس ، ثرثَر قليلاً عن أزمنة مضت . حكايات وتاريخ وهرطقات ابتلعها الوحل ومستنقعات الشرق .

الزمن الذي يدور حول نفسه كالشرنقة . والحادث الناقص الذي لا يكتمل كنمر أو حكاية شهرزاد . الطفل الذي يولد في الشهر السابع بعملية قيصرية ثم لا يلبث أن يموت تحت صدمة الضوء . الصحراء الصحراء . وشمسها القاسية المعطلة للنمو .

وصرخت الفتاة : اووه . ياللجنون ؟ أنا لست طفلة .

- لماذا تصرخين هكذا ؟

- هل تعتقد أنني لا أستحق مشاركتك ؟

- مشاركتي !

- لماذا تتركني دائمًا معلقة في فضاء الرموز والهوامش ؟

بدت غاضبة غضباً طفوليًّا ضرّج وجنتيها التفاحيتين .

وقال ضاحكاً : ولماذا تريدين أن تفهمي كل شيء ؟ هناك حكمة قديمة تقول : في كثرة الفهم كثرة الغم .

- اف . ياللله الصغير الذي وقع خطأ هنا ! قالت بامتعاض .

- أوقفي هذا الهراء ! أنا لست شيئاً ولا أريد أن أكون . إنني أعن  
أمي التي ولدتني على هذه الأرض . فهمت ! أنت وهم والآلهة إلى الجحيم !  
وهي التي ابتعدت .

شجرة الصحاري وأمان المنفى .

الضوء المنبثق في ليل المسافر التعب .

حالة من اشتقات الدم والعشب والبحار والأمهات والأوطان  
البعيدة والشموس الغاربة .

الشيء الذي مضى في غمرة الجنون وصرخة الموت .

الطريق طويلة والرحلة شاقة .

- إنما أنا رجل ملعون فقد الأب والآلهة ولا يريد غفراناً .

لكن الدم كان ينشد الدم في تلك اللحظة العارية . لحظة الحطام  
الكلي للجسد والروح والشرائع التي فسّدت .

وحدهم . قال لها وهو منغمر بالعشب ووجهها المضاء بالأصيل  
ودم الجسد ، الذين تغربوا أو نفوا أو اعتقلوا وغذبوا ، يعرفون صرخة  
الحنين إلى المفقود . الشيء الذي مضى ولن يعود . شيء لا يسمى ولا يرى  
 تماماً . يسمع أو يشم أو يتخيل . مزيج من الأصوات والروائح والأطياف  
والتكوينات الجديدة المغايرة للماضي ، يرتسم ويتشكل شفافاً ، جارحاً ،  
ملوناً في الفراغ الضاوي .

لكنه ناء كنجم القطب في مساءات القلب .

وإذ سأله : أحقاً لاتستطيع العودة ؟ سمع الريح تبكي في أوراق  
الشجر والبردي . ورأى الأهوار النائمة في أعماق السماء ، وسمع  
أصوات البعير والبط وهي تذعر في غسق الليل .

وكان ينتظر وهو جريح لا يقوى على الحركة .

أخيراً قدموا . جروه كالكلب وقالوا ظفرنا بك اذن يا ابن الفاسقة .  
وقال هذا حقيقي وقالوا له إنك خنزير لا تساوي فلساً وقال هذا صحيح  
وقالوا له إنك لن تكون بعد الآن وقال إنني أستحق ألا أكون بعد الآن .

وفي المعنى ، بين الموت ورهج الضوء والصراخات اعترف بأنه  
كان مخدوعاً . وضرب الجسد وكل الخلايا الحية ، ومات . وأنذاك كان  
العالم يرتج وينبهر ، يتصادم ويتناثر . زوغان فضي ثم ذهبي ثم  
بنفسجي فناري رآه أو تخيله في مدار البهق الضوئي والأهليجي للأم التي

تصرخ وهي تلد خنزيراً أو يربوعاً أو سلفاة داخل مخبر كيميائي للتجارب عندما ابتدأت آلات وأنابيب المزج والتقطير والأنابيب المستطرقة توزع محاليل حمض الكبريت والزئبق والأمونياك ونترات الكلور وثاني أوكسيد الكربون والصدمة العذبة والقاتللة التي تلسع رأس القضيب والخصيتيين متسلبة من شريان الأحليل الدقيق حتى بوابة القلب.

«أفتح عيني فإذا بي في الصالة نفسها . صالة باردة . ضوؤها شاحب . ضباب موزع قطعاً رخوة ، ومنقطاً بأشباح غائمة . أرتجم من البرد . انهضوني ثم علقوني في قضيب أفقى من الحديد . كنت أتأرجح والحبال الأحرش يحزن جروح معصمي الدامية . أسمع طقطقة داخلية . هل يداي ستتفصلان عنى ؟ إن الألم يتدقق ولا يطاق والعرق يتصبب من المسام . من جفوني انفجر الدم . بعضاً طويلة ، رخوة ومدببة ، راح الجlad يضربني على أعضائي التناسلية ، بينما سيل من الشتائم البذيئة يسيل من فمه الأدرد . قطرات من سائل حار تناسب بين إلتي : الدم .

ثم أغمي على» .

مرحى . مرحى . بشير حاج على .

شاهد القرن العشرين في عصر بوخروبة وكهوف ابن أبي ضبيعة والسلالة التي ستدخل التاريخ من بوابة الإست الضيق .

## - 2 -

من الفرنسي إلى العربي مسافة .

وسط هذه المسافة قتل سي العربي . ومهدى جواد حى يتتسكع في شوارع بونه القديمة . يأكل وينام ويغنى ويضحك ويتعفوط ، وفي غمرة الليالي يسكر ويحلم بأمرأة تتضح بشهوة الغابات . وتحلم آسيا بالأخضر في الليالي القمرية قادماً من قلب الغابات ممنطفاً ببن دقية وقطع الشوكولا وفساتين الساتان والألعاب .

ثم تندب : لابد أن يعود . سي العربي نائم وسيفيفق . صليل صوتها المفجوع يصل شعاب الجبال الصم . ووجهها يكسوه الدم .

- لا تبكي . لاتبكي . سي لخضر لايجيء . في هذه الأزمنة لا أحد يجيء . الكل يذهبون بلا عودة . الموت وحده الذي يأتي . كسوف مفاجيء للشمس . اهتزاز للأرض ، يطلع منه رجل مشوه اسمه مهدى جواد أو يزيد ولد الحاج .

هذا ماتخبرنا به الأذمنة الراهنة . الأذمنة التي تحنو وتنضم على دم قتلاها ، وهي تنبئ عنهم برائحة العشب المهيّج للحزن والنسيان .  
- سيعود . سيعود . إنه يعرف البيت .

- لا . لا أحد يستطيع العودة إلى البيت . لقد نأت المنازل عن أهاليها نأيًّا نجوم في سماء سقيقة . استيقظي من هذا الكابوس . حتى ولو كان حيًّا في هذه الأذمنة لاشتهي العودة إلى القبر .

لكنه كان حيًّا وميتاً . كان يخطر مع الكريات داخل الأوردة ، متوجهاً كأشعة شمس بونه .

### - 3 -

إنه يخرج الآن من البصرة .  
متسللاً يخرج مع غروب الشمس المنحدرة نحو الخليج . يتناول جواز سفر مزوراً ويغيب .

وفي لحظة اختلاط الألوان ، تتدخل المشاهد .

ومهدي جواد ليس سي لحضر . يقيناً ليس هو .  
ويسائلها : أتعتقدين حقاً أنه سيعود ؟

رؤوس أناملها تداعب العشب . أصابع بيضاء طويلة تنفسح صحة .  
مع السؤال تتوقف الأصابع البيضاء المترعة بالدم . تقطع اتصالاً من الحشائش . تضمهما في راحتها وتبدأ تضغط عليها .  
صمت واجف .

بهدوء تفرد راحة كفها . تمتد أصابعه لتمس عصارة العشب المسحوق . عشب حار . يضغط على العشب . يتدقق الدم سريعاً ، نابضاً .  
ومن صدريهما ، في لحظة برق ، يندفع صوت ، خافت ، مكتوم .  
اليدان اللتان انضمتا معاً كطائرين في عش ، ضغطتا أعشاب الأرض فازهرت .

\* \* \*

سجل في اليوميات : في المنفى المرأة وحدها العزاء . مخدر ناعم يشفّ كالطيف في أمسيات الحزن وافتقاد البيت . موجة بحر تنغرم فيها وتوغل بين الطحالب الملساء والواقع وفجوات الصخر .

بعيداً . بعيداً . تحت السطوة الجسدية وهذا الدمار الجميل للروح وهي في قبضة الشيطان وقد تقمص جسد إله أرضي أو امرأة أو بحر أو غابة : آسيا .

ولكن هل هذه المرأة الغريبة مُفلتة من عقال عصور الوحل حقاً ! وهل تسمع في الصمت ، الرنين البدائي لهذه الوحش الضاجة في عمق الغابة البعيدة . رنين المعول الأول وهو يضرب الأرض لابتناء أول بيت على سطح هذا الكوكب المعتم !

لماذا تعيش مثلهم في الماضي . وتتوهمك الأب وأنت ضيئعت أباك وهي تلوذ بك الآن وأنت الباحث عن ظل يقيك الهجير . شجرة أو صخرة تمسك بها تحت هذه الريح الرُّعَزَعَ . هي التي تتوهم أنك تعرف الطريق إلى البيت وأنك حي وأنت تعرف من خلال النبض الداخلي أنك لست بالحي ولا تستطيع أن تصل . وهم الذين ضيئعوك وضاعوا . والطرق كل الطرق هنا وهناك مغطاة بالرمم وحراب الأعداء . تدرك ذلك الآن أكثر من أي وقت مضى . وخارج مدار الدرس الخصوصي تقول لها : الخطأ ياعزيزتي في الخلايا . خلايا هذا الوراثة البدائي الهجين والأعمى .

رجل الصحراء الراکض نحو عين الشمس ، المنبر والماخوذ بالصعق الكيمائية للقرن العشرين .

#### - 4 -

بعد ظهيرة ذلك اليوم حضرت فلة بوعناب ، مهدي جواد كان غارقاً في تحضير الدروس .

كانت بكل ملء زينتها . دخلت باسمة ، مصطنعة خفراً تقنعت به على العتبة . مع دخولها انتشرت رائحة ماكياج وعطر رخيص خانق .

- هل فاجأتك ؟

- مفاجأة جميلة .

كان يعرف أنها ستأتي يوماً . وما كان محظىً في وجهها . أنها مسألة وقت وخشية . هذا النوع من النساء الكاسرات يخيف رغم هشاشته البلورية في الفراش . إنهن يتآبین في المراحل الأولى ، لكنهن فيما بعد يقتحمن كاللبؤات باتجاه الفرائس .

وما كانت في ذاكرة الرغبة يوماً . كان عازفاً عنها .

امرأة ثرثارة طحنها الزمن وغذّر الرجال . لم يبق من حطامها غير بريق خافت ، وهذا الشوق الهاجع في قراره النفس .

جلست على السرير وانطلقت تتحدث عن الغرفة وتواضعها وفوضناها الجميلة : يبدو أن صديقتك لاتهم بك جيداً . قالت ذلك بمزاج غامز . وحайд مهدي فسألها عن مهيار فقالت بأنه غارق في لاهوت كتبه : هذا المهيار ، غريب مختلف عن المشارقة . قل لي هل هو مجنون ؟ ياخويا هو إما مجنون أو عقربي .

- لماذا ؟

- لا أفهم عليه عندما يتحدث . رأسه مليء باختلالات وسخافات ربي لا يدركها . يخلط الفلسفة بالسياسة بالشعر بالدين بالطبيعة . إنه يحدثني دائماً عن شيء يسميه أنتروبولوجيا العربي . ورأيك مهدي مامعني هذه الأنתרופولوجيا اللعينة ؟

- أسأليه .

هزت رأسها مجلجة بضحكه فاسقة : اسمع . مهيار يريد أن ينظمني .

وابتسم دهشاً : ينظمك !

- بلـى . يحكـي لـي دائمـاً عن تنـظيم سـري يـقلب الأوضـاع عـالـيها سـافـلـها فـي كل بلـاد العـرب . ويـقول بـأنـه جاء إـلـى هـنـا ليـتـصل بـهـؤـلـاء الثـورـيـين .

- أي ثوريـين ؟

- لا أدرـي . بين حـين وآخـر يـلتـقي بـرـجال لا أـعـرفـهم . يـغلـقـون الغـرـفة وـيـبـدـئـون اللـغـط .

- هـؤـلـاء زـمـلـاؤـهـ في المعـهـد .

ويـسـطـردـ مـهـديـ ضـاحـكاً : باـهـيـ فـلـةـ . لـمـاـذا لـاـتـدـخـلـينـ معـهـ فيـ التـنـظـيمـ السـرـيـ ؟

تضـعـ سـاقـاً فـوـقـ الآخـرـيـ فـتـنـسـرـ تـنـورـتهاـ القـصـيرـةـ . تـشـعلـ لـفـافـةـ مـطـلاقـةـ دـخـانـهاـ فـيـ الفـرـاغـ وـتـقـولـ باـسـتـهـزـاءـ : أـنـاـ بـتـاعـ تـنـظـيمـ ! يـكـفـيـنـيـ تـنـظـيمـاتـ وـثـورـاتـ خـامـجـةـ . أـنـاـ يـاخـوـيـاـ أـنـتـظـمـ معـ رـجـلـ يـحبـ الـحـيـاةـ وـالـدـنـيـاـ الـوـسـيـعـةـ لـاـ السـيـاسـةـ وـالـحـرـبـ وـالـمـشـاـكـلـ . يـزـيـنـيـ مـنـهـاـ .

مهـديـ الجـالـسـ أـمـامـ الطـاـوـلـةـ وـبـيـدـهـ القـلـمـ يـكـتـبـ عـلـىـ هـامـشـ دـفـتـرـهـ :

«رجل يقلب عاليَّة سافلها بدلاً من قلب دنيا العرب» .

يُسأَل العَنَابِيَّةُ : قهوة أم شاي؟

تضحك : ها . صرت مهياري . شنو عيني ما عاد في بيتك غير هاي المشروبات الأخلاقية؟

عيناهَا المتوهجةتان بالرغبة بدتَا اسْتَيْتِين وَهَمَا عَلَى حَافَةِ استجاء . المنطقة المنحسرة من أعلى الركبتين حتى المنحدر المغطى ، تلوح صلبة ولامعة تحت ضوء ما بعد الظهيرة .

قال وهو يرفع عينيه إلى صدرها النحيل الضامر : الوقت وقت عمل وأنا أحضر الدروس كما ترين . غداً لدى ست ساعات في المدرسة .

- هل أفهم من هذا الطرد؟

قالت ذلك بتجمهم خائب .

بحركة غريزية حلَّت ساقيها فانفرجتا . بدا المشهد فظاً أكثر مما ينبغي . كان مايزال عازفاً . ضغط أسنانه وهو يقول : لا . لا . أبداً . أنت صاحبة البيت . ونهر النَّفَلُ الذي تمدد بين ساقيه . وثبة صغيرة فتصبح بين ذراعيه . ولأنه أحسن بالحنق من هذا الابتذال فكر : اغتصاب بلا رغبة . وما كان مهياً لهذا النوع من الوجبات السريعة التي تسد بعض مسام الجوف بينما النفس خاوية . وقال له : نم أيها الفاسق واستئْخِذْ .

عندما استلقت على ظهرها فوق السرير بقيت ساقاها سائبتين على الأرض . حافة ثوبها التي انحسرت توأمت مع حافة الحوض . هناك التمع غُرْيَّتها .

اووه . ياللعنة !

أبتدأت الشياطين الداخلية تتململ من رقادها وبينضات راجفة كيقطة الافاعي النائمة ، راحت تتمطى تحت جلد الأرض .

هي ذي الروائح في عمق الأدغال تنتشر حول الأنف بينما الفريسة تلوح على مدى الأنفاب .

هكذا بفترة على أبواب الغابة مَحَّت الصرخَةُ المديدة ما كان ينبغي أن يقال بهدوء تحت لسع تلك الظهيرة الكاوية .

\* \* \*

من الوزراء إلى خباط الجيش إلى مديرى الشركات إلى أمناء

فروع الحزب . عصابة الدولة بكمالها مُرت من هنا . قد أكون سكة قطار وممحطة لكنني أرشيف . تواريختهم كلها عندي . ودقت على صدرها . هنا الثوريون القدماء والمسكون بزمام دولة الأمر والنهي استراحوا في محطة فلة بوعناب . حتى الشهداء قبل أن يستشهدوا عبروا تحت السارية . تطهّروا في جنة عدن الأرضية قبل أن يطيروا إلى جنة السماء . المرأة الأفريقية ياخويا مهدي مصنوع جسدها من حجر النار الشمسي . الحق أقول لك . طبيعة ظامئة أبداً لاترتوى من الأمطار على مدار الفصول . المهم . ليس هذا . بيتي يوم كنت مهمة كان كبيراً . بيت الدولة . كان في شارع العربي بين مهيدي الکتراه لي وأثنـه سراً وزير الداخلية . في الأسبوع كان يمر مرة واحدة يتعشـي أحيانـاً ويشرـب قليلاً من الـويـسـكي وينـام معـي . وأحيـاناً لا يـأكل ولا يـشرـب ولا يـنـام فيـ الـبيـت . كان رجـلاً عصـابـياً لا يـعـرف الـابتـسام يـعـانـي حـالـة كـآـبة دائـمة . فقط كان يـبـدو منـشـراـحاً وـهو عـارـ فيـ السـرـير كـطـفل . حتى تلك اللـحظـات كـنتـ أـخـشـاه . أـخـشـي الـوحـشـ الكـامـنـ فيهـ والـجاـهـزـ للـانـقـضـاضـ . لـكـنهـ كانـ خـائـفاً . كانـ يـضـعـ مـسـدـسـهـ تـحـتـ مـتـناـولـ يـدـهـ وـطـلـقـتـهـ فيـ حـجـرةـ النـارـ . مـمـ يـخـافـ ماـ دـامـتـ المـدـيـنـةـ كـلـهاـ تـحـتـ رـقـابـتـهـ . أـسـرـارـهاـ وـجـرـائـمـهاـ وـدـسـائـسـ مـسـؤـولـيـهاـ وـمـرـاكـزـ الـقـوىـ وـماـ يـحـاكـ فـيـ لـيـالـيـهاـ مـنـ الـمـؤـامـراتـ . لـلتـقـرـئـ كـنـاـ خـارـجـينـ إـلـىـ الـاسـتـقلـالـ . الدـنـيـاـ فـوـضـيـ وـالـبـلـادـ بـلـ قـوـانـينـ وـلـاـ مـؤـسـسـاتـ وـالـصـرـاعـاتـ مـحـتـدـمـةـ دـاـخـلـ جـبـهـ التـحرـيرـ التـيـ تـحـولـتـ إـلـىـ حـزـبـ مـخـلـوطـ يـمـينـ وـيـسـارـ وـوـسـطـ . عـسـكـرـ وـتـجـارـ وـأـقـطـاعـ وـفـلـاحـونـ وـمـتـقـفـونـ . مـخـلـوطـةـ عـجـيـبـةـ وـغـرـيـبـةـ حـتـىـ رـبـيـ لاـ يـسـتـطـعـ تـوـحـيدـهـاـ . كـانـتـ هـنـاكـ حـكـاـيـةـ الـعـرـبـ وـالـبـرـبرـ وـالـعـسـكـرـ وـالـمـدـنـيـنـ وـالـتـعـرـيبـ وـالـفـرـنـسـةـ وـالـاشـتـراكـيـةـ وـالـبـورـجـواـزـيـةـ وـالـأـفـرـيـقـيـةـ وـالـعـرـوـيـةـ . مـلـيـونـ مـسـأـلـةـ وـمـسـأـلـةـ أـمـامـ اـسـتـقـلـالـ طـفـلـ وـمـهـشـمـ بـالـجـرـاحـ . صـرـاعـ حـتـىـ الـمـوـتـ مـنـ أـجـلـ اـخـتـيـارـاتـ الـمـسـتـقـبـلـ .

في حمى هذه الصراعات المجنونة كنت أتساءل : أنت يا فلة بوعناب أيتها البقة الصغيرة ماذا تستطيعين أن تفعلي في هرجة هذا الكرنفال ؟

الثورة الوطنية انتهت والرجال صاروا في موقع السلطة والمسؤولية . وها نحن اللواتي قاتلن في الجبال والمدن تحول إلى الخدمات المنزلية . جميلة بو حيرد تزوجت من محاميها وهاجرت معه . جميلة بوعزة دخلت في النسيان . أنا مع آلاف النساء صرنا إلى ما يشبه المؤسسات أو الزوجات الصامتات المطيعات للرجال . انتهى دورنا الاستثنائي فاستدرنا إلى وظيفتنا الأساسية . في غمرة هذينها طلبت

مزيداً من النبیذ . قدم لها كأساً فجر عته دفعه واحدة . استندت الى ظهر السرير وابتسمت : قبل لحظات كنت أشتھيك . بل ربما أتيتك من أجل ذلك . لا . لا . صدقني ليس من أجل هذا . إنما لاحظت من خلال مراقبتي لك وحديث مهیار أننا من طبيعة متماثلة . كلانا شجرة عارية . شجرة مجتثة من جذورها ومرمية على سطح الأرض . نحن مهزومان في موقع واحد جغرافيته متباعدة . إنني أعرف مايدور في رأسك من جلبة وضوضاء ومرارات . تجشأت ثم أشعلت سيجارة . مثلی أنت تهرب وتراوغ وتنقسم على نفسك لأنّ الھزيمة كانت مريرة ولأنك وحيد لا تستطيع أن تفعل شيئاً . أعرف . أعرف . لا تستطيع أن توقف الدمار والخراب . الخراب أقوى منا ولا احد في الساحة . أعرف . لقد انسحبوا إلى الملاجىء الآمنة والهدوء . بهم يعيشوا ويأكلوا ويتزوجوا ويجمعوا شوية فلوس مش كده ياخويا مهدي ؟ قل الحق . أنا غالطة في هدرتي ؟

وقالت إذا قدمت لي كأساً سأكون أكثر صفاء وشفافية .

- شرط ألا تحتسيه دفعه واحدة . هل تتعدين ؟

- أعدك .

وهو متکئ على حافة طاولة الكتب والدفاتر رسم في الفراغ :  
امرأة جريحة .

كان يستمع ، غير راغب في قول أية كلمة توقف شلال هذيانها المتدفع .

في ذلك الزمان كان لي عشيق . في الثامنة والعشرين من عمره . نقیب في سلاح المظلبيين . فتی ، صلب ، معنداً ، كان يأتيني أوآخر الليل بعد أن بدأت زيارات الوزیر تقل وتتبااعد . اسمه صقر العمراوي قبایلی من بجاية متغصّب لآیت أحمد والبربر . لم يكن يهمني ذلك . إنني أتذكر الآن عينيه الزرقاوین وصدره وصلابة ذراعيه وهو يضمّنی ، هذا ما كان مهماً في ذلك الزمان . عيناهما معلقتان في السقف والكأس في يدها ومن الفضاء الكابي للسقف وبخار النبیذ كانت تتولى ذكرياتها کموجات هابطة من قمم عالیة .

فيما بعد قتلوه غيلة وهو خارج من البيت . افتقدته وقتاً ثم نسيته . ضاع في هرجة الموت السائد . كنت قد اعتدت غیاب الناس . في الجبل غاب أصدقاء ورفاق كثیرون ولم يعودوا . أصدقاء قاتلت معهم وضاجعتهم في الكھوف . أنت لا تعرف عذوبة الجنس في لحظة

الحرب . في لحظة الموت . عندما يموت المقاتل بعد استراحة هائلة مع امرأة لا يأسى على شيء . لقد أخذ الجسد وأعطى ثم نام مرتاحاً . هذه هي الحياة يا خويا مهدي . الجزائري يحب الحياة والموت في نظره برق خاطف يعبر به ولا يبالي .

كان مستحيلاً إيقاف هذا الشلال المتندق كالنياغارا : صقر العماراوي قاتل مع عمieroش في الجبال ولم يتم هناك ليس الوزير من اغتاله . الرجال السريون نفذوا المهمة . قتلواه في الشارع الرئيسي . اوه . العفو . نسيت أن أقول لك أن ذلك المغلّ كان يرغب الزواج مني وكانت أقول له أنا لا أصلح لك ياسي العماراوي . امرأة مثلّي مجوفة كالفراء معاذت تعرف الوفاء ولا الحب الزوجي . سنوات الوحل غمرت قلبي بالطين . ياسي عماراوي غير مسموح لي أن أتزوج وأرتاح . نحن تحت المراقبة وعليك أن تنتبه لنفسك . لكنه باعتداد وثقة كان يتحدث عن نفسه ويلمح إلى رقاب الذيبان التي لا بدّ من قطعها يوماً . كنت أفهم ما يعني وأدرى ما يجري في الظلام وتحت الأرض وكانت خائفة عليه لأنّي أعرف أساليبهم . من النافذة كنت المح كلا بهم المرابطة في المنعطفات والتي تراقب الداخل إلى المنزل والخارج منه .

وضعت رؤوس أصحابها على صدغها . كانت الأشباح القديمة تتواكب في أعماق هاويتها كطيور ليلية مندفعه نحو غاباتها وجحورها . وفي ذلك المساء . آه . خرج متاخراً من البيت . وفجأة دوت طلقات وسمعت الصرخة . لم أتحرك من غرفتي . كزرت على أسناني وداهمني انقباض . أنا الآخرى سأموت . مددت ذراعي ، وأنا في السرير أرتعش ، إلى علبة الفاليوم وابتلت قرصين وانتظرت تحت هدوء طيوف الغيوم الزرقاء صعودهم إلى غرفتي .

واضح أنها نهبت حالة غريبة من الذهول والإبحار المظلم ، كان ذلك يلوح في غشاوة عينيها وعلى بشرة وجهها استسلاماً وادعاً ، وهي مستلقية على سطح الفراش الأبيض بدت وكأنها تنام في جوف تابوت يطفو على سطح بحر .

إنني أعترف الآن لأنّي مدركة أن لا شيء أخسره بعد اليوم . في ذلك الوقت العصيّ كان الله يتقمص السلطة . الجنة والجحيم ومن يمسك بالفأس يقطع الرأس بلا شفقة . رفاق السلاح والموت صاروا الأعداء . نفوس مسحورة بشهوة السلطة . دروب الحكم والسيطرة كانت هي دروب الدم . من أجل الشعب . من أجل الشعب ! كلهم كانوا يصرخون بهذه

الأرجيف والحمقات . ولكن أين هو الشعب . أين الفلاحون الذين قاتلوا وأين العمال ؟ سي الباهلي يسألني عن الثوار الذين ملؤوا سمع العالم ودوخوا حلف الأطلسي . هيه . هيه . يوماً خرجم معه إلى القسم الغربي من المدينة فرأى النصب التذكاري للشهداء ثم ذهبنا إلى حي وادي القبة القريب من البحر فرأى المقبرة . مقبرة الشهداء ، قلت له إذا أردت أن ترى من تبقى حياً منهم فاذهب إلى الخumarات والمقاهي أو زر مبنى المجاهدين القدمى في شارع بن بولعيد . ابتأس واغتم . ولكن لماذا تبئس ياسي مهيار لقد صار باسمهم شوارع وساحات ومدارس ومؤسسات خيرية ماذا يطلبون أكثر من ذلك ؟ !

بدت متعبة فتحركت فاردة فخذلها ثم استندت بنصفها الأعلى إلى الجدار . كانت الآن في مواجهته . عيناهَا معتكرتان ووجهها في بهوت المقابر . كم بدت مسحوقة بتلك الآلام القديمة . كان الإضطهاد يفجر جسدها فيما بدا الشقاء الروحي يزلزلها بأنين خلخل حتى المسام الدقيقة لخلاياها .

وسألها إن كانت ترغب كأساً أخرى فقالت : لا . لا بد أنني ثملت وثرثرت أكثر مما ينبغي . أريد أن أستمع إلى الموسيقى . وضع في المسجلة شريطًا لباق . وأحس وهو يواجهها أن الجو متقل وضاغط . حازها واسعاً رأسها بين كفيه ثم قبلها بحميمية خالية من أية شهوة : خففي من هذه الآلام فلة لفائدة من هذا التزف . وما كان متأكداً من أن هذا ينبغي أن يقال لكن دموعها التي سالت ووجيب صدرها أورثاه شعوراً بتشقق الزمن وسطوته اللعينة شبه الأبدية . الماضي الجريثومي الشبيه بالجذام الذي يفرض الخلايا الداخلية ويأكلها . وعندما قال لها علينا أن نخرج من تاريخنا القديم إلى البحار الزرقاء والشموس والمدن الأخرى ، كان يخاطب دمه المحرور هو الآخر ونشدان تجديده بدم آسيا لحضر التي ظهرت في سمائه ذات غروب كنجمة الصبح .

\* \* \*

غبطة ما بعد الدرس ، هذا الزوغان في ساحة المدينة المظللة بشجر المرجان والدردار .

مصب أمواج البشر المتعبيين في أصائل الربيع .

على الأرصفة وتحت الظلال كراسى وطاولات مقهى الأوريان والمغرب والاكسبرييس . على كراسى الأوريان يتضام الشرقيون

كالقطعان الخائفة . يرشفون القهوة والبيرة ويدخنون باسترخاء كسول موغلين في ثرثرة شؤون المدارس وذكريات الأوطان البعيدة الملتفة بالنميمة والغيرة وهذيان الجنس .

عندما يبدؤون بالصراخ والشجار يقول الجزائريون : انظروا . انظروا . ها هم العرب . يقولون ذلك بازدراء . لكن العرب . لا يظلون . طويلاً في الشجار . يتدخل الجزائريون لتبدأ الوشوشات حول آخر الصفقات السرية للسيارات المستوردة وتحويل العملة الصعبة في السوق السوداء ولقاءات الليل مع موسمات ساحة افريقيا .

في هذا المدار تزول الخصومات وتعلو الضحكات ، فيتحول العرب جميعاً مشارقة ومغاربة إلى أصدقاء وشركاء ومزاودين في التنافس على تقديم البيرة حتى يقول النادل بأن وقت البيرة في الساحة انتهى وبدأت القهوة . يقول ذلك فتنطلق الشتائم احتجاجاً نحو فروج الأمهات والأخوات .

وهنا رئـةـ المـدـيـنـةـ .

موران صاحب في هذا المصب البيضوي المزروع بالشجر والشبيه بجزيرة خضراء : كور بونه الرحمي . كما يقول مهيار .. ومهدى جواد كان يسميه : استراحة الحسناء .

هؤلاء الهاربون من سجون المدارس وسجون زوجاتهم ومنازلهم إلى ساحة الله الرحبة ، يتقللون من مقهى إلى آخر ضاربين بلاط الساحة لهم يحدقون في أعلى الشجر وجدران العمارات . يتملؤن بالتياع مؤخرات وصدرور الفتيات الهائجات ، الضاحكات ، اللامباليات . ضجرون ومهتاجون وحالمون ، واقعون في الشبكة القانونية والمحرمة لهذا الهذيان المعتوه الزائف من مداره كنجم مذنب سيتقاه حقل الجاذبية بعد همود ابتهالات الجسد .

آلاف الخطوات تقطع من شرق الساحة إلى غربها أو العكس تحت العZF السري والغامض للأشعور فردي وجماعي موصول بالعضوية ومتناصح مع صبوة الرغبات والتوق إلى الطيران نحو كل الجهات البعيدة التي حُلِّمَ بها ولم تُرَ . بعيداً عن هذه البنيات الشاهقة التي تسور الساحة فتحيلها إلى سجن له ممرات تسمى الشوارع حيث تدق الخطوات بعد التعب وتتناثب المدينة وتتم الأحلام ليبدأ الكنيف الحميم للبيوت الزوجية في نهاية المطاف .

وفي فسحة التنفس يظهران معاً فوق الساحة .  
 الظهور المثير في رحاب كعبة الله والبيع والثرثرة والشجارات .  
 ومن العيون ينطلق نذير خوف مستفز .  
 كل ما كان غافياً من جراثيم هوزا يدب في العيون .  
 - اووه . انظروا . ياللطفية !  
 وهمما المحايadan . إنما المتماسان ذراعاً لذراع ونبضاً لنبض .  
 الحشد . الحشد .  
 وهمما خارج الحشد .

تقول انظر إلى عيونهم الفولاذية فيقول من هم فتقول الناس  
 فيقول : الناس ! إنهم مهمومون ومصابون بوباء العزلة ونحن لانستطيع  
 أن نقدم لهم العزاء . لكنها تستتر بالظلال والجدران والخشية . تسرع  
 خطها لتخرج من ساحة المدينة وساحة العيون إلى فضاء البحر .

وهي التي تحتاجه ويحتاجها . العاشقان السرييان ، والصديقان  
 الآن في مدينة الله التي لا يريد الاعتراف بها والخارج من نطاقها غريباً  
 عنها وعن آهتها وعن سائر المدن ، والغريب عن نفسه المترائمة تحت  
 النظر الآخر المخدوع بالظلال والجدران وحيثيات الخشوع . هي التي  
 بوغنت به كما يباغت طفل بزهرة ببرية ذات أشواك عندما التبس عليها  
 الأمر بين موت سي العربي واستثاره حياً في أحد أدغال سوق أهراس  
 القريبة من بونه .

وبينهما كانت هناك قنبلة موقوتة قيد الإنفجار .  
 رُميَت عَرَضاً في ليل أعمى .  
 الصديقان الجميلان في الزمن القبيح والعابران أرضاً لانجاة فيها .  
 لانجاة فيها .

أرض الغريق وأرض الحريق وأرض السد الذاهب فيها لا يرد .  
 وهي المحفوفة بالأشرار .  
 وهو الخارج من أصلاع الله والطغاة والحروب الأهلية المغدورة  
 ونفسه .

أأنت خائفة ؟  
 - لا .

- لماذا أنت هاربة إذن !

- قسوتهم . أنت تعرف لؤمهم .

- وهل هم قضاتنا ؟

- نحن تحت قوانينهم . ألا ترى ؟

- إلى الجحيم . لكل رسّله وشياطينه . أنت لماذا ترميتنِي أبداً في مضائق الخوف !

وما كان ذلك مجدياً . لا الأصوات ولا الصرخات والأحتجاجات ولا حروب التحرير المجهضة .

الآلهة والقضاء والخوف الموروث والزمن السلالي ، كانت في كريات الدم وكل ما عدا ذلك بدا باطلًا وملعونا وخارجًا عن قانون جاذبية العرب الذي يدور حول ذاته السردية كالخذروف .

كذلك كانت تجذبه وتحايده بعيداً عن الساحة من خطفين في الأزقة الخالية نحو أبواب البحر .

وهما تحت شجرة الصمت الانفجاري .

حالة غضب . مهدي جواد .

وحالة أسى . آسيا لخضر .

وعلى الجسر المطل على البحر تحت شمس غاربة يحتقن الرجل حفنة حصى ويقذفها إلى الأسفل . تئز الحصوات وهي تتناثر ثم ترتطم بالأرض .

الحصوات التي لم تكن لتنفجر أبداً .

ولكن إلى متى ستستمر هذه الحالة اللعينة . حالة الدفاع عن النفس !

وسمع نفسه يقول لنفسه ستنفق أيها السيد التافه كما تنفق الحشرات الضارة قبل أن تنتقل إلى وضع الهجوم المعاكس .

وأنذاك ، على الجسر ، وفي الساحة ، ومذ هبط من الرحم ، جاءته الأشباح السود والزمان الأسود والقلب الأسود والكلاب السوداء ولم يأت القتل الجميل الأبيض .

واستدار . كعادته القديمة استدار .

نفر كالطير المذعور وتركها وحيدة . هبط الجسر باتجاه المدينة والসاحة والضوابط .

اختلط بالبشر . بالدويِّيِّ الحار والصبيعيِّ . خلفها وراءه مكسورة بحزنها تحت سماء غائمة ابتدأ برقها والرعد .  
وفي غمرة حزنها تساءلت عن الخطأ واستعادت الوقائع .

ولكن ما الذي حدث بغتة ؟ وشعرت أنها وحيدة ومنبوذة تحت هذا الغروب الضجر . كسرت غصناً من شجرة رصيف وراحت تلوح به في الفضاء . كان مهدي جواد بعيداً وسمعت وقع خطى وراءها . خطى تلاحقها وابتدأ نذير المطر وما كانت منتبهة لوقع خطى الآخرين حولها وعيناها لا تعلوان عن قتامة الرصيف . ولكن لماذا فعل ذلك ؟ واهترت الصورة التي رسمتها للرجل الصلب وريث الأب وعلى اللوحة لمع وجه غريب لا تعرفه وجه كريه وعصامي ونزنق لا يختلف عن هؤلاء الذين يعبرون بها ولا توليهما أياماً اهتماماً . وجه مهدي جواد المعتكر والصلف والذى لا يستحق إلا الاحتقار . وحتى تلك اللحظة ما كان الشيء النامي بين العشب قد أزهر . كان مايزال تحت شغاف القلب وفي نبض الدم . وداهمها ندم . لقد أهينت بشكل مُزِّر . مبتذلة وهامشية أنت يا آسيا والرجل الذي خُدِعَتْ به لم يكن الرجلُ الحلم ولا المثال وهو لا يستحقك . إنه الوهم نسجه الطفولة والحنين إلى الأب وأمواج المراهقة . اووه . يااللأسف !

بين الدمع وانبعاثات الحنق سمعت وراءها كلمات رخيصة ونابية .  
وجاء البرق خاطفاً فوق قوس الأفق فسارعت خطوها إلى البيت .  
- هيء يا للترمة اللذيدة . هاو يا الرومية السخونة .  
بالمرارة اختلط الاحتقار . حالة غثيان امتزجت بحنق يشارف رغبة قتل .

لقد غادرها الذي كان يوصلها إلى البيت وها هونا أحد خنازير المدينة يطاردها كمومس .  
مهدي جواد بدا الآن ممقوتاً ومجوفاً كفزعاعة حقل . وكان يدخل دائرة الظلام .

يترنح في مدينة غريبة ، تحت سماء تحالت هيولاهما إلى قطرات مطر . الحجارة ، والأشجار ، والناس ، بدت شاحبة ، ممسوحة الملامح . تحت هذا الشحوب ، تتضاءل المرأة التي ملأت فجوات المنفى ، المرأة التي خدع بصلصالها النقى .  
الخطوات ترنَّ فوق بلاط الساحة والأصوات والخطوات البشرية

تهرب من المطر الذي انسكب كشلالات .

وما كانت آسيا الخضر آنذاك بالمرأة التي يندفع للصعود معها إلى القمم . وبينهما نقطة عمياء . رآها كبرق خاطف داخل رأسه الموشك على الانفجار . وازداد تهطل المطر الأفريقي وتحتة كان يغتسل ويتواهى . وهي الآن تتجه نحو بيتها وهو يتجه نحو العراء .

تحت سماء من المطر ، وسماء من اللمعان . وهي المحمية بخلاف من البلازما ، والدم ، والنسيج المخاطي : بونه . الرحم .

وهو المزمى في التيه المترامي بعد أن قذف به الجسد مادة غريبة عنه .

وما كان أحد يدرى أين يقع البهاء الطلق ، والزمان الطلق ، وكانا ينشداته في المساءات الحزينة ، والصباحات ، وعبر دروب البحر ، وداخل الرعب الصامت المسمى : الحب . وما أفصح عنه . كان نائماً تحت العشب الخضيل في الغابات القصبة .

وتذكر وهو يتلقى وحشية المطر العذب ، تواتر اللحظات التي غيرت . كان وحيداً كطفل في غابة .

وكلاهما كان مايزال يختزن الصرخة .

وقال الخنزير الذي تبعها : أرغب أن تكوني الليلة لي يا الرومية . استدارت فهاجمها ، وبحركة جيدو خاطفة طرحته أرضاً ثم داست وجهه وبصقت بين عينيه : ولد القحبة . يزّي . يزّي !

حدث ذلك كالومض الذي يخطف البصر ، في مدينة لا يسمح فيها للفتيات بالتجول بعد هبوط المساء .

ونحو البيت غدت آسيا خطاتها مغسلة بالمطر والدمع .

السماء هوت وكان مهدي جواد يبكي .

وتحت المطر كان يسير . المطر الربيعي المتدق كالميزيب . وكلاهما كان بعيداً جداً الآن .

الرغبة الوحيدة التي استيقظت تحت انهمار هذه الشلالات السماوية أن يصل غرفته ثم يحكم رتاجها ويستلقي لينام بهدوء طفل متعب .

وكان يرى .

أنه يطوى في سجف بيضاء تتماثل مع السحب البيضاء التي رأها في طفولته أيام كان يرعى ويصطاد الطيور والأرانب ، محمولاً داخل تلك السجف الغريبة والشفافة . أصوات وأشكال تتراهم وتسمع حوله وهو لا يعرف إلا أنه يطير في فضاء مفتوح .

أطيااف ملونة وأحياناً شبّية وظيور ثم فجأة غابة كثيفة متداخلة بأغصانها وجذوعها . بعثة هو هنا . أرض مجهولة ولكنه رأها أو حلم بها في مكان ما . يحاول أن يتخلص من اشتباك الغصون التي شكلت سقفاً يستر السماء ليمر الفضاء لكن محاولاتة وهو يقاتل الأغصان ليفتح في السقف السميك فجوة ، لاتؤدي إلا للفشل . ويرى أنه يسبح فوق سقف الأغصان . الظلام شديد وهو يكاد يختنق . في زحفة على بطنه ورجليه ويديه تتسلق عن الشجر ثمار صفراء مهترئة تشبه التين والممشمش والسفرجل ، يراها وهي تتدحرج على الأرض الرمادية . أرض من الغبار الكامد . يشعر بأن آلاف الساعات والأعوام ستمر قبل أن يستطيع الخروج من هذه الغابة الملعونة التي تحولت أغصانها إلى ما يشبه السواعد الملتفة والمعانقة كالسلال الحديدية . ياللعنة ! ما الذي جاء بي إلى هذه الغابة الغامضة ! بعد مضي ألف عام من الزحف والالتفاف والركضرأى بيته على حافة الغابة . أحسَّ أن المتأهة انتهت فجرى في المنحدر الترابي المشقق .

فجأة سدَّ من الكلاب باعتره من وراء البيت . كلاب سوداء ورقطاء وبلا لون فتحت أشداقها وراحت تعوي بشراسة وتهاجم . تتقدم وتتأخر وتدور وهو يحاول الهرب والإلتجاء والتصوير . لا أحد أبداً . هو وهذه الكلاب المستشرية . لا يدرِّي من أين جاءت البندقية . بندقية طويلة كانت الآن مسددة من كتفه نحو الكلاب القريبة جداً . طاق . طاق . مازالت الكلاب تعوي وتندفع ولا طلقات أو نيران تخرج من فوهة البندقية . لقد تحولت إلى قصبة في يده . كان يضرب بها كالعصا فلا تصيب شيئاً . استمرت الحرب مع الكلاب ألف عام آخر حتى هبطت السجف فطوطه وأخذته إلى السماء البيضاء حيث سطعت الشمس على السرير .

- 5 -

من مناضلة مفعمة بالحيوية والأمل ، إلى موسم . خط أحمر موشى بلون النار يصب في الأسود : الوطن .

وخارج مشيئتها وقعت في فخ جسدها . تلك هي الموهبة المركزية بعد أن تتحرر البلاد من غاصبيها .

غير أن فلة بو عناب تتوهم أنها مسكونة بموهبة أخرى غير موهبة فتح ساقيها . تقول : هم قتلوا مواهبي الأخرى وركزوا على موهبة التأوه والصراخ الجنسي . أليس هذا هو الاستعمار الحقيقي ؟

ثم تستطرد : أصلاً ما الذي فعله الكولون الفرنسي إلا هذا ! لقد قتل كل مواهب الجزائر ووضعها عبدة بين فخذيه لخدمة نزواته .

بمرارة تتحدث عن الوطن الذي امتهن بعد الثورة . وطن الوزراء والضباط والعائلات والمراتب الحزبية العليا والمخابرات والحاليل والتجار واللصوص .

إذ يبدأ مهيار الباهلي تنظيراته عن التنظيم والثورات القادمة والفارق بين الثورات الوطنية والثورات الاشتراكية ، تنتاب فلة كآبة مرمضة .

تضع اسطوانة وتستمع لأغنية جزائرية عن الحب : واه يا الرومية . تتحرك من الصالون إلى المطبخ . تجلو صحوناً وكؤوساً وملاعق ، وهي تندنن مع الأغنية .

بعد أن تنتهي من المطبخ تذهب إلى التواليت ، تبول وهي تغنى وتراقب الجدار الأبيض الراسخ بالرطوبة .

في غرفة زينتها تجلس أمام المرأة .

تراقب وجهها والتجاعيد فترى حسيرة ضربات الزمن على الوجه النضر . الوجه الذي كان نضراً .

تضع المساحيق ثم تدعك الوجه الشاحب في محاولة يائسة لينبض الدم . تتناول قلم الكحل وترسم خطوطاً سوداء تحت الجفنين . تحفين قطرات من عطر مدام روشا الفرنسي المهدى لها ، وتمسح به رقبتها وصدرها .

وهي تجس بأناملها كثة ثدييها ، تحس ضمورهما . تعصرهما ليينموا في خطفة وهم . ثم تمد أصابعها العطرة تحت سروالها وتضغط . تتأوه بتمرير مسرحي تحول مع الزمن إلى عادة متقدة .

فلة بو عناب ، المرأة الجديدة ، جاهزة الآن .

في الصالون تختال بكمال زينتها مبتهجة تحت أمواج عطرها . الباهلي بنظارته يقرأ ويسجل ملاحظات .

يتنبه . يرى امرأة أخرى ، تفوح .

بخطوات متئدة ، والابتسامة على الشفاه الحمر ، تتقدم المرأة .

يرتعش مهيار ، ويرتكب . ماعاد يفهم مايقرأ ويتوقف القلم .

- فلة !

- مهيار .

وهما الآن على مسافة جسد . المرأة الجاهزة والرجل المباغت .

وهي تفتح ذراعيها يتعلثم الذي بدا محصناً ضد الخيانة . إذ تحضنه تشعر بحرارته . يضممه عطرها النفاذ ، وتقول المرأة : أنا أشتهدك الليلة ياسي مهيار .

يضطرب الرجل : آه . آه . هذا شيء آخر . وفوق البساط المفروش على بلاط الغرفة يهبطان . المرأة المستشاره تقبله بشهوانية وهي تضغط جسدها بجسده .

مضطرب مهيار الباهلي ومباغت وهو يتلوى بين أعضاء المرأة .

لقد باعنته في لحظة غياب ، فانتشر . تشوش العقل المفصل عن الجسد . العقل المحض المتجلبي عن دنس الشهوة .

غير أن العتابية كانت منغرسة فيه كالأخطبوط . هي اللحظة مستشاره . كانت وحيدة قبل لحظات لكنها الآن تطلب انساً . وقبل لحظات أيضاً كانت عطشى . الأرض المشققة من القيظ تتشهي الماء . وهذا البيت يشبه الصحراء بعد أن سكنه هذا القديس الأحمق ، الذي يفهم كل نظريات العالم ، لكنه قاصر عن تلبية صرائح جسد امرأة وحيدة . وفي أزمنة غابت جاؤوا إلى هنا : فلسطينيون ومصريون وسوريون و العراقيون ، تركوا بصماتهم على خريطة الجسد ومضوا .

- آي . آي . أنت حلو . آي . كم أنت لذيد . هيا ! هيا ! ومهيار الباهلي يبدو تحت جسد فلة رجلاً مغتصباً . ارتدت به الصور والأخيلة نحو الشرق . الزوجة الوحيدة التي تركها تحت قسوة الغياب . الوفية التي لاتخون رغم برد الليل والنداءات الجسد المهجور .

العقل مع الأخيلة البعيدة تفاعلاً فولدت حالة اشمئاز . وقال لنفسه وهو يتململ ويضغط الأرض : كن وفياً مثلها . هذه لحظة اختبار علينا أن نتماثل .

وما كان ليستجيب لأصوات صراخات المرأة التي تتمزق فانسلَ من براش جسدها بعيداً .

- أراهن إن كنت رجلاً .

قالت ذلك وهي تنقلب مهتاجة كاللبؤة على قفاهما .  
وأحس بأنه أهين فكتم صرخة .

كان الآن مكؤماً على نفسه في زاوية الصالون . وهبت عليه عواصف من الذل والغربة والحنين والانكسار ، وأنه لم يفهم . وفي منتصف الصالون كانت المرأة . امرأة أفريقية تشتعل بالشهوة ورغبة الامتلاك ، مجرورة يتفضّد منها الجنس والألم والاحتقار . بهدوء ابتدأت تتعرى . وشاهد مهيار الباهلي أصابعها وهي تخلي سروالها . وكانت تضحك .

وقالت : لأول مرة أتعري . هم كانوا يعرونني . رشيد الفلسطيني مزق سروالي ونام معه أربع مرات في ليلة واحدة . هو الآخر كان متزوجاً ولديه أطفال . لكنه رجلاً شهماً يعرف معنى وحدة امرأة كما يعرف كيف يستجيب لرغبة جسده الظاميء . مرسي المصري بعد أن يشرب النبيذ والخشيش كان يتحول إلى منشد شعبي وهو يضاجعني حتى الصباح . ذو النون العراقي كان يبكي بين فخذي وهو يهذي بالشعر . واصلت المرأة فصلها المسرحي ، فكشفت ستراها . كانت تضحك بندب هستيري : هذا الجسد لا يعجبك ! لقد عبروه جميعاً ولكنه ظل صامداً كحجر النار . كل الثوار عبروا من هنا . لماذا تتعرّف ؟ من قال لك أن أمرأتك لا تنام الآن مع رجل آخر ؟

وفي الزاوية كان الرجل يتكون ضاغطاً رأسه بين راحتيه ، وإذا سمع الاهانة ، صرخ : اقفلني فمك أيتها . . . وكَرَ على شفته السفلية . وقهقت : هل أتممتها عنك ؟ كلهم كانوا يصرخون هكذا . في البدء يتاؤهون : حبيبي . غزالتي . قمرى . روحي . عيني . وبعد أن يفرغوا شهوتهم يشعرون بالتأنيب : لقد ناموا مع عاهرة . عاهرة ! أما الثوار والمناضلون والقوميون والمثقفون والاشتراكيون . نسبة الشعب . طليعة الأمة .

النور الساطع في الظلام العميق . القادة المعبودون والآباء الروحيون المتوجون بهالات القدسية والجلال والعظمة .  
ها . ها . ها . ياللسفلس الثوري !

وصرخت : كلهم تخرجوا من مدرسة العتابية ، ومرروا تحت قوس فخذيها . بهدوء تناولت قلم مهيار الملقي على البساط وقالت عليك إن كنت رجلاً أن ترى وتنماسك . وما كان يدرى ماذا ستفعل . وللحظة أحسن

وكانه في قاعة مصحح أمراض عقلية . وقال لنفسه . سحقاً . كيف أخرج من هذه المصحح ؟ ووَدَ لو يستطيع الخروج ويعدو في الشوارع أو نحو البحر أو بيت مهدي جواد . وكان الليل يتقدم وبونه راسخة تحت ليلها الهادئ .

بدأت فلة بو عنّاب العارية تمارس بالقلم شهوتها ، وتناؤه . كانت جالسة على البساط ، فارجة ساقيها بينما قلم الباهلي يهتز ويحك بحواف فرجها وبظرها وهي تئن ، وتهذى .

الضوء يسقط على الكتب المبعثرة ، وبين الصالون وغرفة مهيار ستارة تخفق بها الريح . وفي رأس الباهلي كان العالم يتتصادى بملائين الصرخات والحركات والألوان ، وإيقاعات الألم .

كصر صار زحف تحت ستارة المدلاة نحو غرفته . صوت أنين المرأة في رأسه وهذا الزوغان المجنون . استلقى على فراشه كمريض . عندما صرخت المرأة نازفة شهوتها المنفجرة ، اندفع الرجل المهزوم ببكاء مرير .

\* \* \*

الصباح العذب . فجر بونه البحري . سماء من النوارس والضياء ، وأرض من الغابات والسهب الخضراء . بلاد الشرق الجزائري المتاخمة للشمس والبحر ، والحزن العميق .

هنا ولد القديس اوغسطين وريزي عمر ومحمد بوخروبه ، وهنا بكى مهيار الباهلي . تحت هذا الصباح الوردي ، بين شعاب جبل سرايدي المحف بالبحر ، ولدت آسيا لخضر ذات وقت ، وذات وقت آخر نام سي العربي ملفعاً بدمائه تحت تراب هذه الأرض المقدسة والملعونة .

- 6 -

ذلك المساء .

موسيقى ونبيذ مسكرة وقرار داخلي بانكسار العلاقة مع آسيا بعد الذي حدث في الساحة وعلى الجسر .

إنه يشرب ويدخن برغبة من يريد الثمل سريعاً لينشد على نحو ما أغنية الفقر والوحشة الذئبية . لكن مهيار الباهلي هذا البهلول المأخوذ بابتلالات الدماغ لا يسمح كثيراً لبروق القلب البشري أن تلمع . بين الضجر والحزن يتحدث عن الثورة التي لم تبدل شيئاً في أعماق

الانسان هنا . لقد زادت مرارته وتعقّلت كآباته أكثر فأكثر ، وعلى ما يبدو فقد بدأ يكتشف أن سنوات الحرب الوطنية لم تكن أكثر من صرخة في عراء .

إذن . ما العمل .

وكان أن قالت العناية ذات ضحى بأن الفساد في الخلايا والعربي ياسي مهيار لا يرجى منه خير في هذا الزمن . ويومها قال سي الباهلي بأن هذا هذيان عنصري أفرزه الاستعمار ليظل متوفقاً ونظل نحن على الهاشم أتباعاً وخداماً من الدرجة العاشرة .

وفي تلك الليلة بين النبيذ والضجر وبداءات ظهور علامات التلف قال مهيار لمهدى بأن فلة امرأة فاسدة ومخيفة ومدمرة . كان يحكى باقتضاب ممارستها للعادة السرية على ذلك النحو الفظّ والكريه .

كان الضوء خافتًا في الغرفة وعلى الطاولة النبيذ والخضار والحسائش والبيض المقلبي وشرائح البفتيك . وتحت شفافية الليل يتموج صوت البحر .

لقد قالت آسيا له يوماً أنت لاترى من الأيام شموسها وصباحاتها .  
لماذا لاترى غير الليالي الدامسة !

وفيما مضى هذى الباهلي : لو كان لدى خمسة ثوريين من نمط أبي ذر وعلي بن محمد وحمدان قرمط لألهبت هذه الدنيا العربية بالحرائق .  
ـ لكن ثورة المليون شهيد اغتالها العسكر والتجار في النهاية .  
هكذا قالت فلة بوعناب وهي تتکئ على أريكة في صالون بيتها وتدخن سجائر الهقار .

وقال مساء بونه : كم أنا وحيد مع الشجر والبحر .  
تحت سطوة الحزن والإرتکاسات وأشباح الذاكرة سقط مهدي جواد  
أسير حرب .

هو والباهلي وحيدان في غرفة مغلقة .  
رجلان جاءت بهما الأيام مصادفة وبلا ميعاد إلى هذه المدينة  
الغريبة .

ومن فتحة النافذة كانت هناك فرجة سماوية تلمع فيها نجمة .  
يتابع مهيار الباهلي تسبیحاته حول عبئية النضال السلمي وهراء الخط اللارأسمالي والأعترافات والتواطؤ والانشقاقات والاتجاه الصائب لجماعة الأهوار . لكنه يستطرد بأن اندفاعه الكفاح المسلح كانت متھورة

وجنونية . الجنون الذي لابد منه في لحظة استثنائية ليطهر الدم فساد البشر .

يشرب مهدي جواد فيشح الرأس وتشع النجمة في السماء أكثر .  
آسيا الآن تبدو كالظلال الراقصة على ساحل السماء الآخر .  
شمس أو صرخة يمكن أن توقظ . لكن الأشياء الآن تدخل تحت خط الأفق البحري ، وعلى المدى المعصر بدم الشمس لا يرى شيء . سديم مدرع بكلس السماء والغيوم المتراكفة . سحب متراكمة كالجبال أو الحيتان أو التماسيح .

وتحت خط الأفق يلوح وجه . وجوه . تجلس على كراسي وتعترف .  
وجوه تنطق باشياء بغية قابضة للقلب .

- كنت مخطئاً . الآن أنا أعترف بهذا .

- أتقول ذلك قانعاً ؟

- أقول .

- هل توقع وتعلن براءتك ؟

- أوقع .

ووقعوا .

هكذا انكسر الزمن .

- أنا وأسيا لخسر انكسرنا . هزمتنا الآلهة وخراب الخلايا ودم سي العربي الذي راح هdraً في دروب سوق أهراص . هذى لمهيار .  
استفاض الباهلي عن عصورة التنويرية . العصور التي ضاعت بعيداً ولم تخسيء هذا الكوكب اللعين المعتم .

- الدماء وحدها التي تخسيء الآن وما تبقى هو الهراء .

وكان مهدي جواد تحت أمواج النبيذ وحرقة القلب المنكسر ممزوراً  
بأحزان نيازك تلهب الأعصاب ساقطاً تحت وطأة الدمار الهابط مع قطرات الحليب نحو بلازما الكريات ودفق الشرايين .

وقالت آسيا : من أين تأتيك هذه الأشباح الملعونة ؟ فسألها آنداك  
إن كانت ستخون فضحتك من اهتزازات عقلهالمضطرب .

كانت على الصخرة البحرية حيث يتناثر الموج وهو يضرب الصخرة  
قبل أن تغطس في الماء ليشق الصخر رأسها وينشق الدم فيصرخ .  
يصرخان في العراء البحري . يجف دمها النازف ويجرى وهو يحملها  
إلى الطريق العام ثم إلى المستشفى .

وفي غمرة هلام الزمن الراشح بالنبيذ ورعب ماجرى ، نأت المرأة البيضاء العملاقة . المرأة التي اختلط عليها مهدي جواد بسي العربي . كذلك نأت غابات البردي في أهوار الغموكة وجاءت بونه الجميلة الهاجعة تحت الليل الأفريقي . سفينة تائهة على سطح هذا الغمر .

عذبوه بالأسلاك ثم صدموه بالكهرباء ولما لم يعترف نسفوا جمجمته من مسافة متر ثم جروه إلى حفرة بعيدة وطمروه .

- لكنه حي وسيعود .

والاستحالة تجثم أشباحاً من هلام وضوء وعصابير في خيال الأطفال الذين لم يدركوا سن الموت .

الأرواح تسافر في رحلة طويلة أو قصيرة مثلها مثل الطيور ثم لاتثبت أن تعود في مواسمها . اوه . يا إله السموات والأرض . لماذا لا يكون الأمر هكذا إذا كان الله عادلاً وشفوقاً لا يحقد على مخلوقاته !

ومع أنها شاهدت الموت يخطو في بونه . رأت الوحش في الشوارع وهو يقذف رصاصه وقنابله فيحصد الأطفال والنساء وطلبة المدارس في أسبوع رحيل الغزا ثم يعلقهم على الأشجار والجدران والأسطح وأسلاك الكهرباء . رأتهم يتلون كالعصافير والثياب وفزاعات الحقول ، إلا أنها اهظنت ذلك كابوساً من كوابيس الطفولة أو السينما .

- لا . كفى موتاً . لا أريدك أن تموت . كثيرون ماتوا ولم نحصد غير الألم . الحياة جميلة ياعزيزي ونحن نريد أن نحيا .

- بلـى . بلـى . ينبغي أن نحيا .

وقال حديثنا ياجميلتي عن الحياة العذبة في بلاد ولد الحاج وعسكر بوخروبه وعبد بن أبي ضبيعة الكلبي .

كانا في بيتهما بعد أن رحلت العائلة في تلك الليلة إلى شاطئ شطايببي . ملتصقان ومطوقان كأب وطفلة على جلد خروف في مملكة يزيد ولد الحاج السرية . أمامهما التلفزيون وأصابع قدمه تتدغدغ كاحل قدمها وهي تضحك وتتبازأ بالشتائم .

- دعنا من السياسة . طيز أم العالم . أنا وأنت هذه هي الحياة . لقد تركت الابواب الداخلية مفتوحة خوفاً من مداهمة يزيد في لحظة عودة نزقة . ووراءهما فتحت النافذة احتساباً للهرب .

- كيف دبرت الأمر ؟

- تذرّعت بقرب الامتحانات .

كان البيت حمياً . جسد آسيا الممدد على الجلد الصوفي الأبيض يتوجه بالرائحة . رائحة أعشاب بللها الندى في فجر ريفي . ومن الحديقة فاح زهر قداح الليمون .

- سنظل يقظين حتى الفجر .

- ياللحلم !

اختلاطات لعينة تأتي وتروح ونبذ مسكرة لا يُسْكِرْ مهيار الباهلي وشاشة الرأس مداهمة بالصور والآيات ومهدي جواد مزعزع في هذه السفينة المؤرجحة لا يعرف كيف يتجه ودوار البحر يصدي به والزمن ليس ملكه وهو الذي استوهم يوماً أنه ملكه لحظة جلس على عرش الله وصرخ بال الخليفة : كوني معي يوماً . يوماً واحداً فقط .

ومن بداية الخليقة رأى نفسه وحيداً . ويوم ربوا بالحبال والده السكير إلى جذع شجرة التوت في حظيرة البقر من أول الليل حتى شروق الشمس صرخ بهم : يا أولاد الزوانى إن العاصفة لاتربط . سينخل وثاقى وسترون ما الذي سافعله بكم !

ولم يفعل شيئاً ذا قيمة فيما بعد . ظل يسكر ويضرب زوجته ويحمل بندقيته ويطلق في الليالي قرب أبواب الإقطاعيين والأسياد من رجال الدين ويشتمهم ، وليلة أشعل النيران في بيادر القمح والعدس والحمص وهو يسكر ويقهقه : يا أولاد الانكليز راحت عليكم . يوم القيمة قام وسعدون جواد أتاكم بالنار والخراب . نار الله الموقدة وسعدون رب النار . طاق . طاق . عيري فيكم يانسوان ابن الجوشن يافتلة الحسين . هذا يوم الحساب حساب الذي لن يشع لكم . طاق . طاق . خذوا . خذوا ياعبيد المال والفروج .

جاوه بالدرك وطوقوه بعد أن نفذ خرطوشة وارتدى على جذع الشجرة متعثعاً من الخمر .

سعدون جواد مات فيما بعد وحيداً دون أن يحقق شيئاً ذا معنى سوى حماقاته الشخصية بعد أن تندلع في جوفه ورأسه نيران خمرته وبؤسه اللعينين فيندفع كمنبوز يطلق ثاراته الرعناء .

كان كارهاً للناس جميعاً . حتى امرأته الجاهلة قذفها بحقده الشيطاني فأذاقها العلقم لأنها لاتفهمه ولا تدرك مدى قدراته اللامحدودة في الوصول إلى النجوم وقيادة الكورة الأرضية وإيقافها متى شاء . إنه

يمسكها بيده حتى لا تجぬح في أية لحظة فيهوي الكون كله في الجحيم لكنه يشقق على المخلوقات الطيبة والأنيسة كالطهير والحمير والماعز والغزلان والجواميس والذئاب والجياد من أن تهلك لهذا يظل يشد الكرة إلى المركز حتى لا تنهار . يقول ذلك وهو يترنح تحت الوهج الطيفي للذات التي خرجت من ملوكتها الأرضي . تصمت المرأة فيقول هاتي مهدي أنت امرأة حمقاء بخلع قاصر ولا تفهمن شيئاً من كلمات الآلهة . هاتي ذلك الملعون المولود من ضلعي لا من ضلعلك . وحده الذي يفهم ماذا يقوله سعدون . أنا مجنون ! هكذا تفكرين أكيد أيتها المعتوهة . ولكن كيف . قولي . كيف اصطدمت بك ؟ من أين أتيت واعتبرت طريقي ؟ قولي . هاتيه وإلا قطعت رأسك بهذه المدية تصرخ المرأة وتلول فيقهه سعدون جواد في الليل الأصم لأنه أخاف المرأة .

يبدو للمرأة الطيبة رجلاً مخيفاً ترتعد المخلوقات منه وتنفك حتى  
تبول تحتها .

لكن مهيار الباهلي هذا الشبيه بأم مهدي جواد لا يريد أن يسخر في هذه الليلة وفلة بو عناب أهانته في رجلته ليلة العادة السرية . رأى فرجها يبكي ثم يضحك ثم يغنى ثم يصرخ باللذة أما هو فبكى شوقاً إلى أرض بعيدة كالنجم . أرض من الرخام والغيم وأزهار اللوتيس تتفتح في الغسق . ومهدي جواد بن سعدون جواد كان صغيراً ووحيداً ويرتجف من التجديفات والطقوس الملغزة التي يقوم بها أبوه . قال له أنت لن تكون ابني إذا ما اعترفت يوماً بأمومة هذه الأم اللعينة والغبية . أنت ابن سعدون يعني ابن الذئاب . كان يرتعد في حضرته وهو يتخيله مجنوناً سيقتله . وكانت السكينة على مرمى ذراعه . وقال له عندما تكبر تذكر أنهم أهانوني وساطوني وعليك أن تثار منهم . إذا لم تثار ستأتي روحي وتحوم حولك وتخنقك . ربطوني ، أولاد العواهر في الحظيرة إلى الشجرة وجاؤوا بالدرك وضربوني ثم أحرقوا البيت لأنني أحرقت محاصيلهم ثم طردوني من البلد . تذكر كل كلمة أقولها لك الآن . أنت ابن الطبيعة والوحش وهذه البندقية والسكين ميراثك فلا تغفر لأحد . أتسمع ؟ اقترب منه نفر الصبي فأمسك به بقوة ورفعه إلى أعلى وصرخ : أنت جزء من الصخر والشجر وصوت ذئاب البر . لن أورثك شيئاً لأن حياتك ستنتهي في العواصف . أتفهم ما هي العواصف أيها الكلب الصغير ؟ لابد أن تكون قوياً أيها الجميل . كان يضممه بحنان أبوى شغوف ثم يداعبه ويرمييه على

الأرض فيتشقلبان كطفلين . الأب يضحك والطفل يضحك والأم فاغرة فاما لاتصدق هذا الجنون : ستضربهم بلا رحمة . هيا اضربني . وبخوف يضرب الولد أباه . اضرب أكثر وأشد اضرب بألم وقوة . ويضربه على جبهته بقوة . آي . آي . يا ابن الكلبة . او جعنتي . هكذا ساضربهم يقول الطفل ويضحكان بغرارات صاحبة . ممراعاة في ليل غريب ، ساحر ، مجنون .

\* \* \*

تجذبه آسيا من شعره *فيلتقي بصرهما* : أنت لي . هاه . عليك أن تفهم ذلك منذ الليلة .  
ويضحك . أنفها الكبير المفلطح يواجهه . يقرص أنفها : لكن أنفك هذا سيعرض مستقبلانا .

- هو من صنع ربى . لماذا تسخر منه ؟

- لابد أن ربك فنان فاشر إذن !

ومنذ لحظات دخل مهيار . جسد نحيل ووجه حاد ومحروق ومقطب . موج من الأعصاب المتوتة كشهام قيد الاطلاق . في عينيه انحرار من لاتهب الرياح بمشيئة سفنه .  
ارتدى على السرير شابكاً أصابعه تحت رأسه . كان يخترق السقف ببصره المشغّ .

- مازا يقول العراف الأعظم ؟

ل فهو أجاب ولا مهدي جواد اهتم بالمتابعة .

يرتفع الحياد أكثر . بدا الباهلي عازفاً عن قبول العالم والاندماج فيه في هذه اللحظة . ومهدي جواد ملفوح الآن برياح ملعونة لاتحمل غير روائح الموت . لقد اقبلت آسيا الأخضر في العصور المندحرة ، وها هي ذي تغرب آسيرة هذه العصور . كغيرها تجتاحها الرياح السوداء . تخطف روحها البيضاء البروق السحرية التي تشق الأبناء عن الآباء ، والزوجات عن الأزواج ، والرفاق عن رفاقهم ، والبحر عن شواطئه .

ولكن لماذا خلعت هذه الأرض الملعونة غزاتها الخارجين ليغطي جلدها الغزاوة الداخليون ؟ ها هو العنكبوت الدموي يتموج من مشارق الأرض إلى مغاربها وقد غطى الشمس . يطاردك في الليل والنهار وفي جميع الأماكن . بنسيج خيوطه اللزجة فارزاً سمه فوق الأعشاب وعلى وجه البحار وداخل النطفة البيضاء وبين الشفة والشفة .

وكان أن ابتدأ الباهلي أراجيفه . الذكريات والتحليلات وأحلام العظمة ووهم قيادة التاريخ ، خرجت من سقف التأمل وكهوف الكتب المتراسقة في أدراج تلافيف دماغه . وتحت هدأة الليل الذي يتقدم ارتفعت صرخة : نحن لسنا شيئاً في هذا الوقت اللعين . أحد منا لم يكن ما ينبغي أن يكون . لم يستطع أن يكون ما ينبغي . لماذا لا تكفي عن هذه الحماقات ! انتبه مهياً للصرخة . رفع جسده الممدود فتولّت قدماه على حافة السرير .

- ما الذي تريد إثباته ؟

- ألا ترى أشباح العنكبوت ! لماذا لا تستطيع أن ترى الأرض ؟ على سرير البحر العشبي ، والمحيط يمتد أمامهما ، سالت آسيا الأخضر : أتقبلني صديقة عمر ؟

وقال : آه . لو أن القلب لم يمت بموت الأصدقاء !

وقالت : لكن الحب العميق مطر يحيي موات العشب .

ثم قالت : نحن الجزائريين مازلنا أطفالا . لقد ولدنا بعد موت الاستعمار ونريد أن نصبح بحرية الأطفال .

- في المشرق نحن عجائز في سن الأطفال .  
- كيف ؟

- يولد الطفل ثم يحبو ليخرج إلى النور فيفاجأ بجندي يحرس الأبواب .

شارع مصطفى بن بولعيد هامد . فسيح وخارٍ إلا من أشجار الدردار وظلال الضوء .

كانت الغرفة تبحر الآن تحت مطر النبيذ الأرجواني ، وبين قطرات المطر سمع أصوات الطيور . أصوات حادة وجريحة . كذلك كانت هناك أصوات الرصاص ، وأصوات الرجال الذين طفوا على سطح الغمر وعلى وجوه الشوارع . وجاء صوت آسيا لخضر الضارع . الصوت التائه بين الفرنسي والأب القتيل ومهدى جواد .

وتحت الضوء لمعت زجاجات الخمر والكؤوس وسكين .  
شيء كريه كان هناك . كريه ومقزز .

وبدا مفصولاً عن العالم المحيط . وجه مهياً للصلب كحافة جرف ، ظهر له كوجه فأر مبلل . أكان يبكي أم يدفع أشباح الإهانة ؟ ولكن من أين أقبل هذا العجز ؟ هذا العار وهذا الطرح ؟

بعد جرعة نبيذ حارقة ، أصيّب طائر أبيض بطلاقة .  
وعلى سطح مياه بحر بونه رأى امرأة جوفاء ، مقتولة .  
قال الرجل المخمور : ليست آسيا لخضر بالمرأة التي يراهن عليها  
لا في هذا الزمن ولا في أي زمن . نحن الموت . الآن نحن الموت .  
واحد منها كان يبكي . وقال واحد للآخر : الزمن غادر والقلب  
غادر وسيخون أحدنا الآخر . سيتركه ويرحل إلى آخر .  
وقال أحدهما : نحن نعشق والأخرون يتزوجون عشيقاتنا . الحب  
الأول مرصد لطحالب البحر .

وقال الآخر : سيمزقنا الزمن . طريقنا هالكة وبيننا بربخ .  
ـ إنك تخوض حرب الإتلاف والذي تفعله له اسم واحد : الانجراف  
نحو الهاوية .

كان مهيار الباهلي يتحدث الآن من شرفة صحوه بنقاء طهري .  
لقد سجى الليل الرحماني فوق هضاب بونه . يزيد ولد الحاج  
معتكف الآن في جسد لا فضيلة يسبح لجلاله المزدهر . وهما في  
الغمرة . آسيا ومهدى بين العري والموت يختلفان بليلة سرقتهما آسيا من  
رقابة يزيد التي تطاردهما عبر شوارع المدينة .

ـ هذا حلمي . مذ تعارفنا وأنا أحلم أن ننام معاً هنا في بيتنا . لا  
أدرى لماذا صرت أشعر وكأن هذا البيت لنا . قلبي ينقبض عندما تخرج  
بعد انتهاء الدرس . وأنا أودعك على العتبة أرغمب لو أمسك بك لأعيدك .  
ألا تشعر بأنه صار بيتك ؟

ثم يأتي صوت البحر .

ويقول صوت مهيار : إننا ننفق في المنفى ونهلك .

بهدوء تمتد أصابع مهدي وتلتقط السكين .

الbahli يدخن ويسمع موسيقى ويحلم بثورة جديدة يقودها من  
أهوار العراق إلى جبال الأطلس .

وعلى مهل يوجه مهدي جواد رأس النصل نحو الشريان . يضغط  
بهدوء ثم بقوّة فينبثق الدم .

قطرات الدم تتتساقط على السطح الزهري لغطاء الطاولة . الألم  
يمتزج باللذة . يرسم الخيط الرفيع القاني : آسيا لخضر فتاة حمقاء .

ثم يرسم : ومهيار الباهلي رجل مريض مسكون بأوهام النصر .  
بلذة كان يصاعد لعبنة النار . لقد انفتح الجرح أكثر وتدفق الدم

بهدوء أشعل لفافة وراح يلهب الجرح بوهج السيجارة . وامتزج الدم بالرماد فتختثر وداخل الخثار الصديدي رأى حبيبات العار والقصور . ورأى كلاباً تلتهم رؤوس اطفال ، ثم رأى سجنوناً وثقوب صدور فتحها الرصاص ، ورأى العراق محمولاً على محفة يغنى ويبكي ويترنح في قبضة ابن أبي ضبيعة .

وأقبلت أصوات وصور وشظايا شهب . تشتعل ثم تنطفئ فوق بحر أحمر . فجأة وبكل ما أوتي من طاقة ، غرس رأس اللفافة المتوجه في عمق الجرح .

الصيحة التي دوت خارقة الجدران وعراء الليل ، أيقظت مهيار الباهلي . صيحة الوحش الذي تلقى طعنـة : آه . أيها الاحمق ما الذي صنعت ؟ !

وكان أن التفت مهدي جواد الجريج برايات سود ، ثم هوى في أعماق تلك الليلة الليلاء .

## - 7 -

وفي تلك الليلة قبل أن تأتي ضربة الجرح سهراً حتى الفجر .

وبعد منتصف الليل نسي العالم الخارجي وأمناً مباغته يزيد ولد الحاج . البيت بكل اتساعه ودفنه كان لهما . حتى الصباح وهو ملتقان كالأغصان والجذور وجهاً لوجه وصدرأً لصدر وزراعين لذراعين تحت الفرح الطفولي العاري والنشوة التي رفعتهما عالياً نحو السماء الزرقاء والينابيع الزرقاء داخل موج من الشهوة والدوار المميت الذي يرفع نبض القلب حتى بوابة الموت إذ يبدأ انحسار الموج والصوت الخافت لهسيس البحر وهو يدغدغ الرمل الناعم لينام تحت أليك من الأزهار وهي تهمي فوق جسديهما وتغطيهما بتلك البرودة المخملية الناعمة .

سيذكر ذلك وأشياء أخرى بين الهذيان والصحو في سرير من أسرة مستشفى الرازي القائم على التلال الخضراء الجنوبية القريبة من جبل سرايدي . وفيما مضى . في زمن بعيد جداً كان للأشياء معنى . الحماسة وهيجان الجسد والهرطقات الأبوية وصرخات الحزب وطفولة الطبيعة . كلها كانت تهـب في المسام وداخل الأضلاع شوقاً لامتلاك العالم . إمكانية أن يكون العالم بين راحتيك وتحت وجه عينيك وفي تدفق الجسد . والآن تحت هذا السقف الأبيض . هبوط الأشياء واحتلال العالم .

سرير أبيض وروائح أدوية . حموضة في الهواء وممرضات يتحركن بثياب بيضاء .

ما الذي أتى به إلى هنا ؟ يتحرك فيشعر بوخزة ألم في الذراع اليسرى . تقول الممرضة : انتبه لذراعك خلال الحركة . اوه . ياللحماقة !

جسد مجوف . مرمى كطوف على سطح بحر . صمت أبيض يُرى في عيني الممرضة التي تقترب حاملة الضمادات . وهي تنزع الضماد القديم سألهما عما جرى فقالت بين الجرح والشريان مسافة ميلمتر . وسألته إن كان يشعر بتحسن فهز رأسه بانكسار وهو يتأمل اسماره وجهها وأصابعها .

وقالت وهي تغير الضماد : عليك أن تأكل . المصل لا يكفي . وبدت عيناهما في لون شهد العسل . ولأنه كان واقعاً تحت سطوة الحس بالذنب ؟ اعتقد بأن الممرضة تريد أن تقول شيئاً آخر من نوع : لماذا فعلت ذلك ؟ لكنها اكتفت بعد تضميده بسؤال بارد : هل تريد شيئاً ؟ ثم خرجت .

الطيب هو الذي سأله فيما بعد . وعندما أجاب بأنها حالة خاصة ، قال الطبيب شيئاً عن حالات المثقفين وحساسيتهم والتعقيدات التي تخلقها الحياة المعاصرة . وأضاف : بالنسبة للجزائريين الانتحار حالة شائعة . هناك الطبع الحار ، والدم الحار ، والظروف الحياتية الصعبة . ثم استطرد : لكنهم هنا يواجهون الموت بعنف رغم شغفهم بالحياة ونادرًا ما ينجون .

وأمام الطبيب بدا كمدنٍ في قفص اتهام . كان صغيراً في مواجهة الرجل المتماسك والمتوازن مع العالم .

كم كان عارياً ، مبللاً بالندم ! هو الذي كان يكابر أبداً ، ويستتر وراء المتاريس ، مقنعاً بجلدة وجه صلب ، متحفزاً ومحضناً ضد الحماقات .

لقد عاش حتى الآن في مركز العواصف ،وها هي ذي امرأة تهزمـه . تكسر الجدران وتباوغـته ، فتصـل طعـنتـها حدودـ الشـراـيـين . ولكن هلـ المـرأـةـ كانتـ السـبـبـ ؟

ومرـتـ عبرـ الطـيـوـفـ الآـلـامـ المـتـراكـمـةـ . الانـكـسـارـاتـ والـضـرـبـاتـ التـيـ تـتـالـلتـ . وـتـذـكـرـ جـذـوعـ النـخلـ التـيـ تـتـقـشـرـ وـتـنـحـلـ مـنـ الاسـفـلـ تـحـتـ رـيـاحـ الطـبـيـعـةـ . حلـقـاتـ أـضـلاـعـهاـ تـظـلـ صـامـدـةـ حـامـلـةـ السـعـفـ وـالـعـذـقـ إـلـىـ أـنـ يـنـخـرـ الجـوـفـ وـتـنـقـتـ الـخـيوـطـ الدـاخـلـيـةـ .

ليس مسموحاً لك أن تنهار . على الثوري أن يظل باسقاً كشجر النخيل . فهو ضك يساوي نهوض العالم . وحدهم البورجوازيون يقعنون فرائس نزعاتهم الذاتية . آه . آه . الوصايا العشر القديمة .

لقد جاءت الحمى . الغرفة ضيقة ومبتلة تسريح بالأشعة والعرق . وها هي موجات الحرارة ترخي ثقلًا وكابة فوق الأشياء الخارجية .

كطفيل أميبي انتقل الثقل والرماد إلى الدماغ ، فابتداأت الأشياء تترنح . تحت هذا البياض الموحي بمدافن وشواهد قبور وجدران ثقيلة بيضاء ، رسا كجسم ربط بكتلة ثقيلة وراح يغوص في محيط لاقرار له . وما كان مدركاً أين هو ولماذا هو هنا . لا بد أن أموراً كثيرة التبست منذ زمن . مذ خرج كنيزك من مداره فقد مركز الجاذبية .

شيء ما في الأساس العميق فقد توأزنه .

وهو يهوي تذكر أنها حدثته عن الرجل الذي تحلم به ، وعن البيت الذي ترغبه والطفل الذي تستهني ولايته .

رجل طويل ، ديناميكي ، جماله عادي ، لكنه قوي أمام الصعب . وأضاف هو : وعيناه بلون البحر وشعره بلون حقول القمح الناضجة . وعندما سألت باستغراب : لماذا ؟ قال باسماً : الانسجام الداخلي .

وقالت : المهم أن يحترم المرأة وحريتها . وتتابعت مستطردة : الجزائري فقط والمرأة في مرأته حشرة أما الفرنسي فناعم وهش أكثر مما ينبغي رغم الجمال الظاهري . ليست الصورة مركزة في رأسى تماماً . أحياناً كنت أراه عبر أكثر من شكل . هل ستضحك لو قلت لك أنتني حاولت تشكيله مرة من عجينة لدائئ الرسم في المدرسة ، وعندما سألتني المدرسة عما أصنع ، قلت : أنتي أرسم حساناً أشهب . وبغفته سالت : ولكن قل لي لماذا يفترق فتى وفتاة بعد حب عاصف ؟

وضحك : أحدهما يموت !

- لا . لا . في الحياة وهذا أحياه لماذا يفترقان ؟

- آه . في الحياة . لماذا تموت الأعشاب هل سألت نفسك يوماً ؟

- أنت . قل لي . هل أحببت ؟

بعد أن سجى الليل تحت سحر بونه المطوق لشفاف القلب ، أقبل من المدى الشرقي موج يحمل رائحة عبة للوطن . على ذرا الموج لمعت أعشاب القلب التي ماتت .

قطار طویل یتأهّب . زحمة وحشد في محطة القطار . مودعون وجليبة وبحث عن مقاعد السفر في المقاطورات . داخل هذه الفوضى يضيع رجل وامرأة كانوا معاً قبل لحظات .

يرحل القطار ويسدّ الأفق .

أفق مظلل بالضباب والليل ووراءه نجم يشع .

في رحلة النهر كان هناك زورقان ينقلان الرحلة . على سطح أحدهما يتعارف رجل وامرأة لأول مرة .

حديقة شط العرب مطوية بالماء . ثمة اخضرار ندي على امتداد الفرح . فوق العشب المبتل يخطو الرجل والمرأة معاً .

بعد أن افترقا في محطة القطار ، ها هما يشهقان لمفاجأة اللقاء في صالة الفندق .

الأشياء تتشكل ثم تنمو كما في شريط سينمائي ، غير أن الواقع أكثر عمقاً وأكثر خصوبة ، لكنه أشد فاجعة .

خصوصية الحياة ثم عمق المفاجأة التي تأتي كصعقة الموت .

وهما الآن يخطوان فوق الغبار . غبار المدينة التي كان اسمها بابل . المدينة المرمرة والتي تبدو الآن كمومياء .

تمثال الثور الهاجم والمرأة المضطجعة يشير إلى انتصار بابل على آشور التي تفتسب . تشير الفتاة إلى تمثال البازلت الأسود إشارة جنسية عابرة . وينحدران بين الغبار .

لم يبق من بابل غير الأنقاض وهذا الغبار والصلصال المرمم . وهما يعبران الأنقاض يسمعان صوت يمام ينوح . تقول الفتاة : اليمامة تنوح حبيبها المفقود . ثم تروي قصة عاشقين من بابل القديمة . العاشق الذي أخذته الحرب والعاقفة التي تموت حزناً وحنيناً بانتظار الفارس الذي لا يعود . يستلقيان على العشب تحت شجرة نخيل . الوقت أصيل ، والظلال تسيل على وجه في لون العسل . شعر أسود كثيف كدغله ، وعينان تلمعان بوميض غريب ، خاطف للقلب . وهي تتكلم تتكتّف . من وجهها يشع بريء يضيء : تاريخ العراق هو تاريخ فقدان . تقول المرأة . ويقول : مختلطًا بالدم .

- تشعر وكأن الطبيعة تبكي مع الإنسان .

- لأنّ الإنسان في مسرح أغريقي .

امرأة غريبة تنضح حناناً وشوقاً إلى زمن قديم . مع الحنان ينصلّه

ذكاء ساطع . المرأة التي صدمته في ذلك الزمن السحيق . ناعمة كشفافية الأصيل ، إنما جارحة لكتأها ولدت من زواج المساء مع رمل الصحراء . تلك المرأة التي غابت كشمس لن تشرق .

- أنت من بغداد ؟

- وأنت بصراوي !

- من الحلة . مازا تدرسين في الجامعة ؟

- صحافة .

وفي جامعة البصرة كانت الجلبة والضوباء يثيرها الشعراء بأشعارهم وكلماتهم التي ترنّ كأوعية نحاس تتصادم . المرأة والرجل يغادران الضوباء نحو الحديقة والممرات المشجرة .

يستلقيان على العشب تحت حرارة الضحى . متواجهان . العيون ورجفان الأرض والجسد . يسألها : ما الذي يقولونه الآن عنـا هناك ؟ تقلب المرأة شفتها استخفافاً : عشاـق ! ظـظ . ويضحـكان عـالـيـاـ .

إنـها تقولـ الأـشـيـاءـ بـمـباـشـرـةـ وـحـيـادـ وـإـذـ يـتـحدـثـ عـنـ الـعـالـمـ الـبـدـائـيـ وـالـبـدـوـ الـذـيـ يـتـزـيـؤـنـ بـالـثـيـابـ الـعـصـرـيـةـ وـالـسـيـارـاتـ وـالـدـيـكـورـاتـ الـمنـازـلـ وـيـحـكـونـ عـنـ التـقـدـمـ تـقـولـ بـأـنـهـاـ تـعـرـفـ كـيـفـ تـضـعـ قـدـمـيـهـ خـارـجـ مـضـارـبـهـمـ .

- هل سقطت آلهـتـمـ عـنـ شـجـرـتـكـ ؟

تضـحـكـ . المـرـأـةـ الغـرـيـبـةـ القـادـمـةـ مـنـ سـحـبـ أـخـرـىـ تـضـحـكـ وـهـيـ تـتـدـرـجـ بـيـنـ الـحـشـائـشـ ثـمـ تـسـتـلـقـيـ عـلـىـ ظـهـرـهـاـ تـحـتـ السـمـاءـ الـعـارـيـةـ . ثـوـبـهـاـ الـوـرـدـيـ مـنـحـسـرـ وـفـخـذـاهـاـ الـعـارـيـانـ وـالـلـامـعـانـ يـضـيـئـانـ تـحـتـ السـمـسـ . بـغـةـ تـصـمـتـ بـيـنـهـاـ عـيـنـاهـاـ تـرـفـرـفـانـ كـجـنـاحـيـ عـصـفـورـ وـيـداـهـاـ الـمـرـعـتـانـ تـدـاعـبـانـ ذـؤـابـاتـ الـعـشـبـ .

- ما الذي أـثـارـكـ ؟

تـقـولـ : تـخـيـلـتـ الـآـلـهـةـ بـلـحـاـ فيـ زـمـنـ الـقـطـافـ وـهـيـ تـهـويـ مـنـ السـمـاءـ وـأـنـاـ أـتـلـقـاهـاـ فـيـ رـاحـتـيـ .

ثـمـ تـسـتـطـرـدـ : أـشـعـلـ لـيـ لـفـافـةـ . تـقـولـ : فـيـ طـفـولـتـيـ كـانـ أـبـيـ يـتـحدـثـ عـنـ الـأـوـلـيـاءـ الـذـيـنـ يـصـعـدـوـنـ إـلـىـ السـمـاءـ بـعـدـ مـوـتـهـمـ وـكـيـفـ يـسـتـقـبـلـهـمـ اللـهـ مـرـحـبـاـ فـيـ الـجـنـةـ مـهـيـئـاـ لـكـلـ مـنـهـمـ سـرـيرـاـ مـرـيحـاـ وـخـدـمـاـ وـمـلـائـكـةـ وـحـورـيـاتـ لـيـظـلـوـاـ سـعـدـاءـ . كـنـتـ أـتـخـيـلـ السـمـاءـ شـجـرـةـ وـالـلـهـ هـوـ الـقـمـرـ وـالـنـجـومـ

والكواكب أولياء وملائكة الله .

عندما اندفع القطار داخل كتلة الليل واجه الرجل وحدته في مقصورة . بغتة اختفت فتاة بابل في هذا الزحام والهرج والدوار الأبله لكانها حلم عذب في ليلة صيف . ومن النافذة كانت السهب ومستنقعات الهور والنجوم ترکض كقطعان وطيور . شيء ما افتقد وداهمته الوحدة والحزن والاستيحاش والرمعة الباردة للليل .

أكثر أيضاً اندفع القطار طائراً فهجمت دفقات الريح . دخلت صدره وانفجرت حنيناً . شوق لافح ، حنون ، عذب يجرح حواف القلب .

هناك في مكان حساس من الجسد شفرة مرهفة تحز على مهل الجلد واللحم والعظم ، والدم يصعد . يتنهد ويشهق وهو يضغط حديد النافذة والريح تواصل دفقاتها على شكل موجات ساحرة وحريرية لكنها كالالمدية وهي تتغلغل إلى الأعمق .

ما كانت هنا المرأة العَسْلِيَّة التي فقدتها في محطة القطار . قالت ذلك آخر دفقة ريح .

ورأى أنه يندفع عبر ممرات القطار صارخاً صرخات صامتة كانت تصطدم بالحنجرة وسفق الحلق وقبة الرأس وصفائح القطار . كمجنون أصابه مس ، أو كأبله راح يجري من مقطورة إلى أخرى ومن مقصورة إلى مقصورة وهو يدق الأبواب ويسأل وينتظر ، وكانت الأسئلة تتلاشى مع الصرخات البلياء والأصداء التي تدور وتتصادم بالصفائح ووجوه الناس المندهشين . حتى منتصف الليل وهو يعدو ويدور في الممرات بحثاً عن الحلم الطائر الذي هبط عليه ذات ضحى في حدائق بابل الغبارية .

لم يكن هناك من أحد سوى رحلة قطار ووهم رجل رأى شبحاً في غبار بابل القديمة تزيلا له بзи امرأة لا اسم لها ولا تاريخ ، ثم غاب تحت وطأة هذه الحمئي المصيلية التي تلهب الدماغ قاذفة بسفينة الزمن الضائع من بحر بونه إلى بحر البصرة على متن أمواج بخار مصاب باختلالات الذاكرة ودوار البحر واختلالات المدن والنساء وتمزع الأشياء وهي تتناثر في هذه الهدأة عبر كل اتجاه .



**KMH**

خالد أحمد زكي .

مذ دخل العراق سراً قادماً من لندن حيث كان عضواً في مؤسسة برتراند راسل للدفاع عن المعتقلين في العراق ، توجّست القيادة اليمينية من هذا الغيغاري المتهور الملتح بآفكار اليسار الأوروبي الجديد ومغامرات التوباماروس وحروب عصابات أميركا الالاتينية .

رجل رقيق ، عذب ، نحيل الجسم ، وأنت تراه لأول وهلة يتماثل لك في الذهن أميراً رومانسيأً من أمراء ويلز أو أسبانيا القديمة ، وإذا يضحك ترى خجله الأنثوي يصعد كالورد إلى وجنتيه البيضاوين . هذا الطفل الرقيق العاشق .

ما الذي أتى به من شوارع لندن وضبابها في هذا الوقت الغريب ! يسأل مهيار الباهلي نفسه ، لكنه إذ يلمح الوجه الآخر للطفل يدرك أن الشكل قد يفترق عن المعنى ، وأنه يدرس جيداً خلال معرفته به التفاصيل الدقيقة لما وراء قشرة الجلد البيضاء .

في أعماق الفرات الأوسط ، وهمما يعبران المستنقعات والوحول والتعب وإيقاعات الرعب ، سيدرك مهيار الباهلي ما الذي حدا بهذا الفتى الرقيق الرومانسي للقدوم إلى مملكة الموت الوحيدة هنا .

سيضعه في حضنه وصدره متقوّب بالرصاص والدم يتختّر مع الوحول وسيناديه لينهض ، وفي أعماق روحه ندم عميق لما بدر منه يوم اختلف معه واتهمه بالتخاذل وأنه كان ضد مواجهة الموت الانتحاري .

بوعي رجل ثوري عاش التجربة الهزلية للخط السلمي الديمقراطي التي أودت بالحزب إلى الكارثة ، سيقدم وثيقته النظرية التي تؤكد على

ضرورة استبدال التهريج السياسي بالكافح المسلح والانطلاق من الأهوار ، كما سيدعو القيادة السياسية لأن تكون طليعة هذا الكفاح . ثم يحدد في الوثيقة كيفية العمل والاعتماد على الريف دون إهمال المدن ، مشيراً إلى ضرورة وحدة الفصائل التقدمية الأخرى وإشراكها في العمل المسلح ، والانتباه إلى الثورة الكردية في الشمال بالاستناد إليها كجدار .

وخلال التفاصيل ركز على ضرورة تكيف قواعد الحزب لتكون جاهزة للمعركة دون نسيان الجنود والعناصر الوطنية في الجيش . وعندما استشهد بمقولة لينين : لا يمكن للبروليتاريا أن تقيم سلطتها وتتهرّب البورجوازية إلا بالعنف المسلح . كان يعتقد أنه يخطو في الاتجاه الصائب ولو بعد فوات الوان .

وفي تلك الحقبة الفاصلة ، المفلترة من عقال الزمن ، حيث كان على البشر أن يعبروا أطواراً أخرى أكثر نمواً وصعوداً كما تراءى الأمر في مرأة خالد أحمد زكي وتخطيطاته الرومانسية العذبة والاقتحامية ، كانت البلاد والأزمنة تدخل حقول فوضاها وتواطئها والانحدار المتواصل إلى الهاوية .

ويومذاك ارتفعت أصوات قيادة اليمين تروي بتعقل براغماتي أهمية التحالف مع الديمقراطية الثورية التي استولت على السلطة بانقلاب عسكري جديد . لقد قادها تحليلاً العقري المطعم والممشول بالهدایة الأبوية الخروتشوفية إلى المطالبة بحل الحزب والانخراط في حزب السلطة لتخريبيه وتسويقه من الداخل بخميره البروليتاريا марكسية .

- اوه . اوه . يالعقربية الخارقة !

هكذا صرخ خالد أحمد زكي في اجتماع لجنة منطقية بغداد . واستطرد لنفسه إنهم يأخذوننا إلى مقصلة جديدة هؤلاء المناشفة . بهدوء يشرح الرجل التجربة القديمة الفاشرلة مع الزعيم ، وكيف راهناً عليه فإذا دمنا هو الثمن عندما جرد المقاومة الشعبية والحزب من السلاح ووضعه تحت تصرف الشرطة والاستخبارات العسكرية ثم بدأت المجازرة والحزب أعزل فذهبنا .

- إلى متى هذا الرهان الأحمق على حصان عسكري أعرج ؟ يومها اكتشفه مهيار الباهلي . اكتشف الوجه الآخر للطفل الهدائى . ويومها سأل نفسه كيف يحمل الإنسان في داخله قلب طفل وصرخة نمر ! لا بد أنه كان مجنوناً أو مصقولاً بحلم شمسي ، وعلى مؤشر هذه

البوصلة كان يتقدم في حقل الغام على كتفه بندقية فوق جسده كفن أبيض .

فيما بعد سيقول عنه أحد أصدقائه الانكليز بعد أن سمع بغيابه الطويل : كان خالد مزيجاً من غيفارا ودانتون . ما كان مجرد انسان ثوري ، نادر وعظيم ، لكنه كان حمياً وقربياً من كل انسان يعرفه . كان واضحاً ، وهو في لندن ، أنه يعد نفسه للقيام بأعمال عظيمة لا كفرد إنما كإنسان جماهيري يحب شعبه حتى الاستشهاد .

وهكذا إلى جانب وثيقة الكفاح المسلح التي قدمها القيادة بدأ مع تيار الكادر اللبناني حرباً لا هوادة فيها ضد العقل اليميني والانتهازي ، فرداً على المغامرين من جماعة بغداد الذين يهجسون بانقلاب عسكري ثوري وأنه مبادرة بالثورة وليس الثورة ، بأن المعركة لن تنهي في حال نجاح الضربة الانقلابية في العاصمة . فالحزب لا يقوم بانقلاب فوقى لتغيير شكل السلطة بل يقوم بثورة اجتماعية . وأبدأ كان يسعفه لينين وهو يتحدث عن الحرب الأهلية : إن مدرسة الحرب الأهلية لاتذهب سدى بالنسبة للشعوب ، إنها لمدرسة رهيبة حقاً قد ينطوي منهاجها وانكساراتها على انتصارات لأعداء الثورة ، وتنكيل السلطة القديمة بالثائرين ، إنما لا ينوح على دخول الشعوب هذه المدرسة الرهيبة غير المتخاذلين والانتهازيين والمنحطين الذين فقدوا الرشد . إن مدرسة الحرب الأهلية تعلم الطبقات المظلومة شن الحرب الثورية كما تعلمها كيف تظفر بثورتها في النهاية .

\* \* \*

من خط الأفق إلى منتصف السماء ، كان هناك غشاء قاتم . وتحت هذا الغشاء كانت نجوم شاحبة لا يراها العابر على الأرض التي غرفت في الليل .

لكنه كان يرى النجوم لامعة في ذلك الزمن كما كان يسمع اصطدام الموج وهو يسير مع مهيار الباهلي في أزقة بغداد المعتمة . ومن قلب الأهوار كان يتراءى الشاعر الوحيد والأخير الذي ينير هذه الظلمة ليضع لها قانوناً جديداً سيسمى فيما بعد بقانون الضوء الفيتلاني أو الكوبي أو قانون البراري وال الحرب .

هناك كانت تستعاد الأشياء لتعود إلى أصلها الأول ثم تبدأ امتدادها

كالجذور في أعماق الأرض .

- أنت تعرف تلك الأقاليم جيداً ويمكن أن نبدأ من هناك .  
يقول الباهلي .

ويقول مهيار : الحزب . أعني نحن لسنا غرباء في الهور .

- علينا أن نبدأ سرأ . كما ترى نحن في مدينة بيزنطة وربك لا يعرف متى تحسم هذه الأرجيف .

- اتخاذوا قراراً وأنا جاهز . أعني نحن هناك .

- تكوين قاعدة مسلحة يضعهم أمام الأمر الواقع .

- هل هذا إنشقاق ؟

- لا . انعطاف . انتقال من المماحكة إلى الفعل النوعي . سُتقال الأمور فيما بعد على نحو مختلف عما مضى . وستبدأ الهواجس ، التي بدأت في فترة ما وكأنها نوازع رومانسية وانفعالية ، طريقها إلى التنفيذ .

ففي المداولات الحامية مع القيادة التي تشرذمت إلى قيادة تيارات والتي سيسطع قسم منها ليصلع في الدمار الشامل للحزب والوطن بينما سيموت وينفي قسم آخر ، كانت تدور خلف الكواليس وفي الاجتماعات السرية والثنائية ، كيفية تشكيل بؤرة قتالية في أعماق الهور لإنقاذ ما يمكن إنقاذه في هذه اللحظة الحرجة .

كان يقول للباهلي : اسمع يامهيار . إنها اللحظة الحاسمة . هي معركتنا قبل أي شيء . موت أو حياة تلك هي المسألة الآن .

ويرد الرجل الحالم باستعادة ثورة علي بن محمد ضد الخلافة العباسية بأنه ابن الأهوار وهناك تجربة فاشلة يمكن الاستفادة من أخطائها .

كان مهيار يشير إلى تجربة أمين خيون وبؤرته الثورية بعد أن قاوم القوميين ببسالة لمدة ستة أيام خسر فيها الشوعيون أكثر من خمسين مناضلاً في قتال الشوارع والإعدامات في الكاظمية بعد انقلاب الـ 63، ثم بعد فشله هرب إلى أهوار الجنوب وشكل بؤرة في الجبايش مع عشرة أنفار من المجانين الثوريين الذين نجوا من المذبحة .

- معقول جداً . معقول . إنما لابد من التحاور مع جماعة وحدة اليسار في الأمر .

- إنها مملكة أمين خيون التي اكتشفها .

- مملكة الحزب أولاً وأخيراً . نحن تيارات ولا نرحب في الانشقاق الآن . بعد إعلان الكفاح المسلح نطرح الأمر كالتالي : من مع القتال ومن ضده وعلى ضوء ذلك يحدث الانشقاق أو تبقى وحدة الحزب .

- أنا أعتقد أننا حربان دون أن يعلن ذلك إن لم أقل ثلاثة .

في تلك الأثناء كان خط الكفاح المسلح والقتال ضد سلطة الدولة التي جاءت بانقلاب جديد وجنرال جديد ، قد شكل مجموعة سرية سميت بخط حسين تحولت إلى خط هاشم فيما بعد وكان خالد أحمد زكي عضواً بارزاً داخل هذا الفصيل القتالي تحت اسم حركي : ظافر .

ومع أن الزمن آنذاك كان زمانين والبشر داهمتهم صاعقة فانقسموا ثم تاهوا كالقطعان المفاجأة بالذئاب ، إلا أن خالد الممثلة خلاياه بأشعة الحلم وأساطير جده القديم عن المهدي المنتظر وعودته قبل عام الألفين قادماً من عين الشمس ، شاهراً سيف العدل والمساواة والحب بعد انتشار الجور والفساد والجوع ، سيرى أن هذه اللحظة يمكن اصطدامها بسيف المهدي الشيعي .

غير أن شيئاً آخر أكثر رسوخاً في الزمن كان مميزاً يتراءى له أحياناً وهو نائم في سريره المتواضع في بيت مهيار الباهلي .

كان ذلك يأتيه على شكل سؤال ملح : كيف تزلزل قناعات آلاف الأعوام الراسخة في الدم كالجرائم ؟ ثم يتحول السؤال بعد الدخول من عتبة النوم إلى أشكال وصور وتوهجات تختلط بين أطياف الوعي واللاوعي .

بين تلك الاختلالات كان يرى نفسه أحياناً في صحراء مديدة ، مرأة عامرة بالماء وتارة مفروشة بأشعة الشمس ، ومرة مرصوفة ببلاط أبيض كالثلج ، وهو يسير كمن يخطو في الهواء مرة حافي القدمين ومرة بلا سترة تقى العورة فيضطر إلى وضع كفيه فوق عانته ، لكنه لا يلبث أن يرى بشراً مذ الأفق تصرخ وتهلل في الشرفات وداخل أزقة المدينة وفي السحب المدللة : ها . هي . هاها . هاها . ولم تكن هي الكلمات تماماً لكنه كان يتصور أنها تماثلها . إنه يسمع الصدى يدوي كالاعصار وهو يكتسح الكون .

وكان يبدو أن هذه الأصوات جاءت من أقاليم بعيدة لتحيي أعياداً وطقوساً خاصة بها لها علاقة بالموت أو الحياة ، إنها للت دور في بياضها

هازجة بالأصوات والمدى المبرقة وهو بعيد عنها ، وعندما يقف رجل مقابل الصحراء وكأنه على مسرح ، يصاب الناس بالذهول والخشية منه . رجل أسود اللباس بوجه عنكبوت يتقدّم سلاحاً غريباً وعلى رأسه خوذة من الفولاذ .

يسكت الهرج ويبيتنيء الركوع وحثو التراب والتکبير في اللحظة التي يرفع فيها العنکبوت الأسود صوته : أيها العباد الصالحون . أيها الورثة الأولياء .

وهو يحاول أن يتقدم من الحشد يشعر بخيوط العناكب الدبة تمنعه . وحده يسمع صوته وهو يتدرج عن سطوح إحدى العمارات اللندنية دون أن يدرى إلى أين سيؤدي به .

و قبل ذلك كان يعتقد أنه قادم إلى حفلة صاحبة سيرقص فيها رقصة جميلة . حفلة أقامها له أحد أصدقائه الانكليز . وفي هذه الحفلة سيفاجأ بامرأة لم يرها من قبل ستقول له كلمات حميمية سينذكرها فيما بعد وهو يرى الشمس تشرق من ثقوب صدره .

هكذا كانت الأشياء متداخلة في ذلك الزمن ، ملونة بابتهاجات سريالية ولدائن دبقة من المرأة والأصال ولتوهج المنبتق من جذوة تاريخ قديم تراكم الغبار فوقه مع أعوام طويلة من النسيان .

ولأن خالد أحمد زكي ومهيار الباهلي وأمين خيون وابراهيم علاوي ونوري كمال ومظفر النواب ، مع عصبة من الفتية الجامحين المأخوذين بالهجوم على سانتا كلارا وسقوط هافانا بعد مغامرة الغرانما ، كانوا تحت تأثير وهج ذلك النصر الهائل ، اندفعوا بطاقة المغامرة نحو تخومها القصوى في محاولة يائسة وفريدة في تاريخ الشرق الجديد لتدمير طقوس الاستبداد الشرقي وغوائل الجوع والميراث الأسود للزمن القديم . سيقول أو يه jes وهم ضائعون في تلك الصحراء الموحلة مع أحد عشر مقاتلاً فقدوا الاتجاه واحتمالات النجاة ، بأن المغامرة كانت طيفاً جميلاً وملوناً في سماء الرأس لكنها الآن تتحول إلى نيزك يندفع من السماء بقوة الجذب والخذلان ليدخل جلد هذا الصلصال الكامد .

وخلالاً لما سيسقط المسؤول العسكري عن المجموعة حول الخور والارتباك الذي اعتبر ظافر في لحظة المواجهة وانتصار الموت ، كان هو فريسة حالة غريبة من الذهول المتاتية من صدمة الحلم

وهو يفاجأ بوحشية النهار ، ولذا عندما صارحه الباهلي مساعدته التنفيذي بالأمر قائلاً تستطيع أن تعتبر نفسك خارج المعركة وأنا سأقودها حتى النهاية ، سينتفضي حربته ويغرسها في الأرض : ليست المسألة هكذا أبداً . لقد فهمتني خطأ .

ثم يستطرد معموماً : نحن معزولون والحزب تخلي عنا . وعدونا بالسلاح والذخيرة ولم يقدموا شيئاً . كنا نحلم بتوسيع المنطقة واستئناف اللاتين وزر الحزب في المعركةوها نحن منذ أشهر في هذه البقعة الموحلة نعاني الجوع والتعب واليأس ونقص الذخيرة والمؤمنة فوق هذا المستنقع اللعين . إننا وحيدون كما ترى . لماذا يصير الأمر هكذا ؟

- لا لأننا ارتكبنا خطأ هنا . أنت وأنا نعرف ذلك وعندما قررنا أن يبدأ الحزب من هنا كنا نعرف مدى العزلة والتخلّي عنا . الأمر نفسه حدث لغيرنا في غابات بوليفيا . البدائيات صعبة والتراجع مستحيل . وأنا أقترح أن يطرح الأمر على التصويت في القاعدة .

تحت تأثير العزلة والتجربة الجديدة للمثقف الذي اعتاد حياة المدن والجلالات النظرية ثم انتقل بفترة إلى هذا التيه المستنقعى بين القصب والبردي والبعوض والخنازير وأفاعي الماء والجرذان السمين كالقطط وجليد الصباحات وهذا الغموض الرهيب للمرى تحت أصوات الطيور والضباب الكامد والأصداء سيداهم ظافر إحساس عميق باختلاف الطقس وامتداد الزمن البطيء والثقيل على نحو مختلف عن التسارع السهمي في مجرى الدماغ والأفكار . سيُلمح مهيار الباهلي إلى هذه النقطة المظلمة فيما بعد ، وليستدير حولها سيقترن على خالد النزول إلى بغداد ليطلع على أوضاع وموافق القيادة وأسباب لا مبالغتها ، وهو يضمّر استراحة نفسية للمسؤول العام عن قيادة المجموعة في أعقاب هذه الصدمة الغضابية المندرة بالدمار .

- 2 -

امتداد لا يحده البصر من البردي والقصب والماء يعود لأزمنة قديمة تبدأ من نهاية القرن الخامس الميلادي في عصر قوباذ الأول ملك الساسانيين . فوق هذا الامتداد الأخضر الساكن والشبيه بحيوان خرافي من ديناصورات العصور الأولى ، يعيش بشر شبه مفوضولين عن عالم

اليابسة . مخلوقات فصلتها مئات الأعوام وسطوح الماء والبردي عن نبض الزمن الآخر . إنهم ينتمون لهذا العالم المائي ذي القوة الخلاقة والذي خرجت منه الحياة والخلية الأولى يوم كانت الدنيا غمراً . لقد روى الرواية بلفاظ مختلفة ومعانٍ متفقة عن هذا الغمر أن الله يوم شاء خلق السموات والأرض خلق جوهرة خضراء حجمها أضعاف طباق السموات والأرض ثم نظر إليها نظرة هيبة فصارت ماء ، ثم نظر برهبة إلى الماء فغلا وارتفع منه زيد ودخان وبخار ومن ذلك الدخان خلقت السماء ومن الزبد ولدت الأرض ، ولما خلق الله الأرض - يقول الرواية - كانت طبقاً واحداً ففتقها وصيرها سبعاً ثم بعث من تحت العرش ملكاً فهبط إلى الأرض حتى دخل تحت الأرضين السبع فوضعها على عاتقه ، إحدى يديه في المشرق والأخرى في المغرب ، باسطتين قابضتين على قرار الأرضين السبع حتى ضبطها ووازنها فلم يكن لقدميه موضع قرار ، فأهبط الله من أعلى الفردوس ثوراً له سبعون ألف قرن وأربعون ألف قائمة وجعل قرار قدمي الملك على سمامه فلم تستقر قدماه فأحضر الله ياقوتة خضراء حجمها بحجم سبع سموات وسبعين أرضين فاستقرت قوائم الثور عليها وهي الصخرة التي حدث لقمان ابنه عنها : يابني إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السموات أو في الأرض يأت بها الله - كما تقول الآية - وقال الرواية بأن لقمان لما نطق هذه الكلمة انفطرت من هيبيتها مرارتة ومات فكانت آخر موعدة له . ولكن لم يكن للصخرة مستقر فخلق الله نونا وهو الحوت العظيم واسمه لوتيا وكنيته بلهوت ولقبه بهمومت فوضع الصخرة على ظهره ، والحوت على البحر والبحر على متن الريح والريح على القدرة وثقل الدنيا وما عليها حرفان من كتاب الله قال لها الجبار كوني فكانت منها هذه الأهوار . وقال الرواية وفي عصر قوباز بعد ملابين السنين من الخلق الأول كانت السدود ممتدة على طول ساحل دجلة والفرات ، وكان الساسانيون يرون سهوبهم من بحيرات الماء التي تجمعت وراء السدود ، وفي مطلع القرن السابع ارتفع الماء في النهرين بطوفان عاتٍ فدمَرَ النهران سدودهما وغمرا السهوب الواطئة بالماء ، لكن الفلاحين أعادوا بناء السدود وإصلاحها في عهد قوباز الثاني بعد انحسار الفيضان .

وفي القرن الثالث عشر لم يكتف هجوم هولاكو البربرى بتدمير بغداد وإغراق مكتباتها في دجلة ، إنما أضاف مأثرة جديدة إلى حضارته

البربرية حيث دمرت وحوش الشرق الهاجمة كالسيول ، السدود ونواطن الري فأغرقت المزروعات وال فلاحين تحت غمرة المياه التي فاضت على الأراضي المنخفضة فهلك الزرع والضرع والأهالي تحت الغرين المتراكم ومياه الأهوار التي تمتد مساحتها إلى عشرات آلاف الأميال المربعة .

وسط هذا السهب السومري الموحش ، والمنسي ، على التخوم الجنوبية لبلاد الرافدين ، كان يعيش القوم الذين لا يحجون إلى مكة إنما إلى مرقد الأئمة . إلى قبر علي بن أبي طالب في النجف الأشرف ، والحسين والعباس في كربلاء ، وموسى الكاظم في الكاظمية ، وعلى الرضا في مدينة مشهد . وبطقوس مضمضة بالتأنيث والنندم الفاجعي ، قبل حلول يوم عاشوراء يوم ذبح الحسين في كربلاء ولمدة عشرة أيام ، يبدؤون القراءيات . فصول من فاجعة كربلاء يتلونها حول قبور الأئمة والأضرحة مصحوبة بالعويل والبكاء المرير حزناً وندماً على موت سبط رسول الله بيد الأعداء والمنافقين ، وفي الأيام الثلاثة الأخيرة يبدأ مع العويل اللطم على الصدور ، وفي ليلة العاشر من محرم يبلغ الذب والنحيب واللطم أشدّه حتى الإدماه والموت . ومن تلك الأهوار النائية يأخذون موتاهم بالزوارق ثم بالقطارات أو السيارات ليذفونهم في مقابر الأرض المقدسة بالنجد الأشرف . يقطعون مئات الأميال باتجاه تلك الأرض الطاهرة المرورية بدماء الشهداء ، وهم يحملون نعوش موتاهم بين دوي التراتيل والآيات الفاجعة والبكاء ليحققوا لهؤلاء الموتى شرف القربى من دائرة أرض أحفاد الرسول الذين قضوا غدرًا وغيلة .

هنا وسط هذا العالم الغريب البدائي من الماء والغرين والبردي والبعوض والطيور والأسماك وأساطير الطبيعة وانكسار هيبة القانون ، بين هؤلاء المعدان في أهوار العوينة والغموكه والحمار ظهرت أول بؤرة ماركسيّة مقاتلة في النصف الثاني من القرن العشرين .

كانت أقاليم الجنوب : البصرة والناصرية وميسان ، مهد الثورات القديمة وأرض التمردات والانتفاضات في عصور الأمويين ثم العباسيين ثم الانكليز فالإنقطاع فيما بعد .

ومن هذه الأقاليم الشاسعة والخصبة ، الصارخة بالجوع والإهمال انطلق الخوارج والشيعة ثم الزنج والقرامطة وثورة العشرين .

ففي العهد الملكي شهدت أرض السواد انتفاضات مضادة للملكية

ذات طابع بدائي وقبلي ، فقبيلة الزيرج في خمسينيات القرن العشرين واجهت بشراسة بدائية النظام الملكي وحاصرت قلاع الإقطاع ثم ذبحت أمراءهم واستولت على الأراضي بقوة السلاح .

وفي تلك الحقبة وقفت محلية الحزب إلى جانبهم . ومدينة الحي تذكر جيداً انتفاضة الـ 56 الشيوعية التي هبَ فيها الفلاحون ضد الإقطاع المحامي بالنظام الأوتوقراطي ، كما تذكر بألم إعدام ثلاثة من مسؤولي التنظيم في ساحة المدينة ليكونوا عبرة لاتنسى لكل من تسول له نفسه رفع رأسه عالياً في وجه الهيبة الملكية وكلابها من كولاك الأرض .

وليدعم الجيش سطوهه أطلق له العنان في ذلك اليوم المشؤوم فاندفع ضباطه وجنوده كالثيران المتهاجمة ، حطموا بيوت الفلاحين وأشعلوا النيران في المنازل ثم اقتادوا حشدًا من الفلاحين الفقراء والمسردين وباعة عربات الشوارع والطلاب وربطوهم بالحبال ، ثم بدؤوا يسوطونهم ويدلّونهم من أقدامهم فوق أغصان الشجر تحت سمع الأهالي وبصرهم من الشخصى حتى غروب الشمس ، وبعد أن نفذوا حكم الإعدام بالثلاثة الحزبيين رمياً بالرصاص أمام الرتل الذي كان يساط بالعصي والكرابيج وأعقاب البنادق حملوا أكثر من مئتي متمرد في الشاحنات العسكرية إلى سجون العاصمة .

وهكذا بالإضافة إلى تاريخ الحزب هناك وتضحياته ، كان اختيار بؤرة الكفاح المسلح يستند إلى البعد عن العاصمة وصعوبة وصول النجادات الحكومية إلى تلك الأقصاص النائية .

داخل هذه الأهوار التي خلقها الرب في الأزمنة الموجرة في القدم ثم نسيها فيما بعد لتراكم مشاغله التي لا تحد في بلاد العرب وحدها حيث الزمن يدور على عقيبه منذ ألفي عام ، كان آلاف البشر الهمامشيون يعيشون حياة بائسة ، منحطة ، بعصور ماقبل التاريخ .

في جوف هذا العالم النائي ، الغارق في الجوع والوحش وصراع القبائل وملح الفيضانات ، بدا كأن النار توقد في الهشيم ليبدأ التاريخ مرة أخرى من هنا .

على حافة الهاور كانت ميسان القديمة ، تتصل بالناصرية والبصرة كنقطة عبور إلى حقول المستنقعات . ومن الناصرية في الطرف الجنوبي يمكن الانتقال إلى الجبايش مرفاً الزوارق النهرية .

لقد بدأ تأسيس القواعد المسلحة سراً بعد تكريس خط آب الانقسامي . الخط الذي كرّسته القيادة العائدية من موسكو في أعقاب فشل انقلاب سليم فخرى وإعدام السكرتير العام سلام عادل .

وفي تلك المرحلة ، التي ينبغي تذكرها جيداً حتى لا تطمس من التاريخ الرسمي ، سيدعو تقرير خط آب للقيادة العائدية من الدول الاشتراكية إلى ضرورة الاعتماد على نظام عارف وغضّ الطرف عن طبيعته وتكونيه السياسي كما سيصف التقرير نظام عبد الناصر في مصر بأنه حركة تقدمية تاريخية ، وهذه الحركة ستشمل العالم العربي بأسره ولا بد لها أن تشمل العراق بتيارها الجارف .

ومن موسكو حرض الأب الروحي خروشوف قيادة الحزب على ضرورة حلّ الحزب الشيوعي العراقي أسوة بالحزب في مصر ، والدخول في الاتحاد الاشتراكي العربي : مركز جذب القوى الثورية كما سيسميه بوجكاريف في النيوتايميس السوفياتية . وحتى لا تصدأ الذاكرة في الداخل الماضي بالحاضر على نحو عشوائي ليوضع زمن الاندحار والهزيمة على مشجب التاريخ البائس ، العام ، والمغفل من التوقيع والمسؤولية المحددة ، سيكتب الرفيق عضو اللجنة المركزية منير أحمد في مجلة قضايا السلم والاشتراكية في كانون أول 1964 ما يلي : « إن النضال من أجل الطريق اللازم إسالمي يحتم علينا إعادة النظر في برامجنا في جميع ميادين النشاط الجماهيري . كان الحزب الشيوعي العراقي يعتقد في الماضي بأن إقامة حكم شعبي تحت قيادة الطبقة العاملة هو شرط جوهري لتحقيق الاصلاحات الجذرية ولبناء الاشتراكية في العراق ، إلا أننا غيرنا وجهات نظرنا حول هذه المسألة في ضوء الظروف الجديدة ، حيث يشكل النضال من أجل الطريق اللازم إسالمي الخط السياسي لحزينا ».

ثم يشير بصرامة إلى الدور الفعال والقيادي المتنامي للفئات البورجوازية الصغيرة ونضالها الديمقراطي الثوري .

\* \* \*

سيُفسد وصول مهيار إلى الجبايش حيث أقام أمين حيون قاعده المساحة ، خطط القيادة ورهاناتها التكتيكية المذهلة حول اكتشاف رأس الرجاء الصالح الذي يوصل البوادر سالمه ولو بعد مليون عام إلى مرافئها .

وسيقول لأمين بعد أن يوصله إليه أبو صبرى مسؤول التسلیح والأمن وابن الھور : نحن الآن معاً . أنت بدأت كقائد شجاع وهذا شرف ووسام لحزبنا الثورى الوفى لتقاليد لينين . الكادر المتقدم أرسلنى لاكون تحت تصرفك .

وبعد حوار محتدم وعاتب حول الاستراتيجية والتكتيك والخطأ والصواب وضرورة صياغة حزب جديد آخر مصهور بنيران الحرب الاهلية ، وفي أعقاب رشاش البداءات التي سيقذفها أمين في وجه القيادة الانهازية المربوطة بذيل البطرياركية الخروتشوفية وحصان السلطة ، يتلقان على استلام مهيار الدعاية السياسية في القاعدة التي تضم فصيلاً من خمسة وثلاثين مقاتلاً .

وفي الجبايش سيمضي مهيار شهرين يقطع مع المقاتلين أغصان البردي ليقيموا فوق المياه الأكواخ العائمة ، وليعيشوا حياة يومية جديدة تبدأ استيقاظها من السادسة صباحاً بفطور الشاي والتمر ، تليها فترة التدريب الرياضي تخويضاً في أعماق المستنقعات الصقيعية ، يبدأ بعدها تكوين أنفاق داخل قصب البردي بغية العبور والإختفاء عن أنظار العدو ، تتلوها عملية تقطيع القصب وتحزيمه لصناعة أطواق صالحة للإبحار تعويضاً عن الزوارق ، وانتهاء بالرمي على ألواح من الزنك أو الخشب تعلق فوق رؤوس القصب .

في المساءات إذ يهبط ليل الأهوار زاحفاً كالتماسيخ حاملاً الرهبة والأصداء الغريبة ومشاعر العزلة خارج بوابات العالم ، كانوا يباشرون حياة بدائية في شيء الخبز فوق صاج على شكل قبة رمادية يوقدون تحته قرم القصب التي اقتلعواها بحرابهم خلال النهار .

وداخل الكوخ القصبي العائم فوق الماء ، كانت مائدة العشاء تنحصر بالمعلميات والتمر والشاي والخبز المشوي وما تم صيده من السمك وسرطانات النهر . كان على الملائم الأول فاضل عباس الذي فرَّ من الجيش في أعقاب انفلاحة الكاظمية ، وقاتل مع أمين خيُون في شوارعها ثم هرب معه إلى الأهوار ، الإشراف على التدريب العسكري عدا قيادة زورق المشحوف التي أسندت إلى أبو صبرى والذي سيسحر بإخلاصه وجرأته أعماق مهيار الباھلی .

- الرجل الشعبي النادر في كل العصور .

هذا ما سيقوله مهيار عن أبو صبرى . العراقي الأصيل الذي

لا يخشى في الحق لومة لائم ، والمعجب من كل دعوة الرسول محمد بعبارته الشهيرة التي قالها لعمه أبو طالب : والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر لما تركته .

منذ اثنى عشر عاماً فرّ هذا الرجل الغريب إلى هذه الأهوار الوحشية هارباً من مطاردة القانون بعد أن ذبح ابنة عمه غسلاً للعار ، وبعد أن يلقى عليه القبض ويودع في سجن نقرة السلمان يرسم خطة للهرب ويعود كثعلب ماكر إلى جحرة القديم بين قصب الأهوار . غير أن هذا الرجل الذي لم يتعلم القراءة والكتابة ، صديق الباهلي الحميم ، والضوء المشع في أعماق الهاور الغامض ، سيموت فيما بعد غيلة وغدرًا في هور العمارة ، لتبقى جثته طافية فوق الماء عشرة أيام تحت القبيظ حتى تتعرف وتأكلها الجرذان المائية وأسماك الشبوط .

سيحدث ذلك بعد أن يهرب من السجن ليعلم ابنه التصوير الشمسي وتوزيع جريدة اتحاد الشعب الشيوعية في شوارع البصرة وهو يقول له : يابني حرفه في اليدي أمان من الفقر والشيوعية سفينه المغضهدين في بحر الحيتان . وكما نهشت أسماك الهاور وجرذانه جسد الأب فيما بعد ، سيلقى صبرى الابن مصرعه رميأ بالرصاص في سجن قصر النهاية بعد أن ينهار تحت وطأة التعذيب الوحشى وهو يصرخ طالباً الموت لأبيه والعالم والحيتان والآلهة والصور الشمسية واتحاد الشعب وجميع الطقوس اللازوردية التي قدفت به إلى هذا الجحيم . كانت تجربة غريبة مليئة بالسحر رغم قساوتها ، بدا التألف معها يتطلب طاقة خارقة لاما كان مألهوفاً من ليونة حياة المدن الهيولية والرخوة . انتقال فجائي من الحروب الدونكيسوتية عبر رياح كلمات الفراغ ، إلى حروب الفعل مع الطبيعة والموت واختبار الخلايا العضوية فوق أرض جديدة وتحت سماء جديدة ، في ارتعاش فصل صقيعي تخترق برونته حواف العظام . كانت عمليات الاستطلاع تبدأ بعد الغروب للتعرف على طرق الذهاب والعودة والمناطق المجاورة للأهله بالسكان أو الصالحة لتبادل المواقف .

أبو صبرى كان يشرف على دوريات الاستطلاع بينما يتولى الملازم فاضل تدريبات المجموعة على شحذ البصر في سواد وسكون الليل وعمليات الإنصات لتمييز صوت المجداف والطيور المذعورة التي تنبع بالخطر ، وهي تضرب جذوع القصب أو تفرّ خائفة في الفضاء . كما كان على الجميع التعرف على حركات هوامٍ الماء من الصفارع إلى الأسماك

الطيارة إلى الأفاغي المائية ، وتمييزها عن غيرها من الحركات .

في المراحل التالية ، بعد مضي أقل من شهر ، سيكون الاعتماد الغذائي في غياب المؤونة ، على صيد السمك والضفادع والسراطين وجرذان المستنقع والأفاغي .

كان في زاوية من زوايا الكوخ صندوق ذخيرة فارغ تناشرت فيه مجموعة من الكتب الأدبية والسياسية : نسخة مهلهلة من رواية الأم ، والعقب الحديدية ، والفولاذ سقيناه ، والنخلة والجيران ، وعناقيد الغضب وكتب أخرى . وفي مقدمة المؤلفات السياسية : ثورة في الثورة وكتاب عن التوباماروس والفيتكونغ ويوميات تشى في السيرامايسترا والهجوم على المونكادا . رأساً على عقب يتحول الإنسان وهو يرى نفسه في أرض المعركة . هذا ما سيقوله الباهلي فيما بعد . انسان آخر في كوكب آخر ذلك ما سيشعر به فصيل الكفاح المسلح في قلب الأصقاع المائية البعيدة عن خدائع المدن .

بعد عشرين يوماً من هذه البداية التراجيدية ، سيفاجأ الباهلي بتصدع يحدث شرحاً في جدران الحصن الذي بنته مخيلته العاشقة للضربة النوعية التي تخلخل توازن العالم الكاذب . ستة من فصيل القاعدة سيغادرون غب انهايار عضوي وإحباط نفسي . ثلاثة منهم يقعون فريسة اسهال مَعْوِي حاد ينقلون اثراها إلى مستشفى الناصرية ، وثلاثة آخرون يسقطون فريسة حالات سوداوية وكابة متواصلة مصحوبة بنزق عصبي وهلوسات ليلية نتيجة المناخ الجديد الصعب الذي صدم هؤلاء الطلاب القادمين بحماسة من المدن .

وفي ذلك الزمن اللاهب سيتراءى للباهلي أن بقاء نصف الفصيل في هذه الأهوار الحمّية كافٍ لزرع النواة الأولى صخرة صلبة تمتد فيما بعد لتشكل جزراً في أعماق هذا الغرين الرجراج .

وفي الأمسى ، تحت وهج الحلم ، كان يقول لأمين خيُون وأبو صيري وفاضل عباس قائد التدريب ، بعد أن يهجم الآخرون ، بأن أساس الصخرة يترسخ بتوطيد العلاقة مع الفلاحين والصيادين واستطلاع الأقاليم المجاورة لتكون تحت إشرافنا فنتحرك في حقل آمن ، وفيما بعد يمكن البدء بغارات محدودة على بعض المخافر .

وفي الوقت الذي كان فيه مهيار يرسم ، بهدوء وعلى المدى

الطويل ، خرائطه على صفحة المستنقع ، تخيلًا بأن الحزب سيولد من وهج الكفاح المسلح ، كان المسؤول العسكري يخطط سرًا للبدء بضربة عسكرية صاعقة ذات شعبتين : تدمير سكة حديد البصرة - بغداد والأستيلاء على القطار القادم من العاصمة . أما المحور الآخر فهو احتلال جميع مخافر قضاء الجبايش وتجريدها من الأسلحة .

بذلك يضع الحزب والسلطة مرة واحدة تحت تأثير هذه الضربة الباهرة والتراجيدية .

فيما بعد سيتحدث الباهلي عن هذه المرحلة الحميمية إلى قلبه ، فيُشَبِّهُها بلحظة لقاء أبي ذر الغفارى بالرسول يوم انخرط في الدعوة ، مسحوراً بألق تلك اللحظات النشوئى التي ستقلب التاريخ رأساً على عقب . لكنه بعد أن يختلف مع أمين خيُون ويُسبر أغواره الجريحة من خسارة معركة الكاظمية ، واندفعه الآخرق للانتقام ، سيدرك بعد فوات الوقت ، أنه مطوق برجل تنتفض فيه روح الثارات الموروثة التي لاتتنقن أبداً من الموت الانتحاري .

وهكذا بعد شهرين من الصقيع ، امتدًا من كانون الأول حتى أوائل العام الجديد ، في أغوار الغموكه السحرية ، التي ارتسمت في ذكرة الباهلي حدثاً أسطوريًا ، أبدي الوميض ، ستنتهي التجربة الأولى بعد أن يُطرح الخلاف على المجموعة لتقول رأيها فيه .

يومها سيبقى مع أمين أنفاره التسعة الأوائل ، أما من التحق فيما بعد فسيغادر إلى البصرة والناصريه وبغداد .

وعلى مدى شهرين سيعيش الباهلي مع صديقه أبو صبرى الذي وقف معه ، في منزله المعزول في قضاء العماره .

عزلة رجل الفكر مع رجل الطبيعة ، المأخوذان بحلم أن يكون العالم حقلًا من القمح والحرية للبشر الشرفاء .

في تلك العزلة البعيدة عن عيون الرصاد والمخبرين ، سيبدو أبو صبرى مكتئبًا لأن بندقيته الروسية أخذت منه بعد أن استولى أمين خيُون على الأسلحة .

وفي مدار الجدالات والهجمات بتأسيس بؤرة جديدة سيسأله أبو صبرى صديقه الباهلي بسذاجة مندهشة : إلى متى سيظل الشيوعيون رهن حالة الدفاع عن النفس ؟

الرجل المنكسر ، والحزين كرصيف مهجور في صباح شتائي ، لا يصادف جواباً .

يستلقي على فراش ممدّد فوق بساط زهري باهت ، ويحلم .  
البلاد المظلمة والخانعة .

الزمن اللولبي الذي يدور كالخنزروف حول ذاته المقدسة .  
الخراب الممتد من مليون عام .

انقسام الخلايا في الجسد الواحد .

كيف يمكن اختزال صرخة أبو صيري في جواب قاطع تقوله الأسلحة !

### - 3 -

أدهمها كان يحدق عبر السهب وانعكاسات أصيل الشمس على ثبات الماء ، وهذا الغروب المتكرر الذي يليه شروق ، وفي مواجهة هذه القمامات المحنية ، قامات البشر المجوفة من الداخل والمكسورة بتعاقب الزمن الذي لا يحمل غير الفقدان وانتصار الأعداء وجراثيم الخيانة والمذابح الأهلية الفاشلة والبكاء على الضحايا والمفقودين والذين رحلوا بلا عودة .

بينما يواصل الآخر رسم جبال وأشجار ومياه دفقة ، صائغاً من صلصال خياله وموح رغباته بشراً آخرين . بشر صلب ، يتحركون بخطوات واثقة بين الجبال والكهوف ومجاري الأنهر وأنفاق المدن . بشر أينما هبطوا يوقدون النار ليروا دوائر الظلمة الهاابطة من حنايا الزمن ، الزمن الذي لا بد من تحويل مجراه كيلا يستعاد كما كان ، وكما صنع من خمائر الوحل والرماد والدماء المخترة والحيض والبخور والصلوات وأصوات الندب والتخازل والخيانات والتصدعات .

وبينهما كان الليل . المساء البوني العذب ، مساء هذه المدينة الغريبة والمخترق شغاف القلب . المساء الذي سيتلاشى يوماً متحولاً إلى طيف أو سحابة أو رائحة أو صوت بحر أو رجع موسيقى أو إيقاع خطوات في الأغساق ، إذ يتوجه الحنين لزمن مضى يستعاد ولا يعود ، يتقدم كما ينمو شعاع من أفق أو حرف نصل لامع سابحاً في سماوات غريبة داخل مسافات لا تنتهي ، يتقدم ليغوص على مهل في المسام

الشفافة لروح غدت وحيدة على حافة الهاوية .

وما كان هذا الاحساس الخاطف والبعيد ليلقى قناعة أو استحساناً لو قيل أو أفصح عنه على نحو ما . فما كانت تلك الطفلة الصائعة في جحيم بونه تدرك تعقيد هذه الامور التي تبدو للوهلة الاولى وكأنها أحاسيس مرضية أو غصبية .

وعلى نحو ما ، كان انهدام الفقدان هذا ، لو هُجِّس لابد أن يذكرها بسيي العربي الذي رحل عنها في ليلة نصف قمرية لكنه لايزال يتراءى في أحلامها عائداً من وهران أو قسنطينة أو قالمة أو سوق أهراس أو أي مكان آخر لا يعرفه الحلم ومعه البسكويت والشوكولا ودمية من البلاستيك طفلة تشبه آسيا .

ولأنها تخاف الموت الذي يخطف البشر في غفلة ، فيحرمهم جمال الحياة وعدوبية العالم والأفراح التي لم تكتشف بعد ، كان الأب يعود في الحلم أجمل مما كان . وفي تلك الليلة الغريبة شارفاً عَثَبة الإفصاح عما يجري في الدم ويصعد إلى الرأس ، فانهالت أسئلتها عن الموت والزواج والمخاطرة والرقص والجنون والبلاد الغريبة التي تحلم باكتشافها .

وفي المساحة البيضاء والمضيئة كأعماق بحر ، كان حلمه هو الآخر يرسمها مع كتلة البشر الذين يزبحون أمواج الظلام الهاابطة من ثنيا زمان ويقيمون السدود الصلدة المنتصبة في وجه الفيضانات والانهيارات والأزمنة السوداء .

هناك كانت تتشكل على مهل ، ومع أنها بصعوبة كانت تُشد وتعلو إلا أنه كان خائفاً من انكسار جديد ومن الخديعة التي ترتدي ثوب حمل ودمع وأضرار حقل .

في وجهها المصقول لم يلمح في ذلك الزمن ملامح غدر . كانت عيناهما الصافيةتان تشفان عن أعماق في بياض الثلوج ، وكانت الأسئلة التي تطرحها توحى ببراءة طفل يرفض أن يخدع بأن الله يجلس على قرني ثور حاملاً السماوات والأرض وتحته حوت سابق في البحر . غير أن النقطة العمياء بينهما كانت تتراءى أحياناً على شكل بقعة دم ، تركها لخضر كلطحة مظلمة ومضى . بعد رحيله ستستيقظ تلك الطفلة لتفاجأ ب أنها وحيدة في صحراء تهب عليها رياح السوقـي : لماذا يموت سـي العربي ؟ قـل لي بوضـوح لماـذا الثوريـون يـقتـلـون بـيـنـما يـبـقـيـ اللـصـوصـ والـقتـلة ؟ حـدـقـ بـهـؤـلـاءـ الـورـثـةـ .ـ الـحـالـلـيفـ الـتيـ تـلـغـ فـيـ الدـمـ ؟ـ أـنـتـ نـفـسـكـ اـنـظـرـ

إلى أين أودت بك السياسة . لا أهل . لا أسرة . لا وطن . لا استقرار . لماذا التضحية بالحياة مادام الإنسان لا يحصد غير الموت والألم في النهاية ؟ لأجل من نصحي ؟ قل ! الجانب الآخر من نفسها كان يختزن نزوعاً للثأر ، لا من القتلة الفرنسيين إنما من هؤلاء الغاصبين الذين اجتاحوا البلاد بدماء الضحايا فاقتسموا لحم الوطن وشحمه وجماله وأفراحه ورموا للفقراء وأبناء الشهداء النفايات والعظام والقبح والمرارة .

ولأنه كان يعتقد رغم الهزيمة أنه خسر معركة إلا أن الجذوة كانت تتراءى له تحت الحطام ، وكان يقول لنفسه في الأوقات السرية بيقين أو مكابرة كاذبة : مادمت حياً فهناك ضوء وأنت لست أكثر من نيزك انطفأ .

وفي مسافة الصراع ، بين الحلم واليقظة ، بين الأسود والأبيض ، كانت تلك المرأة تُشاد في أعماقه كبيت صخري فوق أرض من رمل وجمام . كان التشييد يتم بسرية وهدوء وهو يردد لنفسه : مادام الجوهر أصيلا فالصدا يزول بالصقل وهذه وريثة دماء الشهداء .

موجtan كانتا تتقاذفان مهدي جواد في ذلك الوقت : أن تكون هذه الطفلة امرأة جديدة مشعة ، خارجة عن صراط الميراث وأزمنة العبودية ، وأن يكونا حجرين متراصين في جدار ينهض .

لكن هذا الرجل الذي خرج من أصلاء بلاده وهو يتربى بلا أرض ولا سماء ولا جدار ، كان يصارع أشباح دونكيشوت يولد فيه في غسل هذه الأمسيات العذبة والخداعة ، وكانت المسألة تبدو في عنصرها الأول كأن العالم حوله قد تحطم بما فيه الكفاية ، وأنه نفسه صار جزءاً من هذا الحطام ، غير أنه لا يزال يعاني بداع من روح موغلة في القدم وموغلة في العناد والتحدي ، إن عنان الزمن لم يفلت كلية ، وإن هذا الحطام المرئي ليس إلا أنقاض الآلهة الخرعة وفساد العهد القديم .

من أجل ذلك كان يقول لآسيا لخضر وهو مستلقيان على حافة الليل الذي اقترب صباحه : دم سي العربي لم يذهب هدراً ويزيده ولد الحاج ليس نهاية الزمن ، فالشجرة قبل أن تموت ترمي بذارها إلى الأرض . انظري إلى نفسك وإلى إخوتك كم أنت فتيان ونَصِرونَ . وما دام دم الأخضر فيكم فالشجرة حية لم تمت . لكنها كانت ترث بحزن يجرح ظلال القلب : لقد مات الأخضر مرتين مرة في الغابات بيد الكولون ومرة لأن ولد الحاج يسكن بيته ويقطن فراشه وامرأته ويدوس آثاره ويهين ذراريه .

المرارة في الحلق والألم يكوي القلب ونحن نضحك بالأوامر . يزيد ولد الحاج لأنه يملك المال يعتقد أنه والرب في مرتبة واحدة . كما ترى نحن نعيش تحت سطوة رجل ليس أبانا . الرجل الذي استولى على الأسرة واستعمرها بقوته وماله . أنا أعرف ذلك ولا أستطيع البوح به لماما لأن ذلك يجرحها . نحن نخدمه ونضحك له ونطبله ونقبل يده لا لشيء إلا لأننا يتامى . عندما يغيب الأب يتهدم هيكل البيت . أعمدته تتهاوى وتتسقط ويصبح الذل والمهانة والطاعة غطاء النفوس التي انكسرت وتهدم جدارها . ماما تحاول أن تتوعد ما فات . تتحدث عن القلب الابيض والبريء وهي تعرف قسوته وقلبه الأسود . ماما مغلوبة على أمرها . غير قادرة على مقاومة رجل مستبد صار شرعاً زوجها . عنفه وجذونه أصاباها بمرض القلب . إنها مريضة . وقربياً ستموت . هذا الغول سيقضي عليها . ولأنه غني ، يتصور نفسه إليها ما خلق البشر إلا لطاعته . صدقني أنه يرى بومدين ضئيلاً أمامه . قد لا تصدق أنه يحلم بحكم الجزائر . ورأس بابا قال لماما يوماً لو أردت أن تكون وزيراً لصرت لكنني أرفض وزارة في دولة يحكمها مثل بومدين . هذا البوخروبة يخرب الجزائر باشتراكية ورثها عن الحلو الأحمر بن بيللا .

بغصة وحرقة تفصح عن هذه الجراح الخفية . وهي تفيض بألماها يترقرق الدم . يمسح العبرات بأطراف أصابعه ويرجوها أن تكف . تأتي دفقة ريح من النافذة الشرقية فيضغطها إلى أصلاعه .  
يبكيان كطفلين .

والآن هما منصهران ، وخائفان وغير محميين سوى بجسديهما . يرتعشان تحت هذه الريح الملعونة . الريح التي تجتاحهما وتؤاخيمهما كالأغصان . وهما الآن قريبان وأليحان إلفة طائرين فوق صخرة وحيدة عائمة فوق بحر مضطرب .

وفي السر سيقول أحدهما للأخر همساً : خذ بيدي لأخذ بيدي في مهب الريح الززعع .

ثم تشتبك الأصابع والوجوه والضلوع ومجاري الدم .

- أنت لي وأنا لك فلنبن بيتيأ يتحدى الإعصار . ولأمر ما كان يتخيل ذلك تحت هبة سوداء ضرباً من الخيال والوهم . وللأمر نفسه الخارج عن قوانين الجدل والاقتصاد ، كانت الخديعة تتسلل كالآفعى تحت الحقول الخضراء والأمواج الخضراء ، وفي وقت ما كان أحدهما واقعاً تحت

سيطرة الأيام المليئة بالحفر والمستنقعات والرمال المتحركة وميراث القبائل وضربة الخيانة . كان أحدهما يبدو على شاشة البحر ضعيفاً وهو يتراجع وينهزم ويختلى ويخون ، وكانت الليالي البيضاء والحقول البيضاء والصباحات البيضاء لما تأتى بعد .

#### - 4 -

بعد أن يخرج مهدي جوادمن مستشفى الرازي يبقى أسبوعاً في غرفته كان يذهب ليبدل الضماد في المشفى ويعود .

لم يكن ما حدث معقولاً . وهو يحاول أن يتذكر حماقته في الفراش ما كان يستوعب أكثر من نثارات وقائع متداخلة تراءت وهي تندفع على نحو لا شعوري من منطقة مؤذنة تنزف أنسى . تسأله إن كان ذلك يشير إلى مداخل عتبة الجنون ، أم أنها بداية فقدان الأعصاب التي لابد أن دمها قد تحول إلى كحول ؟ وفي ويمض برهة لمح رجلاً حولته العزلة والحسن العميق بالموت إلى ما يشبه حشرة أو عنكبوت أو كتلة غبار في زاوية سقف ، لكن ذلك الوميض كان يرحل سريعاً لتأتي امرأة ، ويمض على شكل امرأة ، كان يتمثلها ويراهما منذ الخلقة ، متدفعاً نحوها بقوة الدم في أحلام النوم وأحلام اليقظة كما يندفع المطر والشهاب إلى الأرض ، وإذ تغيب في طيات السحب كان الأب الميت يتدلّى من سماء غريبة لا يعرفها .

أيقظه مهيار وفلة من أخيلته الهذيانية وهما يدخلان بصحبة وهرج . كانوا يحملان باقة ورد و قالب كاتو وابتسامات وغيوم كثيفة من الثرثرة حول لعنة ماجرى . بحرارة عانقته العنابية ثم سلم مهيار بابتسامة عتب : ياعيني على الرجال الجوف . جواره انطلق الحديث . كل كلمة فيه كانت تشير إلى حماقة طفل ارتكب خراقة رعناء . قالت العنابية : كنت أظنك أقوى . الحياة جميلة ياشيخ وتستحق أن تعيش رغم المرارات . يلعن أبو الحزن . ثم تستطرد بلهجة مصرية مبتذلة : إفرخ تفرح لك الحياة . هو إلنا غير عيشة واحدة في هذه الدنيا !

وإذ علق مهيار باستنباط بسيكولوجي فذاً عن النمط الناري المسكون برغبة الاندفاع الطفولي إلى الموت ، ضحك مهدي وقال ساخراً : بلى . بلى . نمط سريع العطب ، يساري طفولي ونفسه قصير في مواجهة الصراع الطويل المدى .

هزّ مهيار رأسه متأففاً : وصلت الرسالة عيني . وصلت .

ابتسمت العنابية وهي تجسّ ضمادة الجرح : هل تؤلمك ؟  
 - لا . انتهى الألم . لم يبق إلا صديد طفيف .

أحس أن مهيار كان أكثر خراقة منه لإخباره العنابية بالحادث .  
 وودَ لو يقول لها شيئاً حول الضعف الإنساني ووحدة الإنسان التي تهبط  
 معه من الرحم ، لكنه استدرك إذ رأى وجهها الشاحب وقد اكتسى اسفاً .  
 - لكل جواد كبوة كما تقول العرب . وكل بطل كعب أخيل كما تقول  
 اليونان . وفي النهاية لامعنى لكل هذا العالم الملعون .  
 ورددت فلة بوعناب : ولكن من يعرفك لا يصدق .

- يعرفني !

- كم تبدو متماساكاً من الخارج !

وضحك . أشعل له مهيار سيجارة وناولها له : عنجهية عربية  
 جوفاء من الداخل . مع أن مسيو عقل سيعترض إلا أنتي سأقول بأن  
 العربان يتراوون غابة واسعة من الشجر الضخم لكنه شجر سريع القطع .

وهو يرفع رأسه نافثاً الدخان في سماء الغرفة قال الباهلي بأن  
 الاعتراض هو على التعميم وسحب حالة خاصة على التاريخ العام . ثم  
 نفع بأبهة العالم العارف : حقيقة أنا مندهش من هذا الأسود الذي يطلي  
 كل عالمك . تبدو لي في معظم الأحيان ملائكة بلوثة عدمية تسد كل أبواب  
 الأفق . لماذا هذا السلب المطلق وهذه الذاتية المقرورة ؟ هل أنت وأنا  
 نهاية التاريخ والكون ؟ عجيب !

تدخلت اختلالات في الجلسة اشتبك فيها المستقبل بالراهن  
 والأسود بالأبيض والصراع بالسكونية ، فوق هذه القارة التي تهتز  
 وينهك عرضها في رابعة النهار بينما شعوبها تتدافع مقهورة وياتحة ولا  
 مبالغية نحو جحيم عبوديتها وموتها .

اقترحت العنابية أن تصنع القهوة خارقة هذا الاستثناء الجدلية :  
 النساء يصنعن القهوة والرجال الجدل . أليس هذا تقسيم العمل عندنا ؟  
 كانت تغمر نحو مهيار . وانتقض الرجل : عيني . روحي . أنا أعمل  
 القهوة بسَ يرحم والديك أريحينا من لسانك السليط . وإذا هم بالنهاوض  
 اقتربت العنابية منه وربت على كتفه : لا . لا . لاتتعجب رأسك بالتوافق .  
 أنت مهياً لجليل الأعمال . عيني !

بعد أن دخلت المطبخ تتمم متعوناً : أعود بالله منها . يا أخي هذه

كمي من الكلمة المدججين . العمى في ربها شو قوية ! أتعلم بماذا أنا ديهها في البيت : فلة بنت الاوزر لا لفروسيتها كخولة إنما لافتراضيتها وازورارها لي .

كان الجدال والحوار متواصلين إنما من طرف وحيد بين الطبيب الفيلسوف ومربيه الصامت ، حول نظرية التعديل القمعية في أعماق العصبي ، والتي تؤجل أو تتعطف بمجرى الدمار عن طريق المواقف المتسلسلة الشبيهة بالعلامات في طريق مظلمة ومجهلة : الموت .

تقابلها شخصية عصبية ، صامدة ، تخزن قوة انفجارياً تخزل المواقف بموقف نهائي واحد ، كما تلغى الوعي والزمن فتفجر مرة واحدة وتتشظى .

النمط الأول كان مهدي جواد . إنه يذكر الفيلسوف مهيار بهاملت الذي يجتاز سلسلة من المواقف التعديلية حتى يصل إلى قراره الأخير أو راسكولينكوف في الجريمة والعذاب .

كانت هذه الأحوال الغريبة قد طرأت على مهيار الباهلي داخل ترجيعات تنوّس بين مقولتين أخذ بهما في قرارته بجسم لا يقبل الجدل : التنوير والحروب الأهلية .

وعندما أودت الحرب التي خاضها بروح مقاتل اعتنق السلاح شريعة وحيدة للوصول إلى الحقيقة - الثورة ثم اندر المشروع بذلك الشكل المأساوي ، ارتكس إلى الطرف البديل ليعدّ الاحباط بالبحث والتحليل عن الأسباب الكامنة وراء هذه الانهيارات التي تشهدها بلاد الشرق المخدولة ، والفائحة بروائح الدم المغدور . وخلال العام الذي سيمضيه في بونه كاستراحة محارب قبل أن يعقل ويطرد من المدينة ليتوه فيما بعد مشرداً ومنبوذاً في بلاد العرب الموحلة والضيقة ، سوف لن يتكلم إلا لاماً ، وفي لحظات خاصة وخطافقة ، عن تجربته المرة في مستنقعات الهرور .

لقد انكشفت التجربة في داخله كصيادة كلّ منها الزمن خلال هذه الأعوام ، فتراكم فوقها الكثير من الرمل والطحالب حتى باتت وكأنها حكاية خرافية أو اسطورة مخترعة لفقها خيال مشبع بأحلام اليقظة وقصص الطفولة العامرة بالجن . جاءت فلة بالقهوة . وضعتها على طاولة ثم فتحت الراديو وزع مهيار الفنانيين . كانت الموسيقى مؤامرة

من العنابية لإسكات هذا الفيلسوف الذي لا يمل من التبخر في أبحاثه الفراغية .

- هل مازلت على هواك للشرقيين فلة ؟ سألهما مهدي غامزاً نحو مهيار . خلال رشف القهوة قالت بمرح : إدمان ياخويا مهدي . إدمان . هؤلاء لعنتي الأبدية رغم أنهم جرعوني العلقم . وأضافت : هؤلاء الحلاليف السحرريون لا يعرفون الوفاء أبداً . حكاياتها معهم بدأت من تلك الخديعة الطفولية والسازجة يوم ذهبت مع وفد نساء جبهة التحرير إبان الحرب إلى سوريا ومصر لتلتقي في القاهرة بذلك السينمائي الأفاق الذي سينام معها ويضحك عليها قائلاً : ستكونين جميلة بوحيرد في الفيلم الذي سأخرجه عن الثورة . اوه . حتى تكوني حاجة هایلية يافلتي العظيمة في الفيلم بتاعي . ياسلام ! بذلك سيوسوس لها وهو يوغل في أعماق رحمها الأستوائي المندى .

لكنها بعد أن تكتشف الخدائع الكبرى والصغرى فيتمزق حلمها بوطن الحرية والعدالة والخبز ، ستستسلم لضربة القدر الأقوى من مقاومة حلمها فتنزوي بعيداً عن العالم الكبير في حي جانبي من أقصى بلاد الشرق الجزائري ، تصطاد هؤلاء المشارقة الأوباش فتربيهم في قفص بيتها ثم تطعمهم من طهو يديها وما يدره ثدياتها وفرجها من المَنْ والسلوى في أماسي بونه المستوحشة .

## - 5 -

وما كانت الصباحات الجميلة قد استيقظت بعد ، لكن البحر كان يركض تحت الليل كطفل يتعرّض بالشاطئ وييهوي .

هو كان في زمن ما الموجة التي تصطدم بالرمل . الاندفاع الأزرق الجميل كان يتحول إلى زبد منحصر ، لكن الموت كان على الأبواب وفي نسoug الشجر وعلى الشفاه التي تلثغ ، ومع ذلك كانوا مأخذين بأصداء النصر والأفراح واستيلاد النساء وابتلاء القصور وامتلاك السيارات وأوراق البنكنوت والتزيين بالديكورات الجرثومية .

وإذ تتحدث عن السفر والبلدان الغربية التي لم تشاهدنا ، كان يسألها : أحقاً أنت موقنة باستيقاظك حية في الصباح القادم ؟ وتفاجئها العبارة الغامضة لكنها كانت تستشف الإنذار فتسأل عن

منابت هذا الخوف الكامن . كانت تسميه : افتقار الأمان . وكان صوت البحر يجيئها عبر أدراج الليل . البحر الراکض طفل والذي لا يصل . البحر الراغب في تجاوز شواطئه ليغمر العالم بأمواجه الزرقاء الباردة . هي كانت تقول بصوت البحر : بي رغبة لرؤيه الدنيا المدهشة والبعيدة والتي تتوجه بالجمال والغرابة . وكان يراها .

الطفولة والوهج والبحر المتموج والراکض نحو شواطئه على امتداد البصر . وكان يرى .

البلاد التي أغلقت حدودها ، والزمان المقاس بين المدرسة والبيت في عقل يزيد ولد الحاج الصغير كعقل نملة ، كما كان يرى حبل السرة القصير الذي لا يسمح بالتأخر إلى ما بعد السابعة مساءً . وكان يرى حدود مدينة بونه المسورة بالبحر والغابة ، وصوت يزيد ولد الحاج : بناتك يا لا لا فضيلة . خذى حذراً . عيون بونه كلها تترصدني وتلسعني كالنار . شرفي في خطر . البنات يا لا لا كبرى وعيون الشباب تأكلهن . أنت تعرفين معنى صحبة شاب لفتاة في بلادنا وأين تنتهي . الرجال هنا ذيبان والبنات حملان صغيرة جاهزة للنهش . بناتك ذاهبات غاديات إلى البحر والتنس والسينما وساحة المدينة .

ولما تساءل لا لا فضيلة : وماذا في الأمر ياخويا ! جميع البنات يفعلن ذلك . هذا جيل جديد متعلم ومختلف عننا . ينتقض يزيد ولد الحاج بصوت هستيري : اسمعي لا لا ! القحاب وحدهن يفعلن ذلك . أنا لا أسمح لبنيتي بهذه الإباحية . بونه صارت «بورديل» بهذه الحرية . حرية الجيل المودرن . جيل الرقص والسينما والتحبيب . كل هذا بسبب هذه الدولة الفاسقة المعادية للشريعة . دولة هذا البوخروبة .

لا لا فضيلة كانت تكتتب فتشعر بضغط دمها يزداد . وهي في طريقها إلى غرفتها لتشهد وتتذبذب حظها العاشر ، كانت تتذكر مغامرات ولد الحاج الرخيصة ، التي رواها لها في أوقات الثمل ، مع عاهرات مدينة بجاءة التي جاء منها .

وكان يرى في زحمة الأيام .

آسيا لخضر تحت الريح الزعزع ، وبين وهج الطفولة الحالمة .  
أمامها الأسوار التي تنهض ، وخلفها الصباحات التي لم تستيقظ بعد .

وما كان في النهاية أكثر من عابر سبيل في مجرى الأيام . وبين النوم وصحوة البحر كان يسأل نفسه : أين الوهم وأين الحقيقة في هذه الزحمة ؟ وهل يزيد ولد الحاج هو الزمن والتاريخ أم أنه محض سياق عَرَضي سيتلاشى تحت موج العصور القادمة ؟

وفي ذلك الوقت كانت الهزائم تراكم كجبل يتشكل من ذرات رمل .  
ورغم ضوء الوعي الذي ينير الطرق في الليالي المظلمة ، إلا أن صدمة الحزب بدت وكأنها أفقدته التوازن .

ومع ذلك كان يراهم كما تلمع نجمة بعيدة في شفق الأفق .  
الذين نجوا من المشانق والطلقات .

والذين تحملوا سنوات السجن والتعذيب والمنفي .

الرجال الذين لم يبيعوا شرفهم للكلاب ، ولم يتحولوا إلى مماسح .  
لقد قاوموا بالمنفي والجوع والمهانة وقوة الروح سطوة الجنرالات  
الذين ورثوا بالدهاء والحراب مجد معاوية وعظمة أبي العباس السفاح  
في الثلث الأخير من هذا القرن الغارب .

و قبل أن يرتدي خالد أحمد زكي ومهيار وفصيلهما المقاتل ، الビزة  
القتالية ويرحلوا تحت غيمة أحلامهم إلى أقاليم المستنقعات الغامضة  
ليخوضوا انتفاضتهم السحرية ، كانت المعارك السياسية في أوج  
احتدامها في قلب العاصمة حول كيفية إنقاذ الحزب من الدمار وتصفية  
الزمر الانتهازية ، والتكتيك والاستراتيجية ، وحول الوسائل العنفية  
الحاسمة ، ومسألة إعلان الانشقاق النهائي .

وما كانت الأمور محسومة في أوساط التيارات التي تشكلت داخل  
جسم الحزب ، كما لم تكن تلك التيارات المعارضة مندمجة في مجرى  
واحد . كان الوضع شبيهاً بجبل ثلج يتشقق وينحدر وتصادم كتلته  
المنهارة ، وبفعل قوة الجاذبية والصدمة والاندفاع الحاد كانت الكتل  
تنقص أو تزداد وهي في طريقها إلى الوادي .

«من المؤسف أن الصراع الشديد حول مسائل التكتيك قد تسلل إلى  
صفوف التيارات المناهضة للخط الانتهازي . وهذه الحالة التراجعية

ستضعف قدرة الحزب على تصفية خط آب نهائياً».

ويضيف خالد أحمد زكي بأننا ضيئعنا وقتاً طويلاً وفرصاً ذهبية في الجدل اللامحدود حول إسقاط الحكم أو عدم إسقاطه والكيفية التي يتم بها، وعندما نتفق على خطة معينة يذهب كل منا ليطبق ما اتفق عليه حسبما يراه هو صائباً، وهكذا يستمر هذا الوضع الشاذ والغريب داخل الحزب كما كان قبل سنوات. إن بيانات الحزب تعكس سياسة ثورية صائبة. لكن الجماهير من خلال تجاربها المريرة مللت وسمّت هذه الوعود اللامجدية. إنها تبحث عن العمل الجدي والفعال ذي الطابع العنفي. ومن لا يصدق ذلك فلينزل إلى الشارع ليرى بنفسه تلك الحقيقة الصارخة. إنهم يجربون على بيانات بالتجربة العفوية: «يمعُود هذا كله نعرفه. أهنا نريد شغل. هاي وين تخرج!» هذا ما يقوله الشعب في هذه اللحظة.

وبعد فوات الأوان، في أعقاب الصخب اللامجي، وعودة القيادة الهاire إلى موسكو كعادتها في الأزمات الخانقة والتي رفضت عقد مؤتمر وطني متهمة منهاضيها باليسارية الطفولية والتخريب والحض على الانشقاق والموافق اللاً أممية والنزعة البرجوازية الصغيرة المغامرة، فوجيء خالد ومهيار وفريق الكادر بالطرد من الحزب مع جماعة بغداد.

وهكذا عندما سيدأ التحضير للإنتفاضة المسلحة في أوائل حزيران، ويرتدى المدنيون ستراهم القتالية بسرعة فائقة وعلى نحو دراميكي، سيدو الأمر شيئاً بعرض مسرحي استفزازي مرتجل لم يجر التدريب على أدواره بالشكل المطلوب.

وعلى نحو تراجيدي يذكر بمقدمة المسرحيات الإغريقية المضادة للقيصرية سيصوغ خالد بيان جبهة الكفاح الشعبي المسلح المقتنص ردأ على قرار الطرد:

«يا أبناء شعبنا الباسل.

يا أبطال ثورة العشرين وتموز.

إن ساعة النضال المسلح قد دقت لتضع حدأ لحكم الإرهاب والألم والخيانة. منذ أمد طويل وأنتم تقاسون الجوع والحرمان والاضطهاد. إن دموعكم ودمكم وعرقكم قد حولت إلى ذهب وعقارات وامتيازات

لخدمة الحكام الطغاة من رأسماليين وإقطاعيين حيث يعيشون في ترف وبذخ بينما تعانون أنتم الحاجة والفقر .

إن الحكام الطغاة الذين يخدمون الإقطاعيين الكبار والممولين وشركات النفط، والذين هزموا أمام إسرائيل، حولوا العراق إلى معسكرات اعتقال كبيرة في الوقت الذي يقاومون بدم وحديد نضالكم العادل ، وفي الوقت الذي تدافع فيه هذه الطغمة عن مصالحها الخاصة تدافع أيضاً عن مصالح الطبقة الرأسمالية والإقطاعية وجميع المستغلين الذين فرضوا عليكم .

إنهم يشددون الضغط على الحرريات ، ويقتلون المناضلين ، وينتهكون كل القيم . إن أعداءكم لا يفهمون سوى لغة القوة ، وحكمهم الدموي سوف لن يطاح به إلا بقوة السلاح .

لهذا قامت جبهتكم المناضلة ، جبهة الكفاح الشعبي المسلح . إنها تضم ممثلي كل القوى الثورية ، والجموعات التي شرعت بالنضال لإقامة حكومة ديمقراطية ثورية ، سوف تحترم حقوق الشعب ، وستوزع الأراضي على الفلاحين ، وتقضى على الاستغلال والطغاة والإقطاعيين» .

\* \* \*

فيما بعد ، بعد أن يخترق الرصاص صدره ويمتزج دمه بصلصال المستنقعات ، لينام هادئاً على صدر مهيار فلا يعلو صوته إلا بعد زمن طويل ، طويل ، سيردد القصب في أنين الريح بصوت فيكتور جارا شهيد سانتياغو في stad الرياضي هذا المقطع التراجيديحزين :

«أتيت مغنياً هذه السامبا

بإيقاع حر من قيوده .

لقد قتلوا المحارب الشجاع :

غيفارا القائد .

الأدغال ، الأدغال

آجام القصب والجبال ستردّ : الوطن أو الموت

تلك كانت صرخته .

بوليفار أشار إلى الطريق

وغيفارا الشجاع سار عليها  
حاملاً أعلام المجد من كوبا الأم .  
بوليبيا تبكي الآن  
حياته التي ضحى بها .  
آه . أيها القديس أرنستو من الهيفيرا  
هكذا كان الفلاحون يدعونه .  
الأدغال ، الأدغال  
«الوطن أو الموت» تلك كانت صرخته التي لم تتم» .

الحب

---

**KMH**

ويونه مدينة غريبة . شعاع أو شهاب هوى من الأعلى واستوطن الحافة الشمالية لأفريقيا .

مهدي جواد كان يسميها الطفلة الشرسة التي تداعب أمواج المتوسط بأصابع قدميها ، وتنكمش برأسها على جبل سرايدي ، وهي المسورة بالبحر والغابات وحقول القمح وأشجار الزيتون والبرتقال ، والتي كانت المأوى الشرقي لقراصنة بارباروس بعد غاراتهم على سفن إسبانيا وصقلية .

بنها الفينيقيون ثم رمما الرومان والآن لم يبق من تاريخها العمراني غير أعمدة من الأنقاض ، والميناء وكنيسة القديس اوغسطين حيث يسجد المصاغ من الجص .

الفرنسيون بنوا المدينة الجديدة شرق الأنقاض على التخوم المجاورة للبحر .

وبعد اندحار المعمررين الفرنسيين وجيوشهم الغازية ، هبطها الجزائريون من الجبال وسكنوا منازلها الفخمة المغطاة سطوحها بالقرميد الأحمر والمحاطة بأزهار الليلك والمصطكي .

هي الآن بعيدة عن امتدادها المادي الصلب ، تتحول إلى ضربة شمس أو سلطان خلوى ، تستوطن الأعصاب وتلمع كالنيازك على شاشة الذاكرة .

المدينة النائية ، والمرمية في أطراف القطب ، والأقوى من صرخة الموت ونشيج الحزن الغامض .

كان يسميها الميناء واستراحة الحرب . جزيرة يوليسيس التي نجت

من الدمار الظروادي .

في هذه المدينة استقرت أسرة سي العربي ، الأسرة التي تحولت بعد الحرب بعملية قيصرية إلى أسرة يزيد ولد الحاج مساء زواجه من للا . وداخل هذه المدينة ، كانت الحياة رتيبة ، مملة ، تمضي في النوم والتسكع والطعام والعمل السلبي المنك و الثمل والحلم بالسفر خارج المدينة الصغيرة ، الضاغطة ك Kapooros .

كان سكانها يكرهونها ضيق جهاتها الأربع ، وإتساع الأحدائق حول ما يجري في حواريها وأزقتها القديمة .

لقد تعمقت الكراهية أكثر من وحشية البوليس الوطني إزاء البشر الذين لم يكن ليمر فيهم أكثر من عصاة أو حيوانات شرسة خارجة عن القانون ومنتهاة لحرمة الأخلاق .

وخارج نطاق العمل اليومي الذي ينتهي في منتصف النهار ، كانت الحياة تمضي بين المقهى والخمار والمبغى والتسكع في ساحة المدينة وعلى شواطئ البحر .

وفي أماسي المنازل العربية ، كانت الأسر بعد العشاء ، تنصلب كالتماثيل منذ السابعة مساء أمام شاشة التلفزيون الغربية لتشاهد مباريات كرة القدم أو مسلسلات الويسترن والكابوبي الأميركي أو الأفلام المصرية القديمة الملائمة بالحسرات والدموع والخيالات .

ومع أن في المدينة مسرحاً ضخماً بناء الفرنسيون ، إلا أن أغلى أنواع المسرح الشعبي كان يعرض عليه خلال المواسم قبل أن يأتي وقت المسرح المدرسي الساذج والتهريجي .

وخلال عام كامل شهدت المدينة فيلمين أو ثلاثة من نوع «حالة حصار» أو «الأفيون والعصا» أو «الأرض» : كانت مدار حديث العام بين من حضروها .

غرب الساحة كانت المكتبة اليتيمة التي لا اسم لها والمجاورة لمحطةقطار ، لا تعرف واجهاتها من الأدب الجديد أبعد من المنفلوطي وأحمد شوقي ، ومن السياسة والفلسفة أبعد من عبد الحميد بن باديس والغزالى وابن تيمية .

غير أن الكشك الدائرى القائم في منتصف الساحة ، كان يقدم آخر السلع الاستهلاكية ، واليانصيب الرياضي ، ومجلات الجنس السرية المهرّبة من فرنسا ، عبر ابتسامة سي عمر الاسخريوطية ، المفعمة بورع

اقتصادي وشوق كاذب يتحدث بهما عن لوعته العميقة وتوقعه لزيارة الأماكن المقدسة في مكة والمدينة .

في هذه المدينة النموذجية ، كانت لا لا فضيلة تحلم ، بتواضع القراء ، أن يتعلم أولادها ليحققوا مستقبلاً يليق بهم .

ومع أن ثروة يزيد ولد الحاج كانت تشكل عصباً قوياً من حركة المدينة التجارية ، غير أن أحداً من أسرة سي العربي ما كان طامعاً بهذه الثروة .

كانت الأم تكافح في سبيل استقلالية أبنائهما ليبنوا حياتهم ومنازلهم بكفاحهم الذاتي ، وذلك من خلال تقاعده الشهيد وعمل رابح الذي يشتغل عملاً في معمل عصير ؛ كذلك كانت رغبتها عارمة في أن يبقى الأطفال في كنفها فلا يغادروا بونه إلى بلاد بعيدة .

وفي بونه ، كما في كل البلاد المغاربية ، كان الحلم الأكبر : الهجرة إلى فرنسا الأم . وكانت لوحة الحلم الملونة باللون قوس قزح تسمى : الحرية . وما كان الإنسان بحاجة إلى دراسة معتمدة في البسيكولوجيا الجماعية ورفض الاستبداد لإدراك المغزى والدافع السري للهرب خارج هذه الأسوار الجحيمية .

ومع أن نزعة الحنين إلى المغتصب تظل كالوشم في الأعمق ، إلا أن جوهر النزوع كان يتأتي من تلك الرقابة الخرقاء على السلوك ومن قفاظة التخلف وانحطاط العلاقات المضادة لرغائب الإنسان المشروعة .

في الأسرة كانت تبدو علاقة لا لا فضيلة بآسيا شبيهة بحالة عشق خفي ، العشق الذي تكتئن الأم للولد البكر والوريث الأول . ولأن آسيا كانت تشبه سي العربي بقامتها الطويلة وأنفها المفلطح والرجلولي وجبهتها العريضة ، كانت الأم تقول لها : إذا تغرب الآخرون لا ينبغي أن تغببي . سينكسر قلبي إذا رحلت وأموت غما يا آسيا .

كان هذا الحب الامتلاكي يؤلم آسيا في قرارتها . لكن الأم كانت تصادر أحلامها السفرية قاطعة قوس قزح بشهقة حبل السرة .

منار وحدها كانت تمتلك قلباً قاسيأً ، متمرداً ، وخارجأً على الميراث . كأنما دمها مختلط من جدتها الفرنسية .

وكان واضحاً أن هذه الصغيرة النفور كوعل بري ، لاتقيم كبير وزن للعلاقات التقليدية ، ولا للحنين المرضي للأهل والمدينة التي كانت تسميتها : المدينة الضيقه المسمومة والخامجة . وكانت لا لا فضيلة تعلق

على قسوتها : هذه الكحلا ليست عربية . العرب حنونون وغيورون أما هذه فطالعة لجتها الفرنسية . قلب قاس وبارد كالحجر لا يفكر إلا بروحه .

كانت منار صغرى بناط لا تصهل في سهوب بلا حواجز . في البيت والمدينة ، وفي ملاعب التنفس مع صديقاتها أطلقوا عليها اسم المهرة البرية . الحواجز قائمة لكن هذه الطفلة الشرسة شراسة المدينة كانت تكسرها . تتأخر عن الموعد الطقسي الذي حددته يزيد ولد الحاج قانوناً إلهياً لآل البيت في الساعة السابعة مساء ، تحت شريعة الخوف من ذئاب المدينة والفسق المستشري والشرف المهدد في أي زاوية من زوايا المدينة ، كما كانت منار تذهب إلى ملاعب التنفس وتتدرّب على الرقص مع الفرقة المدرسية وتمارس رياضة الزوارق الشراعية ، وعندما كان رب الأسرة يسألها عن تأخيرها باكتفافه يتباهي بهبوب عاصفة ، كانت تصرخ في وجهه : أنا حرّة وأعرف ماذا أفعل . ثم تستدير عنه إلى غرفتها وتتنزوي هناك مع مجلاتها المصوّرة أو تستمع إلى الموسيقى حالمه بالليوم الذي تنهي فيه دراستها الثانوية لتهاجر إلى باريس قاذفة بهذه البونة العربية الموبوءة ، إلى الجحيم .

وفي أواخر المساء ، عندما تكون لا لا قضيلة تدفع الثمن في فراش يزيد ولد الحاج بارتفاع ضغط قلبه تحت وقع حماقاته وتهديداته من سلوك منار الشاذ ، تكون آسيا ومنار مستلقين في سريرهما المزدوج تتجادلان حول الحرية والواجب الأسري ومراعاة وضع الأم المشرفة على الهلاك .

وبقدر ما كانت تبدو منار أنانية ومتبردة ، متشبّثة بجذر استقلاليتها وهي تتحدث عن ضرورة مجابهة هذا الطاغية الذي سmetه : هتلر ، كانت آسيا هادئة وغيرية ترى إلى ما هو أبعد من الشخصي والخاص . كانت تؤكد في حوارها مع أختها على ضرورة تضامن الأسرة وتماسكها ، وأن الأم ستكون الضحية في سياق التمرد الفردي ، فيزيد ولد الحاج قوي الأن ولا يقاوم بصرخة منفردة في وجهه ، وعلينا أن نشعره أننا معاً وليس أبداً حتى ولو كان زوج أمنا . وفي تلك الليلة ستُهجمس لمنار عن خلافها مع مهدي في ساحة المدينة وكيف افترقا وأن انقطاعه عن البيت سببه تلك المعركة التي تصايحا فيها وتساجرا حول الحرية . وتسائلها منار : سوف لن يأتي إلينا بعد اليوم إذن ؟

تقول آسيا : لا أدرى . افترقنا وكان غاضباً وحزيناً .

- اوه . لا بد أنك آذيته !

- لا . أبداً . أنت تعرفين كم هو قريب إلى النفس . إنما يريديني أن أظهر معه جهاراً دونما خوف في هذه البلاد الخامجة .

وتسأل منار : قوله الحق . هل تحبينه ؟

- لا أدرى إن كان مابيننا هو الحب . عندما أكون معه أشعر براحة طفل في حضن أمها . حساس ودافئ لكنه عصبي المزاج ومزاجه كيما النار .

تهدر منار : شرقي غريب . لم أر في حياتي عربياً إلا وخفت منه إلا هو ليس مثلهم . في عينيه حزن غريب .

وتساءل منار : عليك أن تذهب بي إليه غداً .

- خائفة أن يطردني !

- لا . لا . أعتقد أنه انسان حر من الداخل وهو معنا ضد يزيد . إنما الحق أقول لك : أنت جبانة في مواجهة الامور يا أخي !

- جبانة ! كيفاش ؟

- أنت تحبينه في أعماقك فلماذا تخجلين من مصارحته ؟  
- خائفة .

- من أي شيء ؟

- المستقبل . مهدي انسان سياسي وأنا أخاف السياسة .

- ليس المستقبل ولا السياسة . أنت خائفة من معارضة يزيد ولد الحاج .

بين الحياد البارد والرغبة العابرة في المشاركة ، ترسل منار مشاعرها بتلقائية .

تبعد آسيا خائفة من الجهر بعلاقتها بمهدى جواد . الرجل الغريب الذي تراه كسفينة في عرض البحر تهددها الأمواج لا يصلح لامرأة تتشد صخرة ثابتة لا تهدها الرياح وانقلابات الطقس .

وعندما تقول منار بلا مبالغة طفلة مراهقة بأن الارتباط برجل لا يعني الزواج ، وأن الفتاة يمكن أن تحب أكثر من رجل ، تجفل آسيا مندهشة .

في أعماقها يشيل نزاع بين العشق المراهق ، وبين الحب الراسخ

وبيت الزوجية المستكן .

وما كانت المسألة محسومة . كانت مراهقتها قصيرة وفي سن الخامسة عشرة بدأت تشعر بالمسؤولية بعد غياب الأب ، وابتلاء الأم بزواجهما المشؤوم ، وصغر سن أخيها رابع .

هكذا في لحظة اشتباك الأشياء واختلالات الزمن ، ظهر مهدي جواد .

ظهر كنجم مباغت فوق أفق ضبابي . ولعلها تسألت وهي على حافة الحزن والمسرة إن كان ينبغي لهذا الرجل الغريب أن يظهر الآن . منار تنام الان بهدوء طفل أتباه الحوار . من النافذة الشرقية ينعكس شعاع قمر في وداعه طائر ليلي أبيض ، يتسلل إلى الغرفة المطلة على الشارع فيخيل لآسيا الأخضر أنها تسمع نحيب أم يغتصبها رجل غريب تحت ضوء القمر في لحظة تشبه برقاً في ليل شتائي ، يداهمها إحساس كراهية مفاجيء لكل الرجال الغرباء الذي قدموا إلى بونه من الشرق والغرب بعد موت سعي لخضر .

## - 2 -

إذ أطلقت منار سهم رغبتها النارية فوق أخضرار البحر ذات صباح أو مساء ، فعشقت طالباً من مدينة قسنطينة ثم نامت معه بعفوية بين أعشاب غابات بونه ، ثم هجرته فيما بعد ، حلمت آسيا برجل من المدينة يؤثر لها بيتاً جميلاً ، هادئاً ، يعطيها الأمان لتجنب له أطفالاً ذكوراً يملؤون البيت بالضوضاء والحركة كما تملأ الارانب سهلاً من العشب .

عصر ذلك اليوم الربيعي أتت آسيا إلى بيت مهدي جواد . استقباله لها لاح هادئاً وحزيناً . بدت مشرقة أكثر من أي وقت مضى . كانت ترتدي ثوباً مشقوقاً حتى حافة الثديين . لوهلة بدت وجفة تحت ازدهار بسمتها .

لقد بوغت بها بعد أسبوع من الشجار والهجر . وكعهدنا في الأيام القديمة ، سلمت بالفرنسية وتعانقاً كصديقين . بعد أن اجتازت الحجرة قذفت كتبها ودفاترها على الطاولة ، ثم بهدوء سالتة : هل اشترت لي ؟

- شويه !

أجابها وهو يرتب الفراش .

بحركات من ألف البيت وضعت شريطاً في المسجلة : حبيتك وسع الغابات .

أغنية فيروز الحميمية إلى قلبيهما . وإلى المطبخ دلفت لتضع إبريق الشاي على النار .

عادت إلى الحجرة . تصفّحت كتاباً متناشرة . ثم قالت عبارة حول ألفتها للغة العربية التي ما عادت غريبة عليها . كانت تتحرك وكأن استجارهما على الجسر وفي الشارع غمامه صيف . داخل هذه الحركات العفوية بدت قراراته حول تحديد العلاقة في حقل الدراسة ، تتهاوى .

- ماما سألت عنك ومنار قالت علاه مخاصمنا مهدي ! لو اصطدمت العيون في تلك اللحظة لانفجرت الحجرة والفضاء . لكن شيئاً آخر يتماهى مع الغفران والنفي والاستيحاش الموغل في الأوصال ، كان يصعد في الأنساغ على شكل أزهار اللوتون العائمة فوق المستنقعات .

مع عبق الشاي الحار الذي ستقدمه آسيا في ذلك الغروب وصوت فيروز ، سيزول توقيت الانفجارات لتبدأ الغابة تتفتح بورودها الخضر .

تذكر حماقة محاولة الانتحار فأحس الضعف والخذلان تماماً كما كان في حضن أمه يوم قذفهم الرجل السكران إلى وحل الشوارع : بنت الكلب اذهبني أنت وابنك إلى الوحل الذي ولدت فيه . في تلك الليلة نهضا من الوحل وهربا تحت الأمطار فناما معاً في خرابية مهجورة وطوال الليل كانت الأم ترتعد وت بكى وهي تطوفه .

الآن يستعاد فقدان الأمان فتسسلل غربة الليالي من النافذة المفتوحة على الشارع ، ومن صوت فيروز ، ومن هذه الحركات المرتبكة للفتاة الغربية التي تصطنع الآلفة والانسجام مع الأشياء والعالم . إنها تتحرك كأنما لم يكن ثمة خطأ ، وكان شجار تلك الأمسيّة لم يكن أكثر من نزوة أطفال .

عندما سأله عن إمكانية نجاحها أجاب بجفاف رسمي بأن الأمر يعود إلى اجتهادها . كان يتحرك بارتباك منهمكاً بإيقاع حركات تافهة وحرقاء . هارباً من مواجهتها ونشوته السرية بقدومها .

- أنت لاتبالي بي ولا تنظر إلي . ماذا هناك . هل مازلت غاضباً من تلك الأمسيّة ؟

- لا . لا . لست غاضباً . ولست شيئاً .

## - اتريدينى أن أرحل ؟

قالت ذلك وهي تحاذيه في المطبخ . هوى السؤال هوى ثمرة قبل النضج عن أغصان أمها . كان مداهناً بحالة غريبة من الوحدة والغرابة والشعور برغبة البكاء وهو يتلوى من البرد في أحضان أمه المطرودة . والتقت عيونهما . ومبين شفاف حار يلمع على وشك الانفجار . كانا عاريين ووحيدين تحت السماء المكفهرة والصقيعية في خرابه متقوبة الجدران . في وجهه لمحت شحوباً . فسألته إن كان مريضاً فنفي . تذرع بفقدان السكر : سأنزل إلى السوق وأعود حالاً . لا يوجد سكر . انتبهي للشاي . وفي غيابه فكرت آسيا لخضر بأن مهدي جواد ليس طبيعياً وأنها ربما أخطأها في قدوتها .

بعد أن أطفأت الغاز تحت الإبريق استلقت على السرير شابكة يديها تحت رأسها . حتى هذه اللحظة لم تكن قد سالت نفسها إن كان ما يجري بينهما هو الحب أم الصداقة أم أخوة الغريب للغريب . خليل إليها من خلال دفق الموسيقى والغلاف الخارجي وعلاقات المدينة المبتذلة والسوقية أن الحب المنشود خارج صدمة الجسدتين ، مستحيل هنا . كانت أمواج الخوف تغمرها وهي عارية ترتعش بين ذراعي رجل لا تعرفه جيداً . رجل غامض ، مغامر ، سكير ونزوبي ، يلتقطها كطير جارح ، وبعد أن يمتص دمها ونضارتها يفتح مخالبها ليتركها تهوي من على فضاء . ولتكسر مرآة هذه الصورة الكريهة جاءتها عبارة منار عن مهدي جواد الذي يختلف عنهم والتي تحبه في أعماقها لشبهه بالأخضر ، لكنها فزعة منه .

رن جرس البيت ، فانتبهت . فاجأت نفسها مستلقية لأول مرة في سريره . رتبت الشرشف بسرعة ماحية آثار الجسد واندفعت لتفتح الباب . كان يحمل السكر والفواكه والشوكولا ، ووجهها أقل رمادية .

وهما متقابلان بينهما الكتب والدفاتر وبخار الشاي ، كانت تفكر بأن الامور ليست سيئة ومخيفة بالشكل الذي تراءى لها في غيابه ، ولم تكن المرة الأولى التي تشعر فيها بالراحة والأمن وهما معاً . وعاتبته على غيابه عن منزلهم لأن الأسرة افتقدته : يحبونك أكثر مما تتصور . منار خاصة .

وكان يراها في مرآة مكسورة ، مهياً ، غير راغب أن يشرح شيئاً أو يقترب من الحادثة . كان في الفراغ ، كاتماً الصرخة التي ليست هي عندما جاءت على شكل فصد شريان .

وقال : افتحي كتاب النحو .

- بالعقل ! لم ننته من الشاي بعد ! قالت معتبرضة .

وتناول كتابها ودفتر الوظائف .

- لماذا لاتزال تحايد وأنت تنظر اليَّ !

ارتدى قناعاً لا يصلح له وهو يقول : منذ الآن سنهم بالدروس ولا شيء آخر .

- ولكن ماذا هناك ؟ هيا قل لي .

- لاشيء . الامتحانات على الأبواب ويزيد يراهن على نجاحك . لقد أمضينا أوقياتاً فائضة لامعنى لها في الثرثرة .

على نحو مبالغت عَلَّت طبقة صوتها : يزيد . يزيد . من الذي قال لك أن هذا الحُلُوف يهمني ! لحرقه النار . أنا حرة في حياتي . في خيري وشري . أنا لست مدينة له بشيء أبداً .

- في النهاية هو سيد البيت .

- ولكنه ليس سيدِي . زوج أمي لا أكثر . كانت الآن تتحدث بثقة وعناد وصلابة لاتترك أثراً للشك بأنها تحتاز الآن شجاعة وقوة الانشقاق عن بيت ماعد بيتهما رغم الضراوة الأمومية التي تناديها لتعود .

ظل محايدها وهو يقلب صفحات الدفتر رغم أنه كان يلقط بدقة صوتها العالي . وفيما مضى كان يحدق بنهم ابتهالي إلى وجهها وزغب زندتها ونضاره الجسد الصلب يكاد يخرج من ثوبها ويغمره . هي الآن بعيدة ، تكاد تكون غريبة عنه ، وبينهما مسافة جرح .

مذ يده ليتناول القلم من الطرف الآخر للطاولة فانحسر كم القميص وبان أثر الجرح المحترق بعد نزع الضمادة .

- ما هذا ؟

صاحت كأنما تئنَّ . كانت عيناهما مركزتين على الجرح .

- لا شيء . لاشيء .

كل شيء بدا مغموراً للحظة بألوان العبث والاشمئزاز ، وما هو الآن والماضي وما سيجري بينهما ، كان يمكن أن يقال أو يفعل بشكل مختلف وأكثر تواطؤاً .

داخل لحظة انفجار أمام تيارات إلحاداتها قال : أنت السبب !  
و عندما سألت بدهشة لماذا وما الذي فعلته ، أدرك أن حماقة أخرى ارتكبت ، وأنه وقع فريسة سلسلة من الأخطاء والأنبهارات والارتباكات والتوريطات ، راح يختلج داخل خيوطها العنكبوتية . واستمر تحت حالة من الهذيان اللاشعوري المنبثق : بلى . مع إنك لاستحقين ذلك لكنني فصدت دمي من أجلك . إنها لحماقة طفل أبله . ولكن الأمر حدث . حدث هكذا في لحظة جنون خيّل إلى فيها أنتي أحبك . كنت مخدوعاً . حدث ذلك بتأثير الغربة والعزلة المريرة . العزلة التي تدفع بالسجين إلى حافة القلب .

توقف كل شيء . حركاته وصوتها ويداهما السائبتان على غطاء الطاولة والكلمات المعلقة في الحلق . هبطت السكينة عليهما كأنما الزمن والحركة اعتقاداً للتو . وكما يصعد نسخ تحت لحاء شجرة ، صعدت أشعة العيون وتلاقت في أبواب البراعم . عيون تضيء مرارة وتضيء حناناً ، وتضيء شففاً وانفطاً ، فامتحنت الغربية . كان قلبها يُرى تحت صدرها وهو يخفق متسارعاً ، على وشك الوثوب خارج الأضلاع في اللحظة التي شهقت فيها : آه . آه . يا يوماً .

وهي تمسك بأصابعه متلمسة الجرح ثم وهي تقترب بشفتيها من المعصم وتقبله : سامحني . سامحني ! دارت الغرفة . حملتها الريح خارج الجاذبية وابتداً بريق وحشي ، عذب وجارح ، يعصف بجسدين يطلقان ملاليين الشرارات تحت هذا المهرجان الطائر في فضاء بونة .

### - 3 -

حدث ذلك في أول نيسان . في عيد الكذبة التي صارت حقيقة في لون أزهار اللوز البيضاء والليمون والمصطكي وهذه الشمس التي تستيقظ من فجر البحر .

تحت ذلك البياض والضحى اغتبطا . امرأة ورجل داخل غرفة ضيقة ومغلقة انفتحت حتى صارت في رحابة كون لا يحد . دخلا في الحقوق الخضر ، وجريا تحت الأمطار الخضراء ، وانبعث من ضلوعهما براعم وينابيع خضراء ، حارة ، وباردة ، في أعقاب شتاء كان شديد البرودة .  
وما كانت الروح وحدها التي ازدهرت في ذلك الربيع . كان

الجسدان يطلقان ملابس البروق فوق شواطئ وجبال بونه .

- أأنت بهذا الحنان !

- كم كنت قاسياً !

منغمران . تحت شجر الجسد الفوّاح . رأس طفل يتغلغل في صدر أمه . وذراعاً طفلة تطوق أباً عائداً من سفر طويل .

- كم كانت أشهرأ صعبة !

- كيف حال الغربة الآن ؟

- أأنت وطني .

- نصف عام مضى في المقدمات والألعاب والأكروبات وهذينات النفس حتى وصلنا إلى هذه الحقيقة البسيطة .

لم يكن سهلاً إحصاء الكلمات التي تدفقت تدفق الأشعة داخل مياه البحر ، هنا في هذه الغرفة التي عزلها العشق الصاعق عن عالم الاحصاءات وعلوم الأخلاق وميثولوجيا الدهر العربي الراكد .

كل منها وهو منصره بالآخر عبر الأزرع ، والأفخاذ ، والوجهين ، والعيون ، وفيضانات المسام ، كان يكتشف ما كان عصياً على الكشف في أشهر الكذب والمخاتلة والرعب .

كان الوقت الذي ضاع في جوف الكلمات الفارغة ، يستعراض اللحظة بهذه الألفة العضوية الرافعة لنبض الأوردة ، تحت مطر موسمي يصعق الحواس بالشهوة ورجفة الموت فيحدث التعارف .

- لماذا ظللنا غرباء حتى الآن .

- لم نكن .

- كنت بعيدة .

- مذ وطئت عتبة البيت ماعدت غريباً .

- كنت محايدة . باردة كجبل ثلجي . قال ذلك وهو يشدّها من أذنيها .

- اوه . لا . كلما اختمرت الأرض بالمطر ينضر العشب ويقوى . وأخذ رأسها فاحتواه بكفيه وضغطها إلى صدره .

وفي لحظة الوجه صرخاً معاً . صرخة الاحتفال بالدم وهو يمتزج بالدم .

سيذكر فيما بعد تلك الأزمنة السعيدة التي ستأتيه مع الرياح في مطلع الربيع وهو ينتشر فوق التلال والسهول وحقول المنفى ، وستأتيه الروائح التي تفطر القلب إذ يهبط الشوارع المشجرة الشبيهة بشوارع بونه ، في الأصائل التي تشبه أصيل اللورانجي العابق بزهر الليمون وهو يقبلها على عتبة الدار .

\* \* \*

في ذلك المساء يكتب مهدي جواد في اليوميات المهجورة :

زمن جديد يطلع . نجم ساطع في ليل . امرأة العصور الجديدة التي حلمت بها مذ كانت الدنيا سديماً والعالم هيولى . حيث لا حبّ لا توجد حقيقة . عدم الكون وعدم الحب شيء واحد . إنني أنغمر في غياب الآلهة وهذا الدمار البشري ، داخل أمواج هذه المرأة التي قذفتها في وجهي ابتهالات البحر .

مدينة جديدة .

ناصعة ومصقوله بضياء الشمس ، وهذا التموج الشفاف ،  
الغامض ، الخارج من كل نبضة من نبضات الأرض والفضاء .  
بونه . الربيع .

ضياء فجر يتدفق من السماء وشجر الحدائق والساحات وانفساح البحر . فضاء شبيه ملأة حريرية شاسعة كالكون أرختها سماء عارية من الغيم .

لاموت . البشر أطفال يضحكون في الشوارع وعلى الأرصفة . أبنية جديدة ، وساحات جديدة . الشمس والغبطة تنهر أشعتها شلالات من الوجوه والأعشاب وبياض المنازل .

\* \* \*

مهدي جواد يستقبل المدينة مفاجأً بها وكأنها غابة منقطة بالبيوت  
البيضاء هبطت ليلاً من كوكب آخر .

في الطريق إلى المعهد يظهر خليج بونه المرجاني سواراً من الماس ، مفتوحاً على الحقل البحري ، يطوق المدينة . نوارس بيضاء تخفق فوق البوادر مختلفة بصلابتها الأزرق وأصوات طيور وروائح عشب .

ما عدت وحيداً اذن ! ياه . ما أبهج الحياة وما أعزبها أيها الأسود !  
كان الطيف الآسيوي يخفق كالشراع تحت عينيه الجديدين ، ومن  
مركز المدينة حتى وادي القبة حيث المعهد ، كان الطيف يرسم له تفاصيل  
اليوم السابق .

وقائع الحلم التي تتراءى لرجل على حافة الشهقة الأخيرة ، يرى في  
تسارع مفلت من عقال الجانبية . ينهض من قبره ليلاً ليقذف داخل ملايين  
الإشعاعات فوق أرض لم يرها ولم يسمع عنها ولم تولد يوماً سوى في  
هذا الإنهمار الضوئي المشتت كنيازك من الزهر .

عندما يختلط المشهد بصبح الطلاب ودوي أصواتهم في باحة  
المعهد ثم في قاعة الدرس ، تتبدد الأشعة والأزهار وحقول الأرض  
والبحر ليتجسد تحت بصره هؤلاء الأبالسة .

كان الطلاب يحبون مهدي لأنه يترك لهم الحرية خلال الدرس في  
طرح الأسئلة الخاصة أو العامة الخارجة عن مجال الموضوع ، ومع أنهم  
كانوا نماذج لعينة في الشعب والتراث وكراهية الدراسة ، إلا أنه كان  
يحاول تقديم درسه وكأن هؤلاء الخمسين طالباً يستلقون على العشب في  
الهواء الطلق .

خلال أقل من ساعة ، مضت عشرون دقيقة منها عبر الأسئلة  
والأجوبة عن الأمور الخاصة والأشتباكات الجانبية والتعليقات الساخرة  
وهيجانات المراهقة ، استطاع خلال أقل من ثلاثين دقيقة شرح قصيدة  
لأبي فراس الحمداني .

أثناء التحليل وفيما تبقى من الوقت حتى بعد قرع جرس  
الاستراحة ، أثيرت حوارات حساسة انتقلت من جو القصيدة إلى مداخل  
الحياة الشخصية .

كان هناك شطران مثيران : « تقاد تضيء النار بين جوانحي »  
« ولكن مثلي لا يذاع له سر » .

من خلال تركيز مهدي جواد على هذين المقطعين وتحليلهما  
بافتتان خاص ، عثر الطالب على مدخل الخروج من عالم أبي فراس إلى  
ما يلامس أحاسيسهم ورغباتهم الداخلية .

في لحظات من المجال الحر للأسئلة ، بوغت الأستاذ مطوقاً بأسئلة  
محرجة وشخصية من قبل مجموعة من الطلاب كأنما اندفع حسها  
الشيطاني للإيقاع به .

سأله أحدهم عن رأيه في العنابيات وهل وقع في شراكتهن أم لا . وقال آخر إذا كان الأستاذ كما يوحى لنا ويعلمنا الصراحة وفن الصدق عليه أن يبوح لنا باسم حبيبته .

كان مناخ الدرس قد تحول إلى حقل من الصخب والهرج والاعترافات ، وبدا مهدي جواد مُغبطاً وهو يحاول تفادي الحرج والجو المنذر بالفضائح ، وقال بأن عليكم أن توقفوا قليلاً هذه الجلبة . ليس في الأمر فضيحة كما ليست خطيئة أن يحب الإنسان . العشق دافع طبيعي احتياج الجسم له كاحتياجه للهواء والماء والطعام . أن تحب فائت موجود وحـيـ .

وضحك وهو يسمع صوت طالب يصرخ من آخر مقعد : ليس بالخبر وحده يحيا الإنسان !

وقال الأستاذ : صـحـ . صـحـ . كما للإنسان حـيـة واحـدـة لا حـيـاتـانـ . وعليه أن يحيـاـها بكل طـاقـاته قبل أن تـفـلتـ منهـ إـلـىـ الـهـاوـيـةـ . ومنـ الزـاوـيـةـ الـيـسـرـىـ انـطـلـقـ تعـلـيقـ : إنـ لـجـسـدـكـ عـلـيـكـ حـقاـ . صـدقـ اللـهـ الـعـظـيمـ .

- اسمـعـ . الـجـزـائـريـ ربـماـ كـانـ الـأـوـلـ بـيـنـ الـعـرـبـ منـ يـعـرـفـ قـيـمةـ جـسـدـهـ . مـعـبـودـهـ الـرـياـضـةـ وـالـخـمـرـةـ وـالـنـسـاءـ وـالـبـحـرـ .

الـطلـقـاتـ شـالـتـ التـعـلـيقـاتـ وـالـضـوـضـاءـ وـنـشـوـةـ الـفـحـولـةـ الـذـكـرـيـةـ .

- الـجـزـائـريـ دـمـهـ سـخـونـ .

- النـارـ يـادـيـنـ الرـبـ . النـارـ .

- يـاسـيـديـ حـارـ منـ أـكـلـ الـهـرـيـسـةـ .

- الـأـصـلـ جـبـلـيـ . ذـيـبـ غـابـاتـ .

- الـطـفـلـاتـ يـأـسـتـازـ يـهـبـلـواـ وـيـطـيـرـواـ الـعـقـلـ . بـنـاتـ بـوـنـهـ كـيـماـ الـلـبـؤـاتـ .

رـشـقـ منـ فـوـضـىـ وـانـدـفـاعـاتـ الـأـعـمـاقـ الـمـخـتـزـنـةـ ، أـطـلـقـهـ الـمـنـاخـ الـحـرـ للـحـصـةـ الـدـرـاسـيـةـ ، فـيـ لـحظـةـ خـيلـ فـيـهاـ لـمـهـدـيـ جـوـادـ أـنـ هـذـهـ الـفـوـضـىـ قدـ تـخـطـتـ شـرـيطـهاـ الـأـحـمـرـ الـمـسـمـوـحـ بـهـ .

دقـ علىـ الطـاـوـلـةـ : كـفـىـ . كـفـىـ .

- أـسـتـازـ هـلـ يـمـكـنـ أـنـ تـعـرـفـ لـنـاـ بـآـخـرـ مـرـةـ نـمـتـ فـيـهاـ مـعـ اـمـرـأـ ؟ـ !ـ كـمـ بـدـاـ السـؤـالـ فـجـأـ . خـيـمـ صـمتـ . فـيـ فـضـاءـ حـجـرـةـ الـدـرـسـ عـلـقـتـ قـنـبـلـةـ خـلـصـامـ أـمـانـهـاـ .

كانـ يـجـلـسـ عـلـىـ سـطـحـ أـحـدـ الـمـقـاعـدـ الـأـمـامـيـةـ . هـبـطـ بـهـدوـءـ وـتـحرـكـ

بين المقاعد . داهمته حالة ضيق . بالإمكان الإجابة بلا حرج ، لكن السؤال رن صارخاً ، مبتذلاً ، منفلتاً من حقل الحرية إلى غابة الفوضى والمزاج العاري .

اتجه إلى السبورة . تناول قلم الطباشير وكتب بخط عريض : ولكن مثلي لا يداع له سر .

- أستاذ ! لماذا تهرب ؟

- قل الحق . قل الحق !

وبهدوء . وهو يلملم كتبه ودفاتره تأهباً للخروج قال : الجواب في الدرس القادم .

\* \* \*

وكانت بلاداً جميلة .

إنها تتألق أبداً بالبحار والغابات والسموات الزرقاء . كما تتألق بنساء جميلات وشهيات كالكرز .

البلاد العذراء التي تخزن المعادن والحبوب والبترول والغاز والمستقبل الغامض ، وهذا الذي يسبح ليلاً ونهاراً ويسيير باسم الله مجراه ومرساه .

لكنها كانت تلوح بلاداً جارحة كحد المدية .

فكم تخزن الجمال وعذوبة الطبيعة والمواد الخام ، كانت تخزن الزلزال والأعاصير ونذر الحرب ومقابلل الإعدام . وفيما مضى في عصور سحرية في القدم ، يوم كانت قارة من الصحراء المموجة تحمل على ظهرها النوق والخيول والخيام الراحلة ، كانوا يسمونها : مهابط وأرض الأنبياء .

غير أنها مع تقدم الأزمنة ، عندما ستمزق مسامها لتفجر بالدم الأسود ، ستسمى مهبطاً ومرقى فرق الكوماندوس ، وحملة بنادق الناتو ، والبخارية اليانكين ، ومخبراً لصنوف تجارب التعذيب . ومن أعماق هذه الأرض المتراحمية الأطراف شرق المتوسط وغربه ، يكتب بشير حاج علي في معتقل بوارسون وهو يسمع الأذان والصوت الغنائي الشرقي فجراً : «صوت عجيب لمغنية جهيرة آت من أعماق النيل . صوت يكشف الصمت الثقيل . أذان بطيء يرتفع داعياً للصلوة ، يمازجه ضجيج الأحذية

العسكرية الأصم ويقطعه ذهاب سجانين مستوفزي الأعصاب .  
القلب يرتعش وكل واحد ينتظر دوره في المحنّة والعذاب . بعد  
لحظة سيساق إلى الاستنطاق رجل أو امرأة» .

\* \* \*

بعيداً عن هذا شدَّ ما تبدو غريبة حكايات وهرطقات هذه المرأة  
المسمّاة : فللة بو عنان .

المرأة التي سقطت سهواً على شواطئ بونه حيث نسيها الله بعد أن  
اختار لها زاوية ضيقة من زوايا الجحيم قائلاً لها : امكثي هناك ملعونة  
إلى أبد الآبدين . فتردَّ بصرخة شيطانية : في مؤخرتي الحياة الآخرة  
 وأنهارك العسلية وينابيع الكوثر . هذه حياتي الأولى والأخيرة وما تبقى  
هذه . سامحتك فيه . اعطه لعبادك الصالحين .

تقول ذلك بعد أن حلمت طويلاً بامتلاك أخضرار البحر ، لكنها لم  
تقبض سوى الريح العاصفة .

وعندما يحلو لها ، وهو يحلو لها دائماً ، أن تتكلم عن الرجال  
والنساء يرسم مزاجها للمرأة الجزائرية وجوهاً ثلاثة . الوجه الأول وجه  
المناضلة والثاني وجه العاهرة والثالث وجه الأم .

ودونما شعور ربما ، تشرح حالتها ، رامية ستارة الأم تمويها ،  
بين الغريب المشاهد ومسرحها الذاتي المغلق .

تقول بأن الأفريقيَّة بقدر ما هي طيبة وببساطة كالطبيعة ، بقدر  
ما هي شرسة وشهوانية . إذا ما أعجبها الرجل طارده حتى آخر الدنيا  
لتحصل عليه وإذا كرهته بحثت عن آخر في اليوم الثاني . نحن عنيدات  
كالحيوانات إنما الوفاء مسألة فيها نظر . قد تقول : الدم . أما أنا  
فأقول : جرثومة الشهوة التي تنفل . وفاء صادق للطبيعة . ربما كان هذا  
بتأثير الشمس أو الميراث الدموي ، أو الاثنين معاً ، لا أدرى . ما هو مهم  
إنها تندفع مع غريزتها بلا حرج . الحق أقول لك : صرخة الدم هنا لابد  
أن تخرج إما بالجنس أو القتل .

يحاول مهدي جواد كسر انهمار التدفق الأبلisiي الغريب وهو  
يعترض بأن هذه ليست سمة أفريقية محصورة ، فتقاطعه : لا . لا . اسمع .  
سأقول لك شيئاً خاصاً عناً . نحن نشتهي الفرنسي والجزائري والعربي

معاً . هل تستطيع أن تتكهن لماذا ؟

- لا . تكهنني لنا . ترمي ودعها ثم تخط في الرمل : هو صوت الدم المبدد أو الشهوة أو العبث أو رغبة الاستبدال . آ . هذا ما تقوله . ولكن أنا أسائلك : الجميل والغريب والغنى والذكي والمغامر والشهوي والفنان والشجاع والقوى ، هل يحتازها كلها رجل واحد ؟

- لا . طبعا !

- الجزائرية في بلادنا تحلم بهذه الجمهورية المفقودة من الرجال . من أجل ذلك تخون إذا كان ذلك البحث عن تلك الجمهورية يسمى خيانة .

- هذا مازا تسميه . فلأ ؟

- بحث مشروع عن الحق الطبيعي . حق أم لا ؟

التياثرات غريبة في عالم حافة الغابة ، تضرب رأس مهدي جواد في هذه الأماسي السحرية ، حيث تتفتح أبواب غامضة وتُهتك أسرار مقدسة حملتها الآلهة والأنبياء وختمت عليها القلوب الواجهة ، هاهي ذي المرأة التي خانها زمانها فتمردت عليه تهتك ستراً القلب والروح عنها .

وخلال التماعة تعبر آسيا لخضر كالطير في هذه السماء الغبراء : آسيا داخل هذا العالم أم خارجه ؟

- أَف . يالها من دوامت . هذا الذي تهذين به !

- دوامت . استيham . استباحة . ليكن . الأمر هكذا صدقني . اسمع . حتى أنتم الرجال هل ستقنعني أنكم لا تبحثون بلهفة عن المرأة الكاملة عبر ملايين النساء ؟ لماذا لا تكتفون بأمرأة فيها جزء من تلك الجمهورية الكاملة ؟

يضحك مهدي ، كاسراً هذا السيلان العجيب للعنابية التي تستمني بهذه الهرطقات العزيزة على نفسها وجسدها .

- أنا مكتف بما وهبني الله .

تهز فلة رأسها : هيـه . هيـه . يا من يصدق !

وحيدان كانوا في ذلك الغروب . من نافذة البيت كانت تلوح الجبال التي تشكلت تحت المغيب لوحـةـ أحـاذـةـ ، ومن الشارع دخلت أصوات الباعة وهدير الباصات المتأهبة للرحيل إلى أطراف بونه .

كان الوجه الرابع للمرأة العاشرة والوفية قد اخترـلـ وامتصـنـ في حـقـلـ من النـهـبـ ، هذا الذي ترى جـذـورـهـ أـكـثـرـ اـنـدـفـاعـاـ وـعـقـمـاـ فيـ أـرـضـ المـرأـةـ .

وتحت تأثير نوع من الادمان على النبيذ الذي تشربه في كل الأوقات ، وهذا الوجيب العضوي الذي ينتابها كأرق دائم ، وديمومة التحديق في المرايا وحزن الوجه الأعجف ، كانت قد دفعت في مقابر بعيدة جثة تلك المرأة الساحرة التي تعشق حتى حدود الانتحار من أجل فارس أحلامها . وهكذا عندما قالت بأن براءة وطفولة الحب ليستا أكثر من فخ ممهو بالأعشاب والزهور في غاية بشرية تعج باللحوش ، بدت كأنما ترثي إلى الأبد تلك الطفلة اليانعة التي ازدهرت يوماً في نفسها .

وما كانت تهذي بتلك البدع لتصطاده . إنها تقول بأن بونه تشبه مصححاً جنسياً أو الرجال فيها مبذولون كالذباب . لكنها تستطرد قائلة بأن الحب يبدأ بالولع والدهشة ثم سرعان ما يتبدد بالملل والعادة والرتابة ، وصديقتك يا عزيزي مهدي أرجو ألا تزعل من صراحتي ، لابد لها أن تجرح قلبك يوماً وتدميه . الهمس الحار والحكايا الجميلة وأصياء الشعر تصدأ بتقادم الوقت فتتبدد الدهشة والأسطورة ، ليبدأ البحث عن أساطير أخرى وأصياء جديدة . كل شيء . كل شيء يصدأ في النهاية والحب أكثر الأولى قابلية للصدأ . هذا هو قانون الطبيعة . لا أدرى ماذا تسمى هذا !

كان من الممكن لحضر هذه النظريات الجرثومية المستنبطة من أصول لا بشرية ، وهو يتذكر آسيا وجهه لا فضيلة المشع بالحنان والأمومة والسلام الروحي ، لكن العناية ستظل تماحك بعناد حتى الفجر لإثبات تجاربها المخبرية . وفي مثل هذه الحالة المنهكة للأعصاب سيتصدع رأسه تحت طنين ثرثراتها المضنية . الثرثرة التي لن تهدأ إلا بضغط أصابعه على بشرة فخذها العاري والصرخة التي سيرفعها جسدها الناري وهو يلتهب في صليل ححيمه .

غير أن الأصوات الخارجية القادمة من الشارع واقتراب قدوم مهيار من المعهد ، وسوداويته التي غلت الجو ، نشرت ستاراً كالحاج فوق جسم فلة الخشبي فأوقفت احتمال الهجوم المضاد .

حَكَ صدغه ليزيح الكابة فجاءت المدينة . هذه التي لم تكتشف كل أسرارها الجاثية تحت الزبد . مدينة الحب والشهوة والخيانة والسمسرة والصلة والسيطرة الاقتصادية . بونه يوليسيس والساحرات ومصاصات الدم والأمجاد الزائفة . وعلى الشعاع الخاطف العابر من خط الاستواء الأفريقي ترافقست فراشات وطيور تائهة ما عادت تعرف الطريق إلى الحقول ولا العودة إلى الشرفة .

الآلهة والبشر والشمس وصرخة الدم ، كلها كانت تنذر بزوبعة غبار تسد أبواب المدينة وشوارعها ومنافذها في وجه هؤلاء الغرباء الذين هبطوا على سطح هذا الكوكب اللعين في غفلة من الدهر .

واذ قالت العنابية : عيني مهدي . هل أزعجتك ؟ صحا قليلاً من دواره .

- لا . لا . لماذا ؟

- أعني هل جرحت شعورك ؟ صدقني أنا سعيدة بعلاقتك مع آسيا . مع عبارة : أبداً . أنا وصديقي لسنا آلة ونحن . . . رن الجرس فقامت لتفتح لمهيار الباب .

\* \* \*

سيتذكر ذلك فيما بعد بشجي .

الأصيل والتلال الخضراء ولمعان حقول البحر .

إنها الريح هذه التي تتدفق دافئة من باطن الأرض ومن الأفق البنفسجي للبحر .

سوف لن يتجرأ على قول ما ينبغي أن يقال لأن العمر كان يبدو قصيراً جداً آنذاك ، كذلك كانت الشمس تشرق وتغرب بسرعة ، وكانت صرخة : آه . أنت أيتها الشمس لماذا لا تكتفييني . تدوي في تجاويف حلقة .

ولأمر ما خارج عن إيقاع الزمن وغروب الشمس ، كانت حياة مهدي جواد في تلك المدينة مسكونة بالفرار ، وأن كل ما يراه ويسمعه ويحسه ويشهده يجري كأنما في حلم أو يرى من نافذة في قطار الشرق السريع .

يُلمح إلى ذلك لمحأ وهو يستلقي على فخذ آسيا الصلب ، فوق تلال خليج المرجان المعشبة بين أزيز النحل وهسنهات الزيزان المختبئ بين أنصال العشب وتوبيخات الزهر .

كانا على حافة الهاوية وتحتها البحر . وقبل لحظات كان يقرأ لها قصيدة «العملاقة» لبودلير :

أن أعيش قرب عملاقة شابة  
كهرّ نهم يجثم مستسلماً للذته

تحت قدمي ملكة .

في ذلك الزمن كان حبها يصعد كفطر البراري المفجّر بالرعد من باطن الصحراء . وفوق العشب كانت المرأة التي تخطت خوفها ممددة الآن بين الأعشاب مغمورة بالضوء والحبور .

في نهاية المقطع انحنت برأسها وقبلته . أولجت لسانها فانسال الريق العسلاني واهبأ ذراته نضارة تتحدى الموت .

رغم أن يسألها عن الوجه الآخر الذي تحذّث عنه العنابية عندما سألته كيف يحبها فقال حب الجذر لأعماق الأرض . ودخلًا في رهان طفلين أخرقين إذ قال أحدهما للآخر : هل ترمي نفسك من هنا لو طلبت منك ؟ وقال الآخر : وفيما بعد .

- أرمي نفسي وراءك .

- لا . بل تبحثين عن آخر . قولي الحق !

هكذا جاء السؤال . قالته العنابية تحت هذا العراء المفتوح .

- لماذا تعتقد ذلك ؟ سألت باستفار جهنم .

- هكذا أنتن ! كما قالت فلة .

- اوه . لقد أفسدتك تلك العاهرة . مذ تعرفت عليها فسد دمك . اسمع سوف لن تدخل بيتها بعد اليوم . فهمت ! تلتقي مع مهيار في أي مكان عدا بيتها . القحبة ! قالت بانحرار دم افريقي .

- لماذا تسبيئنها ؟

- رأحتها في بونه كيما الجيفة . أسأل أي عطّاي في المدينة إن كان لا يعرف من هي فلة بوعناب . واحدة فاتحة بانسيونها للشريقين تصطاد لهم بنات المدارس وترشو البوليس سراً حتى لاتداهم ويأخذونها إلى البورديل .

نهض عن فخذها وتواجهها .

في وجهها استفزاز الوحش وفي وجهه دم المرارة .

وسألتها إن كانت متأكدة من اتهاماتها فقالت هذا ما تقوله المدينة ، وهز رأسه أسفًا وغمامًا وهو يرى آسيا لخضر مجتاحة بالمدينة وإشعاعاتها وأخلاقها المريضة .

أحسن بروطوبة الأعشاب وهو يمسح براحته فوق الزغب ، ثم وهو يقتلع الحجارة الصغيرة ويقذف بها إلى الهاوية ليسمع رنين سقوطها في

البحر .

- ليس الامر صحيحاً . ليس صحيحاً أبداً . إنهم يكذبون . السُّؤلَة !  
قال ذلك وهو يضرب بقبضته تلعة من غضار الأرض . وبحركة  
غربيَّة تدحرج فوق المرج المعشب فرأى وهو مستلق على ظهره سماء  
بعيدة ، مقوسَة ككأس ضخم رغب لو يطير إليها وحيداً .

- ١ -

يومذاك كان الفضاء رمادياً والريح غبارية . وكانت بونه جميلة  
جمال امرأة تتشَّح بحدادها الأزرق . وما كانت الجهات معروفة لا في  
الأهوار الزرقاء ولا في أعماق فلة بو عنَّاب التي انكسرت بوصلتها وهي  
تغادر الجبال باتجاه المدن المنتصرة .

وعندما ستقول وهي على أبواب نشوتها : أعتقد أننا سرقنا في  
غفلة الزمن . سيقول مهيار : لابد أن الغفوة كانت طويلة أكثر مما ينبغي .  
وتقول آسيا : الحياة فسيحة وأنا أحلم ببحار مليئة بالزوارق الشراعية  
وببلاد عامرة بالرقص والمغامرات . ويقول مهدي جواد : ما أسعد البشر  
الذين لم يولدوا هنا !

سيقولون ذلك في الحجرات السرية والمغلقة ، في بونه العذبة التي  
مسَّها شيطان الشقاء والعشق الفاسق . المدينة المسؤرة باختصار البحر  
والغابات وسطوة الكلاب السرية .

وما كان أحد ليدرك على نحو واضح ومميز ، ماذا يحدث داخل  
الضمير السري لمدينة استباحها جنون البيع والشراء ولصوص العهد  
الجديد الذين نموا كالطحالب على جسد المدينة الجديدة . كان الفرنسيون  
هنا قبل عشرة أعوام ، لكن سكان المدينة بدؤوا يحسون أن الغزارة قبل أن  
يغادروا بذروا جراثيم سلالتهم في رحم المدينة . وإن كانت آسيا الأخضر  
تقول : آه . يالبلاد الجميلة ! وهي تخترن عبارة : آه ، يالقوتها . كانت  
تبكي لخضر الذي مات مجاناً . أنها كانت فلة بو عنَّاب تنوح كنداشات  
المقابر : آه . أين الدم وأين الرجال !

وفي عروق المدينة المعتمة والمضاءة . المدينة المسفوقة بالريح  
وضوء الغابات ورعبه أفريقيا ، يخطو مهدي جواد على الآثار القديمة  
حِزْراً . هو الآن تحت الفضاءات الرمادية . يأتيه الماضي في لحظات

الحنين فيقع فريسة الروائح . تطفر الدموع تحت شجر الساحات في الأغساق الأخيرة فتحنون المدينة بليلها وندادها الهاابط ، وبهذا الغلاف الشفيف لجسدها العذب . تعبره موجة فينتبه إلى أنه يبكي نفسه والوداع القادم لمدينة ليست له . مدينة فارأة من يديه وتحت قدميه . مدينة الذاكرة التي ستجرحه يوم يغادرها نحو أرض أخرى لا يعرف أين تقع . وتحت تأثير هذه الروائح التي تلفحه كالنيران يتذكر كلمة الأم التي عميت من البكاء عليه : تتوجه في البلاد البعيدة فتجرفك السيول والريح الصرصار . قل لي ماذا ترى وراء تلك الآفاق العميماء التي تقصدتها ؟ يومها كان عائداً من رحلة صيد فداهمته الأمطار المدرارة وتاه عن الطريق فنام في كهف جبلي حتى الفجر ، تحت لسع البرد وفزع مداهمة الوحوش . حتى الصباح ظل يرتعد والبندقية مسددة نحو بوابة الكهف خوف المفاجأة .

بعد عشرين عاماً هاهوذا يجلس على المقعد الحجري تحتأشجار دردار أفريقيا ، ملفعاً بسكونة الليل وفزع مدينة لا يعرف متى ينبعق لصوصها ويهاجمونه ليسليبوه عشرين ديناراً ينفقونها في أقرب حانة . ويومنذاك كان القلب عاريًّا كسهب تكتسه الزوابع ، وما كان محمياً .

يضع أصبعين على بؤبؤ العينين المغمضتين ويضغط . على الشاشة السوداء نيازك تتهاوى وأشباه تترامح في الفضاء وتسقط . الرجال الذين اغتصلوا بالدم والوحش والسموات التي امتلأت بطوير البجع المذعور في أوائل ذلك الأصيل . الغرف المغلقة المسكونة بالفزع والأصوات ونواافير الدم وآلات التعذيب .

لقد انفجر الزمن الذي سقط بين أشداق اللوبياثان الضاري ، دماً ويتامي .

كان بوده أن يصرخ في ليل الساحة تحت الشجر الظليل : مافائدة ذلك ! ولماذا نقع فريسة الريح العميماء ؟

ليس هذا ماينبغي قوله تماماً . ولأنه كان مساطاً على نحو عاطفي لعين ، ضغط أكثر على غلاف العينين لينبثق أكثر نزيف الدم .

كانت الحالة للرجل الذي توهم أنه ناضل وخسر ، هي : هل ينتحر أو يحيا ؟ وبتحديد أكثر تركيزاً سيسأله نفسه في لحظة أخرى عندما يكون مطوقاً بذراعي آسيا الأخضر ، إن كانت خلاياه ما تزال تصلح للحياة أم أنها انعطبت إلى الأبد .

في تلك الاوقات المماثلة لاستراحة حرب كانت تقول له : أنت مازلت قوياً وفتياً وعليك أن تطرد هذه الغربان السود من سمائك .

تقول ذلك المرأة الحالمة بسماءات نقية وببلاد بيضاء كالثلج . المرأة الراغبة ببيت مؤثث بعيد عن الأعاصر تزيينه الديكورات واللوحات والرقص والموسيقى والأطفال ، تقول ذلك تعزية ونزوعاً باتجاه أحلام طفلة تحب الدنيا .

وإذ اشتباكا ذات غروب وفي لحظة جنون : أنا لا أصلح . ابحثي عن رجل آخر لا يسكنه الجحيم . بكت في البدء ثم انفعت نحوه وضمه بحرارة : أنا سعيدة بجحيمك الجميل . وما كان يرى من جحيم جميل سوى حياتهما المحمولة على أساسات الريح . بحبهما المتدق كالجرح وكأمواج البحر في وقت عاصف . هو الذي ينづف وهي الطالعة على العالم كالعاصفة . الأنثى التي تفتح على الدنيا كما يتفتح زهر المصطكي حول حدائق بونه .

- أنت يا آسيا جميلة وفتية مفعمة بأحلام ملونة أما أنا فرجل مكسور حطمته سفينته عاصفة فتاه في البحر .

- لا . لا . أنت واهم يا عزيزي .

- صديقيني . أعمامي رماد . إنما أنا رجل هالك يا صديقتي !

- وهم . وهم . تحت رمادك جمر أحسه ينبعض وأنت تأخذني بين ذراعيك . خليك من السياسة والذكريات الحزينة وأنا معك . وإن يصرخ داخل الغرفة القائمة في نهاية شارع مصطفى بن بولعيد : اسمعي . أنا لا أصلح لتأثيث منازل مريحة . في داخلي غابة من القبور . تضحك . تقول وهي تمسح بحنان على شعره : إنما أنت طفل بلا حنان وتحتاج أمّا . حياتك ياحبببي أمضيتها في مناطق الجليد . بونه استوائية وساخنة . أنت كنزي وأنا كنزة . تعال . هيا ! وتأخذه إليها . تضغط فينتشر دفء الجسد الطفل : تدفأ يا عزيزي وانس الرياح الباردة .

تنموج رائحتها كعشب الغابات في يوم مشمس . رائحة طفل بعد حمام ساخن موضوع بالعنبر والصندل وورق الغار ، آسيا الأخضر . رمال شواطئ بونه المشمسة والدافئة في بلغير وخليج المرجان وشطايبى ورأس الحمرا .

بعد احتفال عيد ميلاد لأحد مدرسي المعهد عادا إلى البيت . كانت المرأة الأولى التي تجرؤ فيها على قضاء الليل معه حتى الفجر . لقد كذبت على لala فضيلة بأنها ستبث في منزل صديقتها .

خلال السهرة كانوا متباورين ، أقدامهما متماشة تحت الطاولات كذلك كتفاهما وجانبوا الوجهين . خلال جو الاحتفال شكلاً غلافاً عازلاً عن الحشد ، ضاربين عرض الحائط ، وهما يتراشقان القبل ، بالرمانة الاجتماعية . أكلا من صحن واحد وشربا العرق السوري الممزوج بالماء ، وتوشوشا بكلمات بذئبة على الآخرين الذين يراقبونهما ثم عقدا صفقة النوم معاً في بيت مهدي باختراع كذبة من آسيا التي ستنام الليلة عند صديقتها وردة .

اندمج المحفلون بالأغاني الشعبية والتصفيق والهرج الصاخب . كانت الأغاني تتناوب بين مجموعات المدرسين السوريين وال العراقيين والجزائريين واللبنانيين .

في أوج الفوضى المرحة كانت زوجة المدرس السوري منهمكة بإبراز مواهبها الخلاقية في فنون الطبخ وتقديم أنواع الأطعمة السورية بدءاً من التبولة والكبة بأنواعها حتى ملفوف ييرق العنبر والكوسا المحسني والبفتوك والسمك المشوي المحشو بصنوف بهارات سوق الهال الموصى عليها من أسواق مدينة دمشق الشعبية ، احتفاء بهذه المناسبة السعيدة .

الزوجة تبدو ضاحكة ومنشحة بثوبها الفولكلوري المقحّب بعروق الذهب وهي تختال بين المدعويين توزع الأطعمة والابتسamas ورقائق المجاملات ، بينما انهمك زوجها في شرب الأنخاب . كان يشرب ويسيكي الجوني وولكر في كأس طويلة عامرة بالثلج وهو يضحك ويهرهـ فيهـتـزـ كـرـشـهـ الـبـدـيـنـ اـهـتـزـازـ الطـبـلـ ، وتحـتـ الضـوءـ المـبـهـرـ تـلمـعـ صـلـعـتـهـ الـأـمـامـيـةـ الـتـيـ خـرـجـتـ قـبـلـ لـحـظـاتـ مـنـ حـانـوتـ الـحـلـاقـ بعدـ أـنـ صـبـعـ لـهـ ذـوـأـبـ شـعـرـهـ الـجـانـيـ وـالـخـلـفـيـةـ . كانـ مـهـديـ وـآـسـيـ يـعـلـقـانـ بـنـمـيـةـ سـرـيـةـ عـلـىـ هـذـاـ عـجـوزـ الـمـراـهـقـ وـهـوـ يـتـنـقـلـ بـيـنـ كـرـأـسـيـ النـسـاءـ ، يـنـحـنـيـ فـوـقـهـنـ رـافـعـاـ كـأـسـهـ مـتـدـفـقاـ بـأـشـعـارـ غـزـلـيـةـ لـابـنـ أـبـيـ رـبـيـعـةـ وـجـمـيـلـ وـابـنـ الـملـوـحـ وـقـيـسـ بـنـ ذـرـيـعـ ، مـضـىـ عـلـيـهـ أـكـثـرـ مـنـ أـلـفـ عـامـ لـكـنـهـ مـاـتـزـالـ طـرـيـةـ فـيـ أـعـماـقـ هـذـاـ الشـيـخـ الـعـائـدـ إـلـىـ صـبـاهـ فـيـ سـنـهـ الثـانـيـةـ وـالـخـمـسـيـنـ .

بدأ الغناء دورياً . وقبل أن يصلهما اتفقا أن تغنى آسيا حتى لايفسد صوت مهدي الغرابي جو الميلاد . وسألته ماذا ستغنى فقال أي أغنية .

يرحم ببابك لافتضحينا . شوفي عيونهم علينا مثل عيون القطط .

غنـى ذـو النـون الشـاعـر أـغـنـيـة عـراـقـيـة حـزـينـة . كان صـوتـه المـوـصـلـي يـرـعـشـ الأـعـصـابـ وـيـفـطـرـ القـلـبـ . الـعـراـقـيـونـ وـحـدـهـمـ فـهـمـواـ كـلـمـاتـ الـأـغـنـيـةـ الـعـامـيـةـ الـتـيـ فـسـرـ مـهـدـيـ بـعـضـ مـقـاطـعـهـ لـآـسـيـاـ . وـعـنـدـمـاـ أـلـحـ مـهـيـارـ عـلـىـ قـصـيـدةـ الـبـرـاءـةـ لـمـظـفـرـ النـوابـ ، قال ذـو النـونـ : خـلـوـنـاـ الـآنـ مـنـ السـيـاسـةـ . وـدـنـدـنـ بـرـجـعـ شـجـيـ مقـاطـعـ منـ الرـيـلـ وـحمدـ .

جـاءـ دـورـهـماـ . عـلـتـ الـأـصـوـاتـ : مـهـدـيـ . مـهـدـيـ . اـرـتـبـكـ تـحـتـ الـأـنـظـارـ فـلـكـزـ آـسـيـاـ . هـيـاـ ! وـقـالـ يـاجـمـاعـةـ صـوتـيـ مـنـ أـنـكـرـ الـأـصـوـاتـ . آـسـيـاـ سـتـقـدـيـنـيـ .

- آـسـيـاـ . آـسـيـاـ . وـرـدـةـ بـيـضاـ بـالـعـلـالـيـ .

مـنـ وـجـنـتـيـهاـ كـانـ الدـمـ يـنـفـرـ . وـشـوـشـتـ : مـاـذـاـ . قـلـ لـيـ . هـيـاـ !  
- الـلـيـ تـحـبـيـهـ غـنـيـهـ .

- مـاـنـحـبـشـ وـرـدـةـ بـيـضاـ وـلـاـ الـغـنـاءـ الـجـزـائـريـ .

- طـيـبـ . غـنـيـ لـفـيـروـزـ .

- تـغـنـيـ مـعـاـيـاـ !

انطلقت خجلة : «بيكـيـ ويـضـحـكـ لـاحـزـنـاـ وـلـاـ فـرـحاـ كـعاـشـقـ خـطـ سـطـراـ فيـ الـهـواـ وـمـحـاـ». كان يـدـنـدـنـ معـهـاـ بـخـفـوتـ . بـعـدـ دـقـائقـ كـسـرـتـ الـأـرـتـبـاكـ وـالـلـجـلـجـةـ ثـمـ انـطلـقـتـ كـقصـبـ تـمـاـوـجـهـ الـرـيـحـ فيـ لـيلـ رـخـيـ منـ مـسـاءـاتـ الصـيفـ .

بـاغـتـتـهـمـ الـمـفـاجـأـةـ فـصـفـقـواـ وـصـرـخـواـ . اـنـدـفـعـ صـاحـبـ الـدـعـوـةـ نـحـوـهـاـ رـافـعـاـ ذـرـاعـيـهـ وـقـبـلـهـاـ عـلـىـ خـدـيـهاـ : لـلـهـ دـرـكـ . إـذـاـ وـلـدـتـ النـسـاءـ فـلـيـلـدـنـ مـثـلـكـ . يـرـحـمـ أـبـوـكـ وـجـدـكـ وـالـبـطـنـ اللـيـ حـمـلـكـ . يـاعـمـيـ كـاسـ آـسـيـاـ وـمـهـدـيـ أـحـلـىـ قـيـسـ وـلـلـيـلـىـ فـيـ رـبـوـعـ بـوـنـهـ . قـالـ ذـلـكـ باـحـتـفـالـيـةـ باـهـظـةـ بـدـتـ طـبـيعـةـ فـيـ غـمـرـةـ الـخـمـرـةـ وـالـحـفـلـ الـذـيـ اـبـتـدـأـ رـقـصـهـ .

كان مـهـدـيـ جـوـادـ سـعـيـدـاـ كـمـاـ لـمـ يـكـنـ أـبـداـ ، وـإـذـ طـوـقـهـاـ بـعـدـ الـغـنـاءـ أـحـسـ بـغـمـرـةـ عـارـمـةـ تـحـمـلـهـ وـآـسـيـاـ دـاـخـلـ سـجـفـ بـيـضاـ بـعـيـدـاـ عنـ الـحـزـنـ وـالـمـرـارـاتـ الـتـيـ اـنـكـسـرـتـ الـآنـ .

الـلـيـلـةـ لـيـكـ فـرـحـنـاـ عـمـيقـاـ . وـسـوـسـ لـهـاـ وـهـوـ يـتـنـاـوـلـ ذـرـاعـهـاـ إـلـىـ حـلـقـةـ الرـقـصـ .

رقص مع آسيا ثم مع فتيات ونساء السهرة ومع زوجة الزميل المحتقى بميلاده ، ثم وحيداً مع جسده وأرض الغرفة ، محمولاً طي تموجات كانت تتخطفه قاذفة به خارج جانبية الجسد . كان على أبواب الثمل ، مغبظاً بوجود آسيا الليلي معه . نجمان هو وهي في هذا الاحتفال الصاخب . رقصت آسيا مع المدرس العجوز حتى داخ وتهارى وهو يصرخ آي . آي . ألا ليت الشباب يعود يوماً .

كانت أشواق الغبطة المختزنة تندفع من حجيراتها السرية على شكل إيقاعات شفافة تارة وجموحة تارة ، وشعر مهدي جواد أنه يدخل الآن أبووار الطيران خارجاً من أبووار زمن الرقود .

بدأ زمن الطفولة والراهقة يستعاد الآن بعد أن اختزن طويلاً وئسي داخل حجرات الشقاء . مهيار الباهلي الرصين يراقب عن مقعده طيران مهدي وصراخ أفراده بابتسمة طفل لا يعرف الرقص ولا الطيران . السر الآسيوي هو الذي فتح الممرات المغلقة ورمى بأحزان القلب المنقبض إلى النهايات القصيّة من القطب الآخر . يقول مهيار في نفسه . وإذا لا يستطيع الكبت ، وهو يشرب النبيذ الأحمر المتدقق من عينيه ، يصرخ بآسيا أن ترقص مع مهدي رقصة الجيرك .

وكانوا جميعاً منتثرين تحت وهج الاحتفال . وجوه تشع بالخمر ، وأجساد مطلقة كجياد في حقول ، وجباره تنضح بعرق الجيshan الكامل لكل مسام الجسد . غير أن الوهج كان يبدو أكثر نصاعة وانسقاً ولمعاناً في وجه وجسد آسيا البهبي ، وقد تخطت طورها الخجل والمرتبك ، طائرة نحو فضاء الجنون الطفولي الخصب . كانت الآن في الزمان الطلق والبهاء العاشق وهي ترسم بارتعاشات ذراعيها المرفرفتين كفراشة ، أشكالاً سريالية لفرحها داخل اتساق مفعم بالرغبة تطلقه ساقها وإلتواءات جذعها الصلب الممتلىء بالصبا والشهوات . بدت كالمطر الهابط إلى مسام الأرض وهي تتفتح بأنهارها وعشبها في غمرة هبوب عاصفة مكتسحة تنقي الدم من أوجاعه وجراحيه وغازات الأوكسيد وفساد الأزمنة والأماكن العطنة .

تعب الراقصون فانسحبوا إلى مقاعدتهم . غنت آسيا حبيتك وسع الغابات فصفقوا وصاحوا ، وانتشى مهيار فغنى معها وواصل مهدي طيرانه خارقاً خوفه والحزن القديم وهو يتقدم باتجاه المرأة الصبوحة كصباحات أصياف بونه .

## - 2 -

سوف لن يستوعب فيما بعد لماذا حدث ذلك الشيء اللعين في السرير في أعقاب سهرة الميلاد الجميلة . لكنه سيكتب في اليوميات شيئاً عن تلك النذالة اللعينة التي تطارده أبداً خارجة كالدود أو العلق من أعماق وحل المستنقعات لتلتتصق به معكراً صفاء دمه . لقد سماها مهيار الباهلي شهوة الموت المنبثقة في الدم احتجاجاً على الفساد الخارجي ، ووصفها مهدي جواد بأنها حالة الهجران والأراضي الهاوية .

الأشياء وهذه المرأة ثم الأفكار والأحساس والصور ، تتمواج تحت استواءات وتعرجات متداخلة ومربكة . يتحول السقف تحت رقصات ضوء الشمعة إلى شاشة . هناك كان يصطحب العالم : المرأة الحسية مع الجيوكندا . المدينة الصلبة والخضراء والمتمورة بالحركة والحياة والنبض الضاحك ، مع الصحراء المهجورة . حفلة الرقص والغناء والصخب تتدخل مع مهرجانات القتل والتعذيب . البحر والسماء والحقول والأطياف التي رأها في أصائل التلال ورمال الشاطئ تتغطى فجأة بركام من الجثث والروائح الكريهة والكلاب والدود ومستحاثات الدهور المنقرضة .

يرحل البهاء الطلاق والزمان العاشق والأماكن المعشوشبة ، ليتقدم هذا العكر اللعين الجاثي في الدماء في الوقت المتأخر من الليل بعد أن يهدى فرح الجسد .

وما كان أيٌ منها قادراً على إنقاذ الآخر في لحظة ذلك الفيضان اللعين . كل منها كان يبدو بأنه مقيد بالسلسل وبهذا الإرث الرئامي وانعكاسات الشمس ورائحة الأرض التي قذفها فوقها مصادفة أو خطأ . وكانت صرخة : إلى الجحيم كل هذا . أنت مستقبلي وإلهي الذي أعتنق . تحتاج إلى تحطيم قاسي لا يرحم لكل الأنصاب السماوية والأرضية .

وفي ذلك الزمن كانت الحياة تسير تحت مظلة واقية من التواطؤ والريبة في أعماق اثنين يتوهمان أنهما واحد . تواطؤ وريبة الزمن المؤقت والمقاييس .

عندما سيتحدث عن ذلك التبدد الخلوي والهجران ستقول له : آه . يا عزيزي كم أنت مسكون بالموت والخرائب ! وإذا يقول لها بأنها ليست أكثر من ضبابية في يوم غائم ، تصرخ وهما عاريان على أبواب الصباح : ياربي ما هذا ! انظر . امسكتني جيداً . ألا تحس بي وأنا أخفق بين

ذراعيك !

وهو يداعب براعم نهديها ؛ وهم . وهم !

تضغط جسده : أينبغي أن أخرج لك قلبي الذي ينبع بك لتوقن !  
- عنيت شيئاً آخر . أنت غير حقيقة . لست صلبة هنا . وأشار إلى  
صدره . لماذا لا أشعر بالامتلاء بك ؟ في أعماقى فراغات تملؤها أشواق  
غامضة . إنني أحبك ولكنك مسروقة مني وهاربة . أرغبك جزءاً من دمي .  
أن أظل ممتئلاً بك لأنسح بالأمن والطمأنينة . أنا رجل وحيد ومعزول من  
الآخرين وأبحث عن جدار . لا أحد ، لا أحد في هذه الصحراء الملعونة  
والقاسية . فهمت ما أعني ؟

تبكي المرأة بانتحاب مرير . تغمره : معاً . معاً . حتى الموت .  
كان الآن تحت سطوة هذيناته وشياطينه التي تمطّت في الفجر ،  
وكانت آسيا لخضر تحت سطوة شقاءاتها ، فريسة حالات رجل أخرق  
وينحدر من قمم أفراحه الجميلة بعنته إلى الوديان المظلمة .

\* \* \*

وفي يونه الأفريقيه الصغيرة كانوا يواجهون الكآبة والملل وصدمة  
الأيام الرتيبة . الرجال والنساء الذين يصطدمون فيرقصون ويغدون في  
المناسبات السعيدة ، وفي الليالي يمارسون الجنس بنشوة الثأر التي  
تطالقها وحشية الجسد إذ يزدهر ازدهار الشجر في مطلع الربيع وتحت  
بهاء البحر في الأصياف الحارة . ومع أنهم كانوا يضاجعون بعنف  
القتل ، ويسربون الخمر بنهم الحيوانات العطشى ، ويقتلون دونما شفقة ،  
إلا أنهم كانوا أبداً مبهجين وسعداء بهذا السطع الحاد للشمس وبهذا  
المهرجان الأبدي للجسد الدفّاق المضاد للموت .

وفي الخمارات والمقاهي ومكاتب العمل والساحات ، كانت الأيام  
تمضي ماضي شروق الشمس وغرروبها ، في الترثرة عن الواقع اليومية  
والاستفادة والنميمة والأمجاد الدونكيسوتية التي يفتحون بها العالم  
وهماً .

في هذه المدينة كانت آسيا لخضر تحلم ببلاد أكثر اتساعاً . عالم  
لاتتكرر أيامه بين المدرسة والبيت وساحة المدينة وغرفة مهدي جواد .  
عالم يزيد عدد سكانه عن مئة ألف بشرى لا يكررون زمانهم في كل  
الفصول بين المقاهي والسينما والتسلّع والبحر والنوم باكراً بعد إغلاق

التلفزيون .

هكذا من خلال الحلم بحياة رحابة الفضاء أمسك الخيال الطفولي بالطائر الغريب الذي سيغادر بونه يوماً ليحملها معه إلى البلاد السعيدة النائية .

كان تعبير الاصطدام العفوبي ، المفاجئ ، صائباً إلى حد ما في علاقتها .

وبعيداً قليلاً عن الاتساق الجنسي ، كان يبدو عليهما ، من خلال العطب الداخلي ، أنهما غريبان عن عالم بونه الراسي في مرافق السكينة والاسترخاء والماضي .

كانت اللقاءات مشحونة بالأشواق ، والخدائج الجميلة ، والعزاءات ، والحكايات اليومية ، والضحك . ومع أن الجنس كان حاراً ومحظوظاً وشفافاً كالبحر في الأصياف ، إلا أن الاعتكارات الداخلية للعواصف كانت ترمي قشرة التواطؤ ، لتنفجر الجراثيم على سطح الجلد .

العائلة ، هذا الميراث الرحمي المدرع بمشيمة الأم ، كانت تقف بينهما كسد . وبدا جلياً من خلال علاقة آسيا بأمها أنها على استعداد للتضحية ولو بحياتها ، لإسعاد لا لا فضيلة التي تحطم مرتين : المرة الأولى بموت زوجها . والثانية بزواجهما من يزيد ولد الحاج .

ولم يكن لدى مهدي جواد من اعتراض سوى استحالة الجمع بينه وبين يزيد ولد الحاج ، الإله المتوج والشرعى في أسرة سي العربي .

هكذا على نحو أكثر انتباتاً وألماً ، كان تأصيل العلاقة مع آسيا يبدو كأنه يستدعي نوعاً من القطع الرحمي مع حبل المشيمة النابض . ولعل تفكير مهدي ، في حالة تأسيس حياة جذرية مع آسيا ، كان يتجلّى على النحو التالي : أن يرتضى كل منهما التضحية بميراثه الدموي القديم والدخول في الآخر بشكل متفرد ومفارق للماضي .

يوم اشتبكا معاً حول ذلك ، دهشت آسيا . لقد فهمت من عبارته : إذا كانا سبني على الصخر بيتاً لا يتزعزع فلا بد أن نرمي الأهل في البحر ، كأنما العبارة موجهة ضد أسرتها .

وبذعر سألته إن كان يكره أسرتها ولا لا فضيلة ، فأوضح بأن لا لا فضيلة هي أعظم أم شاهدها . وسألته لماذا يريدها أن تكون ضد الأسرة إذن ! فقال : يبدو أنك لم تفهمي قصدي .

وفي تلك الليلة تحدث عن تحطيم الأوثان التي أقامها الآباء

والأجداد ، وضرورة الانفصال عن الدين والله ، والأخلاق والتقاليد ، والأذمنة الموحنة ، والجنة والجحيم الخرافيين ، وطاعة أولي الأمر والوالدين ، والزواج المبارك بالشرع ، وسائل الأكاذيب والطقوس التي رسمتها دهور الكذب .

وإذ قالت باستغراب فزع : لكنهم أهلي ! حليب ماما ماتزال آثاره في فمي ، ودمها يسري في عروقي . كان بمقدوره أن يقول بأن هذا كان فيما مضى . أما الآن فانظري إلى دمائنا كيف تمتزج . إننا نتدوق طعمًا آخر للحليب .

لكن المسألة في ذلك الربيع كانت تبدو أبعد من ذلك . كانت متصلة على نحو ما بالحزن العميق المدفون في زمن الضحك والشهوة والاستهتار بالمستقبل والأجيال الجديدة . وفي الوقت الذي كان يرمي إليه نحو مرامي أخرى ربما ، كانت هي ته jes بشهوة الامتلاك ورغبة الرجل في السيطرة على المرأة .

وهما معاً على مائدة الطعام يأكلان الستيك والبطاطا المقلية ويشربان النبيذ الأحمر ، يحاول أن يشرح لها أفكاره حول العلاقة الصحية بين الرجل والمرأة . العلاقة التي تتجاوز اليومي والتجاري والجنسي إلى الحزن والفرح الكامنين في الخلايا : إذا استطاع رجل وامرأة أن يتعرضاً بعد انقضاء رعشة الجنس فلن يفترقا أبداً .

- لماذا ؟

- الخيبة والحزن والمرارة تتعانق في تلك اللحظة . آنذاك يكتشفان تحت العراء الموحش من هما حقاً . وفي ذلك الوقت الحزين يكونان معاً أو لا يكونان .

فيما بعد عندما سيلتقي مهدي جواد بفلة بو عنّاب ويتحدثان عن هذه النقطة الحرجة ستضحك العتابية من هذه الأفكار المثالية والرومانسية . تعترض على هذه الأوهام فتسմيها هازئة بأحلام المراهقين المأخذين بعصور قيس وليلي وعشق الروح .

- رومانتيك . رومانتيك عربي ياخويا مهدي . تقول وهي تقهره .  
- وأنت يافللة ؟

تجيب وهي تعبر ساحة مجونها وحريتها التي اغتصبتها بتدمير الجسد : تفريغ ياعزيزي . كلنا متعب وينشد تفريغ هذا التعب .  
- وماذا بعد ؟

- ماذَا بعْد؟ اوه . اوه . الدُّورَةُ الْحِيْضُورِيَّةُ وَالْطَّمْثُ . بعدهما تتجدد الشهوة . هذا هو الما بعد !

ثم تستطرد : آسفة لهذه الفظاظة التي تجرح رقة الشعر .  
كَدِيبٌ ينخر امتعاضاً : لا . دعيعك من هذه التأسفات . أنا لست أخلاقياً لكنني أود أن أسألك إن كنت موقنة بما تفعلين حقاً !  
- موقنة ! لم أفهم .

- عنيت السلام الروحي بعد صرخة الجسد .

عندما ستأخذ رشفة من كأسها ثم تضعه بهدوء ، تنفس الهواء عميقاً على شكل دوامات لامزئية . يسمعها وهو متكمء بکوعه على البساط الأرجواني وهي تتحدث عن التعب ولقمة العيش والمهانات وكيف يتصرف الرجال من أبناء القحبة والخنازير في هذه المدينة بعد أن يأكلوا قلب المرأة ثم يرمونها إلى المزبلة كفقرة موز : أنا أعرفهم . من مسافات بعيدة يشمون الرائحة فيركضون نحوها . بعد أن غادروا تجاويف الجبال اتجهوا إلى تجاويف النساء . هؤلاء لا ألجأ إليهم إلا بعد خيبتي بالرجل المستأجر . أما إذا كان شهماً فهو سيكتفي مغبة البحث عن أولئك التنتين ذوي الروائح المرحاضية .

وهي تتدفق بمراراتها ، تبرز من وجهها وعنقها وأصابع يديها خطوط الزمن الغادر الزرقاء . هكذا على نحو ميلودرامي متنسق مع تكوينها العضوي والروحي ، تصرخ الشخصي بالعام مسللة على مرايا الحياة ستارات من السواد تشبه ستائر العتبات المقدسة المدللة على واجهات وأعمدة منازل كربلاء والنجف والковفة في الأيام التي تسقى ليالي عاشوراء الحزينة .

ولأنه لم يكن يستطيع أن يفعل شيئاً هاماً لها أو لنفسه في ذلك الزمن ، كانت تتراءى له وحدتها الداخلية متماثلة إلى حد بعيد مع عزلته التي لا شفاء منها .

وهو يرى عروقها الزرقاء نافرة تحت ضربات الزمن المنهك ، يصطفع التعاطف معها بزفرة تخرج سداً من بخار خيباته شبيه حسان أتعبه الركض ليحوز قصب السبق فإذا به في مؤخرة الجبار .

آنذاك ، مخاتلة ، وليخرج من حصارات الضنى الذي توحى به العناية كان يحاول إدارة دفة الأحاديث نحو بحار أخرى لاصلة لها بهذه الهدىيات الخرقاء .

بيد أن تلك المرأة التي يبدو أنها طعنت بقصوة في أكثر مراكزها حساسية ، فقدت أي أمل في استعادة زمانها المفقود ، كانت تدور كالمسوسة في مجالات طيفها وأشباهها ، كأنها تنشد مرثية لأحد شعراء غرناطة يرثي بها مجد الزمن الغابر بعد سقوط الأندلس .

ورغم أن الأمر لم يكن هكذا في الثبات التاريخي وحركة الزمن ، إلا أن أعماق فلة بو عنّاب كانت تخزل التاريخ في محرق شخصها وتجربتها الذاتية وهاوية حلمها الجليل بعد أن تلؤث وانعطب .

سيتذكر وهو يخرج من منزلها عابراً الأرصفة والمتاجر والمcafés والبيوت تحت أشجار الدردار الرطبة أن ذلك الأصيل كان مُكرباً للنفس لشدة اختلاطاته من تداخل الحب الروحي مع الجنس مع الوضع السياسي المزري من كل جوانبه ، بدءاً من وحشية الجنرالات وهمود الشعب ، وانتهاء بتخاذل القيادات الثورية وقطاراتها المتأنّرة على سكة الخط اللارأسالي المخرّبة .

نشيد الموت



في أعقاب الانشقاق الذي أعلنه عزيز الحاج في منتصف أيلول تحت اسم القيادة المركزية ، وزع تيار الكادر وثيقة طبعت على الرونيو تشجب الانشقاق وتدعى إلى الوحدة المبدئية للحزب .

في بغداد عقدت قيادة الكادر اللبناني اجتماعاً لتقدير الوضع العام بعد الانشقاق وبعد الاختلاف مع تيار وحدة اليسار ، والانسحاب من قاعدة أمين خيون في أهوار الجبايش ، وفي نهاية الاجتماع يقرر إقامة قاعدة جديدة في هور العمارنة في منطقة أبو غريب العصبية والموحسنة والمغطاة بكثافة أدغال البردي .

سيتحرك مهيار مع أبو صبري فيما بعد لاكتشاف المنطقة ومعهما ثلاثة عناصر ، أحدهما كان فاراً بعد فشل انتفاضة العرفاء في بغداد ولاجئاً إلى الهور ، أما الآخران فعاملان زراعيان من أبناء العمارة . وعلى مدى شهر من التحضير والاستطلاع سيؤجل استدعاء المتطوعين الذين سيلتحقون بالقاعدة المجهزة والمسلحة تسليحاً أولياً ببندقية روسية ورشاش دكتريوف ورشاش ستيرلنغ ومسدس براوننج 9/1 ملم وبندقية صيد وزورق مشحوف .

معظم النصف الأول من شهر نيسان سيستغرقه مهيار وأبو صبري وبارود في عمليات الاستطلاع بعد بناء الكوخ القصبي فوق تلال هورة أبو غريب ، وتجهيز القاعدة الجديدة بالمواد الأولية والطعام وتحاشي سلبيات القاعدة الأولى التي دمرتها انفجارات أمين خيون وصرخات روحه المفاجئة التي تستوهم إعادة الحزب إلى قيادة سفينة التاريخ بحرائق تتشعل البلاد من شمالها إلى جنوبها في غمضة عين .

وعلى ماسيدو فيما بعد ، من خلال تلك المغامرة الفريدة في لحظة الشتات والفوضى الشبيهة بقفزة في فراغ من علو شاهق ، ستظهر المسافة بين مهيار الباهلي وأمين خيون ، قصيرة ، لا في التحضير والتجذير الذي سماه الباهلي الصخرة الصلبة وكسب الشعب ، إنما في هذه الروح المندفعه حتى نهاياتها لفعل شيء خارق لا يمكن فعله إلا بالموت الاحتفالي . وهكذا سينطلقون في ليلة غريبة إلى الشرق في تجذيف متواصل على مدى عشر ساعات لاستطلاع منطقة الأبيض تحت الريح الباردة وبين غابات من القصب الطويل الذي يصل ارتفاعه أحياناً إلى عشرين متراً .

كان تقدم الدورية محفوفاً بمخاطر لا حدود لها في هذا العالم الغامض والبكر ، تبدأ من احتمال انقلاب الزورق إلى مهاجمتهم من الخنازير البرية أو المهربيين .

وعندما سيخلفون غياض البردي ويواجهون قامات القصب الغليظة التي تبدو لهم كجدار من الثلج يسد الأفق سيسأله الباهلي وهو بين اليقطة والحلم أين نحن وماهذا ؟ ويقول أبو صبري وراء القصب يمتد عالم الأبيض . ثم يتحدث عن ذلك الانفساح المائي الملئ بطيور البط والكراسي وتلال اليشن الرائدة من عصور السومريين .

- ولكن كيف يخترق كثافة هذا القصب اللعين ؟ يسأل مهيار .

- نقطع القصب بالخناجر ونخترقه . ويمتشق أبو صبري سكينه .

بعد عشرين عاماً ، وفي شوارع وأمسيات المدن التي ستطوي مهيار الباهلي بحثاً عن بؤرة حياته الضائعة وثورته التي يحلم بها ، سيتذكر تلك الصورة السحرية الغريبة للمدى الأبيض الذي فاجأه كالحلم وهو يجتاز جدار الثلج .

انفساح ناصع أبعد من مدى البصر ، مزروع بالقرم اليابسة وتلال القصب الملتممة أكواخاً متباشرة تخششها الرياح وأصوات البط واللقالق وهي تهم بالنهوض عن سطح الماء ثم تطير وئيدة كالسحب فوق هذا البحر الجاثي كإله سومري قديم ، لم يعكر عزلته بشري منذ ملايين السنين .

إنهم يتقدمون ببطء وفزع بينما مهيار يحاول استيعاب المشهد الذي وقع فيه كما يقع طفل من طائرة فوق سطح بحر ، فلا يعرف أين هو ولا

كيف يخرج منه . كان مسحوراً بالمدى الذي لا يحد . المدى الذي يتسع أبداً كلما تقدم الزورق تحت هذا الضحي المحجوبة شمسه بالقصب الناهض قفامات العفاريت والجن في أساطير ألف ليلة وليلة .

بعد أن يقطعوا أقل من ثلاثة أميال في هذا التيه الأسطوري يلاحظ أبو صبرى شباك صيد غطتها الطحالب والأشنیات المائية فيحاولون رفعها لكنها ماتثبت أن تتفتت في أيديهم .

يقول أبو صبرى بأنها شباك نقلتها الريح من أماكنها فضاعت عن الصيادين منذ شهر تقريباً .

قبل أن يهبط الليل تداهم بارود صرخة جوع : لابد أن نصيد شيئاً لنأكله مع الخبز الحاف ، وهو يحشو بندقية الصيد بخرطوشين يقول أبو صبرى : بارود ، اكمئ بالمشحوف في غيبة قصب .

كان المغيب يسجو على حقل المياه بألوان ممزوجة بالزعفران وأخضرار القصب وبنفسج الأعماق تحت ظلال متجمدة رسمتها يد إله طفل عبث عرضأً بهذا الغمر الشاحب ، الملفع بالجلال المهيب .

على خط الغسق عبرت أسراب طيور وهي تزقو . لكرز مهيار أبو صبرى ليطلق عليها فقال بأنها بعيدة وستذهب الطلقات على الفراغ . وكصياد خبر الأهوار وأسرار طيورها على مدى عشرين عاماً راح يصدر أصواتاً غريبة مقلداً زقو البط البري .

قال مهيار بأن هذه المنطقة ستكون مقراتنا الخلفية للأسرى والعتاد والتموين والذخيرة الاحتياطية .

وقال بارود : العودة مستحيلة . ستنام هنا .

- بلـى . سنقطع أوراق القصب وننام عليها .

في تلك اللحظة دوت طلقات أبو صبرى الذي كان يراقب الفضاء بعينيه الثاقبتين وسمعه المرهف . وضع البندقية على حافة الزورق وبحركة سريعة تعرى من ثيابه ثم انشبح في الماء : أعتقد أنها إوزة . جهزوا النار لعشاء دسم .

وراقيبوه وهو يضرب المياه بقوة فتى لم يكن الآن فوق الأربعين . كان يندفع بمهارة شاقة الماء بنشوة الصياد المقاتل الذي هيأ لرفاقه وجبة لذيدة بعد نهار شاق .

وبالمدى الحربية بدأ مهيار وبارود يقطعان الأوراق وجذوع القصب ويراكمنها في قاع الزورق . وسؤال بارود : هل سمعت شيئاً يقع بعد الطلقات ؟ فقال مهيار : كنا في شؤون السماء والبط . لم أنتبه إلا على صوت النار .

- أبو صبرى مخبئ . ها ي الوقت وقت وزَ

- لكنه ابن الليل . صدقني وأنا معهأشعر كأنى معى كتبية . تصور رجلاً ينام النهار ويُسهر الليل حتى الفجر !  
- آنى أحکي عن الرمي والهدف .

- الليل علمه الرمي على مصدر الصوت والحركة . وروى مهيار لبارود خلال جولاتهما الليلية إبان وجوده في بيت أبو صبرى ، كيف خرجا ذات مساء وأوغلا بعيداً عن البيت . كانا يتمرنان على السير الليلي واكتشاف المناطق النائية ، يمران على قرى الفلاحين فيسهران حتى مابعد منتصف الليل ، ثم يعودان مسافة عشرة أميال مشياً . لم تكن بندقية أبو صبرى لتفارقه لا لأنَّه يزهو بها إنما لأنَّه كان يتوجس الغدر أبداً في هذه البقاع الخارجة عن القانون : في تلك الليلة وأنا أتسامر معه في بقعة مهجورة أمسك فجأة بكتفي وشدّني لألتحم بالأرض وراء ثلاثة يشن ثم سدَّ بندقيته ورمى . حدث ذلك كالحلم . استيقظت وأنا أسمعه يصرخ : وقع . انقتل . واندفعنا إلى الأمام . وراء أجمة قصب كان هناك خنزير بري بحجم الثور يسخر وهو ينづف . لقد أجهز عليه بطقة ثانية بين عينيه .  
كان أبو صبرى يرتد من البرد وهو يمسك بحافة الزورق وقد تدلَّت بين أسنانه بجعة مبللة . رماها في أرض المشحوف وهو يصطك : النار . النار . عَجَلُوا وإلا مَتْ . وداخل الزورق لفَه مهيار ببطانية عسكرية لكنه استمر في ارتعاشاته وهو يشم هذا الأبيض المنحدر من جليد القطب الشمالي .

- كل هذا الشقاء والبرد من أجل بجعة !  
سخر بارود : الجنائز كبيرة والميت كلب .

زمر أبو صبرى : عيني . حظكم خرا . قدوا النار يمودين ويكتفى  
مسخرة . هيا يأكلوا . هيا !

ماحدث خلال عودة الدورية سيبدد فرح اكتشاف المدار الأبيض الذي سيدعوه مهيار مدار الثلج أو القارة السادسة . فيعد ليلة عاصفة من

هطول الصقيع وغثيانات الطعم الكريه لطائر البجع الأعجف ستباغتهم بين  
أدغال القصب طلقات نارية وأصوات تصرخ بهم : سلموا أنفسكم إليها  
اللصوص . أنتم تحت مرمى النار .

تحت أول فجر سيباغتون وهم مطوقون والبنادق فوق رؤوسهم ،  
ثم يقتادهم ثلاثة أنفار ملثمين يتهمونهم بسرقة شباك الصيد ، ليرموا في  
حظيرة من حظائر الجاموس ويغلق عليهم حتى المساء .

في جلسة الاستنطاق والمحاكمة التي عقدت في تلك الليلة ، كان  
الباهلي مبللاً من هذه الورطة اللعينة . المصادفة غير المنتظرة التي  
اعترضتهم وهم مازالوا في بداية الطريق ، غير أنه وهو يرى أبو صبرى  
صامتاً في البدء كالجدار ، لامباليأ ، شعر بحالة غريبة من الهدوء أوحت  
بها هيئة الرجل المجرَّب الجالس قربه يدخن .

بصمت لم يلبث أن قطعه بطلب الشاي كوصيةأخيرة للذين سيساقون  
إلى الإعدام : نبغي شاي يمعودين قبل مواجهة سيدنا عزرائيل . كان يهزل  
وهو يحاور الرجال الجالسين للمحاكمة . وكان هؤلاء يتوقعون من خلال  
ضيق أفقهم وغرابة عالمهم ، أنهم وقعوا على كنز من الأسلحة والأموال  
يخبئها هؤلاء الغرباء في مكان ما من هذا الغاب المائي .

عندما دخلت امرأة صاحب البيت بالشاي وقدمنه للأشقياء  
الموقوفين ، تفرست مليأً في وجه أبو صبرى الأسمر الملتحى .  
وضعت قدح الشاي على الحصير أمامه . ثم فجأة علا صوتها :  
وصلة محمد على رأسك ألسنك موسى عطية زوج الدوبية ؟

بوغت أبو صبرى كمن يدفق على رأسه سطل ماء بارد من أعلى  
سطح : بلى . شنو القضية يااختي ؟

ـ أنا أعرف زوجتك في قريتنا الدوب . كيف حالها ؟

ـ أعطتك عمرها . قالها باكتئاب مفتuel .

ـ الله يرحمها كم كانت طيبة . عندك أولاد منها ؟

ـ بلى . صبرى . مات هو الآخر . ذكرتني اقفلني هذه السيرة يرحم  
والديك قبل أن يداهمني البكاء .

كان الحوار بينهما يجري حول ذكريات وتفاصيل محاجها الزمن  
والذاكرة بينما الآخرون مدھوشون من هذه المفاجأة السريالية التي

حولت سيناريو جلسة المحاكمة إلى حفلة تعارف تذكارية بين زوجة صاحب البيت الذي طار كنزه ، وموسى عطية الأرمل ، الحزين ، والموشك تمثيلاً على البكاء .

وعندما سيسأله زوج المرأة المفجوع بتعدد كنوز الأسلحة والأموال زوجته من يكون هؤلاء ، سترغبه بموسى عطية رجل صديقتها وجارتها الطيبة والكريمة قبل أن تتزوج وترحل عن القرية قبل اثنى عشر عاماً .

هذه المرأة التي يتذكرها الآن أبو صبرى كالطيف خلال زيارته لقرية زوجته ، من خلال لسانها السليم والوشم الأزرق في أعلى جبهتها ، سيكون لها الفضل في إنقاذه ورفيقيه ، كما ستتوّج ذكرى ودادها لأم صبرى بإعداد وجبة ديك رومي مع الرز سيلتهموها في أعقاب وجبة البعثة الحامضة في المساء الفائت .

\* \* \*

قبل أن يصل خالد أحمد زكي مع عناصر جديدة إلى مركز القاعدة ، كانت قيادة الكادر المتقدم قد قررت في اجتماع موسع ، الانضمام إلى القيادة المركزية التي يقودها عزيز الحاج تحت شرطين : تصفية خط آب والاعتراف بجبهة الكفاح الشعبي المسلّح بقيادة خالد زكي وحسين ياسين ومظفر النواب . ومع قدوم خالد وحسين في منتصف نيسان ، حاملين بعض الأسلحة والأموال ، اتّخذ قرار بالانتقال من هور العمارنة إلى أهوار الناصرية في إقليم العوينة ، خروجاً من العزلة التي عاشتها القاعدة في تلك المناطق النائية والمعزولة عن الفلاحين ، كما تقرر أن تبقى قاعدة العمارة موقعاً احتياطياً في حالة الانسحاب والتبدل التمويحي .

مع وصول القيادة الجديدة والمتقطعين وبعض الأسلحة ، ارتفعت المعنيّات وبدأ الانتقال إلى القاعدة الجديدة بحماسة لامثيل لها . ومن الشطّانية للعروينة حملت الأسلحة والعتاد والمشحوف بالشاحنات . عند الظهر وصلوا الدوّاية في قضاء الشطّرة ، ومن الدوّاية بدأ التجذيف على مدى ست ساعات حتى وصلوا العوينة وناموا ليلتهم في بيت مسؤول محلية الحزب .

كانت القاعدة أكثر أماناً في هذه البقعة ذات التاريخ الحزبي القديم والذي يعود عهده إلى زمن المؤسس الشهيد فهد الذي اغتاله الحكم

الملكي من خلال محاكمة عسكرية صورية أشبه بالمهزلة حولها ذلك العامل الثوري مع رفيقيه زكي بسيم وابراهيم ناجي إلى احتفال شيوعي سيظل يدوي إلى الأبد في أعماق الثوريين وهم يصعدون نحو حبال المشنقة هاتفين بصوت فهد الأقوى من الإعدام : الشيوعية أقوى من الموت وأعلى من المشانق . لو تيسّر لي أن أولد من جديد لما اخترت غير هذه الطريق . لي الشرف أن أشنق في هذا المكان الذي تنطلق منه مظاهرات أبناء الشعب .

\* \* \*

سيقول خالد أحمد زكي المسؤول السياسي عن قيادة القاعدة والذي سيتخذ منذ الآن اسمه الحركي «ظافر» ، للرفاق ، بأن التناقضات في الحزب لم تحسن بعد ، لكن الأوضاع اللحظة أفضل ، علينا أن نضغط من هنا ليولد الحزب بقوة البنادق بعيداً عن انتهازية المدن . وفي المساءات سيتحدث بتوجهات نبوية عن الشوارط الصغيرة التي تضرم الغابة . الاضرابات . العصيانات . انفراط الشمال الكردي . العراق من شماله إلى جنوبه لابد أن تضاء النيران في سماواته المظلمة .

وفي تلك المساءات كان الحديث يجري حول مسأليتين أساسيتين : تجذير العلاقة مع الفلاحين وتأمين السلاح والذخيرة . كان أبو صبرى وهو منهمك في تدعيم أساسات الكوخ القصبي ، يدرّب المجموعة على كيفية قطع القصب ونقلها بالمشحوف ثم ربطها على شكل حزم متراصة تؤمن للبيت الثوري غائلاً المياه والصفيع والريح الباردة .

وعلى المدى الطويل الذي مضى في بناء هذه الأكواخ منذ القاعدة الأولى ، صار الرجل محترفاً في هذه الصنعة . ففي أوقات الراحة كان يفصح لمهيار الباهلي بأنه نسي التصوير الشمسي في شوارع البصرة ، وإذا ما ظل حياً فسيزأول مهنة بناء البيوت العائمة في الأهوار : مهنة بسيطة أخوياً مهيار . منجل حادٍ وكومة حبال ومهارة يدوية . هكذا نأمن لعنة الفقر التي تطاردنا من بداية الدهر .

كان الباهلي يضحك من سذاجة هذا الرجل الذي نسي في غمرة العمل المؤقت ، إن ما يقوم به ليس سوى محطة بين حياة الفقر ومخاطرة الموت . وعندما سينذكره بأن أموراً أكثر خطورة من بناء الأكواخ القصبية ستبدأ في الأيام القادمة ، سيسأله أبو صبرى عما إذا كانوالن ينتقلوا مرة

أخرى ليقيموا قواعد جديدة في أماكن أخرى أكثر أماناً .

في أعماقه كان الرجل قلقاً ومفتاطراً من هذه الهجرات الشبيهة بهجرات الغجر في شهور ما قبل الحرب . فالقواعد تقام والأكواخ تُبني والتدريب متواصل ، لكن القتال مؤجل .

وهكذا عندما يحاول الاقصاح عن شعوره ، منتقداً غبار المماحكات السياسية ، يوشوش لمهيار على انفراد : أخي مهيار . اسمع . أنا رجل بسيط غير متعلم لا أفقه في التيك والتاكтик . الذي أعرفه أني شيوعي فقير لا أملك شيئاً . الحياة والموت عندي سوا . الضباط والتجار والقطاعيون ورجال الحكومة أعداؤنا . صح أم لا رفيق ؟

- صَحَّ . يقول مهيار .

- آني وكل الشيوعيين الحربيين لازم نقتل هؤلاء الأعداء بلا شفقة .  
حق وعدل هذا الكلام رفيق أم لا ؟

- حق وعدل . يرد مهيار .

- وإذا بقينا ننتقل ونبني أكواخاً ونمطم كلاماً في التيك والتاكтик يربحون الوقت . صَحَّ وإلا لا رفيق ؟

- صَحَّ

- يمْعُودَ . صار لنا مليون عام تايدين مثل المجانين في هذا الطين الملعون . أعطونا أوامر نهجم عليهم ونكنس الأرض من ريحتهم الجايةة . شُف عيني مهيار ! الناس تعبووا وداخو وتراهم يقولون : دَنَّ الرايب مابي زبدة !

في هذه الأوقات السحرية ، المتوجهة كالنيازك ، يرى مهيار الباهلي ما وراء فطرية هذا الرجل . ومن خلال لمعان عينيه وأنفه المحدب كصقر ، وحاجبيه المعقودين ، كان يستشف صرخة شعب رست فوق صدره صخور من القهر والمذلة ، يحاول الآن زحزحتها بقوة النزع .

جليلًا كان يتمدد الليل خارج الكوخ ، جاثياً فوق شساعة خضراء وعزلة أبدية لغمر منسي . عراء مديد ، مديد يصدري بالوحشة وحيف القصب وأصوات الطيور ودوي المياه المسكونة بملالي الجن والأشباح الغامضة . في أعماق مهيار الباهلي كان هذا العراء السحري يوقد

## مشاعر نائمة تعود إلى فجر الطفولة الأولى للبشرية .

الأزمنة السحيقة التي تشكل الإنسان من عناصرها الأولى ثم انبعث بعد اختمار الخلايا من الطين والهواء والماء والشمس . الآن تبدو وكأن مiliارات السنوات من حياة الصعود نحو الاتكتمال الانساني وبناء صرح الحرية ، قد تبدلت عائدتاً إلى أصلها الأول . لقد ضربتها الانسان المتوجّش ببرائته في لحظة هوس وعطش للدم ، فتهاوت ، وهاهي الآن بحاجة إلى تشبيب جديد .

ومن شوارع وساحات وقاعات الدفاع عن المعتقلين في مدينة لندن كان خالد أحمد زكي يرى هو الآخر الانهيار العميق ودمار الهيكل . انهدام باتساع هذه الأهوار السومرية التي تروي أساطيرها الأولى قصة غوديا وكيل الآلهة الأرضية وهو يحلّ في أوقات حبس الفيضانات باعادة بناء الهياكل المدمرة إذ يرى عملاقاً على رأسه تاج ، جناحاه جناحا طائر عظيم ينتهي أسفله بموجة فياضة . على يمينه ويساره فهود وأسود صاغرة . يشير العملاق لغوديا أن يبني الهيكل المدمر ثم بفتحة يلمع الفجر في الأفق فيرى غوديا امرأة تمحو المباني القديمة وبيدها قلم من ذهب ولوحة طين رسمت عليها ابراج النجوم . امرأة تتراءى لها شبيهة بإلهة مدينة «اور» كانت تتدبر مديتها الموشكة على السقوط والهلاك : عندما كنت وكلّي حزن وأسى أتوقع يوم العاصفة ذاك المقدر لي ، المفروض على ، وكلّي دمع وبكاء ، أنا المرأة الوحيدة ، لم يكن لي مهرب من ذلك اليوم المحظوم . على كاهلي حطّ الخوف من دمار العاصفة الشبيه بالطوفان . وعلى حين غرة وأنا في فراشي حرمّت الأحلام كلها . وأنا في فراشي حرمّت النساء كلّه . ولأنّ هذا البكاء المرّ قدر بلادي ، ولأنّني لم أستطع حتى ولو جبّت أرجاء الأرض كبقرة وحشية تبحث عن ابنها المفقود ، أن أستعيد شعبي ، حتى ولو بسطت جناحي كالطير ، وكالطير طرث إلى مدتي ، ما كانت مدتي لتنجو من الدمار حتى أنسّها ، ما كانت أور لتنجو من الهلاك حيثما هي . حتى لو صحت صارخة بيوم العاصفة المشرع الجناحين : عذ يا يوم العاصفة إلى صحرائك ما كان كُلّ تلك العاصفة ليارتفاع عنّي .

مليئاً يتمعن غوديا في المرأة وهو مندهش . يرى جندياً يحمل لوحة من الزبرجد يرسم عليها تخطيطاً لبيت الهيكل ، وعلى يساره يرى قوالب آجر وسلاماً ورجالاً بأجسام طيور يصبون الماء بلا انقطاع ، ثم يرى

حماراً إلى يمين العملاق يضرب الأرض بحواره نافذ الصبر .  
عندما يستيقظ غوديا من كابوسه الغريب يدرك مغزى الحلم : لقد  
أوحى إليه أن يشيد الهيكل من جديد .

ظافر ، الرجل التحيل ، الناعم ، مؤهلاً شعره الأشقر وشاربيه  
فطلوها بالسواد ليتجانس شكله مع البيئة ، والملازم في الجيش الحكومي  
ببرزته العسكرية الجديدة ، هذا ، المأخوذ بتجارب الثورات التي قرأ عنها  
وانتفاضات أمريكا اللاتينية ، يتحدث ويجهس بمسيرة ماو وطابور  
لويس كارلوس بريستس الذي قطع عشرين ألف ميل مع ثمانمائة رجل  
مخوضاً في مستنقعات البرازيل على مدى أربع سنوات من التعب والمرض  
والآوبة والجوع وأشباح الموت ، ثم ينتقل إلى ثورة العشرين في هذه  
البقعة المضمضة بدماء الفلاحين والبدو ، فتنهض في دماء صرخة بناء  
الهيكل المدمر . هذا الرجل كان يبدو بين المجموعة المؤلفة من اثنى عشر  
مقاتلاً نذروا حياتهم للموت ، كالغمام الذي يختزن الاعصار . إنه يعلم  
الآن أن يعيد لبلاده قوتها ومجدها الصائعين بعد أن توقف قلبها النابض  
عن الحركة .

كانت البلاد والشعب المهاجر بحاجة إلى دم جديد بعد أن امتص دم  
الجسد القديم بأنباب الكلاب واللصوص والأفاقين ومجموعة أولاد  
العواهر والحتالات المسماة الآن بالدولة الإلهية القدرة .

هكذا كانت الروح البروميثيوسية تقوده بأشعة نيرانها ، وهو يقطع  
المسافات هابطاً من جبال الآلة البيضاء والرخيبة ، نحو هذه السهب  
المائية المغمورة بالبردي والقصب والغررين ، مسحوراً بارتسمات  
وتخطيطات تدمير دولة العسكر الكلبية ، وتشيد الهيكل الشيوعي لغوديا  
القرن العشرين .

\* \* \*

في السادس والعشرين من أيار ، بعد شهرين من التدريب ، اتخذَ  
قرار الهجوم على ربيتين في هور الغموكه ، وهما مخفران متراكمان ،  
مدربان تدريباً عسكرياً على مستوى عالٍ ، كما تقرر أن يكون الانسحاب  
بعد الهجوم إلى هور الحمار والأبيض . كانت الربيتان قد استطاعتَا قبل  
أسبوع . قام بالاستطلاع أبو صيري ومهيار ، ومحيسن نايف أحد  
لصوص الهور من عشيرةبني سعيد .

هذا الأفق كان معروفاً في تلك الأصقاع باسم سبع الهر . منذ ثلثين عاماً اختفى في أعماق هذه الأهوار قاتلاً ومتمراً بعد أن أردى ببنديته الموزر كبير عشيرةبني زيد المعادية لعشيرته . رماه بطلقتين إحداهما مرت من أذنه اليسرى فاخترق جدار المخ ، بينما الطلاقة الثانية شرخت شريان القلب . هكذا فرَّ محيسن نايف من وجه السلطة وعصى ، فارضاً الخُوة وحصته من المواسم بسطوة بندقيته التي لا تخطئ هدفها نحو القلب أو الرأس .

وفي السهرة التي ستقام في القاعدة ، سيتحدث سبع الهر ، وهم يكرعون النبيذ ويمزقون لحم الكبش الذي أحضره غب استدعائه ، عن حياته القاسية والمعزولة وأمجاده الشخصية ، كسيئ على هذه البقاع المهجورة ، والعائمة فوق دنيا النسيان والجهل والوحشية ، والتي يعتقد أنه إليها المسلح . وعندما سيسأله أبو صبري : لماذا رفضت المجيء في البداية . سيقول : أنا محيسن نايف التي ترتعد مني السموات وأهوار العراق أرفض أن أكون دليلاً لأطفال !

لكنهم ، بعد أن يشارف الثمل ، سيفاجئونه بالسر الذي اختير من أجله ، فينصلع . لم يصدق في البداية ، لكنه وهو يعقد خطوط غضب صدغه مركزاً ارتعاشات النبيذ التي بدأت تجتاحه ، سيثبت صارخاً بصوت ذئبي مندفعاً نحو معانقة أبو صبري والرفاق بنشوة الرجل الخطير الذي عرفت قيمته الحقيقية في الأوقات الصعبة .

الساعة التاسعة ليلاً من يوم الخميس ، كانت ساعة الصفر لانطلاقه الهجوم .

خمسة مشاحيف صغيرة ومشحوف كبير ، ستقوم بنقل اثنى عشر مقاتلاً نحو الرببيتين المجاورتين فوق تلال القرية .

سيستغرق الإبحار مع مجرى النهر الواسع حوالي الساعتين تحت ليلة صافية تضيئها نجوم كان انعكاسها في الماء يرى كالطيور البيضاء الراقصة تحت الصفحة الفضية للنهر .

قبل الوصول إلى القرية سيغادرون الزوارق ويهبطون بين أعشاب الصفاف الطويلة .

تقدمت المجموعة بحذر تحت غلاف من الهدوء والثقة ، كانت توحى بها أصوات جنادب الليل وهذه السكينة الهاابطة نعاشاً فوق أهالي القرية .

لقد خيّل للملازم ظافر ، وهو يتقدّم منحنياً وراء تلعة من الطين اليابس ، أنه يحلم إذ تراءى له رجل يرتدي ثياباً بيضاء ظهر أمامه بغتة . صاح به فزعاً : قف . من أنت ؟

- قائد الرببيئة . مين الرجال ؟ قال الرجل الأبيض مندهشاً .

- دورية تفتيش .

كان الآن يحاذيه ومعه ثلاثة مقاتلين تقدموا فطوّقوه .

- ما الأمر سيدى ؟ سأله قائد المخفر الملازم ظافر .

بلهجة ضابط حكومي راح يؤنبه لتقصيره وإهماله ، وعندما قال له بأن الشيوعيين احتلوا قضائي الدواية والشطورة وأنت غافل تتسلّك بثيابك المدنية ، انصعق قائد المخفر من هول المفاجأة : هيا إلى المخفر . هيا أبا الفوارس . قال العبرة الأخيرة ساخراً منه . كانت ركبنا الرقيب تصطكان تحت موجة باردة من التعرق وزوغان العينين ، وهو يتقدّم أمام المسلمين نحو المخفر .

استولوا على المخفر بحركة مسرحية سهلة . ابترعّت لحظتها دون أي تحضير مسبق ، بعيداً عن أي إيقاع تراجيدي مختلط بالدم والبارود . وزعت عناصر الحراسة في الخارج تحت إشراف مهيار بينما دخل الملازم ظافر مع المجموعة الثانية إلى داخل المخفر . رحبّت العناصر العسكرية الحكومية بدورية التفتيش ، فسارعت إلى ذبح الديكة الرومية وتحضير الشاي ، واعتذر رئيس الرببيئة للمرة المليون عن إهماله غير المقصود في هذه البقاع الآمنة والتي لم تشهد منذ أعوام طويلة أكثر من شجارات محدودة بين الفلاحين ، أو بعض السرقات التي قام بها اللص الهاسب محيي الدين نايف .

خلال السهرة التي بدت وديّة تحت بخار الشاي ودخان اللفائف التي افتقدوها زمناً ، انطلق الملازم ظافر يتحدث عن الأوضاع السياسية والانحرافات والخراب الذي حل بالوطن والشعب . وفي اللحظة التي وصل فيها إلى ذكر الثورة وصراع الطبقات قائلاً بأن كاسترو وغيفارا غيرا وجه التاريخ في أميركا اللاتينية وعليها أن تفعل ذلك هنا ، انتبه أحد أفراد المخفر . أدرك من خلال تربيته في حزب السلطة أن المصيدة أطبقت عليهم . بخفة وسرعة تناول بندقيته واندفع متسلقاً السور الطيني للمخفر . كان حراس مفرزة مهيار في الخارج يطوقون المخفر في وضع متاهب . بعنته رأوا العسكري يثبت من أعلى السور ويطلق النار . طلقة

واحدة أصابته في ذراعه فهو يفوق العشب . حاول أن يصرخ فكممهوه بعد أن أخذوا سلاحه وأدخلوه إلى غرفة الاجتماع .

بعد أن ضمّدوا جرحه الطفيف ، بدأ إزاحة الستار عن المسرحية بشرح كثُفه الملائم ظافر حول انطلاقه جبهة الكفاح ، الذراع المسلح للحزب الشيوعي . الجبهة التي بدأت حربها الثورية الآن في كل الأهوار لإنقاذ الشعب من الطغيان واللام التي قاساها منذ عصور سحيقة .

- أنتم لستم أعداءنا ولأنريد إيقاع الأذى بكم . سنستولي على الأسلحة والذخيرة . بعد أن ننسحب ستكونون أحراراً . لكن تذكروا جيداً أن آلاف الشيوعيين المسلمين الآن يغطون هذه الأهوار .

حتى تم الاستيلاء على الريبية الثانية واعتقال عناصرها السبعة ونقل السلاح مع الشرطة إلى المخفر الأول ، سطع الفجر بنفسجيًّا متهدأً كطفل طائر فوق أخضرار القصب والتلال .

هكذا فاجأهم الصباح وهم قرب الزوارق ومعهم ثمان وعشرون قطعة سلاح مع ذخيرتها بعد أن تركوا الجنود في الريبية الأولى أحراراً بلا أسلحة .

سيتذكر مهيار الباهلي فيما بعد وقائع ما جرى بقليل من التشويش وكثير من الحزن المستتر ، يوم كان يقود المشحوف الأخير وظافر يقود الوسط بينما أبو صبري الدليل في زورق المقدمة ، كيف هبت الريح الشرقية العاتية بين هور الغموكه والحمار المكسوفة فقصدت المشاحيف وتركتها تدور في مواقعها كالخزارييف التي أطلقتها أذرع أطفال في ساحة عارية . كان ذلك في بداية ضحى اليوم الثاني وبعد أن أدركوا أن العملية استغرقت ثلاثة أضعاف الوقت المقرر لها فما عاد أمامهم سوى مواجهة الزمن الأبيض الوضاء بنهاز سيمضونه حتى هبوط الليل في هذا المعبر العاري .

مع أول المساء وبعد أن هدأت الريح الملعونة جذّفوا في النهر الفاصل بين الهررين . بدا العمل السريع لاجتياز المضيق الشبيه بعنق الزجاجة رهاناً مجنوّناً للإمساك بحبل النجاة الذي يبدأ طرفه على بعد أقلّ من ميل من عتبة هور الحمار والأبيض الشاسعين كالسماء .

- قف !

بين الحالم والمستيقظ سمع أبو صبري الصرخة فتجاوزها وهو يجذف باندفاعة رجل ابتدأت حربه أخيراً بعد أن خُيّل إليه ولزمن سحيق

أن هذه الحرب ليست أكثر من أضغاث تنفجر في أعصابه وخلال رأسه كلما اهتاج وتذكر صرخة ابنه وشقاء لياليه في هذه الأهوار الجحيمية . لكن الصوت تكرر صارخاً بالزوارق أن تقف . سمعه قائد المجموعة فأوعز بعدم الوقوف .

طلقتان مرتا وفق الزوارق ، ردّ عليهما ظافر برشقة .

كان القمر هلالاً في تلك الليلة يرمي شباكه الماسية على مياه النهر وعلى الزوارق المحاذية للشاطئ فيكشفها ، عندما انهمرت الطلقات من الضفاف العليا باتجاه الزوارق التي اضطرب خط سيرها ، فبدأت تجذب نحو حواف المياه الضحلة .

بعد أن تركوا المشاحيف تحت وهج ومفاجأة النيران ونزلوا إلى ضفة النهر باحثين عن مواقع التلع والحجارة ، جاءهم شعور مباغت أنهم ربما وقعوا في كمين وأنهم الآن . في بدء المعركة .

غير أن انتباخ كشافات الضوء التي بهرت العيون لتعري من أعلى مساحة كبيرة من الضفة والنهر ، بددت الوهم وأيقظتهم من نشوة الحلم والغفلة .

لم يترك الكمين الوقت الكافي لاختيار أفضل الموضع أو الحركة ، وخلال ساعة من الاشتباك انهمرت عليهم مع النيران مظلة من الفوضى والارتباك وفقدان القدرة على قيادة المعركة .

كان حسين وعبد يصرخان : انسحاب . انسحاب . وين نروح . وين نروح . وهما يرتدان تحت صعقة المفاجأة ودوي الطلقات التي تنذر فوق الرؤوس وتتدوى في الأعصاب ، في الوقت الذي انهار فيه شلش حامل الدكتوريف فما عاد قادرًا على إرجاع مغلاق الرشاش المبتل بالماء والوحش .

ولأن فرصة العودة إلى استخدام الزوارق مرة أخرى أصبحت معنوية وتساوي الموت ، كان اقتراح ظافر المخاطرة لجلب ماتبقى من الأسلحة التي تركت تحت غمرة المفاجأة داخل الزوارق . كان ذلك بداية الصحوة من هذا الكابوس المباغت . وبسرعة برقية انتدب لمهمة سحب الأسلحة أبو صبري وسيد درعان وعقيل حبش وجاسم توبيع ، في الوقت الذي يغطي فيه الآخرون التقدم والانسحاب بنيرانهم الغزيرة .

- آي . قتلت .

هكذا انطلق الصوت من سيد درعان بعد أن وصل مع المجموعة

التي نجحت في سحب الأسلحة . كان حسين ياسين مايزال يصرخ بالانسحاب وهو يشير إلى أعلى النهر حيث التمتعت مئات الأنوار فوق تلال القصب ، فبدت في هزيع قلبه المرتعش كأنها كشافات آلاف السيارات والمدرعات العدوة ، وهكذا في لحظة انهيار وضع يده على زناد بندقيته ورمي باتجاه الأنوار اللامعة فأصاب سيد در عان بطلقة مجنونة حطمت فكه الأسفل مخترقاً الابط الأيسر .

كان لابد من الانتقال في فترة هدأت فيها المعركة وبعد تضمين جرح الجريح بكوفية مهيار ونقله إلى منطقة البردي على ضفاف النهر ، حيث سيجثمون بين الدغلات الخفيفية فوق الوحل والمياه الضخساحنة كفراخ بط ترتعش حتى الفجر من وخذ صقيع الليل .

كانوا الآن بعيدين عن موقعهم الأول ، يسمعون بعض الطلقات المتفرقة خلفهم ، وهم لا بدون في الطين لا يأتون بحركة سوى هذه الحمى التي أصابت الجريح مع بداية الفجر فراح يهدي في أحضان أبو صبرى : اتركوني . كيف أجازيك يا حبيبي أبو صبرى ويامهيار ويأهلنى . راحت علينا . آني خلصت . اتركوني وانجو بأرواحكم . عيوني آني انتهيت خلاص .

مع اهلال الفجر اكتشفوا أنهم بلا غطاء . وماتو همومه تحت ستارة الليل والحصار وبعض أغصان البردي ، لم يكن أكثر من مستنقع صغير معشب لا يبعد عن المكان الأول أكثر من مئتي متر .

ومع ذلك لم يرهم الصيادون الذين عبروا قربهم وبدؤوا يجمعون بخوف شباك صيدهم وهم يتحدثون عن حرب الحكومة والشيوعيين والإغارة على مخافر الشرطة وتشليح الأسلحة من عسكر الحكومة الذين بالوا في سراويلهم عندما داهموهم في الغموكه ونهبوا سلاحهم .

مع أول غسق لليلة الثالثة بلا طعام ، وتحت جيشان الفزع والحصار والبحث عن منفذ ، راحوا يتکهنون بالاتجاهات وهم يسيرون على الضفاف تحت نجوم بدا لمعان نجمة العشاء الغربية أكثرها إشاره إلى احتمال وجهة الهور . كان عبد الجبار هو الذي اقترح الهدایة بالنجم . لقد درس هذا الفتى في الكتب القديمة علوم الفلك والنجوم وطوال المستقبل وقيامة الساعة في مخطوطات صندوق جده الذي أغلقه قبل موته موصياً بهذا الكنز لحفيده كي يحلّ رموزه عندما يصبح عمره ستة عشر عاماً . حكى عبد الجبار هذه الحكاية في القاعدة عشرات المرات مع تحويرات طفيفة لم تكن تثير الانتباه في تلك الوحشة البائسة .

وعندما كان يروي ذلك عن طفولته وشبابه كان يهز رأسه خارجاً من أمواج الحنين الأسطوري باتجاه الحالة الراهنة ليقول : آه . كم يتغير الإنسان مع الزمن !

هكذا تقدموا في ذلك الغسق الفضي باسم نجوم عبد الجبار مسراهم ومgraهم ، يتناوبون حمل الجريح ، ويقاومون طوال الليل الجوع والضنى وأنهيارات حسين وعبود الذين صمتا تحت تهديد طلقات أبو صبرى ، ومطبات الغرين اللعين الذى يفاجئهم بالحفر .

مع الفجر فوجئوا بالنهر على يسارهم ، كما اكتشفوا أنهم كانوا ينبعطون بانعطاف النهر ، وأن المسافة التي قطعت لم تقربهم من الأهوار ، إنما فتحت أمامهم سهلاً مسلياً كان فيما مضى مسيل ماء جفت مياهه ، وعلى مبعدة أقل من خمسين متر تناشرت بيوت قرية مجهلة من القصب والطين قامت فوق هضبة .

بهدر مفاجئ ، وسط هذه البلية التي سقطوا فريسة شباكها ، سيهمس الباهلي في أذن أبي صبرى بأن نجوم الرفيق جبار ومخيطات جده الخرف كذبت علينا وقادتنا إلى التهلكة ، وسيرد أبو صبرى وهو يمسح العرق بطرف سترته العسكرية بأن الخطأ ليس في النجوم ولا المخطوطات .

سيقول مهيار ذلك في اللحظة التي اتخذ فيها قرار الكمون في هذه الساقية الجراء المحصبة ، والبدء بتجهيز الحفر الفردية للاختباء داخلها قبل انكشفهم .

ما كانوا يعرفون أين هم الآن . كان النهر وراءهم وفي المواجهة قام جدار انهامي من الصلال الرمادي وراءه كانت تجثم القرية المجهولة التي ترى من خلال أغصان بعض أشجار الصفصاف . حريق من العرق والإنهاك كان يلهب الحلوق والرؤوس والبطون الجوعى ، عندما بدؤوا الحفر في منحدر ماتحت الانهدام الساتر . لقد صدرت الأوامر وتحت التهديد بإطلاق النار على كل من يتراجع نحو النهر طلباً للماء . ثمة مطرتان عسكريتان على المجموعة أن تشرب منها بالقطرات حتى ينسدل ستار الليل .

في أمسيات بونة والمدن التي سيلجأ إليها فيما بعد ، إلى أن يتاح لهم أن يصطادوه بطلقة أو يموت حزناً وتوحداً ، ستلوح على شاشة ذاكرة مهيار البيضاء صورة اندفاعهم إلى ضفة النهر مع أول الليل ، وكيف سبع

وخوض في عمق النهر ثم نام في الماء حتى أحس مسامه تنتفتح كأزهار اللوتس داخل هذه الرطوبة العذبة التي تدفق الكون منها .

على مدى ساعة وهو مستلق على ظهره فوق الصفاف الموحلة والمحصبة يراقب النجوم والفراغ السماوي ، مرئ كالشيفرة ذكريات قديمة وحميمة ، كان يتمرد على قوة جذبها الحنيني ، لم تثبت أن انطفأت في بقاع بعيدة عندما هبطت عليه هذه الحالة الغريبة التائهة التي وجدوا فيها على هذا النحو السريالي الغامض .

ما كان الوقت المرهف والشبيه بحفل ألغام ليس مناسب لمناقشة الماضي والأخطاء التي ارتكبت ، ذلك لأن اللحظة كانت تساوي دهرًا آنذاك فلا تعطي أكثر من اتخاذ أوامر ومبادرات سريعة وخاطفة للخروج من الحصار .

لقد اقترح القائد ثلاثة يقودهم أبو صبرى يتسللون إلى القرية لشراء الطعام والبحث مع الفلاحين عن امكانية استئجار زوارق ودليل يقود المجموعة إلى هور الحمار .

سيختفي الثلاثة إلى الأبد فلا يعودون فيخييل لظافر ومهيار وبقية الأفراد السبعة أنهم اعتقلوا أو قتلوا أو انهزوا ، بعد أن ضاعت آثارهم حتى نهاية المسرحية وإسدال الستار .

أتى المساء الرابع ولم يظهر أبو صبرى ورفيقاه فخيم على الأفراد احساس ثقيل بالخذلان والحيرة ، وبدا خالد أحمد زكي في تلك الليلة مغموماً كما لم يُرِ في حياته ، وإلى جانب غمه وكابته ظهر لمهيار يعاني بداية اضطراب عصبي أفرج عنه أخيراً بصرخة : لقد ضعننا نهائياً وهذه مقبرتنا . وشعر مهيار في عبور شفقي حزين بخطأ إرسال أبو صبرى الدليل والصديق الذي لم يعد ، وبأن نجوم عبد الجبار الخادعة ليست أكثر استدلالاً للعطشان من سراب في بقيع .

في الربع الأول من تلك الليلة اتّخذ مهيار فجأة قرار عبور النهر إلى الضفة الأخرى وسيلة وحيدة ومحاولةأخيرة للبعد عن المنطقة المكشوفة ، لأن الهور لابد أن يكون قريباً من الضفة الثانية .

وهكذا بدؤوا بالسلاكين يصنعون حزماً وشمائل من البردي والبوص ليعبروا النهر مع الأسلحة والذخيرة فوق هذه الطوافات الخضراء تحت ضوء القمر . في منتصف الليل بدؤا في عرض النهر الهادئ عائدين فوق هذه الطوافات البدائية ، كأنهم مشهد حكاية من حكايات السندياد

البحري تقودهم بوصلة تكهنات الباهلي بأنهم منسابون الآن مع التيار الدهدار إلى بوابة الأبيض السحرية والكثيفة بالقصب حيث يضيع لواء من الجيش في أعماقها الوحشية .

فجراً رست بهم الطوفات فوق ضفاف جديدة معشبة على أطرافها أشجار من الصفصاف النهرى ، لكن الھور لم يبد لأبصرهم بعد .

آنذاك أدركوا ، ومن خلال سحب اليأس وضباب الصباح وهذا التيه الخذروفي ، أنهم وقعوا فريسة سهلة لسلسلة من الأخطاء رسمتها مطولات ظافر ومحاضراته في الرببيئة وترك الجنود أحرازاً ، ونجوم عبد الجبار ، وغياب أبو صبرى ، واستبعادات مهيار وتنديماته الفضائية .

في مساحة ذلك الوقت الضائع تحركت مجموعة من جنود الرببيئة التي هوجمت ، إلى قضاء الشرطة ليخبروا السلطة هناك بما جرى . ومن الشرطة طارت البرقيات إلى البصرة ببغداد : عصيان شيوعي مسلح واسع النطاق في أهوار الجنوب . وعلى الفور أعلنت منطقة البصرة والناصرية والعمارة والكوت منطقة عمليات حربية .

اندفع لواء من قوات الصاعقة والمظليين معززاً بالقوات العسكرية السيارة وشرطة المحافظة والأقضية ، لمواجهة العصيان والقضاء عليه .

ستهبط على مهيار الباهلي فيما بعد ، موجة من الندم المريض لأنه لم يخالف أوامر الرفيق ظافر ، فيرمي ذلك الرجل الأفاق الذي انبثق أمامهم كشبح أسطوري فوق حصانه الأشهب . ففي ضحى اليوم الخامس فاجأهم ذلك المخلوق الغريب بسؤال يضمّر شكاً وخديعة : ألستم أنتم الشيوعيين ثوار الأهوار ؟ أنا اسمى عبد عليع صديق محيسن نايف سبع الھور . منذ عشرة أعوام وأنا مطارد وعاصر على الدولة . روحي ودمي مع الشيعية . أعطوني سلاحاً لأقاتل معكم وأدلكم على منفذ للخروج من هذه الواقعية .

كان التعب والجوع واليأس قد بدأ يفتك بهؤلاء الأنفار التسعة الذين أمضوا أكثر من مئة ساعة بلا طعام ، طافين على سطح هذه المياه والحواف الموحلة بحثاً عن ثغرة نجاة يفتحها لهم الله أو الشيطان داخل هذا الدهليز اللولبي لانهائي الامتداد .

لقد بدا أخيراً ، في لحظة انبثاق هذا الفارس الغريب ، إن الشيطان استجاب لأشواقهم ، فتجلى لهم تجلی النار لموسى التائه .

وليظهر حسن نوایاه ، رمح بحصانه كالسهم وغاب ، وبعيد الظهيرة

عاد محملاً بأكياس الخبز والتمر والدجاج ورقات من السماء مع جرة من اللبن البارد .

- اسمع رفيق ظافر . قلبي خائف من هذا المكار !

- غريب . ما الذي يدعوك للشك ؟

- هذه الحركات المسرحية المريبة . كيف عرف أننا الشيوعيون بهذه السرعة ؟

- هو تحت رحمتنا . نحتاجه دليلاً .

- أنا لا أثق به وأشك أنه ينقل أخبارنا .

جرى الحوار سرياً بين الرجلين في هدوء مابعد الظهيرة بين أشجار الصفصاف الصغيرة المدللة ذؤاباتها على ضفة النهر .

ومع أن ظافر رمى في روع الباهلي أنه فريسة تصورات ريبة مصدرها هذياتن التعب واهتزازات الجملة العصبية المرهفة التي تلتقط الأشياء فتتراءى مكيرة على شاشتها تحت حتى هذه الصدمة المفاجئة ، إلا أن الباهلي ظلّ في حقول ريبته تحدوه فكرة إزالة كل ما هو مفاجئ وغريب عن سطح هذه المتأهة التي قذفوا فيها في هذا الوقت الضائع .

كل هذه الظنون والاختلالات والحساسيات العصبية ستختزل وتتضاع في ذلك النهار عندما سيهرب ذلك الرجل الغريب الذي ظهر فجأة فلا يعود إلا مع القوات الزاحفة التي طوقت المجموعة على شكل قوس مفتوح باتجاه النهر .

كانوا الآن موزعين على الضفاف بين كتل الصلصال وأجمات البوص ، أمامهم المرتفعات الجرفية للنهر تتوزع قوات الأعداء وراءها ، ووراءهم الغرين ثم النهر الموحل .

- أنتم مطوقون . لامنجي لكم . الله أكبر . الله أكبر . كلنا اخوان . استسلموا ولكم الأمان .

هكذا انطلقت مكبرات الصوت داخل موج الأشعة الكاوية صادمة أعماق الرجال الحالمين بالنجاة ، فأيقظتهم .

- لن تكون هناك زوارق ومشاحيف إذن !  
قال سيد درعان الجريج .

الرشقة التي انطلقت من أحد رشاشات المجموعة تحت ضباب الليلية ردأ على مكبرات الصوت ، هزت الأرض والصلصال وأطارت قطعة من

حواف الجرف النهري . ومع أنها بدت كقرار للبدء بالمعركة إلا أن صرخة ظافر : ما هذا ! لقد كشفتنا . أعادت الحالة النفسية إلى وضعها الارتباطي الأول .

قال شلش الذي أطلق النار : لماذا هذه الأسلحة للعينة إذن ! هل سنموم كالكلاب وفي أيدينا السلاح ؟

وصرخ القائد بارتاجاف عصبي : أي حماقة ! ألا ترى جحافل أولاد القحبة كيف تقدم كيوم الحشر لإبادتنا !

عندما اختلف أحمد زكي ومهيار الباهلي حول الاستسلام والمساومة بشروط ، أو خوض المعركة غير المتكافئة ، احتكم القائد ومساعده إلى السبعة المقاتلين الذين توزعوا وراء كتل المدر الطينية وجذوع الصفصاف وفي الحفر الصغيرة المنتشرة على حافة النهر .

كانت النجادات تتواصل في الشاحنات والعربات العسكرية على نحو كثيف لمواجهة حرب الأهوار التي يقودها مئات الثوار الذين تغلغلوا كالأفاعي في أعماق الهمور . هؤلاء الذين تشكل هذه المفرزة خطهم الدفاعي الأول . ولكشف خطوطهم الخلفية ومواقع نجذاتهم حوت الطوافات العسكرية في الجو .

لحظتها وهم في التيه والحصار والبلبلة ، طرخ عليهم اختيار الاستسلام أو القتال فاختاروا الحرب ، وكما تنحى خالد لعيادة ابن الجراح ليقاتل تحت رايته ، استلم الباهلي القيادة من ظافر ليقود مفرزة تائهة من جند طارق بن زياد ضاعت زوارقها وانقطعت أسباب نجاتها في هذا المضيق الذي بوغتت وحوصرت فيه . على مساحة أكثر من خمسين ميلًا كانت المنطقة تحت المراقبة والحصار والرمي ، تبدأ من ضفاف النهر حتى منافذ الأهوار وحقولها الخضراء البعيدة . ومع أنهم كانوا تحت الرمي والتعب وشهقة الموت بين أننياب الوحش الهاجم ، إلا أن الدفق المشع للدم في العروق وهو يتوجه ، كان مايزال ينبض قويًا داخل شبكة أوردة الانهاك والهلع واليأس . وبدا ملمس الأسلحة وهي تحت الأصابع لحظة المواجهة ، يعطي النقوس شعوراً عارماً بدق الحياة رامياً بالموت إلى الأقصى مادامت الطلقات في المخازن .

التعليمات القتالية أوجزت في أمرتين : تحسين الموضع في الأرض كلما أمكن ذلك والاقتصاد في الذخيرة .

في أعماق مهيار كان هناك هاجس المناوشة حتى يهبط الليل للقيام

بمحاولة انسحاب جديدة بعيداً عن الطوق المضروب حولهم ، ومع أن الفكرة بدت مستحيلة كمن يتخيّل الإمساك بحبال سماوية والصعود عليها للخروج من هذا الجحيم اللعين ، إلا أن زناد رأس مهيار المؤمن بالخوارق اللاّتّحد للاّنسان ، كان يقدّح شرارات لامتد طويلاً حتى يطفئها النهر والطين الملعون وهذه الطلقات التي تُنْزَّل فوقهم وحولهم .

الجلبة والدوّي وأصوات المكبرات داخل الهجير الشمسي والفضاء الأبيض وصخب المياه ، كانت تزعزع الأعصاب راسمة شبح الموت الأعمى في العيون وداخل الأجساد التي وَدَّت في تلك اللحظات لو أنها قادرة على الغوص عميقاً في الأرض الصلبة لتحتمي من هذه القوة الوحشية الهاجمة . عندما مرّ ظافر زحفاً يسقي العطاش بهدوء حزين ، رابتاً على الأكتاف ومشجعاً الرجال الذين داهمهم الموت ، كان يدرك في قرارته كم كان الخطأ فادحاً من البدء حتى هذه اللحظة . وكما يعبر برق في ليل لافجر له ، انفجرت سحابة من الأسى في سماء الرجل مزقت أحلام السييرا مايسترا والهجوم على سانتا كلارا والزحف على معاقل باتيستا وسقوط هافانا .

أصياف محقة . أصياف محقة . ابتهالات وولائم أبدية للموت .  
آه . نحن الهاكين . . قالها لنفسه وهو يقترب ليُسقى جبار الرابض وراء رشاشه والذي انطلق بغتة يغنى النشيد الأممي . النشيد الذي كان يغنيه مع كورس المعتقلين في سجن الحلة قبل أن يهرب مع مظفر ورفاقه من النفق الذي استمر الحفر فيه شهراً كاماً .

- السجن ليس للأباء ، السجن للطغاة . لنا الغد . لنا الغد .

\* \* \*

في أواخر المساءات وبونة المنفى والظلال تنوخ كالصخرة فوق الظهر المنكسر ، ستأتي الأطيااف عبر تموّجات الذكرى وطيور الحنين لتقف فوق صخرة مهيار ناعبة بصوت يومي أصداؤه تتصدّع القلب ، فتتراءى في الصمت على الشاشة الليلية صورهم واحداً واحداً وهم يتلقّطون كطيور البجع فوق سطوح المدر والغرير الرمادية .

ستتقدّم هذه الأطيااف صورة جبار وهو يندفع نحو القنبلة اليدوية التي قذفت من الأعلى ليمسكها ، ثم يحاول قذفها نحو الجنود ، في اللحظة التي انفجرت فيها بين أصابع كفه اليمنى فبترتها وتطاير الدم نافورة من المعصم الذي ذبح ذبح دجاجة طار عنقها بسكين باترة .

في أعقابها تأتي صورة شلش وهو يقول بحزن تراجيدي مفعم بحياة ما قبل الموت : رفاق . نحن لأنكاد نعرف بعضنا . دعونا نتعارف . وابتداً المفرزة تقدم واحداً واحداً بطاقة تعريف عن حياتها . حدث الأمر ، في لحظة غريبة بين فسحتين من الاشتباك ، وكأنه اعتراف ما قبل الذهاب إلى المقصولة أو ساحة الرمي ، للكاهن الذي سيظل حياً وشاهداً .

وسيتسائل الباهلي وهو يبكي ويرتعد داخل تلك البرهة الخارجة عن نطاق العقل عن مصدر الوحي الذي هبط عليهم وهم يحملونه رسائل لأهليهم : لماذا اعتقدوا أنهم سيموتون بينما سيظل هو الحي الوحيد الباقي لحمل هذه الرسائل ؟

ستة قتلى سقط من الأعداء الذين تقدموا إلى حواف النهر وجراح اثنا عشر . في البدء كانوا يهبيون بهم للاستسلام ورمي السلاح وفيما بعد عندما رأوا قتلهم وجرحهم ، تراجعوا . لقد خيل إليهم أنهم يواجهون كتيبة من الرماة المهرة الذين لا يخطئون الرمي . ولكي تظهر المفرزة ثقتها سمحت للجيش بسحب القتلى والجرحى بعد نداء من مهيار : لسنا قتلة أو قطاع طرق . تقدموا وخذلوا قتلامكم فلن نطلق النار .

مع الأصيل جاءت الطائرات المروحية هادرة فوق الضفاف والنهر بأصوات ترتج منها الأرض والسماء . كانوا الآن يرونها تحت انعكاسات الشمس وهي تشق الفضاء الرحيب بتشكيل قتالي مالبث أن انقض كوحوش ساوية وابتداً يحصد الماء والقصب وحجارة الضفاف .

في غمرة الهجوم الأولى المندفع كالإعصار ، شعر قائد طوافة القيادة بالاهتزاز واختلال التوازن فحاول الانعطاف لتفادي الطلقات ، لكن خزان الوقود أصدر صوتاً انفجارياً فاندلعت النار . وعبر المدى السماوي الأشهب ، شوهت الانكسار الحاد للطائرة وهي تهوي كصخرة مشتعلة مالبث أن انفجرت على السطح المائي ، رافعة لدى ارتطامها بالمياه والوحول نثارات الماء الغريني إلى علو أكثر من ثلاثين متراً ، بينما ظلت مخالبها المروحية الشبيهة بمخالب سرطان بحر انقلب على قفاه ، عائمة فوق المستنقع .

أحدث سقوط الطائرة حالة بلبلة في الجدار المعادي ، فتوقف هجوم القوات البرية وانحرفت الطوافات بعيداً .

وفي أعماق المفرزة تعلالت صرخات النصر .  
كان الموت مؤجلـاً الآن .

وبدا هاجس مهيار في تلك اللحظة عن اقتراب الليل والانسحاب تحت أجنته ، يخرج من حلم الاستحالة إلى حقل الإمكان رغم صرخات الألم التي يصدرها جبار المبتور الكف موالياً ضراعاته : اقتلوني . أقتلوني . الموت أحلى من هذا الألم . زحفاً تحرك مهيار وظافر لفقد الأفراد والجرحى .

كان عقيل حبس في الطرف اليساري للموقع متكتئاً على جذع شجرة مجذومة الأغصان بين الوحل ، يرتعش وبهذا بأصوات مذعورة وهو ينظف منظاره ويزيل الوحل عن ثيابه . عندما تحدثا إليه ضحك عالياً ضحكة بلهاء . هزه مهيار من كتفه : مابك ؟ فضحك أيضاً وهو يشير إلى السماء . ثم مالبث أن ترك المنظار مرفراضاً بذراعيه كما يخفق طائر يتأهب للطيران : طار . طار . جبار طار وحسين . طارا مع الطيارات . أبو صبرى قال لي .

- شنو قال لك يامختل ؟

سأله مهيار وهو يصفعه فهو كيس من قش بينما جحظت عيناه محدقة في سماء تراءت له على صفحتها ملايين الطائرات على شكل نوارس تتقض على السمك الطافي .

داهم الألم جسد ظافر . ألم غامض نما في العمود الفقري ثم صعد إلى مؤخرة الرأس واستقر في الصدغ . هو الآخر كان منهكاً ومبلاً . ومع أنه كان يحلم لو يمتلك في تلك اللحظة أسلحة فتاكه لتدمير هذه القوات المعادية وإيادتها ليقيم فيما بعد ، على أنقاذهما ، يوتوبيا الشيوعية وجناتها الخضراء ، إلا أنه كان مدركاً الآن أكثر من أي وقت مضى أن ذلك الحلم نأى كالنجوم ، وأنه مع رفاقه سقطوا خطأً وقبل الأوان من كوكب غريب يقوم برحلة طائشة فوق هذا العراء القاتل .

أنهض عقيل وأسند إلى أرومة الجذع . مسح ظافر وجهه بالماء وهزه مهيار ليفيق من نوبته . قال له : أخويا عقيل استفق . نحن في ضيق وأنت رجل شجاع . أسقطنا طائرة والعزائم قوية . أما سمعت نشيد جبار الجريح !

للحظة فتح عينيه وإذا رأى اسم جبار في ليل لاوعيه صات وهو يرفع رأسه : جبار راح يجيب الطيارات . رفع العلم الأبيض وطار .

كان يتربّح بين أيديهم هو يهزمي عن الطائرات وامرأته وأولاده وأمه وسائل الأضفان التي اجتاحت أعماقه : هاي أمي كانت تقول لي

حامل دمك وماشي لموسكو . شنو تقدملك هاي الموسكو ياعقيل . آتي رجل مخبل . الولاد والمرا راحوا . وأنت غصت في الطين ياعقيل . وينها موسكو وبماتها . وينها ياخلق الله وينها . مو شايفي حالتنا . وينو أبو صبرى والمشاحيف . كان ينده ويضرب رأسه بالجذع وهو يشتم أولاد القحبة الذين تخلوا وهربوا بدءاً من عزيز الحاج وخروتشفوف حتى أبو صبرى ، وانتهاء بآبيه الذي ولده ليموت كالكلب في هذا الوحل . وهو ينشب أظافره في الطين ويحثو به وجهه ويمزق سترته ، اندفع أبو محيسن وأثباً كنمر ليغرس فوهه بندقيته في صدره صارخاً فيه : عقيل . أخو القحبة . خرا بربك . تسكت وإلا أمزق أمعاءك . ملعون الوالدين !

أزاح مهيار سبطانة الكلاشن عن صدره الذي يزفر كحيوان مذبوح ، اصيح عقيل . عيني اصبع . ووشوش في أذنه خبر الانسحاب بعد هبوط الليل .

هدا الرجل وطلب ماء فسقوه . ثم سأل عن سيكاره فأشعلوها له . سعل فتجشت معدته الخاوية . سال على ذقنه سائل مخاطي أصفر مسحه ظافر بردن سترته .

بعد هذا الطقس الهذيانى استجوبوه بهدوء فرفع سبابته نحو موقع الأداء : رأيته يخلع سترته ويرفعها . شفتو وكأنني في نومي يطير كفرفور البط الأخضر . رفرف وراح فوق النهر بجناحين في لون السماء . كان حزيناً ومتعباً وجائعاً وجريحاً . قال لي مع السلامة ياعقيل . سلم لي على رفاقنا آني رايج خبّر عن حالتنا . آني أحب الحياة وشرب عرق المسيح وخطيبتي ناطرتني . نحنا غلطنا وهاي الواقعية مصيبة من الشيطان ورب العالمين . وقال لي موسكو ماهي معنا وقيادة حزينا صحتها زينة وتراتها قاعدة في موسكو مرتبطة تأكل الكافيار والسمك وتشرب الفودكا وتشيد بالأممية ونحن نموت في الوحل كالكلاب . وقال لي ياعقيل حسين مو خاين لكن الدنيا والناس كلهم خرا بخرا في هذا الزمن أخو القحبة الخالي من الرجال .

وكما ينشج طفل في أحضان أمه الدافئة ، بكى عقيل حبس الرجل الذي تجاوز سن الأربعين . الصياد البسيط المنظم سراً في خلية أبو صبرى ، والذي كلف قبل تأسيس القاعدة بتهريب الأسلحة من البصرة داخل مشحوفة بين سلال البيض والمكانس والسمك وكرات الحرير وأكياس السكر والشاي .

كان الهدوء المتوجس والسكينة يهبطان من الفضاء على القصب

والمياه والضفاف الملوحة ، ومن لهاث الأرض المختمرة بالشمس وبخار الماء المتتصاعد راحت موجات ساخنة لها طعم الغازات الكبريتية ولوّن الفراش الفضي تحمل أسراباً لامعة ودبقة من البرغش والحشرات المستنقعية الласعة ، وتحت هذا الهدوء الملغوم كانت الأجساد الملتهبة الممرجة بالعرق والطين وبقع الدم تتوقع عنف استئناف المعركة من جديد .

كان واضحاً الآن أن المجموعة فقدت حسين ياسين الذي غادرها تحت وطأة الهلع واليأس اللذين هدماه وقذفا به إلى هاوية الألم ، فاستسلم تحت راية العار ، زاحفاً نحو معسكر أعدائه ليلقى مصيرًا ربما كان الموت أكثر جلاً منه في هذا المضيق الشبيه بعنق زجاجة مسدودة .

مع البدايات الأولى للمغيب والشمس معلقة كثمرة برتقان لاتعلو كثيراً عن خط الأفق الغربي ، دوت مكبرات الصوت من جديد داعية للاستسلام ورمي السلاح والتقدم بالأذرع المرفوعة خلال نصف ساعة من الوقت الذي يشير إلى الرابعة والنصف . كان الصوت الجمهوري الممتد في مسام الفضاء يتتجاوزهم إلى ماوراء النهر ، واعداً بمحاكمة عادلة سيصونها القانون لهم إذا مارضخوا وألقوا السلاح قبل أن تقذف المنطقة بقنابل المدفعية ونيران الطائرات .

عندما هرع مهيار ليأخذ موقعه ويقود المعركة من جديد تاركاً عقيل قرب أبو محيسن وتحت رقبته ، داهنته مرارة صعدت إلى حلقه لم تلبث أن تشكلت خبابة سوداء أغشت عينيه وهجست له : لن يكون هناك ليل آخر .

كانوا الآن على حافة المياه الضخّاحة ، بين المذر الترابي والجذوع وحجارة النهر . ثمانية رجال بينهم جريجان ورجل منها ، في مواجهة أكثر من ألفي جندي معززين بكل صنوف الأسلحة والطيران المرهحي .

في ربع الساعة الأخيرة نادوهم بأسمائهم واحداً واحداً كما حدّدوا المواقع ، وأهابوا بالجريحين أن يغادراً مواقعهما ويتقدما بلا سلاح ، فيكونان تحت ميثاق الأمان قبل انتهاء المهلة .

- لأمل لكم . لا أمل . لماذا تموتون مجاناً ؟

لم تكن المسافة ، بين عسكر الدولة وجحافلها الجراره والصالحبه وبين القوة الصغيرة المتمردة ، لتزيد عن الألف متر . وفي حقل هذا

الفراغ كانت أشعة الموت والحياة تتلاقي وتنتصاد كما في احتفال مسرحي يقام في أرض عراء . كانت قيادة قوة الدولة فيه هي الأقوى ، لكنها بدت مصرة على أسر المتمردين أحياء في الوقت الذي كانت فيه المفرزة المحاصرة تناور حتى يهبط الليل لتبدأ خديعة الانسحاب . في ذلك الوقت الشبيه بقنبلة موقوتة ، تفتق ذهن مهيار عن اقتراح ارسال جبار الجريح رافعاً علم استسلام مربوطاً بكوفية علة يغطي الانسحاب إذا ما أقبل الليل .

على شكل موجات من الألم أو صرخات كابوسية ستتبثق هذه الرؤى القديمة ، تارة دامية وتارة ملتفة بالبياض الباهر أو زعفران الشمس ، في ليالي الرجل الذي ظل حياً مع نفرين جريحين في الغرين ، وبين ذراعيه رفيقه وصديقه القتيل وحوله دوائر من الدم والجثث المغروسة في الوحل ، ونصف الطافية .

ومع أنه سيظل يحلم بحفنة مقاتلين يزلزلون هيكل التاريخ في العراءات إليها التي شهدت المقتلة ، إلا أنه ظل يعتقد أن بإمكانه تحاشي الأخطاء القاتلة التي ارتكبت فيما مضى . وسيتذكر كيف أطلق أبو محيسن رشقته الرصاصية التي أصابت جبار في ظهره عندما تسلق المنحدر الترابي حاملاً العلم الأبيض ، صارخاً بصوت يبصق دماً وهو يتدرج ممرغاً بالتراب والدم على مرمى أمتار منهم .

- كلاب . كلاب . أبناء العواهر . الشيوعي يذبح ولا يستسلم .  
بهذه الصرخات التي توالت إثرها الطلقات ، مزق أبو محيسن لعبة مهيار التي خُيل إليه أنه حبكتها في لحظة اشراق .  
هكذا بدأ نشيد الموت النهائي تحت ضياء أصفر لشمس قيد التواري وراء تلال الأفق .

كانت الحوامات تلوح من الغرب عندما ابتدأ العدو هجومه الجبهي ، فاتحاً جحيم نيرانه الرشاشة ومدفعيته .

تحت غمرة النار أعطيت الأوامر بالتراجع نحو النهر في محاولة يائسة وأخيرة للإنسحاب بعد أن كشف العدو المواقع . وبين الوحل والماء بدؤوا التراجع وهم يشتكون . ازدادت شراسة الهجوم ، في الوقت الذي كان أزيز الطائرات يضم الآذان ويعتمي العيون قاذفاً الأشياء داخل دوامة من الأصوات والانفجارات والمعان الموحل .

لقد بدا التراجع داخل حقول الطمي يفاصم حسـ الانهـاك والـشعور

بضيق الحصار . كان الغرين الدبق يزداد لزوجة وكثافة وتحت الأقدام التي تغوص فيصعب انتزاعها .

وفي لحظة عارية ، مفتوحة كسماء من اليأس ، تجلّى الرعب المزدوج : الرصاص والغررين .

كانوا الآن يقاتلون وقوفاً وراكعين تحت وطأة هذا الطمي اللعين الذي تحول إلى مايشبه مخاضة اسممت .

الطلقة التي اخترقت صدر أبو محيسن نفذت إلى الohl فترنج . صاح : آه . ثم هوى كطائر فوق رشاشة الغائص في الطين . حاول أن يمسك بسبطانة الرشاش لينهض لكن طلقات رشاش الطائرة التي عبرت فوقه اخترقت فقراته فأدرك أن النهوض مستحيل آنذاك .

بلغت حدة الهجوم أوجها ، وراحـت الطائرات المغيرة تفرـغ رصاص رشاشاتها وهي تدور لتعود في تشكـيل جـديد سـادة عليهم إـمكانـية الانسـحـاب إلى أعماـق النـهر .

تحـت سـطـوة الهـجـوم تـجـلـى القـتـال التـراـجـعي دـاخـل هـذـا الحـقـل المـغـناـطيـسي ، شـبـيهـا بـالـانـقـاذـاف دـاخـل دـوـارـات بـحـرـية . بـدوـا تـحـت الشـفـق الزـعـفـرـانـي المرـشـوم بـالـوـحـل كـأـنـما يـدـورـون بـبـطـء دـاخـل رـحـم غـرـينـي اندـفـعوا لـلاـحـتمـاء بـه كـأـطـفال مـهـدىـن ، لـكـنـه كـان يـبـتـلـعـهم عـلـى مـهـل كـلـما أـوـغـلـوا فـي أـعـماـقـه . وـفـي لـحـظـة مـفـتـلـة مـن نـطـاق الـوعـي تـرـاءـى لـهـم كـأنـ غـوـلا سـحـرياً مـمـغـنـطاً تـشـكـل مـن نـدـاء الـحـيـاة وـالـمـوت وـالـطـفـولة وـجـنـيات الـنـهـر وـالـغـابـات وـالـضـيـاب وـوـهـدـات الـأـرـض ، نـهـض مـن أـعـماـق الـطـمي وـرـاحـ يـسـحبـهـم إـلـى جـوـفـهـ .

الآن ، تتساوى الأشياء وتتحـدـ . لـكـان ظـلـاماً دـامـساً يـغـطـيـها وـيمـزـجـها : الـحـيـاة وـالـمـوت ، الـبـرـدي وـالـجـسـد ، الـأـقـدـام وـالـوـحـل ، الـطـلـقة الـمـبـهـرـة وـالـعـيـون ، الدـم وـالـمـاء .

كانوا الآن يقاتلون ، وـهـم يـغـوصـون كـالـتـمـاثـيل المـنـتـصـبة ، دـاخـل أـطـيـاف الـمـوـت وـالـيـأس الـتـي اـتـحدـت بـهـذـا الحـقـل الـأـبـلـيـسي الـذـي غـطـى مـلـامـحـمـ الـبـشـرـية . كـانـت السـاعـة تـشـير إـلـى الـخـامـسـة عـنـدـمـاً أـطـبـقـ الـهـجـوم عـلـيـهـم وـابـتـداـ الرـصـاص يـمـزـقـ الصـدـور وـالـرـؤـوس وـيـخـتـرقـ الـصـلـصال وـالـوـحـل . وـفـوق الـدـائـرـة الصـغـيرـة الـتـي حـوـصـرـوا فـيـها ، انـقضـتـ الطـوـافـات بـرـشـاشـاتـها الـقـرـيبـة جـداً . استـدار رـامي الـدـكـتـريـوـفـ نحوـها ، لـكـنـ الغـرـينـ الذـي وـصـلـ سـرـتـه ، خـانـه . رـشـقـتـه طـائـرـة بـزـخـات سـرـيعـة عمـودـيـة فـدارـ

كلوب بطيء حاضنًا سلاحه كطفل وفي عمق الطمي نام .  
انتهينا . سدى . سدى .

قالها خالد أحمد زكي أو مهيار الباهلي أو كلاهما معاً أو السماء والأرض الملتهتان .

وفوق السطح الغريني كان خالد الآن يغالب بقوته الروحية . بوحشية صرخة اليأس وهي تكافح لتنخطى انهيار الجسد ، كان يتقدم بعد أن فرغ رشاشه من الذخيرة ، نحو الدكتريوف ، لكن قدميه كانتا تغوصان أبداً في عمق الصلصال المغناطيسي .

وهو يتربّح داهنته البروق والشرارات . بروق وشرارات عصبية على الوضوح . مِرْقُ من أزمنة الطفولة والشباب . أطيااف مدن بعيدة . فراسات ملونة تسبح في فضاءات زرقاء . أصوات وابتهالات تتراهم على شاشة امتنج فوق بياضها الليل والبحر والدم والوحول والكلاب والرصاص . تأتي وترحل طيوراً أو بروقاً أو دوائر من الصراع الذي داهم الرأس في حميأ حلم مبهر يشبه انشقاق الضوء في عيني طفل يصرخ وهو يخرج من رحم أمه . مسح وجهه لترحل الكوابيس فرأى الدماء . كانوا الآن حوله . نؤابات رؤوسهم وأسلاؤهم . الأذرع النابتة في الطين والعيون المنطفئة وأنين مهيار الجريح .

في لحظة تأنيب أحس أنه قاتلهم . كانت دماءهم على أصابعه ووجهه وثيابه . صرخ صرخة الروح الأخيرة : آي . آي . سامحوني . انهضوا . انهضوا يا أحبابي . وحيد . آني وحيد .

واحداً واحداً سماهم ونطق بأسمائهم وهو يجوس بينهم كمموس : آي . آي ، يا . . .

في كتفه باغتته الطلاقة فانحنى قليلاً ممسكاً بجرحه : مهيار . . . حاول أن يتقدم فشعر بالإعياء .

من مسافات قريبة ، برأ وجواً حصدته الرشقفات في الرأس والظهر والخاصرة ، فتلوي . حاول أن ينهض ويتوارزن لكن الجسد المصايب خذه . اختل التوازن فهبط وئيداً على ظهره في أحضان مهيار المدمي . وهو يبتعد بالطمي وذراعي رفيقه ، رأى فوق غشاوة العينين ليلاً مديداً نجومه كانت تتتساقط وتنطفئ .

ظهور الـلـويـاثـان



بعد أن يندحروا في أحوال الهور ، فتمتزج دماؤهم بالغرين و المياه المستنقعات ، ثم يتهاوى من يبقى في الشوارع والأزقة والأقبية برصاص كواتم الصوت والبلطات القاطعة وضاغطات الكونكريت التي تهشم الرأس بين مخالبها وسائل مستحدثات القتل المستوردة ، وينجو من ينجو هارباً عبر فجاج الأرض ، ويعرف من يعترف تحت موجات التهديد والجبن طالباً الغفران والتوبة ، ستذهب الريح الصفراء قادمة من أفق الصحاري حاملة الغبار والرمل والجراثيم والحشرات السامة وغضب سنوات المحن التي سيمحل فيها الزرع ويجف الضرع ، فتنتوى أسراب الجراد وتنتشر الأوبئة والأمراض والحروب وحالات الجنون ، ويصير الموت مأولاً فاماً مثل شروق الشمس وغروبها .

في ذلك الزمن الغريب ، الخارج بلا معقوليته عن تقاويم الفصول ، سيحدث ذلك الشيء الرهيب ، المخلج للعصور والبشر ، عندما سيسقط من غبار الريح ، وفي سياق هذر الصحراء النبوية المتعارف عليه داخل العقل الإهليجي الذي استوطنته الأساطير والخرافات البدائية ، ذلك المسلح الغريب الذي سيطلق عليه رمزاً عبيداً الله بن أبي ضبيعة الكلبي .

سيقال عن ظهوره فيما بعد على السنة العامة وشيعته ، أنه نبوءة تستند إلى تقاويم انتظار ظهورات وتحولات المهدى المنتظر الذي توارى في سرداد مظلم في أعقاب سنوات الفتنة والاقتتال الأهلي التي تلت اغتيال أسد الله الغالب ، الخليفة المغدور على ابن أبي طالب .

كالفطريات سينبت ، بعد أن تقدّه الريح الصفراء الجائحة على سطح الأرض الصالحة كالمزبلة لإنبات كل أنواع الشوكيات والخبازيات

والنفل البري والرذين والحماضيات والقتاد واللويفة والصبار الوحشي والتيتان والأكال الحرشفي والقراصن والزقوم والحلبوب السام والدهموج الدرعي .

سيولد ، حاملاً في دمه نسخ هذه النباتات ، على شكل قنطور أو لوياثان . نصفه الأعلى بهيئة ضبع والنصف الأسفل شبيه سلطان رملي زاحف .

لكنه بعد أن يخرج من غبار الصحراء زاحفاً نحو المدن ، سيعبر أطواراً من التحولات العضوية ، كما سيمتلك قدرة خاصة ، ربما كانت خارقة للعامة ، على الإيحاء بأنه من أرقى الخارقين لمأثور الزمن . ومع مرور الوقت ، بعد أن يعتلي عرشه ويوطد ملكه بالقتل والنفي والتجويع فتصبح البلاد تحت سطوطه وعيون بصاصيه ، سينسى أصله الأول وشكله الابشري .

وكما حول شكله الحيواني إلى الهيئة البشرية ، سيغير اسمه واسم سلالته ، وسينشر بين الرعية تاريخاً جديداً لميلاده وفتوره وتمرداته وكفاحه الصلب ضد أعداء الوطن .

وبطاقة تجديد الشرق لأساطيره وحكاياته السحرية بفاعليه أشعة الشمس الحادة ، والامتداد الصحراوي ، وتناسخ الديانات الغيبية ، وهيمنة الخيال الجامح ، ستبدأ أسطورة عبيد الله بالتكوين والتبلور والامتداد على مدى ربع قرن من الزمن ، يتداول الناس خلالها معجزات وخوارق هذه الهبة السماوية التي لا تولد إلا مرة واحدة كل ألف من الأعوام .

وكما كانت تتمجد أسماء الأنبياء في العصور السحرية ، فيروي الخلف عن السلف معجزات أولئك الرسل وتجلياتهم ، سيروى عنه في الليالي السحرية وفي أعماق القرى البعيدة والبوادي المنداة بالوحشة وهذيانات الوحدة اللطيفة .

رؤى غريبة خارقة وصلت إلى أن القبائل والقرى والمدن حجبت كل منها عن الأخرى يوم ولادته ، وهي تبشر به بالذبائح والنيران ، زاعمة أنه ولد فيها ليلة القدر ، وأنه واحد من الظهورات الجديدة لقب الإمام المنتظر التي تتجلى كل خمسمائة عام مرة .

وسيقول الناس ، بعد العام الثاني عشر من ولادته الربانية ، إن

أعلام ملوك الدنيا نكست يوم مولده ، كما ستمر وحوش الشرق بوحوش الغرب حاملة البشارات . كما ستبشر به أهل البحار والبواقي والسهوب ، منقداً ومحرراً للبشرية المعذبة . وفي كل شهر من شهور حكمه ستبدأ النداءات تخرج من شهب السماء وطيوور الأرض : أن ابشروا فقد آن للمنتظر أن يخرج إلى الأرض ميموناً مباركاً .

وسيروى عنه ، كما أسلافه الأنبياء ، أنه بقي في رحم أمه المبارك تسعة أشهر كاملة لم تزد ساعة ولم تنقص ، فما شكت أمه وجعاً ولا ريناً ولا مفاصلاً ، ولا ما يفترض للنساء من ذوات الحمل . كما ستتحدث أمه في الليالي السحرية الغامضة عن يوم مولده . كيف رأت جناح طائر أبيض مسح على فؤادها فأشاح الرعب عنها والوجع ، ثم التفت فإذا هي بشراب أبيض يشبه اللبن وكانت عطشى ، فشربته فأضاء منها نور عال ، ثم رأت نسوة كالنخل الطوال كأنهن من بنات عبد مناف يُحدقون بها فصاحت : واغوثاه ، من أين علمن هؤلاء بي ؟

ثم يشتد الأمر عليها وهي تسمع الوجيب في كل دقيقة أعظم وأهول ، فإذا هي بديباج أبيض يمداً بين السماء والأرض ، فإذا برعد يأتي من أعماق السماء ليقول : خذوه بعيداً عن أعين الناس . وترى الأم ، وهي تحت المطر الحار وهذيانات مابعد المخاض ، رجالاً يقفون في الهواء يحملون أباريق من فضة ترشح عرقاً يشبه الجمان والندى ، لها رائحة أطيب من المسك الأدفر والعنبر المعصفر . تحت هذا البخار اللطيف ترف أجنهة من الطير مناقيرها من زمرد وأجنحتها من ياقوت ، تغطي سماء الحجرة . في تلك اللحظة السرمدية سيكشف الله عن بصرها وبصيرتها فترى مشارق الأرض ومغاربها ، وثلاثة أعلام : علم في المشرق وعلم في المغرب وثالث على ظهر الكعبة . وفي لحظة المخاض ستسمع منادي ينادي : طوفوا به شرق الأرض وغربها ، وأدخلوه البحار كلها ، والكهوف كلها ، والسرادق كلها ، وقاعات الملوك ليعرفوه . ثم أعرضوه على كل روحياني من الأنس والجن والطير والسباع ، ليعرفوه باسمه ونعته وصورته ، وليعلموا أنه الماحي والمهلك والقادر والغازي والفاتك وأخر الأزمنة . ثم ترى سحابة تعبر بها أعظم من الأولى فإذا نيران متقدة وطيووف أرجوان يسمع داخلها صهيل خيل وخفقان أجنة وأصوات استغاثات وصراخ الشجر والأطفال وموتى القبور .

ثم ترى ، وهي تحت أمواج الضياء ، علمًا من سندس على قضيب

ياقوت وقد انتصب بين السماء والأرض ، فوقه اندتدت نار بلغت عنان السماء ، فإذا بقصور الشام تشتعل ناراً وحرائق ، ثم ترى أسراباً من القطا والنعام والدراج تسجد له ناشرة أحنتها وهي ترتعد .

ثم ترى رجلاً من أتم الناس طولاً وأشدهم بياضاً ، يأخذ المولود فيتفل في فمه ومعه طاس من ذهب ، ثم لايلبث أن يشق بطنه فيخرج قلبه ليشقه شقاً مخرجاً منه حصاة في حجم حبة خردل ، ثم يمسح على بطنه وهو يردد قلبه إلى مكانه . آنها يستيقظ المولود وينطق لكن الأم لاتفهم ماذا قال . فيقول الرجل الذي أخرج حبة الخردل من قلبه : أنت خير البشر فطوبى لمن اتبعك والويل لمن تخلف عنك . ثم يضرب الرجل الأرض بقدمه فإذا ماء ينبعق أشد بياضاً من اللبن يغمس فيه المولود ثم يخرجه فإذا وجهه كوهج الشمس وإذا بريقه يقع على قصور الشام وقوع البرق الصاعق . ثم لايلبث الرجل الجميل كالملائكة أن يلبس المولود قميصاً من حرير بلون الدم ويقول له : أمرني ربى عز وجل أن أنفخ فيك من روح القدس . هذا القميص أمانك من آفات الدنيا ودواهيه . فكن كما شاءت لك القدرة العلية وقوتك التي لراد لها ولا محيد عنها ، وريثاً لقوة وسطوة الباري في الأرض إلى أن يقضى الله بك أمراً كان مكتوباً .

سيشاع ذلك في البدايات الأولى ، قبل أن تأتي الأزمة المهلكة والسنوات العجاف : سنوات الظلمة والمسوخية والهوان والجوع والجرب والجراد والجنون . سنوات المقتلة .

قبل ذلك ، ومع بداية الثلث الأخير للقرن العشرين ، ستشهد بلاد العرب مهرجانات ومناسبات سعيدة واحتفالات غريبة ، تتوج ذلك المسلح القنطورى مهدياً طال انتظاره في ظلمات السرتاب الذى اختفى فيه السليل الثاني عشر الخارج من ضلع الإمام جعفر الصادق . على مدى سنوات طوال سيكون إمام الزمان أو شبيهه . ستقول ذلك الهتافات التى تطلقها الحناجر كالرعد ، مهلاة بمجده الذى ابتدأ بتصفية أعدائه فى الداخل قتلاً وسجناً ونفياً .

وكما سبق في روعه ، من خلال أحلام جنونه الوردية ، سيتوهم بأنه وريث الفرسان القدامى الذين انتصروا في القادسية وحطين ودقوا أبواب بواتييه ، آنذاك سيرفع صوته فوق موج الجماهير الزاحفة نحو حلمها صارخاً باقتراب فتوحات التوحيد للإمارات المجزأة ، واعداً بامبراطورية لاتغيب الشمس عنها ، أعظم من الامبراطورية القديمة التي

سقطت على يد هولاكو قبل حوالي ألف عام .

وفي تلك المناسبات والمهرجانات والاحتفالات ، سيرسم للناس في الفراغ خرائط من السعادة وغبطة الأزمنة : بلاد خضراء ، مصانع للعمال ، مدارس وجامعات مجانية . شعب مسلح . جيش لا يقهر ، مفاعلات نووية . حدائق وأوتومسترادات وقصور وستادات رياضية . وقوافل ومجالس شعبية . الرجل المناسب في المكان المناسب . لظلم ، لاطغيان ، لاجوع ، لاقهر بعد اليوم . الوطن للكل والكل وراء القائد الملهم ، الخارق ، الذي وهبته العزة السماوية ، واصطفته روح الأجداد صرخة مباركة من أعماق أجداثها .

مع بداية العام الثالث لانبعاثه ، سيحدث خلل أو تهدج في نبرة الصوت . نوع من التخلخل الفراغي في الخرائط وتكتونيات الفضاء .

لقد هزم جيش عبيد الله بن أبي ضبيعة الكلبي أمام الأعداء في أول تجربة حرب .

سيعود الجنود الناجون مشتتين ومحطمين ومغفرين بالغبار والدم والعار . لقد قاتلوا وحيدين بلا طائرات ولا صواريخ ولا دعم ولا إسناد مدفعي . في العراء وعلى الطرقات وقرب صخور الأودية تعفت الجثث تحت الشمس . جنود في عمر الشجر الفتى الناهض سقطوا وهم يقاتلون حتى آخر طلقة ، لحظة كان الضباط يفرون كالأرانب ، بينما القائد الملهم ، الخارق ، المطوب من السماء يتحدث عن مجده الشهداء ودمهم الذي يحيي الأرض والموات فإذا هي بين عشية وضحاها مزهرة كأشجار اللوز في الربيع .

في أكثر من حرب خاسرة سizzج ضباطه وجنوده الذين حولهم بالرعب والتصفيات والرشاوي وأكاذيب النصر والتعالي فوق الشعب حماة وسياجاً له ، إلى أدوات مطواعة مستسلبة تتحرك طوع بناه . وفي كل هذه الحروب مع الأعداء سيعود من يعود مرغأً بوح الهزيمة ودماء العار ، أما من سيموت مرتاحاً من هذه المهزلة الأبدية فسيسجله في سجل الشهداء الذين ضاقت بهم مدافن الوطن .

وفي فسحة مابين هذه الحروب التمثيلية ، المسربلة بأوشحة قومية وديكورات من تراجيديا الصراع الكوني بين العدو الغاصب وأحلامه التوسعية ، وبين الشعب والوطن ، كان يطلق لأولئك الجنود اليـد الطولى في

طول البلاد وعرضها في النهب وهتك الأعراض واستباحة كل ماهو مقدس وأخلاقي وموروث من التاريخ الوطني لكافح الألاف ومجدهم في تشيد وطن حر ومتحد ، تناقضاته تحل بال سبيل الديمقراطية وتعدد الأحزاب وصراع الثقافة المتشعبه في اتجاهاتها ، لابقة السيف والجند والبربرية الطائفية ووحش الاستخبارات .

كانت تلك الفسحة في زاوية من زواياها تبدو تعويضاً خسيساً عن خسائر الحروب وعار الهزيمة ، ونزعة السلطة الاستبدادية الموروثة من قرون طويلة ، كما كانت في أصلها الشخصي لهذا الوحش المعاصر ، تعبيراً سادياً عن نزعة الفرد المأخوذ بوهم جنون العظمة والمنكرى نحو جذره الحيواني . نحو الطوطم أو زعيم القبيلة المهووس بقطبي شرامة الدم ، ودوار التاريخ الذي يورق فرداً من خلال اختبات أوهام مد IDEA ظل .

هكذا سيسقط ذلك الكوكب العربي المنبوذ والأرض ، تحت أمواج اجتياحات وأعاصير لاصلة لها البتة بالعصور الحديثة . اجتياحات وأعاصير تعود في أساس انبثاقها إلى التسوس القديم للجذر الأول وكسوف الشمس فوق الصحراء اللعينة ، وسطوة الزمن البدائي الذي صرخ طفاته قبل ألفي عام : إلى الجحيم العقلاه والشعراء .

وما كان هناك من قوة مادية أو عقلية قادرة على إيقاف انهيار هذا الكوكب المتهاوى في تجليه الكارثي . وكما كان يحدث في العصور القديمة من انبثاقات تشبه الظهور الأسطوري أو الأوبئة التي تقتل قبل معرفة مضاداتها هكذا جاءت الصحراء اللعينة بهذا الوباء الذي حملته الريح الصفراء . حدث الأمر قبل أن تنير الشمس ظلال القارة التي ماتزال تسبح تحت العصر الجليدي ، القارة الواقعة تحت سطوة القانون الدارويني الأول المتssh بالتشوه السالالي والحنين الجارف لأزمنة البوادي وزئير الغابات .

لقد بدا ذلك الشيء المرعب والمنبه بما سيأتي من ربيع دموي قادم ، وهو يتلااؤ في تقاويم العصور تحت الهزات وتشققات الأرض ، وخراب الواقع البشري ، يوحى بأن هذه الأرض كأنما خضعت للعنزة وسمتها في غابر الأزمان لحظة أهين الأنبياء الذين حطموا الأواثان وتمردوا على الطاغوت وعبادة الحجر الأصم .

الشيء الذي يستعاد الآن ، داخل دورة اللولب للزمان الذي لا يتقى

أبداً ، وهو يركع تحت أقدام طوطمه الجديد الخارج من ضلع الصهارى والمتجلب فى البشر على شكل سرطان مدرع .

في غفلة من الزمن وضياع الوعي البشري ، جاءنا ذلك اللوياثان المجنون . داهم القارة العذراء بقوة جنده وظلمنا . بدأ عمليات التطهير داخل البلاد ونشر الرعب بدءاً من عائلته فعشيرته فطائفة فحزبه فالشعب الذى سطا عليه .

وكما كان القياصرة المعتوهون والمسوسون يرتدون من كوابيس المؤامرات والاغتيال ، كان هو يتخيّل في ليالي مجده المؤرقه أن هناك خونة يحيكون ضدّه مؤامرات اغتيال داخل جهازه الحزبي والعسكري .

لم تكن تمضي أكثر من ستة أشهر على دورة التصفيات الداخلية . كان الأمر يتم على شكل مسرحي للمشبوهين أو الذين لم يعلنوا الولاء المطلق أو الذين ينبعون بانتقادات في الاجتماعات السرية للحزب .

وكان هؤلاء المتهمون يغتالون سراً في منازلهم أو مكاتبهم أو يصدموه بعجلات السيارات في الشوارع ، وفي اليوم الثاني تقام لهم جنائز مهيبة كشهداء للوطن .

لم تكن سنوات المقتلة للمدن والمقابر الجماعية قد أتت بعد . كنا في زمن ازدهار السجون والقتل الفردي والنفي . وكانت حروب مهيار الباهلي الأهلية تتواتر داخل تحولات عصبية على الإدراك وهي تدرج في سحب خيباتها .

وخلالاً لتحليلات مهدي جواد واعتراضات مسيو عقل الباهلي حول الشراسة والسطوة والبطش كلي القدرة ، والنقائض التي تختمر ، كان يبدو في المرارات والخلجان المحابيدة ، وفي التواءات تلافيف الدماغ وبلازم الدم ، شيء آخر أعظم هولاً ولعنة ، وأوغر هواناً وتسفيلاً يتمدد كالأميب فوق تلك الأرض . شيء اسمه الهوان أو التواطؤ أو الخوف ، كان مايزال يهلك لذلك اللوياثان الدموي الذي سطا بسحره الأرجواني وحركاته الأكروباتية على ملايين ملائمة بأقدارها وشهواتها العضوية .

تلك الملايين كانت ترى في الأغساق والضحي وهي تطير منومة ومسحورة فوق أشعة بنفسجية تصعد نحو السماء بأجنحة ملائكة فوق آبار النفط وهي تردد في ترتيل إلهي سعيد : أبانا الذي في الآبار . أبانا

المذهب كنور الشمس . ليتمجد اسمك العظيم وليخلد نور بهائك الخاطف للأبصار . وكالخشخاش السحري لترسخ بذور سلالتك المقدسة في أعماق الأرض : أيها القدس الأبدي . آمين .

تحت ظل هذا الدمار العظيم والهيكل الخرع للسلالات التي خبا ومضي نجمها فهوت كشظايا شهب في أعماق الأرض ، سيفاجئ عبيد الله الكليبي نفسه حاكماً فرداً ممجدًا ومهاباً بين فسحة الحلم واليقظة . لا يجرؤ على اعترافه أحد في عصر الرعايا والمملوكيين والمقتولين والضفادع وتجار السوق السوداء والمتقفين المسفلسين ببخار النفط وحزبيي الخط اللارأسمالي ، فيرتمي في سمعه أنه رسول العناية الالهية لإعادة مجد الأمة المنتهك ، وأنه وريث عظمة الآباء والأجداد الذين يتقمّضُهم الآن .

وكما أقام الله مملكته الوهمية في فراغ السموات ليدخل في خلود ذاته بذاته ، سيقيم ذلك الجنرال المعتوه مملكته داخل النسيج الأرجواني للأرض التي طوبها باسمه . المملكة التي ستزدهر على مدى السنوات الصفراء ، متمطية في إهاب لحظتها الأبدية بدءاً من زواجهاته المقدسة من عذارى القبائل بغية توحيدها إسوة بالرسول الأعظم ، مروراً بخطاباته التي سيعدد فيها سلسلة أ��اذيب النصر على الأعداء ، وانتهاء بتحالفاته الاستراتيجية مع أمراء النفط لتنميته الاقتصاد الوطني .

في إطار هذا المسلسل الكابوسي اللانهائية له ، سيترشد أفقه الرصين بعبارة جده الرهيب معاوية بن أبي سفيان : لو كان بيّني وبين الناس شرة لما انقطعت . كلما شدوا أرخت وكلما أرخوا شدت . مقيناً من خلال هذه الحكمة الميكانيافية تحالفات من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب ، وهو يردد في سره : ربي خذ بيدي في مملكتي لأخذ بيدي في مملكتك . ربي زدني أرصدة في الدنيا والمصارف لأزيدنك ابتهالاً في الآخرة . ربي لتكن منافعنا متباالة ولتحقق القصد الذي من أجله ولدتنـي فأكون طفك البار على هذه الأرض الفانية .

كذلك أو مايشبهه في الرمز الخيالي ، سيحدث في عصور العار . زمن على حافة الأساطير ، أو هو لبوسها اللامعقول في لحظة انفجارات الفضاء بالأقمار والمحطات الكونية . في ذلك الزمن سيبدأ سلسلة الآلهة والضياع والسرطانات وإفرازات الحيض الدموي ، من خلال رواد الإشراقية ، صياغة التقويم الجديد ، الذي سيدوم أكثر من ربع القرن ، بدءاً من طوطم الأسرة فالعشيرة فالطائفة فالحزب فالجيش

فالاستخارات : هيكل الدولة القنطورية الحديثة ، ظل الله أو ظله هو على الأرض .

وفي ذلك الزمن السريالي المتخطي لمدارك الدماغ ، والذي يذكر بعصور ما قبل التاريخ ، سيريوي المؤرخون والأنتروبولوجيون ومطاردو علم السلالات أن تاريخ الشرق وبلاد شبه الجزيرة العربية ليس أكثر من تاريخ الأساطير الدوارة التي تستعاد الآن فوق شاشة الأزمنة الحديثة على شكل رقائق جلدية وأجرات وعفاريت ولصوص وتجار وأمراء وقتلى وسجون ومؤامرات وتجويع ومهانات ، منبعها ومصبها في نهاية المطاف ، أماسي شهرزاد التي سهر الناس على حكاياتها في بغداد ودمشق ، وقد أدخل عليها في هذا العصر بعض الظلال الروائية غير المبهجة للقلب .

وكما روت العامة نقلًا عن بصاصيه وشيوخه وتجار مدنه ، بشائر عن قرب انبعاثه وظهوراته ومعجزاته ولادته أو رؤى أمه التي حملته كالأنبياء في رحمها المقدس ، سيريوي الناس من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب ، حكاية مشروعه التطهيري وتحويل الصحراء القاحلة إلى جنات عدن تجري من تحتها الأنهر .

ففي لحظة خارقة من لحظات التجلّي ، وبعد أن يكون قد فرغ من ألعابه اليومية من النساء إلى المقامرة إلى التوقيع على الاعدامات والصفقات التجارية ومنح امتياز البحث عن البترول في البحر للشركات الأميركيّة ونقل وتسريح عدد من الضباط غير الموالين أو المشتبه بهم ، سيختلي بذاته في غرفة من غرف قصره الذي شيده أحد المقاولين وقدمه له هدية في عيد العرش ، ليرسم الخطة الشمولية لما سيسميها : معسكرات التطهير ، وتخضير الصحراء ، وعزل السلالة القنطورية عن بقية الرعايا بعيداً عن التلوث الغوغائي .

وهكذا ، في اللوغاريتم الجديد لا المتخيل . سيرسم على رقاع من جلود الغزلان البيضاء خريطة مستعادة في الزمن الراهن لزمن قبائل الأجداد آن اندفعوا في موجات غزوهم عبر الصحراء المترامية رافعين رايات الفتح والهمة العالية والقلب الشجاع وأحلام العروبة الأصيلة والمعصبة لمواجهة الإمبراطورية الرومانية الهرمة التي كانت شمسها تميل نحو الانحدار ، وروح اندفاعها تهوي إلى الشيخوخة والزوال .

ثم يكتب تحتها : الزمن المضيء .

على الجدار الآخر المواجه للأول سيرسم خريطة أخرى مناقضة للأولى ، يظهر فيها قوة العدو الجديد المرابط على أبواب العاصمة ، ويوضح ضعف الأمة التي انهارت في أعقاب أمجادها القديمة وحضارتها التي أثارت الأكوان يوم كان العالم غارقاً في عصور الظلمة البربرية ، هذه الأمة المجيدة مهددة اليوم بالانقراض والزوال على يد حضارة العدو الناهضة والقوية .

ثم يكتب تحت اللوحة : الزمن المظلم .

في الليل وهو نهب هواجس وأشباح وابهاقات فوسفورية تنتابه بين الحلم واليقظة سيسأله كيف ينقذ هذه المملكة المهددة بالسقوط والدمار .

وإذ يوغل في ترهات عوالمه المجنحة ، فيسطو الباطن على الظاهر ، والمجنون على العاقل ، يرتدى قميص طفولته القديم .

يوم كان يحلم بتكوين عالمه الصغير المحيط به على صورته هو . في أزقة القرية الموحطة كان مهووساً بلعبته المفضلة : عسكر وحرامية مع فتيان الحي . كانت أشعة الحلم تذكره بالفتى الصلب الصارخ بقوة زعيم من الهنود الحمر يقود رجاله إلى الحرب ضد الجنود البيض .

هورا . هورا

هكذا كان يصرخ وهو يتقدم رافعاً العصا والمدية أمام مجموعة من الفتياز الذين اختارهم من الشطار والزعران والحمقى واللصوص والعاطلين والسفلة والشهوانيين ، للفتك بخصومه في الحي الآخر .

بحنق وهو يغرغر من الضحك والتشفي ، كان يضرب رؤوس الفتياز الأعداء بعصاه المصنوعة من أغصان الزعور المحروق ذي العقد . كانت الدماء تنفجر من الجبار الغضة ، وإذا يهوي الفتى العاثر على الأرض كان يسحق بهدوء وجهه وأنفه ثم يبصق في عينيه : يا ابن المنيوشة . أنا عبيد الله الكلبي . رح أدخل في مؤخرة أبيك ولا تعود إلى هنا بعد اليوم .

على صوت الصرخات وغرغرة الدماء والرعب ، يستيقظ .

آه . ياللزمن المديد . الزمن الباهر !

لقد هجعت الطفولة في مهدها الصغير ، والحي صار بلاً واسعاً .

بلاد تدخل الآن حدادها بعد أن أقبل عليها الموت من كل حدب وصوب ،  
ولامن يرفع سيفها الملقى في الوحل .

زمن غريب سينشق فيه الابن عن أبيه والعاشق عن عشيقته والصديق  
عن الصديق ، والموجة عن شاطئها . فلا يكون إلا الانهدام والشقاء  
اللامحدود . في تلك الليلة الثانية بعد الألف ، ومع الانبهادات الأولى  
للفجر ، أثر معاناة كابوسية مريرة ، سيضاء عقله بشعاع مبهر يخترق  
السجف السميكة .

سيتراءى له وهو يخطر بين الخرائط المظلمة والمضيئه أن الأمم  
والملائكة القابلة للحياة تحتاج زعيمًا متعصباً وحزبياً متعصباً . هذا  
ما فعلته ألمانيا الجermanية في تاريخها يوم اجتاحت العالم وأخضعته  
لقوتها وجبروتها ، وهذا ما فعله بونابرت الذي أنقذ شرف فرنسا ومد  
فتوحاتها إلى كل أوروبا ، وهو ما يفعله الأميركي الذي يقود العالم  
كسوبرمان قومي متصعب .

وإذ يتذكر جوزيف ستالين وسطوته الدموية ، ينبرأ عقله المتأنج  
بهذا البطل التراجيدي الذي أنهى حياة عشرة ملايين إنسان لتنتصر  
الشيوعية وتخلد قوة الفرد الذي يغير مجرى التاريخ بإراده الحديد  
والنار .

من هذه المقدمات سيسنتج عقله المصاغ من شهوة الدم والحدق  
والطفولة السادبة وعصارة النباتات السامة ، أنَّ خلاص مملكته لن يتم  
بغير هذا التعصب المقدس ، وبما أنه وسلالته يكتفون النسخ الصافي  
والباء المشع ، فهم إذن حملة هذه الرسالة المتعصبة التي ستنقذ الأمة من  
ترديها وتعيد لها كرامتها لتشع على الإنسانية نورها الوضاء وترجحها  
من ظلماتها .

ففي تلك الليالي المحتملة فوق شاشة عقله الملتهب كانت تتتصاعد  
من أعماقه كراهية على شكل أبخرة سوداء تتشكل مرتسماً عنكبوتياً  
يضرى بالسم ، فتتراءى له تلك القطعان البشرية وقد تحولت تحت عدسات  
ملايين العيون العنكبوتية أسراباً من الذباب العالقة في الشباك اللزجة  
تختلج في احتضاراتها وضراعاتها الصامتة .

ولأن تلك الحشرات التعسة لم تكون كما ينبغي أن تكون تحت مجاهر  
عينيه ، كان يتخييل أن بإمكانه امتصاص دمها وهضمها ثم تمثيلها داخل

جهازه الهضمي ليعيد تكوينها من عصارة وبلازما سلالته الطاهرة .

هكذا سيصور له خياليه السريالي المتوج بالدم والروث والقتل والاحتقار والعصاب واحتدام الشوق الإلهي ، أن يقيم مستعمرة عقاب صحراوية مسيجة بالأسلاك الشائكة والمكهربة ، يضع داخلها شعبه المعارض والجامح ليعيد تكوين ذلك القطيع بالشكل الذي يراه بعد خصيه ووشمه .

وفي تلك الزمن الأسود ، زمن الخنوع والغروب ، ما كانت تلك القطعان قد دمرت آهتها القديمة ، ولا خرجت من أرحام أجدادها ومقابر طواطمها . كان حبل السرة مايزال موصولاً مع الأزمنة الرعوية وأزمنة عبادة الواحد القهار في السماء والأرض ، ذلك الذي يقول للشيء كن فيكون . ومن خلال تلك الهشاشة الرثة والرئيس العكر المترسبين في أعماق القلب الضعيف والدماغ النحلي ، كان يتخترت أي خنزير أو لواطي أو لص أو قاتل ليتوج نفسه ملكاً في تلك الأرض الخراب فتققدم منه الجموع زرافات ووحداناً ومعها زبائنهما وقرابينها وأموالها ونساؤها وما نبتته أرضاً من زرع وضرع ، لتقدمها مسبحة بحمد هذه الهبة المباركة والطوطم المنقد ، وريث الخلفاء والأئمة ، وظل المعبد على الأرض .

في رواق ظلام ذلك العصر المفلت من سياق التاريخ ، وفي مجرى التفكك الجيولوجي للأرض ، وانتشار موجات من الفطريات على سطح الشمس ، وانبعاث الرعب من الموت الذي داهم المدن والمعقلات والسكان الآمنين ، سيتوهج عقل قنطور الزمن الأخير عن قانون سادي يطلق عليه : قانون التطهير الوطني .

وحتى لا يبدو الأمر روائياً مبالغأً به ، وكأنه مستقى من مخطوطات صناديق الأجداد القدامي ، ثمة حيثيات لانقلاب الدحض بخصوص هذا القانون المؤرخ بالثبت التاريخي ، موجودة بين أوراق مهيار الباهلي السرية المخبأة في سواد العراق وبادية الشام .

ففي العام الثاني عشر من اغتصاب الوطن على يد عبيد الله بن أبي ضبيعة الكلبي ، وبعد مذبحة الأهوار ، وتشتيت الشيوعيين ، وتدمير اقتصاد الوطن في حروب خاسرة مع الأعداء ، وقتل عشرات الآلاف من الشعب في الحروب الأهلية الدينية ، وإقامة الدولة الطائفية ، سيفترج اللوياضان إقامة معسكرات لكل منحرف ومن يعتنق المبادئ الهدامة ، في

أعماق الباردة . سينص التشريع الجديد على ضرورة استبدال المعتقلات بمعسكرات الصحراء . الحزبيون المعارضون واليساريون المتطرفون واليمينيون واللبراليون والهيببيون والسيالييون واللامبالون ، والمتقدرون اللاقوميون ، يزجون في معسكرات تدريبية يشرف عليها ضباط متخصصون من ذوي الكفاءات العضلية والقومية .

في هذه المعسكرات ستلقن القوة والتعصب وافتداء الوطن وحب الزعيم والحزب . وبعد الدروس النظرية سيقوم المدربون برياضة الجري . لاستكشاف الصحراء بغية التعرف على أطلال وذكريات ومستحاثات الأجداد الذين ماكانت الشمس لتغيب عن ممالكهم في الأزمنة الباهرة .

في ما بعد استراحة الضحي سيبدأ حفر الأرضي واستصلاحها وزرع الأشجار ليصبح الصحراء واحة خضراء كالجنة .

وعلى مدى عام أو عامين ستزرع في أذهان هؤلاء المنحرفين والشاذين والمنحرفين عن قوميتهم ، بذور جديدة ، وأقمار قومية شديدة السطوع ، كما ستصبح تربتهم الخاطئة ، فيشفون من أمراضهم القديمة وأفكارهم المستوردة ، وبعد الامتحانات التي يجتازونها سيحصلون على وثائق التطهير الوطني التي تنص موادها على أن حاملي هذه الوثيقة هم من البشر الأسواء والمواطنين الصالحين . آنذاك ستفتح أمامهم أبواب الاعتراف والرزق والأمان واتقاء غوايل الجوع .

\* \* \*

هكذا ، كما تبني المزروعات والأراضي الخضراء بالأوبئة والجراد والحشرات القارضة وسائر الأمراض التي تهبط من غبار فضاءات السماء ، قادمة مع الرياح السامة ، ابتلينا بذلك اللوبياثان القارض للزرع والضرع والبشر .

وفي ذلك الزمن ، العصي على التسمية والوضوح ، بدوننا كأنما انقلبنا انقلاب السلاحف على ظهورها . أقدام مشرعة في الهواء فقدت صلابة الأرض ، وعيون ضارعة نحو سماوات فارغة ، وصدر عارية للرياح بلا أمل .

ما كان أحد يعرف متى تنتهي سنوات المحنّة وسنوات القتل وسنوات الجوع وسنوات تدمير العقل .

وفي الوقت الذي كان مهدي جواد يتحدث فيه عن دورة اللولب واستعادة زمن الملوك والخلفاء القدامى في العصور الأخيرة من بداية انهيار امبراطورية بلاد العرب مع بداية القرن السابع الهجرى ، كان مهيار الباهلى يحاول جاهداً من خلال است بصارات الزمن المقارن ، نفى تلك الدورة المتأندة ، المنافية لجدل التاريخ .

كان يبدو ، وهو على أبواب حدوشه المنفجرة التي ابتدأت تتجلى في شوارع وحانات بونه ، شبيه مسيح مسلح يبني بعصور من الحروب الأهلية القادمة سيقودها المجموعون ويتأملى الآباء والأمهات والجنود الفقراء المهزومون في الحروب الخاسرة ، وفلاحو الأهوار والبوا迪 ، والعمال العاطلون عن العمل ، والناجون من معسكرات التعذيب واستصلاح الأرضي .

الصيف

**KMH**

كان صيف المدارس يقترب والامتحانات على الأبواب . يزيد ولد الحاج يراهن على نجاح ابنة زوجته . يسأل لا لا فضيلة عن تقدم آسيا في العربية . تجيب المرأة الطيبة بوثوق . لكن الرجل المنهمك بتجارته في بونة ، ومزارع أبقاره في بلدة ابن مهيدى يرعن رأسه استهزاء من عقل لا الصغير : نشوف يا فضيلة . نشوف . ديمَا تهدرى بالخير والشر كاين بحومة قريبة منك .

يقول ذلك عابرًا الممر إلى الحديقة ثم السوق .

الأم التي ترى في آسيا شجرة سي العربي الخضراء ، تتقدم بصينية القهوة والحليب والحلوى . تقول : يزِي علم . هاو بقالكم ساعتين وانتو تديروا العربية . لازم ترتاحوا شويا .

يشربون القهوة تحت أصيل الشمس الأفريقيّة المنسل من النافذة الجنوبيّة ، مارأ فوق سطوح القرميد ومن خلال زهر الليمون والستارة البيضاء التي تتموج بالرياح الرخاء .

كلمات متناشرة . طقوس هادئة ، مغربية ، تؤدي بانسيال عفوی . احتفاء أهلي بالغربي ليُجلِي فقدان . تقوم به المرأتان في تلك اللحظة ، معاً . المرأة التي تحب وهي تقدم القهوة بأصابع كسنابل القمح ، والمرأة التي تحتفى بضيق العائلة وهي تبوح بالأسرار :

يزيد في ضيق . الدولة تؤمم كل شيء . وما بناء يراه ينهار . ماعاد يثق بأحد حتى بي .

الزمن الكامد وهو يُستعاد لا يلبث أن يغمر الوجه بالكتابة . زمن يزيد ولد الحاج الذي طفى في ذلك الأصيل ، وكل أصيل .

تحاول آسيا كف الأسى عن وجه أمها الناضح نضارته ، لكن الأم تبدو رازحة تحت كابوس عصي على الشفاء . ذلك الرجل يبدو أنه أدخلها في مدار عصابه ، عاكساً على روحها والأطفال ، حميأً دماره الاقتصادي الوشيك .

وهي تداري شجاعتها تقول الأم : المهم أن تتعلموا . حياتي راحت .  
رببي يأخذ بيدكم وتطيرون . ينبغي أن تنجحي يا البنى حتى لا يشمت بنا يزيد .

النسيج الوردي لوجه آسيا تخبو نضارته ، إذ ترى الغم في عيني  
أمها . وهي تتأهب للنهوض تُتمّ عبارة عن الأيام الصعبة والأوقات  
الغادرة والبلاد الحزينة .

- مسكينة ماما . تقول آسيا أن الألم ينذّي الوجه .  
بأصابعه يمسح جبهتها الحارة : كوني قوية .  
- هذا الحلوف سيقتلها بالغمة .

تروي كيف طردهه للا مرات ليعود فيما بعد ذليلاً مستغفرًا فقط  
يموء على العتبة طالباً التوبة : ماما قلبها صاف كالحليب سريعاً ماتغفر  
وسريعاً ماتنسى الإساءة .

ويزيد ولد الحاج ، كما تعرف بونة ، اتهم بعد عامين من استيلاء  
بومدين على السلطة ، باشتراكه في محاولة الاغتيال الفاشلة التي جرح  
فيها بوخرورة ونجا . مقدم في الجيش من أصدقاء يزيد يشترك معه في  
مزارع الأبقار ، توسيط له فخرج بعد أسبوعين من الاعتقال .

ويوم عاد إلى البيت ليلاً ولم يلق للا فضيلة دار في الغرف  
صارخاً : وينها الخيانة ! وضع كفيه على الجدار وراح يضرب رأسه  
بالحائط حتى انفجر الدم وهو على الأرض .

- كانت ماما في بيت جدتي . يومذاك كنا صغاري . فاجأنا الذعر من  
صرخاته . رجل مصاب بكابوس الخيانة يصبح كالجنون : يا أولاد  
الخيانة . نريد نقتل روحي . يزئني بوخرورة ، أمكم تخون في وأنا في  
السجن ! وراح يبكي .

جاءت للا ورأت المشهد . رجل في خضم الدم والدموع . بوغت  
بأطفالها الحزانى والمبهوتين والخائفين يتخلقون حول الرجل الأخرق  
الداوى والمنتخب : ماذا جرى ؟ وتروي آسيا باقتضاب . تطوق للا عنق  
زوجها وتقبل جرحه كاتمة شجاعها : عزيزى يزيد . وعلاه . وعلاه . تدبر

في روحك هكذا ! آني معاك روحي . هما الآن ينتحبان في عنق حميم .  
الرجل والمرأة .

الرجل الذي مات .

وهذا الرجل الحي الذي لا يموت .

بينما تترنح لا لا فضيلة وآسيا لخضر . اختلاط الدم والوقت وأشعة الضوء التي تخبو وتتألق . وبين هذا المزج السالالي يهوي رجل غريب آخر يسمى في زمن ضائع ، مهدي جواد .

وفي برهة الاختلاط الغريبة ، المفلترة من عقال العصور ، لا يعرف أي منهم كيف حدث هذا الهرج الساخر . كيف استبدل الميت بالحي ، والغريب بالقريب ، وكيف تشهد المدينة أطوارها الجديدة تحت هذه الانشراخات الصادمة للعقل . منذ الطفولة الأولى تربى سي العربي مع لا لا ابنة عمته . الحي كان يقول وهمما في العاشرة : الأخضر لفضيلة وفضيلة للأخضر . إنهم مكتوبان على اسم بعضهما منذ خلقهما . كانوا حكاية الحومة . هكذا تروي آسيا .

ثم تروي عمما بعد الموت . تقول شيئاً في أوقات الشجن وهي تناكك الرجل المزور ضد الأسطورة . سي لخضر حي فيينا . دمه دمنا وروحه روننا . هو الذي لا يموت . رائحته في الأشياء . ثيابه ساعته ، صورته ، خاتم الزواج ، مفاتيح البيت القديم ، كلها ملفوفة في علم جبهة التحرير التي خاطته ماما قبل استشهاده ومايزال محفوظاً حتى الآن في صندوق عرس ماما .

وفي أوقات مفعمة بالوهج تروي ذكريات عن اقتحام جنود لا كوست للبيت القديم . كيف صعدوا إلى السطح واندفعت مفرزة إلى الداخل بحثاً عن الأخضر . يومذاك لم يكن هناك سوى النساء والأطفال وقد تجمعوا في الزوايا وتحت الأسرة . لقد بالوا في سراويلهم رباعاً . ويومذاك لملمت لا لا رايات الجبهة التي كانت تخيطها في الغرفة الثانية وخبأتها تحت كرسي جدتي المقعدة .

ب بشاشة استقبلت الجنود وفتحت لهم أبواب المطبخ والمرحاض والسباحة وخزانة الثياب والحقائب وغرفة المؤونة ، وعندما شاهدوا الجدة العجوز استفسروا عنها . قالت ماما بفرنسية محطممة : أمي عاجزة لاتقوى على النهوض . وقالت لنفسها وهي ترتعد : ربى يعميهم عمما تحت مؤخرتها ، ثم دعتهم ، وهي تبتسم ، إلى تناول القهوة والحلوى ، لكنهم

رفضوا ، وسائلوها عن سي العربي والفلقة ، فقالت بأن زوجها ليس مع الجبل والمجاهدين . وهددوها إن هي كذبت واكتشفوا ذلك فيما بعد ، فاقسمت بالرسول والقرآن كذباً أن سي العربي مع شاحنته الصغيرة في وهران منذ أسبوع ، وقالت بدهشة : ولماذا الحرب ! نحن كعائلة محايدون ونريد السلام . وأخيراً خرجوا . وفي المساء حضر رسول من الأخضر وأخذ الرایات التي تبلل بعضها ببول الجدة .

تضحك آسيا من رواية أمها عن الرایات المبتلة فتقول لا لا باستغراب طفولي : أليس هذا أفضل من مصادرتها ! إنها تجف في الريح والشمس إذ يرعنونها على الجبل . مبلولة أو غير مبلولة المهم أن ترتفع الراية . وتقول آسيا : أنا لم أضحك على هذا . كنت أرى جدي من تحت السرير وهي ترتعش وجهها يتقلص خمنت ذلك خوفاً من الجنود .

- كانت خائفة حقاً !

- لا . كانت تبول .

- يزي تمسخر . يزي . أعود بالله من هذا الجيل الهمام !

زمن مضى تستعاد الآن تفاصيله القديمة . خمسة عشر عاماً من الشقاء والكوابيس وصمة الدم ، مرّت ، لا على الرمل والحصى ، إنما فوق حقول القلب . عندما تقول آسيا مامعناه عن الجزائري الصلد والكتيم كالحجارة ، يفهم مهدي جواد العبارة الراسحة بالألم العضوي ، ألم التاريخ المضمخ بما فوق المهانة والاستبسال .

لكن الأمر يبدو الآن سرداً للذكرى بعد طول ابتعاد . الذكرى التي اعتادوها في أوقات سريان الماضي عبر الحاضر الجديد المحايث . هذا الرجل الجاثي على الضفة الأخرى من الماضي ، تلتبس عليه الأمور ، وهو يتملى الوجه الأفريقي . الوجه الواضح والمفتوح كسهل من العشب . في ضباب اشتباكاته وهو يراقب العينين العصافورتين بلمعانهما العسلاني تحت الأصيل ، يتساءل إن كانت هذه المرأة هي امرأة العصور الجديدة التي تضرب الرأس كبهقة البرق ليستيقظ ماتحت الرماد ، أم أنها صرخة الطفولة ! فتورة مهدي جواد القديمة تتभطى : حلم المراهقة الأول عن مثال اليقظة ، وصياغات صلصال المرأة المنشودة . امرأة الجنون والنيران والطفولة والموسيقا والأمومة والمنفى الأرض الراكضة والهاربة أبداً تحت جلده وفي وديان روحه .

دائماً كانت تظهر في الليالي وتحت أشعة القمر . نصفها انسان

ونصفها الآخر وعل . تجري فيجري معها أو خلفها في باري الرب الشاسعة والخالية من البشر . وحشان غير أليفين ، أليفان للغابة وشاطئ البحر ، وصخور البازلت اللامعة تحت المطر والصواعق . يحتمان في أوقات الضيق والملل ووحشة القلب فيتشاجران ويفترقان ، وفي أوقات فصول الحنين ووجع الجسد والصرخة الصادمة ، يركض الآخر نحو الآخر . يطير في استدارة الريح ، أو على الغمام ، أو فوق ذؤابات الشجر ، أو طي برق ، لينصهر في الآخر عناق الموجة للموجة ، ويغنيان معاً .

بين الماضي المستعاد ، ماضي الدورة الدموية وحروب الداخل وانشقاقات السلم وال الحرب ، ماضي الذين لم يمسكوا بالبرق وهو في متناولهم قاب قوسين أو أدنى ، وبين وجه آسيا لخضر ، يترنح الزمن . التباس بين النور والظلمة ، حيث تختلط على الرجل الوجوه والأماكن والأزمنة .

كيوليسيس المرمى على شاطئ غريب ، والمغمى عليه من دوار البحر .

حيث لا أحد في المدى المقرر .

إذ يرفع رأسه فيراها .

امرأة طويلة كشجر الصنوبر والعرعار .

ترتدي الغندورة الشعبية قربه .

أميرة المغرب الأقصى ، المضاء في تيه الغربة .

يوم جاء الزمن كحد المدية وقطع حبل الأمومة ، ثم قذفه إلى الجحيم ليصحوا من هلاكه القديم . وفي ذلك الزمن الأسود رأى فيما يرى النائم الذراع الأبيض والأصابع الحانية والدافئة وهي تممسح وجهه . الحنان الموقف للوجع . يومها قالت : ارم الكآبة في البحر . أنت وأنا سنعوض ما ضاع في غابر الأيام .

كم كانت دافئة تلك الأصابع ! كما كانت قادرة آنذاك على مسح الرياح الصرصر ! قالت النفس .

- إنما أنا رجل هالك يا عزيزتي .

- لا تقل شيئاً . أنت بلا حنان ولا مأم .

بالذراع الأبيض الحنون طوقته . كالعسل انساب ريقها .

امرأة النار . الوجه ورائحة الغار ، وهدوء البحر .

- معاً سنبني الخراب .

في البرهة المفلتة من إعصار الدمار كان يرسم رموزاً وخطوطاً فوق جلدها المضاء . وجوه الأطفال ، والحروب الأهلية ، وصدمة الدم ، والعشب الممزوج بالرياح .  
آسيا الأخضر . آسيا الأخضر .

التي لا تبدي كالضباب في فجر ممطر تقاجئه شمس .

- أنت تبكي ؟

- لا . لا . زمن الكلاب جاء والحرقة تبكي .

- إذا ما ضعفت من أين تأتيني القوة !

- أبكي فرحاً . أنا ممتئ بك . لكنني خائف .

- نحن معاً حتى الموت .

سجلت العبارة على هامش دفتر التدريس بالفرنسية . وفي تلك اللحظة لم تكن كاذبة . يومذاك كانت العواطف المراهقة تخنز داخل الهيئة القزحية للرجل المخدوع أبداً . الرجل الراغب أن تكون هذه المرأة قيامة انهياره . الرجل الذي رأى فيما يبدو أنها الآن الأكثر رسوخاً وملاداً .

- الزمن حجر المسن . أنت لم تعرفني بعد .

تنهض لتضع أسطوانة فرنسيّة «حدثني عنه» .

تتحرك وتغنى مع الأغنية . المرأة والأم يطوقانه . موجة بحر ينغرم داخلها .

- هيا نرقص .

المرأة والرجل ، وحرارة الجسدتين في الفسحة الضيقة .

- انظر أمامك ، وحدك لن تصلح العالم . حدق جيداً في الدنيا . ترن الكلمات في غرق سحري أو مهرجان طفولة ، يوم كان يستلقي على الأعشاب ويوجل في عمق الفضاء الأزرق ، مفروم الجناحين كهذه الصور البرية المحومة في الأعلى . يومذاك كان يرصد دوراناتها وحرية حركاتها ثم انقضاضها السريع ، مشدوهاً بهذه القدرة الخارقة للأجنحة والجسد والعيون التي تحدد هدفها ثم تنطلق كالسهم نحو الأرض حيث الفريسة . هكذا كانوا يدوران في فسحة البيت كالفراشة والضوء . وفي تلك الفسحة الضيقة مع المرأة التي وهبتها له الآلهة البحرية ، كان يحاول أن يزيح الكابوس القديم . كابوس الظلمة واللعنة التي تحذّث

عنها أمه فيما مضى وأشارت إليها فلة بوعناب يوم قالت : في هذه المدينة سيتدمى قلبك إلى الأبد . إنها مدينة العاهرات المقدسات .

بعد الرقص ناولته الحلوى مرة أخرى : ذق صنيعي . هذا من أجلك !

كانت تتصرف كزوجة وكأم . الطفلة المفعمة بطغيان سعادة موجة حب هي الآن مغمورة طيئها .

- فيما بعد يأتي الحزن أو الموت وكل الهراءات الأخرى .

تحكي عن الدنيا الراخنة بالحرارة . عن الأفارقة أبناء الدم الحار المفعمين بالشمس ورائحة الغابات والبحر . الجسد المشرب بالرغبة والشوق إلى حياة نابضة بما قبل الموت .

- بابا مات لأنه كان يريد أن يحيا .

وتنستطرد وزراعها تطوق عنقه وعيناها تحدقان كالصقر في الجدار : مئة وثلاثون عاماً من الموت . احفر تحت أية صخرة أو شجرة من وهران إلى عنابة فلن تلقى سوى العظام . ليس من أسرة لم تفقد شهيداً . عشرة ملايين كانوا يحملون أكفانهم ويتجهون إلى المقابر . الآن كفى . كفى ماقدم من الدم والعظام . لقد انتهت الحرب وبدأت الحياة .

## - 2 -

يعبر بانسييون فلة بوعناب أساتذة الشرق . من رشيد الفلسطيني إلى عبد الله السوري إلى ذو النون العراقي إلى مرسي المصري ، والآن هذا المهيار . أسراب من الطيور المهاجرة والمتبعة ، تحاط على شجرة أفريقيا الوارفة . ترتاح وتتفيقاً وتفلبي ريشها ، وفي الصباح تنقر الثمر المباح ، ثم ترحل ضاربة في عمق سماءات جديدة .

وفلة شبيهة أنتي العنكيوت . بعد الليلة الأولى تطوقهم بخيوطها ثم تبدأ امتصاص دمهم بتأنٍ إذ يهدون تحت تأثير الطعنة الأولى للبظر الملتهب . امرأة مصاغة من موران الشمس . صخرة صوان مؤججة بالحرارة ودفق الدم . إنها تروي عبرهم في الأماسي تحت سطوة الثمل ، كما يروي الشعراء الشعبيون أساطير الزمن القديم . تروي بحيوية دفقة ، فتبدوا أقوى من الزمن ومن هذا العبور الفضائي لرياح الشرق . جرحتها الضربات لكنها لم تتعب ، لا من الفرنسيين ولا من الجزائريين ولا من هؤلاء المشارقة الجوعى للجنس .

وهي تتوشع بالفضيحة تقول : من بين فخذى مر كل الغزا . الأغраб والأشقاء وأبناء الدم . جسدي كالصحراء التي أتت منها . لاالرياح ولاالأمطار محت معالمه . الآن يراها مهيار الباهلي وهي تدخل أحد أطوارها إذ تنجلب دخيلتها صاعدة إلى الأعلى . هي الآن تعنق جسدها المفتتح . يحاول محاورتها حول العضوية وانتهاكات الوطن المجرح فتمد لسانها مقتاً ثم تخرج من مؤخرتها ريحًا ذات رنين . تضحك عاليًا بلا مبالغة ممزوجة بريهه ، وبهذا الألق الصاعد من نبيذ مسكرة الدموي . والآن هي هذه الفلة الجميلة والمتألقة ، المندمجة بالجسد والنفس واستجابة الدم . لقد أخذوا الوطن وأعطوهها البانسيون . بوخروبة والوزراء ومسؤولو الحزب والضباط والمؤتمرات وقيادة النقابات والمنظمات ، تفك عندها . ترسم الخطة الزراعية والخماسية والسداسية للتعريب والثورة الزراعية والصناعية والرعوية وتعمير الصحارى واستصلاح الأراضي ، أما هي فتفتح ساقيها ثم ترفعهما لتهصر بهما ذكر العنكبوب .

- مadam هناك من يقول لك : استرح أنا أفكرك عنك لماذا تتعب نفسك بالتفكير ؟

قرفاً ينفع مهيار . يتناول قدح الشاي ويرشف . يبحث في جيب بيجامته عن سبحةه ويبدأ التسبيح .

- سبح ياخويا يا مهيار . سبح . هذه هي الدنيا !

تقول العبار الأخيرة بالفرنسية (*c'est la Vie*)

يتأوه مهيار : أنت امرأة ضائعة يافلة !

تضحك من هذه العبارة التراجيدية الفارغة . وهي في غمرة نشوتها تروي له للمرة ألف كيف بكى مرسي ، الولد المصري ، في فراشها ثم كيف لعق بظرها بطريقة صبيةانية تشبه امتصاص الثدي . بعد أن بكى نام بين ساقيهما . أنهضته وطوقت رأسه بذراعيها . طوال الليل كان يهذي بأنه إنسان ضائع في هذه الدنيا . تافه ومنبوذ ويبحث عن أم . لقد ماتت أمه وهو ابن ثلاث سنوات ، وتزوج أبوه من امرأة سودانية متوجهة كانت أقرب إلى الرجال منها للنساء ، ولأنها لم تنجب كرهته وأجبرت والده على رميها في غرفة واحدة مع الأرانب والدجاج والحمام والقطط . جل طفولته قضاهما مع رائحة روث الحيوانات والطيور بدلاً من رائحة جسد الأم .

- أخذت شيئاً من دمه وأعطيته حناناً . أكيد . إنما لاتسأل عن التعادل ولا عن الخسارة والربح .

- أنا مصر أنك لاتعرفين الطريق يا عزيزتي . العالم ليس مقايضة وليس سلعة .

- اسمع ! أريد أن أقول لك شيئاً غريباً : أنا افريقي من أتباع نبض الدم إلى أي جحيم يقودك الدم اتبעה . أما أنت فبامكانك أن تظل تطارد سرابك الثوري . أنا تعبت ياخويا من الدناءات . فهمت ؟

تراقب موجات اكتئابه من خلال الغضون الشجرية الملتفة على جبهته . تستطرد وهي تترنح بحزنها الرمادي : أمس نزلت إلى السوق وشفت الناس . رأيت الحوانين الممتدة في شرائين المدينة ورأيت السلع المعروضة من آخر مبتكرات الموضة إلى السيارات الأميركية والفرنسية وأجهزة التلفزيون إلى حوانين الذهب والماس . لم أسمع ولم أر إلا خذ وهات . إله المال كان يصرخ صرخ وحش جائع في غابة . إله السماوي . إلهم الذي يصومون له ويركعون من أجله في الجوامع ، كان يداس ويجرجر . كانوا خاسعين أمام الإله الجديد : الدينار . لم يتغير شيء . كل الناس كانوا هناك يبيعون ويشترون بانجذاب مغناطيسي . ضراوة التملك . ضراوة الاستهلاك . ضراوة النهب . صار السوق كل شيء في حياتهم . لقد تحولوا إلى ذرة تدور في مدار خذروف السلعة . كانوا مشدوهين أمام العرض . مسمرين أمام الأشياء التي تسلب لهم ناسين الرب والثورة والأخلاق . إنهم يشترون ويشترون بحمى وشبق الجنس . كل الشعب كان هناك في سوق المدينة . هذا هو الوطن الآن . تسألني : ماذا فعلت إزاء هذا التحول الأميركي . حقاً ماذا فعلت ! بعث كل ما أملك بدءاً من الشرف وانتهاء بالله والثورة واحتقنت بنيفسي . إلى الجحيم . الوطن الذي صار سوقاً ليس وطني ، وأنا لاذب لي . لقد سجلوه في الدوائر العقارية والمصارف باسمهم : العسكر والوزراء وجهاز الدولة والمخبرون والتجار ، ثم طوقوه بالأسلام الشائكة والدبابات ، أما وطني أنا فهذا البنسيون وهذا الجسد .

بعد لحظات سينتهي مهيار الباهلي من احتساء شايه الأخضر . سينهض متأففاً ومبلاً بالأسى ، لامن حالة فلة بوعناب ، إنما من هذه الحالة الجغرافية والنفسية الشبيهة بائزاع اخطبوط بحري . أذرع الحيوان الهلامي السابع في بحار الشرق والغرب ، الذي أمسك به الآن وهو عار في بحر هذه المدينة ، وبدأ بامتصاصه . يذهب إلى فراشه لا

لينام . يتناول كتاب *مالعمل* ؟ في رأسه صدوع الزمن . يقرأ ليرمّم هذه التصدعات بحجارة وعيه المتماسك والمحاصر داخل حيزوم الرأس . الوقائع . الحشيشيات . الخراب . الهلام الأخطبوطى الدبق . عصر عبد الله الكلبي المزدهر . كلها مرئية وتحت البصر الثاقب . يقدح الزناد على الصوان المترافق فتنبثق إشعاعات وروائح وألوان لاتلبث أن تختلط في منحنيات الخروج إلى الأرض الصلدة ، وحتى لا يbedo مهدماً ومسكونا بعرى الفاجعة والقوة التدميرية الأشد هولاً منه ، يخلط هذا المزيج في مختبره العقلي ، مولداً منه مثاله ويتوبياه المضادة . عالم جميل ، عادل ، نقى ، يشع في رأسه .

إن مسألة فساد الطبيعة التي تحدثت عنها فلة بو عناب ليست أكثر من لوحة ميكافيلية أو نيتشويه ، راكمتها المراهقة وخيبات الزمن .

لكنه سيدخل فيما بعد مع مهدي جواد في حوار محتمم حول الأسباب البدائية لمنشأ هذا الفساد والخراب الخلوي .

عندما يحاول مهدي شرح هذا الفساد بتراكم عصور التخلف والارهاب وممارسة الدين الغبي ، يقول مهيار بأن هذا ليس فساداً جوهرياً ، إنما هو عرضي . الجوهرى يستعصى على التغيير لأنه أزلى أما العرضي فيزال ببنقيضه .

يسأله مهدي وهمما يحضران السمك وسلطة الخس والطماطم : قل لي . مهيار . حالة فلة بو عناب جوهرية أم عرضية . وهل يمكن تغيير هذه الحالة ؟

ينفخ الرجل الذي يكون العالم في رأسه كما كون الله الكون في العهد القديم بعد الغمر : بالتأكيد . . . ممكن . إنما في مجتمع كهذا ، لا . حالة فلة انعكاس خراب عام .

- ألا تعتقد الآن أنك تفكـر بالاقتصاد المحض ؟

- لا . الاقتصاد وعلم الاجتماع .

- وعلم النفس البابلوفي .

على المائدة يتخذ الحوار مساراً آخر ، يخرج من مدار الكتلة والخلية الاجتماعية المتجانسة وغير المتجانسة ، للفرد وميراثه واغترابه الداخلي وتكونيه الذري الشعوري واللاشعوري ، إلى مدارات أخرى حول الأدب والسفر والنساء وذكريات البلد البعيد وأمواج الطفوـلة .

مهدي جواد ، وهو يخرج إلى المدينة في منتصف الليل ، عابرًا

شارع عبان رمضان وأول نوفمبر ، باتجاه غرفته القائمة وراء المسرح البلدي ، يغيب من رأسه مهيار الباهلي منطويًا داخل أطياف يوتوبية وعالم سرابه المفصولة عن جسد ونبض العالم ، ل تستفيق شفافية المدينة وأسرارها وصمتها الغامض . بونة مدينة البحر والشجر الأفريقي والنساء الشبقات والخلو البشري في المساءات . المدينة السرية النائمة في هذه الأوقات الحقيقية : الليل . التوق إلى امرأة تطوقها وتطوّقك تحت شجر الدردار . على الشواطئ العذراء ، وفي أعماق الغابة . تسمعان هجيج البحر ونداء الطيور الليلية . تستيقان فوق عشب الحدائق ، زندك تحت رأسها الدافئ الرطب وأنتما تراقبان النجوم في فضاء من الكريستال الأزرق . تنبض الأرض داخل خلايا جسديكما فيدخل الليل والهواء والضوء والأصداء والبحر والشجر والتراب . كل هذا الزمن المتدفع المرئي واللامرئي ، الهلامي والصلب ، بعيد كهذه النجوم والقريب كالجسد . الزمن الهارب والمفقود الذي يحتاجك ويخترقك ، حيث يبقى هو وتتبدد أنت . الزمن الجوهري وأنت العرضي في هذه الملهأة الضاربة ، وأنت لا تدرى إن كان الليل يسري فيك أم تسري فيه ، متراجحاً فوق هذه المدينة الغربية والعذبة والتي ترغب امتصاصها واحتواها حتى لافتلت يوماً وتتحول إلى طيف من حنين قديم ، مبدل .  
بغفة يحدث ما لن يحدث أبداً .

رغبتـه التي تكشفـت في قطرة لؤلؤـ : أن يجـثـ من ضـلـوعـ هـذـهـ المـدـيـنـةـ ، اـمـرـأـةـ الـحـلـمـ : آـسـيـاـ الـأـخـضـرـ . يـخـرـجـانـ كـالـنـيـزـكـ منـ مـدارـ سـمـاـوـاتـ العـائـلـةـ وـالـوـطـنـ وـالـلـهـ ، وـنـصـلـ الزـمـانـ الـحـادـ .

يدخلانـ في نـسـيـجـ الـجـلـدـ وـالـلـحـمـ وـالـدـمـ . انـصـهـارـ العـنـاـصـرـ الـأـوـلـىـ دـاـخـلـ وـثـبـةـ الدـمـ الـجـدـيدـ ، فيـ الـغـرـبـةـ الـمـطـلـقـةـ ، وـالـعـارـيـةـ ، لـحظـةـ يـتـدـفـقـ ذـلـكـ الدـمـ الـمـلـعـونـ ، موـغـلـاـ فيـ الـأـرـاضـيـ الـصـلـبـةـ الـتـيـ لـاتـفـرـ وـلـاتـرـنـعـ وـلـاتـقـوـضـ .

هيـ ذـيـ مـدنـ أـخـرـىـ وـشـوـارـعـ جـدـيـدـةـ ، تـظـهـرـ عـلـىـ الشـاشـةـ الدـوـارـةـ . سـاحـاتـ وـغـرـفـ وـأـرـصـفـةـ وـخـمـارـاتـ وـنـسـاءـ غـرـبـيـاتـ ، وـشـجـرـ أـبـدـيـ الخـضـرـةـ ، وـحـمـائـمـ زـرـقـاءـ . طـائـرـ غـرـيبـ يـشـبـهـ طـائـرـ الرـخـ يـطـبـقـ عـلـيـهـ بـرـاثـهـ وـهـوـ نـائـمـ . يـعـبـرـ بـهـ مـحـيـطـاتـ صـخـبـةـ وـيـخـرـقـانـ السـحـبـ وـلـمـعـانـ الرـعدـ ثـمـ بـغـفـةـ ، مـنـ شـاهـقـ ، يـهـوـيـ بـهـ إـلـىـ جـزـيرـةـ الـظـلـمـةـ الـجـدـيـدـةـ .

### مشهد البيلفدير الفضي

قمر فوق بحر . احتفال الليل بعناصره . سماء منارة . لمعان الأشعة على الماء . استيحاش البر والشجر ورطوبة الرمل . أفق مديد ، أحضر ، فضي ، أسود ، ملايين الجن وراء الخليج المظلم تستحم في غمرة الزبد ووحشة الخلجان الصخرية .

الآن أغلقت بوابة أبوابها النهارية وانفتحت الممرات السرية للمتعة المنتهبة .

حفل ديونيسيوسي ، في معبد باخوس العراقي .

ومن بابل حتى حافة القبر ، يبدون أوفياء لإلههم القديم أبي نواس الذي ولد في جرن خمر ، ومات محسوراً بعد مغادرته . وفي أول مدينة يرثمون فيها كانوا يسألون عن الخamarات قبل السؤال عن الفنادق .

أية فاجعة عضوية للجسد لو نام واحدهم وهناك قطرة خمر لم تختس بعد !

لقد انفلتت عصابة المدرسين من رصانة النهار وغبار الصفوف ووحشية المدينة ، واعتمروا هذا الليل البووني عشية عطلة الأحد من النصف الثاني من شهر مايس . ليل بلا نساء . ليتهم الذكور . الليل المغمور بالنبيذ والبيرة والأسواق النارية ، المتضامة .

على مرمى الأقدام يتكسر الموج المنار ، وينحسر .

داخل رطوبة الرمل غرسوا زجاجاتهم المدخنة لتبترد ، بعد أن فتحت أخرى تحفظ ببعض برودتها .

شفافية ليلة تنهر رطوبتها ندى في طيات ريح بليل ، وصوت البحر . مع الدخول في شغاف الليل تتبدل قسوة الغربية ، لتأتي الطفولة . تأتي من عراء البحر وأشواقهم . تندفع في الصرخات والتعري وقدف الأحذية والقمصان فوق الرمل الرطب . راكعون على ركبهم في برودة الرمل أو منبطحون أو مستلقون على الظهور العارية ، وبين أكفهم زجاجات الخمر .

هكذا بدوا في ليلة الطفولة البحرية تلك عندما سيقول أحدهم من خلال خفة جناح طائر قطع آلاف الأميال : نحن في معبد باخوس .

يرد آخر : هذا شاطئ شارع أبي نواس البغدادي .

يصدِّي آخر وجهه مغمور بالبحر : لو أستطيع نقل هذا البحر

الجميل إلى بغداد !!

- ها . عيني . دجلة ما يعجبك ! يقول صوته ضاحكاً .

- روحي . يامغفل . أنت ماتفهم قصدي .

صوت بحنون قصب البردي في الريح ، يدندن . صوت ذو النون الموصلاني عاشق فلة القديم والمخضوب حينيناً إلى تراب الموصل . ذلك المؤال النائي في ليل بونة الغريب ، الموجع ، كان راغباً في نقل البحر . ذو النون الذي هجرته فلة بو عناب فانكفاً إلى كنف مومسات عنابه ليغوص خيباته داخل فروجهن المقرودة . وفي هذه المدينة ، كما في كل المدن التي شهدت شتاهم ، كانوا يندفعون نحو رغباتهم اندفاع قطيع خيول عطشى للماء .

لكنهم كانوا مضمخين بالحزن ، والسوق الخفي للموطن الأول . شبيه أسراب الغزلان التي اعتادت مراعيها . الغزلان المذعورة في الأرضي الغريبة . هكذا كانوا يرونهم متضامين ، خائفين ، يرتدون خوف المداهمة .

وفي بونة كانوا يغطون خوفهم بالثمل . الجزائريون أحبوهم إذ رأوا فيهم مآيماتهم : كيفنا هؤلاء العراقيون يعيشون يومهم وكأنهم سيموتون غداً . عندما سيتقدم سبي عزراائيل ليخطف أرواحهم لن يجد في أجسادهم سوى العظام والكؤوس الفارغة ، وحطام العاهرات . ولأن المرأة والحرية بعيدتان عن جسم هذه الليلة المقرمة ، استعيض على شاطئ البيلدغير النائي ، بهذه المسرة الخمرية .

هذا ما قالته الغربية ، في بلاد العرب في ذلك الزمن الغارب .  
كالأشباح تنااثروا فوق الرمل . يشربون من فوهة زجاجاتهم بشيق أمومي . يررون الأسرار . يفيفون بالحنين ويطلقون الصرخات الضارية ، وإذا يتضلع القلب تحت الصفاء الألوهي لمجرات الأسى ، ينتحبون للأطفال .

سهرة مفتوحة في عراء أفقه البحر والسماء المضاءة . مهيار الباهلي ومهدى جواد منفصلان ، كل منهما مندمج مع مجموعة . مهدي يتحدث مع ذو النون وداود عن الحب والجنس في بونه ، ومهيار مع آخرين يحكون عن الطفولة البدائية للإنسان الأفريقي . ولأن الحديث عن الوطن يثير الشجن ، كانت المجموعات الأخرى تتحدث عن المومسات في مرسيليا والبيكار و مدريد والدار البيضاء .

أثير للقلب وشفاف ، تحت أمواج الخمر والبحر ، أن يفيض الإنسان بأشواقه السرية . يطلق طيور أعماقه راسماً في فضاءات لاتحد ، صوراً باهرة وعلقة للمرأة - المثال التي يحبها مندفعاً وراءها كصياد تسحره الغابات والتلال الوعرة والضباب الأزرق . غير أن ذو النون ، هذا الشاعر البوذليري الملعون بالحس الجنسي ، سوف يدمّر هذه الرسوم السريالية التي يرسمها مهدي ، ثم لا يلبث أن يطلق عليها رصاص الشهوة . إنه يتحدث ، وهو يوري إلى فلة بو عنّاب ، عن النساء العنابيات اللواتي يشبهن نساء الأمازون .

يشبهن بالعناكب تارة والأفاعي تارة أخرى ، يلتقطن بأعضائهن حول جسد الرجل ثم يبدأن الامتصاص حتى يتحول إلى جثة : هذه هي الحقيقة . حقيقة الرجل والمرأة هنا .

يصرخ داود صديق ذو النون وشريكه في البيت : عيني . ذو النون . لقد بلغت من العمر عتيأ ولم يبق فيك ما يمتص . يغضب المصلي : قوار ابن القحبة داود . أنت وش مدريك بهاي المسائل . أنت قاعد تحوس على غلمان المدرسة . يامعوّد يامنيوش أنت قادر تميّز بين الفرج والمؤخرة . ولد القحبة ! يضحك مهدي بانشراح . داود بوجهه القردي يقهقه . يرفعون زجاجاتهم ويكرعون .

- عيني ذو النون لاتزعل . أولاً أنت عجوز حقاً . ثانياً أنت لاترى في أية امرأة تلقاها أكثر من فرج . هذه هي الحقيقة عيوني . اعترف . اعترف بما تبقى لك من رجولة وشهامة . يقول مهدي .

بيد راعشة بالزمن والحنق يشعل الرجل الأربعيني سيجارة هقار . مع دفقة بيرة تتبرد أعماقه . يركز هجوماً تعويضاً على مهدي جواد : الخائب الأبدي . يقول له . وريث ابن الملوح وابن ذريح وسائر التعسae الخائبين عضوياً . أولاء الذين ضمرت أعضاؤهم التناسلية من قلة الاستعمال .

- تصورو ياناس ، ياهو . ياكائنات . رجل على أبواب القرن الواحد والعشرين في مدينة تعج بآلاف النساء يتعدّد في محراب امرأة واحدة منذ عامين . وإذا تسائله : شنو عيني . لم هذه التقوى للرب الواحد الأحد ! يزم شفتيه ثم يعقد غضون الجبهة ويؤولج : شف . حبيبي ذو النون . آني رجل مخلص . البنت بنت شهيد وأنا وفي لميراث الثورة . ويستطرد هازئاً بتجليه الجميل الساخر : مهدي رجل قضية والقضية لاتخان ! أبداً لاتخان ! ها . ها . مرحباً قضيّة . مرحباً قضيّة . وشهداء

وثورات . مرحباً ياسنوات العبث الدموية في سبيل الشيء الذي سيكون ولا يكون .

أما أنا - يستطرد مبتهجاً وممروراً - فأقول : مرحباً يابحر ويانسأ الله التعيسات . مرحباً بالوقت الراهن واللحظة العابرة . يصرخ وهو يرفع زجاجته : مرحباً بهذا الرمل الذي يهرب وبالموت القادم . بالأصابع يحتقن الرمل . يعصره ثم يفتح كفه فينهال الرمل من شقوق الأصابع . بين البهجة ودقة المرارة يشربون . بعضهم يتقطط الجانب الهزلي وأخرون يرون طيف الأسى في شحوب قمر البحر . يقول مهدي وهو يرفع زجاجته : نخبك ذو النون . أنت جوهرة في عالم موحل . صدقني . طيز أم الذي لا يحبك .

- لاتؤاخذني أخي مهدي . نحن على بساط خيامي وأنت تعرف كم أحبك . أنت رومانسي حقيقة وحمار في نهب الذات ، اسمح لي بذلك ، إنما أنا أحبك لأنك ودود ولا تخشى في الحق لومة لائمه .

تفيض حالته . يشرب بسرعة . شاعر نقى الروح في ضباب غربة الأفق نقى الخفق إذ يرى سماء مفتوحة بين سرب من الطيور الأنثى . تحت غمرة البهجة التي أطلقها مناخ الليل البحري ، يوازي بين حبه لهذه الصحبة العذبة والحميمية وبين فروج النساء التي يعبدتها .

هو الشاعر الذي استبدل الشعر بالحس . المنبر برطوبة الرمل المنهال من فرجات الأصابع . شهوته ودمه المتلاشيان في الزمن .

- داود . خويا . ياقواد يا أبو الغلمان . عيني هات لنا بيرة باردة من مطمورات الرمل المصقع .

كالشامبانزي يثبت داود باتجاه الشط .

بدت مسرات الآخرين تفيض داخل غلاف الزمن المقرن ، المتتشحة به هضاب البيلفدير وشاطئه الذهبي . في تلك الليلة بدا ذو النون نجم القطب . ومع أنهم اشتربتوا من البداية تنحية السياسة وقدفها إلى البحر ، إلا أن فيض الخمرة كسر الاشتراط . ذو النون اللعين تحدث عن ماضيه مع الآخوان المسلمين في المرحلة الثانوية . تلك التجربة التي سماها : خديعة الطفولة والمراءفة .

- الآن أنا لست حزبياً ، صدقني أخي مهدي أنتي لا أكره الشيوعيين ولا القوميين ، لكنني رأيت ما حل بالعراق من المأسى .

صرخ داود وهو يحفر لينزع الزجاجات من الرمل : ياجوز .  
ياسكران . ممنوع الحديث في البوليتيكا المنيوشة .

- قواد . شنو تفthem أنت غير في النيشا ! واستمر : عشت وشفت المرارات والدماء . احتراب الماركسية والقومية وضيق أفق الاخوان ولا عقلانيتهم . اقتتال طوائف . هذا مارأيت . قلت الكل باطل وبقى البعض الريح . كما قلت : الجميع أوصلونا إلى حطام الوطن . أنا ماذَا أكون ؟ وكيف أعيش ؟ بعد طول تأمل قلت : ياولد . يامعورد . اتبع الدم . اتبع الجسد . شهوة الدم الأنثوي . رائحة المرأة التي تنسرج حول جسد الذكر هالة فيصعد الحنين الأمومي كالبخار أو الضباب في أنساغ الخلايا . آنذاك نقع فريسة الروائح التي سطت عليك من كل جنبات الكون المحيط . ذلك يشبه مكان يحدث للجد الأول في الغابة أو للفحل وهو ينزو بين القطيع من أنغام الروائح التي تطوقه وترميء في الزوجان الجنسي . الجنون . الجنون العظيم للجسد المتألق في جحيم مجده . الجنون الذي يلغى العقل والإرادة فيضعهما تحت هيمنة دوي تلك الصرخة البدائية للوحش وهو يندفع محموماً نحو أبهة الأنثى - الموت . آه . يا إلهي الشيطاني . لقد جبت أبا نواس بالخيام بابن أبي رببيعة ثم بنيت منهم هذه الأننا . هذا الذو النون الزانبي الزنديق . خاطئ أو مصيبة ، وجودي أو سريالي ، واقعي أم مثالي ، هذه التصنيفات لاتعنيني . الكأس والمرأة منجاتك ياولد في هذه الدنيا الفانية . هذه فلسفتي في حياتي . أعجبتك أم لم تعجبك ويلعن أبو اللي مابيحبك وببيحب الناس والدنيا . داود يابو العيورة . وبين البيرة ؟

كسلحفاة ارتمى على ظهره ، مشبوحاً فوق الرمل ، رانياً بملء جسده إلى السماء الناصعة . السماء التي يحلم باختراقها .

- فلة بوعناب أيتها المؤمنة المقدسة . أيتها النجمة ! آه .. آه .  
جاء داود حاملاً ثلاثة زجاجات وزعها على العصبة المنفردة عن الآخرين .

كما يحسن جسد امرأة جس زجاجته : الله . الله . ياولد . ياداود .  
لقد غرفت لك . انكح كل صبيان بونه وأنا شفيucek يوم القيمة . قال ذلك بغيطة مطلاقة .

- عيني ذو النون . اطلب القمر وأنني آتيك به . رضاك فقط هذا ما  
أبغيه ! غفرانك عيني !

صاح العائد من اختراق السماوات التي لاتخترق : لاقمر ولا من يحزنون . فلة بوعناب الأمازونية وبس . آخر يأمي على أفران أفريقيا الحارة !

في تلك اللحظة سأله مهدي جواد وهو يداعب خا صرته : كم أنت سعيد في زمانك العضوي !

واستيقظ . نهض من استلقائه . بدا وجهه المضرج والملفوح بالصحراء شبيه تمثال أسطوري . بفتحة قال : أنت لا ت يريد أن تسألني عن ذلك .

بالرمل أمسك مرة أخرى : أنت تراهن على حصان واحد دائمًا . من الشيوعية حتى آسيا وأنت تراهن على هذا الواحد . ما الذي يبقى من الزمن السعيد عندما ينشق الشيوعي على الشيوعي ويسلمه إلى سكين الجزار ؟ أليس هذا ماجرى ؟ الحياة كهذا الرمل انهبها قبل أن تجلس كالعجوز على أطلالها تبكي . أرجو أن تفهمني وأنا أخلط الأشياء في الزمن المجازي .

كتف الشاعر لامستها كف مهدي جواد : لست بعيداً عن الحقيقة يا صديقي . إنني أفهمك لكن الإنسان ليس دمه ، وحسب !

\* \* \*

هم الآن في مملكة النشوة . الأبواب فتحت ، تحت القمر قرب البحر - الطفل ، على مصاريعها ، وجاءت الريح . نهضت مجموعة ترقص في مواجهة البحر عندما صاح داود بأعلى صوته إلى الجحيم بوليتيكا ذو النون الموصلية .

- فيس . فيس . غلمان أبو نواس . هرهر الشاعر الفرح . وراح يغنى لهم بصوته الشجي ، الراقص .

كانت الخيول الجميلة ، المحاصرة ، ترقص وتصهل في المراعي ، خارقة حصار الوقت ، والوشل المدمّل تحت الجلد . أذرع ترتفع وسيقان عارية تخترق الرمل . حفل زورباوي تحت الهزيع الأخير من ليل بونه المنسي . الليل المفعم بالمسرة والصرخات . أصوات تتماوج ، متصادمة مع هسيس الموج ، في المساء السري ، الغامض والمضاء .

بغفة قال ذو النون : إلى البحر أيها الملعونون ! إلى المطهر أيها الوحش ! استجاب داود وحسان وكاظم ومهيار ومهدي . تعرّوا

كالبدائيين . قروداً أو آلهة ، هكذا ظهروا أمام معبد الماء الفضي ، الملأ تحت القمر .

كان الماء يitsu ببرودته . بعد أن أوغلوا جاء الدفء الحريري . عذوبة الماء امتنجت بحرارة الجسد المخمور . شبيه طيور النورس يطوفون ثم ينغمرون . صيحات فرحة ومذعورة وهم يتراشقون ناثرين الرذاذ في الفضاء المضاء . احتفال ديونيسيوسي .

الجسد والبحر . المرأة والرجل داخل الأبهة المجازية ، الشفافة . مهيار قرب ذو النون والماء يغمرهما حتى أعلى البطن .

- ها . عيني مهيار . كيف شفت بونه ؟ قال ذو النون وهو يمسح الماء عن شعره الذي تحلل صباغه الجديد .

- بلاد طبيعتها ساحرة ، إنما البشر تعساء .

عارياً ، فوق المياه . يرتج ذو النون بضحكته المخمورة : فيما أظن أخي مهيار هم سعداء . مادامت لديهم هذه الطبيعة السحرية وهاته النسوة الجمريات لماذا يكونون تعساء ؟

ابتسם مهيار : عيني ذو النون . أنت على مايدو رادارك كعباد الشمس لايميل إلا نحو شمس النساء . أنا عنيت شيئاً آخر .

- ها . عيني . شنو الغلط في المسألة ؟ التعريب يبدأ بالبنية التحتية أم بالفوقية ؟

كحوت داهمه داود ، منبثقاً من غمرة البحر . حاذاه : ذو النون . عيني . خذ حذرك من الصبغة . هاي بونه ما فيها حنة . لاتبلل شعرك . قال العباره بإغاظة محببة . صرخ الشاعر كمن لسع : ها . ابن العاهرة . أنت ملاحقني بهاي المسائل حتى البحر ! واستطرد : شف الكلب ابن الكلب . نحن نهدر عن المسائل المصيرية والجزرية وهو يهدر عن الحنة والتفاهات !

كان يوجه الشكوى لمهيار : صدقني أخي مهيار . مادر العراق إلا هؤلاء . تأفهمون . أوباش . أولاد شوارع .

كان يهدر صاحباً ، مبتهجاً بجسده والبحر وبهذا الضياء الإلهي الذي أشعل مسامه . لم يكن معنياً باتهام أحد لأنه غير راغب أن يكون معانياً ولا صدامياً في حقبة العمر الخائف . صبوته أن يكون صاحباً للجميع ، مسالماً ، وأن تأتيه امرأة ولو بعد سن الثمانين ليعتكف بين فخذيها المقدسين وداخل صدرها في أخرىات الليل .

وهكذا ، كدرفيل معمَّر ، انشبح على ظهره فاتحاً فجوة في هلام الماء ، تاركاً لجسده حرية الانغماس داخل شفافية ورطوبة النسيان العميق .

كانوا عراة تماماً في عمق الماء ، وكانت الأمواج تداعب أعضاء الأجسام المنغمرة داخل حرير البحر . أحزان كثيرة كانت منسية وكان الحنين ضامراً ، وتحت غمرة هذا التدفق الحي للدم والنشوة ، بدا المنفى رائقاً موشى بالطمأنينة وبهذه اللذة العضوية الخارجة من البحر والرمل وأشعة القمر والكحول واللاليالي البيضاء .

وإذ قال ذو النون الذي اغتسل في غمرة هذيناته : المرأة وطن الرجل وحيث ترتاح ثمة وطنك . بدت العبارة كأنها باللون طفل صغير قدف به فوق الماء ، تدحرج ثم تبدد . عادوا من البحر يرتجفون . اندفعوا في الرمل الجاف وتمرغوا فوقه . مررت الريح الرخاء ورطوبة البحر فوق الأجسام فارتعشت قليلاً . شربوا نبيذاً وبيرة فاستراح الجسد أكثر . فرقهم كانت النجوم تومن . هبت النساء وأحلام السفر والمسرات النائمة والشوق إلى حيوانات بيضاء بهذه الليلة التي لا يذكرها الزمان الأسود .

## - 2 -

كانوا يسمونه الإيزرقاوي نسبة إلى قبيلته الزيريق الذين سمعوا عنه ولم يروه ، اعتقدوا أن الاسم محض اختلاق أسطوري أو حركي لرجل موهوم لا وجود له . كانت الاشاعات تتنطلق سراً ، شبيه شرارة في هشيم الغابة عن احتمال استسلام السلطة بانقلاب عسكري شيوعي ، صامت .

وكانت هذه الشرارة تضيء اسم المقدم عطشان ضيوبي مسؤول الخط العسكري ، والذي سيعرف فيما بعد بالإيزرقاوي .

ومع أن حركاته واتصالاته كانت كالخلد الذي يحفر تحت الأرض ، منازله ، ومتاهاته ، وحلقات انتقاله ، إلا أن آثار خطاه وأصواته ، وظلال خرائطه ، كانت تخرج إلى سطح الأرض في الهمس كان ظلاً شبيهاً ، ينتقل بسرعة العاصفة من ثكنة إلى أخرى أو من محافظة إلى محافظة أو من وكر إلى آخر . الذين عرفوه ، وهم قلة من المدنيين ، كانوا مقتنيين أن هذا الرجل الأسطوري لا ينام من يومه أكثر من ساعتين . ولا يأكل سوى وجبة واحدة . لم يكن يدخن ولا يذوق قطرة خمر . ويقرأ خمس ساعات يومياً ويمارس رياضته الصباحية الشاقة من

الخامسة صباحاً حتى السابعة . وقليلًا ما يتكلم .

لقد أخضع حياته لنسق منظم ، قاس ، من الدأب والتدريب تحت ضغط من حس المسؤولية والتربية ، سبورثما فيما بعد لضباطه وجنوده المؤتمرين بقيادته في معسكر الرشيد .

ومع ذلك كان رجلاً عارياً فيما يبدو . شديد الانضباط ، حاد الذكاء ، يتمتع بلياقة بدنية توحى لمن يراه عن بعد بأنه يعد نفسه ليكون أحد أبطال الملاكمه من الوزن الخفيف .

بسريه شبه دينية كان يجهز خلاياه وحلقاته التنظيمية ويرسم خرائطه في بغداد والموصول والبصرة منذ اللحظة التي شعر فيها أن ثورة تموز بدأت تتحرف عن مسارها ، قالبة ظهر المجن للشيوعيين . لقد أدرك بحسه العسكري ووعيه السياسي ، ومن خلال التنقلات والتصفيات التي بدأها كريم قاسم أن الحزب دخل مدار الارتياح ، وأن الزعيم سيقذف بالحزبيين إلى المحروقة بعد أن أحرق القوميين ليكون رجل التاريخ المعبد ، والمنتصر الوحيد في معركة اقتناص السلطة .

غير أن التاريخ يشبه البحر . ففي لحظة الغضب يلفظ من أحشائه ، الطحالب وبقايا جث أقراش البحر المقتلة ، وحطام القرابنة ، إلى شواطئه ، ويظل البحر .

وكالأقراش والقرابنة ، كان العسكريون يلعبون لعبة النار على أرض التاريخ والبحر . ومن الثكنات إلى الإذاعة فالقصر الجمهوري فوزارة الدفاع كانت تتحدد ساحة اللعب ، ومسرح العبث ، وميدان الصراع . كان المشهد في أوج تجليه المسرحي يشبه إلى حد بعيد ستادات صراع الشيران أو الوحوش الكاسرة أو المصارعين في الامبراطورية الرومانية القديمة ، بينما الشعب يتفرج ويصفق ويصرخ من الشرفات .

لكن هذا الرجل الغريب الذي ستوكل إليه مسؤولية التنظيم العسكري ، في أعقاب إعدام الزعيم داخل مبنى وزارة الدفاع ، ونجاح الانقلاب العارفي ، كان يفكر بطريقة أخرى مغايرة للعبة المستاد الروماني .

فعلى مدى عامين ، وفي غمرة الخلاف الحزبي بين الخط الإسلامي الديمقراطي ، وخط الكفاح المسلح ، سينظم عطشان ضيوي سرًا مئات الضباط وضباط الصف من جنوب العراق إلى شماله بشكل محكم وصارم تحت راية الحزب .

كان التنظيم العسكري راسخاً وصلباً في المفاصل الأساسية للقطعات : الطيران . المدرعات . المدفعية الصاروخية . قوات المظلعين . مدفعية الميدان . سلاح الهندسة .

وكانت هذه الخلايا جاهزة في أية لحظة للسيطرة على قطعاتها سيطرة كافية دون إراقة نقطة دم .

لكن كان على قيادة الحزب أن تتخذ القرار السياسي وتحدد ساعة الصفر .

هكذا أفهم الإيزرقاوي ضباطه وجندوه : أنتم طليعة جيش العراق الأحمر . جنود الحزب والشعب عندما تأذف ساعة التاريخ . ولأمر ما ، رغم استعدادهم حتى الموت ، فإن ساعة تاريخهم لم تأذف . ومع أن التاريخ سيزور فيما بعد ، وتذهب إلى المقابر والبحر ، الكثير من وقائمه ، إلا أن العصي على الدفع والتزوير ، من خلال شهود المسرح الأحياء ، إن امكانية الأخذ بناصية السلطة ، في أكثر من مناسبة ، كانت بيد الحزب الذي عف وأشاح عنها .

إن اعترافات الندم ، والنديب العاشرائي ، فيما سيأتي من دمار الأزمة ، وصرخات المعذبين ، والشتات عبر دروب الأرض ، والتأنيب ، لن تكون أكثر من باقات من أكاليل الزهر الذابلة فوق الأضرحة التي لن ينهض موتاها - الضحايا من قبورهم .

في مقر من المقرات السرية لقيادة سيضع الإيزرقاوي خريطة عسكرية للعراق على منضدة قديمة مغطاة بقماش مربع ، ويتناول قلماً ليشرح للمكتب السياسي الدوائر الحمراء والخضراء والأسماء المشيرة إلى الاتجاهات والمواقع ، والحركة المحتملة للقوات المعادية وكيفية شلها وتطويقها . سيحدد في كل قطعة وفي كل ثكنة قوات التنظيم ، وقوات العدو ، والعناصر المحايدة . كما يرسم خطة الحركة في المدن الرئيسية الثلاث : بغداد - الموصل - البصرة ، ويشير إلى أن احتلال العاصمة هو اتجاه الضربة الرئيسية في الحركة بسقوطها ستستسلم المدن الأخرى تلقائياً . من أجل ذلك فالسيطرة مؤكدة على بغداد بالطيران والمدفعية والدبابات ، ثم يوضح بخطوط تفصيلية كيفية احتلال المواقع الاستراتيجية وقطع الطرق الرئيسية بين الشمال والجنوب ، واعتقال رؤوس النظام .

بعد أن ينتهي من إيضاحاته ، وسط ذهول القيادة ودهشتها ،

سيسألونه عن ميزان الصراع داخل الجيش ومرانع القوى وفسحة الوقت المناسب للتأجيل .

- إما أن نبادر سريعاً أو تفوتنا الفرصة . النظام هش ، والجيش يغلي والبعثيون يجهزون قواتهم فإما نحن أو هم . من يسبق بالضربة الأولى سيفوز .

في أعقاب شرح الخطة ، يتناول لائحة بأسماء الضباط وضباط الصف المنظمين ، وأمام كل منهم كتبت القطعة التي ينتمي إليها والمهمة الموكولة إليه في لحظة التنفيذ . حوالي نصف ضباط الجيش وصف ضباطه ، كانوا على اللائحة . كان الأمر مثيراً للدهشة والفزع والثقة ، في آن . عطشان ضيوبي ، الجندي الشيوعي ، مع رفاقه العسكريين ، كانوا واثقين بقدرتهم وبلحظة الضرورة لجسم الصراع ، لافي الستاد الرومانى هذه المرة ، إنما في ميدان الشعب . مرة واحدة وإلى الأبد .

\* \* \*

ذات ضحى والشمس وشيعة من الماس فوق حقل البحر ، سيكتشف الإيزرقاوي والباخرة السوفياتية تبحر به من البصرة إلى شواطئ البحر الأسود ، أنه لم يكن أكثر من ضابط مغامر ، محموم الرأس ، مصاب بلوثة الطفولة اليسارية . لوثة مجونة وعصابية ، تنزع في لحظة الثوران الهستيري إلى الإقدام على انقلاب عسكري مدمر ، يخرب ميثاق التحالف مع البورجوازية الوطنية والديمقراطية الثورية التي تشع شمسها من القاهرة برعاية الأب الأعظم الجاشي في الكرملين . كانت هذه اللوثر الملعونة ، تحلم باستلام حزب شيوعي للسلطة في منطقة حساسة من الشرق الأوسط ، هادفة إلى تدمير سياسة التعايش السلمي والانفراج الدولي . واضعة العالم بين عشية وضحاها على حافة الحرب النووية .

- خراب العالم كان على يديك يا الإيزرقاوي . يا المخبول !

قالت له طيور النورس ، والسحب المتراءكة ، وهواجسه التي قدفت به إلى هضاب وسهوب أوزبكستان النائية ، حيث سيعاد إعداده الحزبي وتتنقيه من جديد ليظهر دماغه الملتح بمرض الكفاح المسلح ومحاربات البورجوازيين الصغار .

سيقاوم ذلك الطائر الأزرق ، بما تبقى لديه من قوة ، هذه الحالة الغريبة واللامعقولة ، كما سيحاول أن يوضع بكل ما أوتي من إصرار ، أنه شيوعي سوي ومنضبط ، فرأ واستوعب الماركسية وهو مايزال

يافعاً ، وأنه يعرف جيداً تاريخ بلاده ومفاصل الصراع فيه والأزمة التي يواجهها الحزب منذ نشأته حتى الآن .

- لماذا يحدث هذا لي ؟

سيتساءل باستغراب .

- لقد كنت جندياً وفيأً لحزبي ولمسؤولتي العسكرية فلماذا أنا هنا ؟

يناقش . يسأل . يحتمم . يصرخ احتجاجاً . ثم يقرر التمرد على دروس التطهير .

من مدرسة الاعداد الحزبي إلى مشفى الأمراض العقلية ، مشهد تراجيدي في مسرح من مسارح اللامعقول .

حكاية خرافية ستمر في مسارب عقل الإيزرقاوي على شكل إيماسات لونية ، تشاهدنا عينان لجسد يستلقي في سرير أبيض . عينان مفتوحتان أو نصف مغمضتين تحت ستار من الظلمة المضاءة بأشعة أكس أو أشعة التهابات الأعصاب أو بريق الطلقات لقوات تتقدم في شوارع وهمية رسمت تخطيطاتها على ورق .

- خراب العالم على يديك يا الإيزرقاوي . يا المخبول !

ذات فجر سيجمع الرجل المخبول ، ماتبقى من عقله . قدرته التي لم تتبدل كلية . تركيزه الماضي كعسكري منصهر في الصعب والشاق ، ويختلط للهرب من المشفى ، عابراً في مغامرة أسطورية ، السهوب الثلوجية والغابات والمدن الغريبة وبوابات الجنون ، مهتمياً بنجم قطبي يلمع في سماءات أعماقه التي لم تنطفئ داخل مختبرات المصل والتطهير .

\* \* \*

سيتحدث خال آسيا فيما بعد عما جرى له في جبال قسنطينة في أعقاب هربه من الثكنة الفرنسية بعد أن سمع بمصرع سي العربي زوج شقيقته لا لا .

بسلاحة سيهرب عمر يحياوي ليتحقق بثوار الجبل ، بعد أن تحول الجبل إلى منازل وأحياء وموقع حصينة . استعيض بها عن المدن المحطلة .

من الضحى حتى فجر الساعة الخامسة من اليوم التالي وهم في أعقابه : الحراس والكلاب البوليسية ، ومفرزة من الخونة المدربين على

## استقصاء الأثر في الشعاب الوعرة .

في منتصف المسافة بين قسنطينة وبونه ، تشم الكلاب رائحة الأثر فيبدأ هياجها . العواء الوحشي طلباً لفريسة عبقت رائحتها في الريح .

بين صخرتين نتأت مسنتاًهما فاحت من شجرة غار نارية الإخضار رائحة عبقة للبراري حيث توارى الرجل الهارب . كان صوت الكلاب وهي تقترب ، يولد احساساً مدمراً للأعصاب والصدغ الملتهب . وفي هنيئة ، شبيهة بمرأة يوم الدينونة ، رأى عمر يحياوي جسده نهب التمزيق .

وهكذا ليخرج من حالته المضيقية ، ومن الإيقاعات المتواترة لنبع الأعصاب ، أخذ وضعية الرمي بين الصخرتين قرب شجرة الغار وبدأ معركته .

جرحوه في فخذه الأيسر المكسوف فابتداً الزحف وهو ينزف فوق الشوك والحجارة ومسننات الصخور .

قطع مسافة طويلة في درب ملتوية حاول خلالها إصابة الأثر . على مطل جرف صخري يشرف على واد التجأ إلى كنف صخرة ليضمد جرحه بقمصه والتراب .

كان منهكاً وعطشاً والألم يأتيه بروقاً تحت سماء عالية جداً في منتهى الصفاء والحيادية .

لكنه سينذكر وهو في المشفى ، بعد أن تبعوا آثار الدم وهجمت الكلاب ، أنه حلم لو كان طائراً ليارتفاع بعيداً نحو تلك السماء الزرقاء البعيدة ، وفي لحظة المواجهة مع الموت ، تناول سبطانة البندقية بقبضتيه صارخاً من فخذه النازف : أبعدوا الكلاب . أولاد العاهرة . أنا جريح وبلا رصاص !

- لم يكن ذلك سوى البداية . تقول آسيا .

- ها . وماذا جرى ؟

بعد أسبوعين تحسن حالة عمر يحياوي . على رؤوس أصابعه يتسلل ليلاً من غرفته ومعه مشرط العمليات . يتقىم بهدوء نحو حارس المشفى من الوراء قابضاً على فمه حتى لا يصرخ ، وباليد اليمنى يمزق حنجرته ، ثم يطعنه ثلاث طعنات ويستولي على بندقيته ويهرب تاركاً نصل المشرط في قراره قلبه .

عندما تعبّر طيور الحزن خافقه بأجنحتها السود فوق جبين آسيا  
الوضاء ، تصمت . تهمس : ماما . اشرحني ما تبقى .  
تقول للا فضيلة ، بابتهاج اعتزازي ، بأن عمر قبض عليه فيما بعد  
وأودع السجن قيد المحاكمة بالقتل .

خلال التحقيق ذُوّجه بما فعل . أقيمت الأسئلة فلم يجب . عذبوه  
بالضرب والكهرباء ومع ذلك لم ينطق . كان صامتاً كالحجر أو كأبله .  
وأجهوه بالقتل إذا لم يتكلم ورأى جنون القتل في عيون المحققين . وفي  
غرروب يوم صيفي في الساعة الرابعة الحضرة احضروه وقالوا له هذه آخر جلسة .  
إذا ما بقيت صامتاً فأنت ميت . وبدأ الاستجواب والتعذيب . مددوه على  
ظهره واحكموا وثاقه وبدؤوا يقطرون الزئبق الكبريتى في عينيه . بعد كل  
 قطرة يسألونه . كان الزئبق يكويه ويدخله في مدارات من فقدان الصواب  
والعمى ، ثم يبدؤون رشق الماء على وجهه ليصحو . بعدها تتواصل  
حفلات التقطرir الهادئة .

كان الجسد يتلوى صامتاً بينما الألم يعبر في المسام فاتحاً مراته  
ومجراه شبيه حافة شفرة من الماس المسموم بدأت إيقاع ضرباتها من  
يد رجل يجري اختباراً على أرنب أو فأر في مشرحة .

تحت هذه الوطأة والإحساس بضباب العمى جاءت الصرخة .  
صرخة الروح التي تبرق في الظلام المطلق : كفى . كفى . دعوني .  
سأعترف !

أنهضوه من استلقائه وفكوا وثاقه . طلب كرسياً ليرتاح من وخذ  
الزئبق في العينين فجاووه بالكرسي .

وكما يحدث في الأحلام ، أو اللوحات السريالية ، أو حالات الجنون  
الصاعق ، بدا الحادث الصادم .

فوق الكرسي وتب عمر يحياوي . كانت هناك نافذة من زجاج .  
وكمصروع راح يضرب برأسه وكلتا يديه الزجاج حتى هشم . أمسك  
بالشظايا - الحراب وابتداً يطعن صدره وبطنه وهو يصيح : الله أكبر .  
الله أكبر . أشهدي يا جائز . أشهدي .

برق . أو جنون . أو صرخة الروح . أو قيامة الوطن .

تدفقت بين راحتيه أمعاء وأحشاء ودم وروائح عشب . كانت  
الجزائر تتدفق الآن عبر أصابعه وهو يهوي . في المستشفى العسكري  
بقي شهراً تحت الاسعاف والعناية . وبدأت جراحه تشفى أما عقله فقد

دخلت طيوره غابات الجنون . وفي الليالي كانت صرattivitàاته ترج جدران الردهات والغرف وأذان المرضى .

- لم تكن تلك سوى مرحلة في حياة أخي . تقول لا لا .

يعادرها الاعتزاز بتحدي أخيها للموت وهي تتذكر آلامه التي فاقت حدود العقل فأؤدت به ، فيرتدى وجهها غيمة كابة .

- أكملي يا آسيا الحكاية . ماعدت نقدر نكملو . الغصة في الحلق . حكايا غريبة . الآن صارت قديمة لكن بونه تعرفها وترويها قبل اثنى عشر عاماً ، كما تروى في كل البلاد بمراراة واعتزاز حكاية علي لابوانت أو جميلة أو العربي بن مهيدى والأزهر شرايطي .

ستقول آسيا وهي تستعيد تماسكها : كانت الكوابيس تأتيه في غرفته البيضاء المعزولة . كوابيس كلاب وحلاليف وطيور سوداء جارحة تنهشه من رأسه ثم تقتلع عينيه وتجر أمعاءه على الصخور والأشواك . هكذا روى لنا . ثم روى فيما بعد كيف كان يقاتل هذه الكوابيس بالبيضة وخداع النوم . كانوا سيخاكمونه بعد شفائه ويعکمون عليه إما بالمؤبد أو الإعدام قبل أن يصل إلى الجبل ويثار لدم لخضر المغدور .

في أحلام البيضة ، أو سهوة النوم السريعة ، كان يحكي بأن الفدائين كانوا يتراوون له ومعهم بنادقهم وخناجرهم يحيطون به وقد أوثقوه إلى شجرة :

يا الكومي ! يا الخاين ! حلوف لا كوست . هكذا كان يرى محاكمة سريعة سرعة الطلقات أو الخناجر التي تحتز رأسه أو تمزق أمعاءه .

وفي تلك الليلة الربيعية من شهر مارس انفتح في ظلال عقله برق . قال لنفسه : أنت يا المهبول ماعدت مهولاً . هذه المرة إما قاتل أو مقتول . عبر خطة غريبة . مفاجئة رسمتها الأحلام والموت وصرخة الروح ، تسلل إلى غرفة الممرضين وسرق السيرنج ثم عاد إلى غرفته . وبهدوء صمت الليل غرس إبرة سحب الدم في وريده وبدأ يشرب دمه ويتقيؤه . قام بالحركة ثلاثة مرات ثم أخفى السيرنج وابتداً يصرخ . عندما هرع الممرضون ورأوا دمه المقاء فوق ثيابه والفراش ، سأله فأشار إلى بطنه : المعدة . انفجر الدم في البطن . نادوا الطبيب ثم أحضروا عربة الاسعاف ونقلوه إلى مستشفى مدنی تحت العناية المشددة .

في الأسبوع الأول رسم خطة الهرب ، وفي عشية عطلة الأسبوع نفذ

. الخطبة .

المدينة وإدارة المشفى والجبل ، في النصف الأخير من شهر مارس ، كانت تتحدث عن حكاية عمر يحياوي ، الرجل الأهلب ، الذي فر للمرة الثالثة من المشفى بعد أن ذبح خمسة من الحراس وجروهم من أسلحتهم وحملها إلى ثوار الجبل . وفي غابات جبل سرايدي المكّل بالضباب الزاحف كقطيع من اللقالق نحو بحر بونه ، استقبله قائد الولاية بالعناق : أنت بطل حقيقي يا عمر . تستحق لقب ثوري الآن والجزائر تحضنك .

- جندي بسيط أنا . لي الشرف أن أكون مجاهداً ياسيدي الكومندان ، في جيش الشعب . هكذا يسرد بعد عناق الكومندان ريزي عمر له . بعد الترحيب تراجع وأدى التحية العسكرية ثم قدم البنادق الخمس وانحنى خائعاً كمن يصلّي وقبل تراب الأرض .

يسأل مهدي جواد في فسحة الصمت الجليل عن أحوال عمر يحياوي اليوم فيأتي الجواب كبهقة البرق المبهر .

الأحداث خلخت نصف عقله ، والتعذيب أعمى عينه اليسرى . وهو الآن موظف عادي في مستشفى قسنطينة الذي هرب منه .

تعقب لا لا فضيلة بألم : منذ عام طلق زوجته . والآن لاهم له سوى الانتقال من امرأة إلى امرأة ومن حانة إلى حانة .

آه . آه . لابد أن البلاد تنعم بخير . البلاد المباركة التي ماتزال تهب النساء والحانات .

\* \* \*

بعد شهرين من وصوله إلى مدينة بون قادماً من موسكو ، ينتاب الإيزرقاوي اختلاط كيميائي يلفح الواجهة الشعاعية لاستقامته خط الوعي . اهتزازات وانكسارات للضوء ، لكانه محمول على متن سحابة رمادية في فضاء ، أو هو مسرنن في غابة ملأى بالأصوات وحركة تبدل الألوان في مدار طيفي دائِب التذبذب .

ليلة سحرية ، بيضاء . رجل وحيد في غرفة من فنادق الدرجة الثالثة . كومندان قديم ، وثورى خدع ذات فجر بتقديم ساعة الزمن بعض الدقايق يشرب لأول مرة بهذه الحمى وبانفعال لا يساعد كثيراً على التركيز وتسلسل الواقع .

تنطلق طيور الذكرى في فضاءاتها . يمام ودراج ولقالق وبط وحباري وخطاطيف وورشان ، في عمق سماء متماوجة الأطياف . بغداد ، البصرة ، البحر ، كييف . أوزبكستان مدرسة الإعداد والتنقيف ، المصح . موسكو . بون . حكاية سنمار القديمة .

يشرب لينسى لكن الأمواج تلطمہ فيغوص من جديد في اللج العميق . - ماالذى ارتكبت من حماقات يا الإيزرقاوي حتى تدمر في المنفى ! كنت قوياً ، مؤمناً بالحزب والوطن والمستقبل . كما كنت شجاعاً ، نذرت دمك للبلاد الضائعة ولمجد النجمة الحمراء التي كانت ستسطع في طول البلاد وعرضها .

لماذا حدث ذلك . لماذا ؟

وماكان قادرأ على استيعاب أو امتصاص الصدمة .

كانت الأمواج عاتية ، والأشعة التي تنعكس على سطح الدماغ راحت تتحول داخل الأعصاب أشباحاً من الجن والعفاريت والثيران المتهاجة ، أصواتها تشرخ ماتبقى من نهوض الروح النقية .

ورأى نفسه كمن يقذف من ارتفاع عشرين ألف متر فوق سطح الأرض من بوابة طائرة ومظلته لم تفتح وهو يتارجح كاللعبة في العراء السماوي .

لقد قذفوه من ذلك العلو الشاهق وهم يعرفون النتيجة .

لأحد يذكر صوت الارتطام أو الصرخة أو صدى الطلقة . في تلك الليلة الهادئة ، البيضاء ، داخل الغرفة 231 من الطابق الخامس .

لكن مايسىذكر في الليالي التي أعقبت انتحار أو قتل الإيزرقاوي ، سيدوي صداه قوياً كالزلزال ، كما ستشاهد آثار جذامه في الأزمنة القاتمة . أزمنة العيون المذعورة والأطراف التي ترتعد ، والوجوه المعلقة على أشجار المنفى ، والدماء التي ستطيخ الجدران والتراب ، بعد أن تتقدم جحافل الديمقراطي الثوري ، طرح التاريخ وقرش البحر : عبيد الله بن أبي ضبيعة الكلبي ، جراداً ، وسحالي ، وآخطبوطيات وعقارات بحر ، وجغلان صحراوية ، وتماسيح مستنقعات ، وقططاً برية ، وكلاباً مسحورة ، وهيدرا ، وصباريات استوانية ، وكواكب صوت ، مجتاحة الأخضر من الزرع والخصب من الضرع ، معيدة الأرض إلى ماكانت عليه قبل الغمر ، رمala ، وأشواكاً ، وهجيراً ، وزماناً ييباً .

- 4 -

حصاد الدم سيأتي فيما بعد .

مع الندم والاستشهاد والانتحارات ، والاعترافات الخسيسة .

فتحت صرخات التعذيب وأزمنة الشتات ، ستأتي المرارات أشد وقعاً من القتل ، لحظة انبعاث عصور الوحش الهاابطة من سماوات ما كانت مرئية فيما مضى . من معسكر الرشيد سيبدأ الحصاد الجماعي في أعقاب فشل التمرد الذي انفجر في مدرسة العرفاء العسكرية .

مئات المعتقلين من الضباط وصف الضباط الذين نظمهم عطشان ضيوى ، سيزجون في قطار سيطلق عليه اسم قطار الموت ، ليرسلوا إلى معتقل نقرة السلمان في صحراء السماوة .

قطار محكم الإغلاق ، أرضه طليت بالقار ، مخصص لنقل البضائع والحيوانات . سينطلق من بغداد في رحلة تستغرق خمس ساعات في الظروف العادبة ، تحت قبیظ الصيف الحارق .

سيُساق المعتقلون سراً ويوزعون مكبلين داخل المقصورات .

كانت التعليمات التي أعطيت للحراس أن يحكموا إغلاق النوافذ والأبواب ، ويتوزعوا في الممرات الخارجية بثياب مدنية ليمنعوا الخروج ، ويكتموا أية صرخة تخرج من الداخل .

كما كانت الأوامر السرية تقضي بأن ينطلق القطار في الضحى بحركة بطيئة . وتمويهاً للأمر جرى في الصباح الباكر نقل أمتعة وأكياس وصناديق فارغة وضعت في المقصورات الخلفية ، كما خصصت بعض المقاصير لجنود غير مسلحين من المخابرات العامة يرتدون سترات مزارعين وعمال ومعهم رزم وحقائب مموهة مليئة بالأسلحة .

على النحو التالي وضعت الخطة : يتحرك القطار في العاشرة نهاراً بعد أن تسقط الشمس ، وبعد ساعتين من الرحلة تحت القبیظ والإغلاق المحكم للنوافذ والأبواب وغليان القار وحرارة المعدن ، يختنق المعتقلون داخل المقصورات في جوف هذه المصهر الجحيمي .

هكذا رسمت خريطة الإعدام الجماعي بأعصاب باردة في مبني القيادة العامة للمخابرات العسكرية ، عشية التمرد الفاشل للإستيلاء على الإذاعة ووزارة الدفاع . بعد الساعة الأولى لميسيرة قطار الموت ، ظهرت حالات من الاختناق والغثيان وهبوط الضغط الدموي . بدأ الأوكسجين

ينقص والهواء يتسم ، وراحت الحركات المقيدة والأصوات الخافتة والمكتومة تتعدد في المقصورات وكأنها ضجيج حيوانات موثقة ، نبهتها غريرة الحياة إلى أنها مرسلة إلى مسلح . كانت الأرجل والأيدي والتشنجات العضوية والصرخات تضرب بعنف صفيح القار اللاهب والجدران الكاوية .

لكن المصيدة البشرية المصفحة جيداً ، كانت بلا منفذ . الأبواب وجدران الفولاذ متمسكة ، صلبة ، عصية مسامها وذراتها ومفاصلها على الاختراق . وعلى مهل فوق سهب أخضر ، موشى بالزرع والنخيل الباسق ، تحت سماء باهرة الضياء ، كان القطار الهادئ يتناقل كالسلحفاة .

بدأ الحشد المساق داخل الجحيم إلى حتفه يتلوى ويترنح ويهدو ويصرخ ويتنقياً . وفي مدار النار المعدنية ورائحة القار والغثيانات التي قذفتها الأحشاء ، سمع صوت غريب ، غامض ، شبيه بدوي رعد أو خفقة طائر جارح ينقض .

وكما يحدث بعد الصدمة الأولى لموجة بحر فوق جدار صخرة ، ابتدأت المقاومة . كانت الصرخة عميقـة ، مشحونة بتلك القوة الخارقة للروح التي تقاوم انهيار الجسد . من الأعماق ولدت الشهـب المضيـئة للحياة الأقوى من الموت . كانت تضـئ أصـوات تشـجـيع وابـتسـامـات وـنشـيدـ الأمـمية . بدا ذلك كـأنـهـ اعتـراضـ سـريـاليـ مـفعـمـ بـالـضـيـاءـ وـالـفـرـحـ وـالـغـبـطـةـ ، يـتدـفـقـ فـيـ مـسـامـ الـأـجـسـادـ الـحـارـةـ وـالـنـاضـحةـ بـالـعـرـقـ ، قـذـفـتـهـ روـحـ جـمـاعـيـةـ ، مـلـتـحـمـةـ التـحـامـ الـفـولـاذـ لـيـقـفـ سـداـ لـايـقـهـ فـيـ موـاجـهـةـ وـحـشـ الموـتـ .

توقف القطار في الديوانية ، المحطة الوسطى بين بغداد والسماء . كانت أنباء القطار قد تسربت إلى شيوعي المدينة قبل الإنطلاق من العاصمة .

وخلال الاستراحة القصيرة أخبر سائق القطار بـالمـؤـامـرةـ التيـ يـجهـلـهاـ : قـطـارـكـ مـلـيـءـ بـالـمـعـتـقـلـيـنـ الـذـيـنـ سـيـمـوـتوـنـ خـلـالـ سـاعـتـيـنـ اختـنـاقـاـ إـذـاـ ماـأـصـلـتـ هـذـهـ السـرـعـةـ الـبـطـيـةـ .

ـ ولكنـيـ أحـمـلـ بـضـائـعـ وـرـكـابـاـ .ـ هـذـاـ مـاقـيلـ لـيـ !

ـ انـظـرـ إـلـىـ حـرـكـةـ الـحـرـاسـ حـولـ القـطـارـ وـفـيـ الـمـمـرـاتـ الـخـارـجـيـةـ .ـ سـرـاـ دـارـ الـحـوارـ بـيـنـهـ وـبـيـنـ رـجـلـ غـرـيبـ لـاـيـعـرـفـهـ .

- قطارك يحمل ألف انسان أغلقت عليهم المقصورات ليموتوا في الطريق .

كانت حركة الحراس ونظراتهم مريضة . لم ينزل من القطار أي مسافر كما لم يصعد أحد . داهم السائق ارتياح وباغته شعور قابض للقلب . أ يكون مخدوعاً حقاً ؟ وهل غرروا به ليتحمل زهق هذه الأرواح البشرية المحاصرة في قطارة ؟ كان الرجل الذي انفرد به منفلاً ، يرتعش وهو يرجوه أن يصعد إلى القطار ويسرع قبل أن تحل الكارثة . لقد أقسم له بالله ورسوله وكتابه أنه صادق ، وسيتأكد من الأمر فيما بعد : صدقني . أكثر من ألف روح إنسانية بين يديك . بالإمكان أن تنقذهم إذا ما أسرعت . إنها عملية اغتيال جماعية وستحمل وزرها يوم القيمة . تحرك السائق نحو العربات . كان بوئه أن يتتأكد إذ يسمع صوتاً أو جلة داخل المقاصير المغلقة . باغته رجل لا يعرفه : ابتعد من هنا . باره السائق : أنا قائد القطار . أنت من تكون ؟ وقال الرجل : ليس هذا من شأنك . القطار يحمل أسلحة والاقتراب ممنوع .

بين الحلم واليقظة أدرك السائق أن هناك سراً غامضاً ، وأنه واقع في شرك هذا الغموض .

- أسلحة أم معتقلون . ياللعنة ! قال لنفسه وهو يندفع بسرعة نحو عربة القيادة .

- فيما بعد سينجلي الأمر . هجس وهو يطلق عداد السرعة إلى أقصاه .

كان القطار يخترق السهب مضاعفاً سرعته . سباق الموت والحياة في اللحظة التي هبط فيها على السائق وهي أوحى له بأن قطارة ليس أكثر من تابوت مصحف ، وضع فيه بشر سيسوّقهم إلى المقبرة .

كان الآن ، وهو في اندفاع قطارة المتعب ، يراهن بقوة لامرئية توهجت في أعصابه ودمه ، على الوصول قبل ساعتين إلى محطة السماوة .

إلى أن يموت وتطويه الأرض ، سوف لن ينسى سائق قطار الموت ذلك المشهد الشبيه بيوم الحشر والقيامة ، لحظة ماوصل قبل الموعد المحدد وفتحت الأبواب للموتى ، فانهاروا على أرض المحطة خارج أحشاء الجحيم .

كانوا في النزع الأخير ، مبللين بالعرق والقيء والشحوب والغازات

الخانقة والدوار وغياب الوعي وسوار القار .

رآهم يهون كما تهوي الطيور المهيضة وأكياس القش . يتنهدون ويئتون ويتململون صائحين بأصوات جارحة مكتومة : الماء . الماء . الماء .

- مازالوا أحياء . قالها السائق لنفسه وهو يقتعد رصيف المحطة ، مشروحاً بصاعقة المفاجأة التي ستدهب بنصف عقله فيما بعد .

من خلال دموعه التي انهرت ، رأى الأهالي الذين وصلتهم الأخبار ، كيف اندفعوا بجرار الماء المتلاج ليسقو العطاش المشرفين على الهلاك .

كما رأى تحت ظلال الدمع أطباء وممرضين يهبطون من سيارات الاسعاف ، ويهرعون لاستقبال الموتى . كان هناك عشرة رجال نفقوا . حملوا على المحفات نحو سيارات الاسعاف .

بوغت وهو يرى الطبيب يصرخ بالأهالي : ابعدوا الماء عنهم ! ذعر من هذا الحكيم اللعين الذي يمنع الماء عن الرجال الأحياء . صحا من شرارة الصدمة ثم اندفع كالمحجون نحو الطبيب المشرف . أمسكه بقبضتيه من رقبته وصاح : أنا أنقذتكم من الموت وأنت تريد قتلهم . أهذه إنسانيتك ؟

دفع الطبيب قبضتي السائق : اسمع يا مخبل ! الماء المتلاج يقتتلهم . أحضرنا لهم ماء ممزوجاً بالملح لتنفس الأملاح المترسبة في الخلايا . الآن انتهت مهنتك وبدأت مهنتي .

واستطرد الطبيب : صع أنا طبيب أما أنت فتساوي ألف طبيب . لقد تحديت عزرايل أيها الرجل الطيب وانتصرت عليه .

في أعقاب الانقلاب الجديد ، وقبل أن تقطع أشلاء سلام عادل السكريتير العام بيدي عبيد الله الكلبي بدءاً من جدع الأنف إلى قطع اللسان بالحربة العسكرية ثم سمل العينين والتمثيل بباقي الجسم ، تحت هدير الضحكات والشمماتة بأفول شمس الشيوعية ، وانبثاق قمر الزمان القومي التيأه كأمير في سماء صحراء التيه ، سيقول السكريتير العام كلمة مأثورة فات أوانها : إن الإنقلاب الحقيقي لم يقع في العام 1963 ولكن في العام 1959 ، إن عبد الكريم قاسم والبورجوازية العراقية هم الأبطال الحقيقيون للإنقلاب .

و قبل أن تقدم جحافل اللوبياثان ، في أعقاب فشل بؤرة الأهوار ،

سيقول قائد آخر من قادة الكفاح المسلح : إن تسريعنا بالكفاح المسلح غير المجهز جيداً سيقطع الطريق بانقلاب عسكري قادم .  
فرانكو أو كورنيلوف جديد ، أحدهما كان الآن في الطريق إلى وزارة الدفاع .

\* \* \*

داخل غرفة معزولة في بونه الواقعة على مشارف المحيط النائي يكتب مهدي جواد في اليوميات : عالم قديم يهوي . أجيال قديمة ملتاثة بجرائم الصحراء . مخبر تجريبى للزمن . آلاف بل ملايين الكريات تفقد حيويتها وخاصيتها الخلوية مع الدورة الدموية . لكن الدم يجري . اللوحة البيانية تشير إلى هبوط في النبض . لكن القلب مايزال ينبض الأسود . الأسود . غازات في الرئة . هواء ملوث والقلب يتنفس بصعوبة . إن الأعضاء المتضامنة تتفك في هذه البرهة المفلترة من عقال الزمن .

متى تغرب هذه الشمس الصحراوية الكاوية عن سماء القلب المنفطر !

- 5 -

المدينة والمرأة .  
في أعقاب اليقظة الضوئية للبحر .  
داخل المنفى الجديد القادم .  
الزوجة والرحم المفقودان . المفقودان أبداً ، والذان لن يكونا بعد اليوم .

وفي تلك الأزمنة سيكون الاقتراب من المرأة محفوفاً بالخطر والاستحالة ، وبالتوقع الدموي المستبطن الذي لا يصل .  
ولأن الالتباس سيتضوّع أبداً في تلك الأزمنة ، فلا يعرف الرجل ماذا سيكون ، ولماذا يفعل في تلك المدينة ، ولماذا جاءها ، لذا سيظل واقعاً في مدار ارتياك المدينة والمرأة ، داخل طيف الهجس السري ، الغامض ، والخارج منها .

مدينة غريبة وقديمة . وامرأة غريبة ، عصبية على الامتلاك ، حلم

بها في الليالي ، ثم ترسبتا في الأعماق كلالئ البحر ، رأهما أو حكتهما الجدة . سيرةبني هلال وتغريبتهم نحو بلاد المغرب غب داهمتهن المجاعة والجفاف وانحباس المطر ، فاندفعوا عبر الصحاري والمدائن شوقاً إلى أرض آمنة وسماء مطيرة وعشب .

ذلك الحلم القديم ، قرب النار المتقدة ، في البيت العتيق الذي تهدم ، كان يقرأ مجراوية الزير سالم والتغريبة . بلاد الخصب والرعي وال Herb والنساء ، تتلون شفقاً في الأصيل فوق بحر مزهر بملابين الأولان ، يأخذ الذي يرى ويقرأ نحو البلاد السعيدة . البلاد الفرحة التي تسافر الشمس نحوها لتخبيء بين الغابات الخضراء وفي مخادع النساء العذراوات .

ولكن كيف امتزجت المدينة بالمرأة التي بوغت بها ذات غسق على أبواب مدرسة القديس أوغسطين !

وبونه هي بونه . هندسة العمارات والشوارع والساحات . المدينة المطوقة بالغابات والسهول والبحر وضوء الشمس الجارح .

وآسيا ، العملاقة ، الرشيقـة ، الضاحكة ، عاشقة البحر والسفر ، هذه الضائعة بين الله والشيطان في غمرة فتوتها الأفريقية ، ما الذي مزجها بالمدينة في أعقاب طقس الذبيحة الأنبوية . كيف تدخلـا موجـة وشاطئـا فوقـع عارـياً بيـنـهـما !

وفي تلك الأزمنـة وما يتلوـها ستكونـ المدينة مـصـمـتـة مـغـلـفة بـبـكـارـتها . كذلكـ المرأة . كـانـما توـاطـأـتـا فـيـ السـرـ . كلـ منـهـما أـعـطـتـ هـامـشاً وـرـائـحةـ لـكـنـ مـهـبـلـيـهـما ظـلاـ مـحـفـظـيـنـ بـبـوـبـةـ الغـشـاءـ العـصـيـ علىـ الـهـتـكـ .

وعـبرـ مـاسـيـأـتـيـ منـ أـوقـاتـ سـتـبـدوـ تـلـكـ المـرـأـةـ المـعـلـقـةـ فـيـ سـقـفـ مدـيـنـتهاـ تـوـقـأـ موـسـمـيـاـ يـلـوـنـ لـوـحـةـ الطـفـولـةـ الـأـولـىـ ،ـ لـكـنـهـ لاـ يـنـدـمـجـ فـيـهاـ .ـ مـوـجـ دـافـيـ يـغـمـ الشـوـاطـئـ ثـمـ يـنـحـسـرـ عـائـدـاـ إـلـىـ أـعـماـقـ الـبـحـرـ .

وـهـذـهـ الـبـوـنـهـ مـدـيـنـةـ اـسـلـامـيـةـ لـاتـرـحـمـ .ـ عـيـونـ مـنـ النـارـ وـالـفـوـلـاذـ .ـ مـدـيـنـةـ بـرـبـرـيـةـ تـتـمـخـضـ بـبـطـءـ مـنـ رـحـمـ الصـحـراءـ ،ـ زـاحـفـةـ نـحـوـ الشـوـاطـئـ .ـ آـنـ شـمـسـهـاـ الـأـفـرـيـقـيـةـ الـحـادـةـ تـخـرـبـ الرـأـسـ كـسـهـمـ نـارـيـ فـتـتـوـرـ الـأـعـصـابـ فـيـصـابـ الـعـقـلـ بـجـرـثـومـ الشـهـوـةـ وـالـقـتـلـ .ـ الـغـيـتوـ الـإـسـلـامـيـ الـمـظـلـمـ يـتـمـددـ كـحـيـوانـ دـيـنـاـصـورـيـ يـتـأـبـيـ عـلـىـ الـانـقـراـضـ .ـ عـنـدـمـاـ هـبـطـ ثـوـارـ حـرـبـ التـحرـيرـ مـنـ الـجـبـالـ الـمـصـبـوـغـةـ بـالـدـمـ ،ـ كـانـواـ يـهـلـلـونـ بـتـكـبـيرـاتـ عـصـورـ الـفـتحـ الـأـولـىـ .ـ كـلـ مـجـاهـدـ عـلـقـ عـلـىـ صـدـرـهـ قـرـآنـاـ عـرـبـيـاـ .ـ كـانـ بـمـثـابـةـ الرـقـيـةـ ضـدـ

رصاص المستعمر الصليبي : الشيطان الذي أكل الزرع والحليب وعناقيد العنب ، والبرتقال ، وأغتصب البيوت الجميلة والنساء الجميلات والشواطئ الجميلة . حدث ذلك خلال مئة واثنين وثلاثين عاماً من الذل والعار والاستلاب والإفقار والانتهاك . وأن رَسْت البوارج الحربية في ميناء سidi فرج ، لم تكن محملة بالكتب والأشعار وقوانين حقوق الإنسان وثورة العيادة .

الآن هاهم ينحدرون من الذرى والكهوف والغابات نحو مدنهم المنكهة . المدن التي هُجرت وأضحت خراباً . خلال أسبوع ماقبل الرحيل ، أحرق جنود منظمة الجيش السري S. A. O. المدن . اغتصبوا النساء والصبايا العذراوات ، وبالديناميت دمروا المؤسسات التي بنوها . كان ذلك أسبوع الرعب والدم . هكذا بدت أرض البترول والغاز والقمح والبرتقال والزيتون والعنب ، وماسمى آنذاك الإقليم الشرقي لفرنسا الجزر الات ، يبابا .

### السنوات السبع العجاف .

وهم الآن يحترقون شوقاً إلى منازلهم . إلى الراحة والدفء والحليب والقهوة . الأجساد التي أنهكت من صعود الجبال والنوم فوق الأرض الرطبة وأوراق الشجر ، تطلب سريراً وامرأة وخبزاً طازجاً ودفئاً .

### الذين حرروا المدن يستحقونها .

المنازل البيضاء والمقاهي والساحات والشوارع . الشمس والتراب والخبز والنساء ، تعود لأنبائها الشرعيين . المحاربون الآن بعد عشر سنوات من الضنى والمطاردة والصراخ وشلالات الدم ، يستريحون تحت شجر بونه ويتمددون في هواء الحلم .

والحرب الآن ذكرى أو طيف .

حكايات أسطورية عامة بالحنين القديم . حنين بطولي حافز للدم توشيه البروق والغبطه والزمان الصعب . لكنها مريرة مغمومة بالسم . هكذا يستعاد الألق القديم .

وهما : الرجل والمرأة ، يعبران ساحة المدينة المحررة ، المشجرة بالدردار الأخضر . يعبرانها وبينهما مسافة خوف .

كخلية نحل يتمور العنايبيون تحت شمس الأحد . سعداء ومتدفعون بحيوية يوم صاف . على كراسي مقاهي الأرصفة والمقاعد الرخامية ،

يضو ضئون . ضحكات ملعلعة . كلمات بذئبة تطلق على مؤخرات النساء  
المرتجة : ترمه تكفي طابوراً . لو أطيح فوقها لأخترقها مع الأرض .

إنهم يشربون بيرة الكرونبورغ وقهوة الأكسبريس ويلعقون البوظة  
الحلبية ويدخنون الهقار بشبق من يرضع ثدياً .

- ها . خويا . برببي نعرفها . لبوا عنابية .

- نصيحة فيها ؟

- دليلة . هيا . هيا يا اختي . الولاد شعلت فيهم النار .

- حلوفة . قحبة . هم العرب خير منا ؟

إذ يقتربان ويعبران بين ممر كراسى القش ، تعلو الهمسات . تنفذ  
الغيرة وأشواق الجنس : ها . شوف أخويَا شوف . لبوا بونية مع ذيب  
شرقى .

- بالسلامة . عضو الغريب حلو . وحق ربي كيما العسل الجزائري .

- خير الجزائر ينهبه الغرباء . حررناها يادين الرب وعلاه حلينا  
يشربوا غيرنا . ديمَا هكذا . وعلاه !

- عنابية خانية . عشها مباح . أي طائر غريب يضع فيه بيوضه .

- واش . واش . قضيب الجزائري كيما الحديد السخون .

- هذه الفحلة الطويلة . قتلتنى . آي على ليلة معاها . عمرها لن  
تنساها !

- كل يوم مع هذا الحلوف العراقي ونحنا واش ندير هنا ؟

- راح الاستعمار الروسي وهما هو الاستعمار العربي يطيح فينا .

عندما يسأل مهدي مستفزأ عن هذه الغيرة ، تقول آسيا هازئة من  
الوضع : لماذا خيرهم يروح لغيرهم ! الأفارقة غيورون بطبعهم .  
رؤوسهم عamerة بالسكس .

- لكنني لست محلاً كما يتوهمن !

- خطفت طفلتهم منهم تقول ضاحكة .

تتابع آسيا : فيما مضى أذلهم الفرنسي وحرمهم من كل شيء . كان  
يختار العذر اوات الجميلات . أما الجزائري فكان محراً عليه النظر إلى  
فرنسية حتى ولو كانت مومساً . لقد سلبونا كل شيء . هذه المدينة في  
أعقاب رحيلهم كانت أنقاضاً . لقد دمرها المظليون وجندوا لاكوست لأنها

ماعادت لهم . خلال أسبوع فجروا الأبنية بالديناميت . أحرقوا المعامل والمزارع ونهبوا المؤسسات والحوانيت . كانوا يطلقون النار ويرمون القنابل على الأطفال والنساء والشيوخ دون تمييز . الشوارع والساحات كانت تسبيح بالدم والجثث . وعندما رحلوا بدت المدن فارغة ، محروقة . أبوابها مخلعة وجدرانها مهدمه وسوداء . أنت لم تر ولم تسمع ماحدث . كل تلك الوحشية مغروسة كما النار في ذاكرتي . عمرى كان عشر سنوات آنذاك . تصور أية طفولة جميلة !

فجأة داهمتها كآبة : اغفر لهم . أي غريب يتراءى لهم مستعمراً . لم يশفوا بعد من وباء الحرب .

اجتازا الساحة متسللين عبر الأزقة ، صاعدین الشارع المؤدي إلى الميناء .

عن الجسر المعلق لاح البحر .

وجه المرأة مغموم . انفجرت في الأعماق صور الحرب . هي الآن تضغط على جرح سي الأخضر . الأخضر الذي امتزج بشمس المدينة وهوئها وترابها وشجرها وخيباتها ، ثم أوغل في دم آسيا المحروم . وهم ما متکآن على إفريز الجسر الحجري المواجه للبحر ، فكر مهدي جواد : كسكين ستقصلنا هذه المدينة اللعينة يوماً . جاءته الفكرة ببرق .

وكما تغلغلت الأسرة في أنساغ دمها ، هكذا المدينة .

وفي الوقت الذي هرم في رأسه موت طيور الأهوار ، انفجر شيء آخر وتشظى : الله والوطن والأسرة .

لحظتها داهمه صقر جائع . انقض من قمم عارية ثم مالبث أن اجتث قلبه بمخالبه وعلابه سحيقاً نحو الجبال والغابات . بدا في عراء السماء وحيداً ومنبذاً ، بلا إله ولا أرض ولا رحم . كان مخطوطاً يتارجح بين السماء والأرض . وكان يرى السماء والأرض مغلفين بالبخار والسحب ، وهو محمول خفيناً وفائضاً في انبعاث الزمن ، وانبعاث المدن ، وانبعاث النساء ، وانبعاث الخلقة ، وانبعاث الآلهة .

انتبه لذراعيه المشتبكين على الإفريز الحجري ، ولرأسه المنكفي بينهما . بدا الوضع مريحاً في لحظة النشور وحلم اليقظة . ولسبب لعين لا يدرك كنهه رغب في تلك اللحظة لو يهوي الجسر إلى قاع البحر . يرتاح الجسد وتدخل الروح جحيمها الأبدي فلا يكون كل هذا الشقاء وكل هذا

الدمار الداوي في رأسه كخلايا النحل .  
إلى الجحيم كل هذا الضلال .

ربت المرأة على كتفه المحنية : أكانت ضلالة هي الأخرى ؟  
- إلى أين وصلت ؟ سألت وهي تمسح شعره .

ورأى ، وهو يرفع رأسه ، عينيها العصفوريتين ، وورد خديها .  
زنده احتك بزندها الناصع كانت هناك امرأة راسخة في صلاة  
الجرانيت وشموخ الأميرات ، تشع من بقایا جمرات الحلم القديم .  
لفت الريح سحب الضلال فبدت الأرض الخضراء ، الصلبة .

خطفًا قبلها في زاوية شفتيها ، وهي منحنية عليه . دهشت ثم نفرت  
كتائير مباغت : متوحش . أية فضيحة في عز النهار !  
- لماذا ولدتك أمك في عنوبة الكرز ودفء الطيور !

- يوما . أيها الفاسق !

عندما صفعها على رديفيها براحة كفه ، ظهر من منعطف الطريق  
رجلان نظراتهما تطلق استفزازاً !  
- حلوف . ألا ترى الناس ؟  
- الرابية تدعوا الأصابع .

- لاختلف عنهم . رأسك بين فخذيك . هيا . هيا نتحرك قبل أن  
تتوهج النار .

غادرا الجسر ملتفين حول المدينة من جهة الغرب . أخذَا كورنيش  
البحر ، ثم أدخلغا تحت شجرة الدردار . على يسارهما الفيلات النظيفة  
البيضاء المغطاة بسطوح القرميد ، والمسورة بعرائش الورد  
والمصطكي . فيلات المعمرين البورجوaziين . لأول مرة ، في عبورهما  
النشوانى ذلك الغروب ، تثار مسألة العلاقة الأخرى . مهدي هو الذي سأله  
آسيا إن كانت عرفت جزائرياً من قبل . ضحكَت وقالت بفرنسية أنها  
تعرف أن السؤال كان في سقف الحلق منذ زمن . وسؤال الرجل بدھشة :  
لماذا ؟ وقالت : لطمئن النفس أن الشرف بخير والنبع لم يلغ فيه آخر .  
وضحك الرجل وهو يرمي جثة البدوي فيه : لكنني ملحد كما  
تعرفين . الشرف والبكارية وأخلاق العربان في مؤخرتي من عشرات  
الأعوام .

- من يسمعك يغشى عليه من الضحك . لماذا كنت تكفره لدى ذكر  
كلود الفرنسي ؟

كانت تعيد الآن حادثة المهندس وزوارق البحر الشراعية .

حاول إيضاح الأمر ، والأوهام الملتبسة فاعتراضه : من يحب  
يَفْرُزْ . هذه غريزة الملكية . إنها كالدم . ثم استطردت بحنق : اسمع . أنا  
أحبك وأريد أن أمتلكك وأية قحبة تقرب منك سأذبحها . هذا ما يقوله لي  
دمي . أنت لي وحدي ولست لامرأة أخرى .

- وإذا ما عشت عليك سراً ؟ قالها بمزاح .

وردت : ولماذا تعشق تلك العاهرة مادمت أكفيك ؟

تحت شمس بونه البيضاء ، قرب حافة البحر ، كان يطوقها ،  
ضاغطاً خاصرتها الاسفنجية ، الرطبة . سماء صافية ، وريح حرير  
تمسح وجهيهما .

امرأة عملاقة . جسد في صلابة جذوع الصنوبر ونداوة العشب .  
ومدينة غامضة ، عذبة ، بيضاء ، وخضراء . تدلّي ذوائبهَا في  
البحر .

\* \* \*

قالت : هنا مكان هادئ ومعزول لا يدخله العرب . دعنا نتناول شيئاً  
فيه . كان المطعم مرمى في الطرف الشرقي للمدينة مواجهًا للبحر . دخلا  
الممر الرطب المغطى برمالي ذهبية ، ثم ولجا الباب الزجاجي . الموائد  
فارغة ونظيفة . في زاوية جلس أوروبيان يشربان البيرة .

كانا الآن خارج طوق المراقبة والعيون التي تطلق الغيرة . وهما  
يجلسان قرب النافذة البلورية ، همس لها أن تتكلم مع النادل بالفرنسية .  
كان المطعم خصوصياً ، وأنيقاً ، محظياً على الرعاع العرب . طلبت  
بالفرنسية بيرة وعصير ليمون . سألها النادل العربي بالفرنسية إن كانا  
يرغبان طعاماً فأجابت بتهذيب : فيما بعد .

كعادته ، عندما يكونان معاً على انفراد ، أشعل سيجارتين وناولها  
واحدة . من وراء الزجاج بدا البحر مصقولاً كرداء حريري وفوقه تلمع  
أشعة أصيل عذب .

موسيقا المطعم خافتة ، مريحة للأعصاب . لعلها كونشرتو  
لخاتشادوريان تناسب وتضيء ، تعلو وتهبط ، كطائر أبيض يتموج في

سماء مشمسة فوق محيط أزرق .

في هذه اللحظات يأخذ الصمت مع الموسيقا شكل ريح تتموج في حقول حنطة خضراء . حقول مديدة أبعد من مدى النظر . أمواج . أمواج . انحناءات . ارتعاشات وخفقات تبدأ من النسخ ثم تصعد حتى الذؤابات العالية لشعر السنابل .

آسيا بوجهها الدافق المنحوت ، وشعرها الأصهب ، وهذا النهوض المتلع لعنقها ، وفمها الطفلي ، لأنها معبودة قديمة نسيتها الآلة وانحسر الموت عنها .

وهما يشربان على مهل ويدخنان ، انهمر عليهما الأمان .

ظللتهم سحابة من الغبطة ربما ولدها المكان النائي .

في استنادها إلى الجدار ، ونظراتها التي ابتعدت ، تبدو هذه الطفلة معشقة أكثر من أي وقت مضى . إنها حقيقة كهذا البحر وهذا اللمعان المبهج للأشياء .

المرأة - الملاذ في لحظة اضطراب الأرض واهتزاز الكواكب .

وكما قالت له يوماً : دائمًا سأكون معك حتى تملني . هاهي الآن . لاتغيب إلا لتشرق . نصرة أبداً وحيوية كالبحر .

لم تشوه بقتل أبيها ولا فقدان اللغة ولا بدمارات الحرب والتعذيب ، تبدو له الآن .

لكم ثُرى جميلة ، هذه الطفلة المشاكسة ، وهي تنهر من حطامها بذاكرة مضيئة وأمل متوجّج . يراها من خلال غلاف البحر وعشقه المجنون .

تنذكر كل الإهانات القديمة والأسى ، لكنها تنظر إلى الأمام بثقة غير عادية ، وعندما يسألها عن هذا اليومي والراهن ، هذا العنف الساري ، تقول بأنه عارض وبالإمكان تخفيه : انظر إلى الأمام . أحد مافي هذه الدنيا ما كان يصدق أن فرنسا ستخرج من هذه الأرض ، لكنها خرجت مرغمة ، لاشيء يبقى على حاله . الدنيا جميلة رغم الشقاء .

- أنت متفائلة . وهذا حسن .

- أكيد . أرضنا عذراء وغنية وشعبنا مايزال في فجر فتوته . عندما يقولون عنا أتنا صعب وعنيدون فهذا يعني التصميم والإرادة ودحر الموت .

- ولكنك ترين إلام انتهت إليه الحرب ومن الذي خطف النصر !  
 - أعرف . أعرف ولكنني أعرف وتعرف أن هذا لن يدوم . ليس أبداً .

- هل تعتقدين أن حرباً أخرى ستأتي ؟

- آية حرب ؟

- حرب داخلية مثلاً . حرب طبقات أو حرب أهلية !

- قد تأتي وربما لا . أنا أهدر عن التطور نحو الأفضل ، عن إمكانيات الشعب وإيمانه بالمستقبل .

- أتذكر أنك حدثتني مرة عما حدث عشية انقلاب بومدين على بن بيللا كيف خرج الشعب يهتف باسم بن بيللا وكيف تصدى العسكر للشعب بالرشاشات في شوارع بونه وساحاتها .

- بلـى . بلـى . لقد كتبوا بالدم اسم بن بيللا والجزائر على الجدران .

- لكن الجيش قهر الشعب بالرصاص !

- يومذاك كان الشعب أعزل . لم يكن بيده سلاح .

واستطردت وهي تطفئ لفافتها وتسحقها في المنفحة : اسمع . أنت قدتنـي إلى نقطة أخرى . أنا لم أكن أعني العراق والقتال الأهلي بقدر ما كنت أعني التقدم والتطور . العلم والعقل وتشييد جزائر جديدة غير هذه الجزائر الخامجة .

لابد أن ندلـى المطعم ومن خلال الحوار خمنـوا أنهـما من الرعاعـين لا يسمـح لهم بالدخول إلى هذه الأماكن الخاصة والمعزـولة .

بنظرات مريبة ممزوجة باحتقار ضمنـي ، كانوا يمسـحونـهما .

وقـال مهـدي هـامـساً : أرى أن نطلب شيئاً للأكل يـبدو أنـنا أثـقـلـنا عليهم لقد كـشفـونـا مـارـأـيك ؟

- ليس ضـروريـاً ، طـيزـ أـمـهمـ خـليـهمـ يـولـوا . قـالتـ العـبـارـةـ بنـزـقـ .

- لا . نـطـلـبـ هـمـبرـغرـ وبـطـاطـاـ مـقـلـيةـ .

- كـيـماـ تـريـدـ .

- نـادـيـ النـادـلـ وـاـطـلـبـيـ معـ الطـعـامـ نـبـيـداًـ . قـرـعةـ صـغـيرـةـ .  
 خلال تسجيل الطلب ، راحت آسـياـ تـسـأـلـ النـادـلـ بالـفـرـنـسـيـةـ عنـ أـحـوـالـ  
 المـطـعـمـ وـمـنـ يـمـلـكـهـ وـرـوـادـهـ ، وهـلـ هوـ مـخـصـصـ لـلـأـجـانـبـ فـقـطـ ، وماـهيـ

أوقات افتتاحه وإغلاقه . ورد عليها بتهذيب واقتضاب وانشراح باد ثم انقل بحركة تمثيلية مفتعلة باتجاه المطبخ .

- أعتقد أننا تصرفنا كجنتلماين . قال مهدي هازئاً .

افترت آسيا : صاحب المطعم جزائري يعيش في فرنسا . الإدارة هنا فرنسيّة - جزائرية . والمطعم خاص بالمهندسين والخبراء الذين يعملون في مصنع الحديد والصلب . يأتونه في العشاء مع صديقاتهم أو زوجاتهم .

- منزعجون من وجودنا ؟

غمزت ببوزها امتعاضاً : إلى الشيطان . دعك منهم . المهم أننا طلبنا وسندفع .

- ولكن أنت يبدو أنك تعرفين المكان ؟

- بلـى . لكن لم يخطر لي أن أسأل من قبل عن مثل هذه الأمور .

- أيام كلود . قال لنفسه .

ولكنه زمن مضى . وأنـت لـست حارساً أخلاقياً ولا مـتعهداً للعـفاف والشرف . وحتى لو كان فـرنسيـاً أو يـهوديـاً أو شـيطانـاً ، أـنت مـاعـلاـقـكـ بالـتـارـيـخـ الـشـخـصـيـ . لكنـهاـ أـوـحـتـ إـلـيـكـ أـنـهـاـ لـمـ تـحـبـ فـيـمـاـ مـضـىـ . وـهـاـ أـنـتـ تـكـتـشـفـ أـنـهـاـ وـالـمـهـنـدـسـ الـفـرـنـسـيـ كـانـاـ يـأـتـيـانـ سـراـ إـلـىـ هـنـاـ . يـالـعـنـةـ أـبـدـاـ يـكـذـبـنـ فـيـ هـذـهـ الـأـمـوـرـ !

فاجأ نفسه متلبساً داخل مقبرة الأـسـلـافـ ، يـتـقـرـىـ الشـواـهـدـ ، باـحـثـاـ عنـ عـظـامـ النـقـاءـ وـالـعـفـةـ وـالـلـوـضـوـءـ . الـبـقـاـيـاـ التـيـ خـيـلـ إـلـيـهـ أـنـهـ دـفـنـهـاـ فـيـ الصـحـراءـ وـبـالـعـلـىـ تـرـابـهاـ .

«أوقف هذا الهراء القديم . أوقفه يامهدي بن عبد المطلب الديناصوري الحميري». قال لنفسه وهو يرى زجاجة النبيذ الأحمر محمولة فوق صينية من الفضة البراقة . صب النـادـلـ فـيـ قـدـحـهـ رـشـفةـ التـذـوقـ . أـثـنـيـ عـلـىـ جـوـدـةـ النـبـيـذـ . ثـمـ صـبـ لـهـاـ نـصـفـ كـأـسـينـ . لـاحـ مـرأـىـ النـبـيـذـ شـفـافـاـ كـوـرـدـةـ حـمـراءـ تـلـمـعـ طـافـيـةـ دـاخـلـ كـأـسـ كـرـيـسـتـالـ . رـفـعاـ كـأـسـيهـماـ ثـمـ قـارـبـاهـماـ بـنـبـلـ تـمـثـيـلـيـ يـخـتـزـنـ سـخـرـيـةـ . صـدـرـ رـنـينـ خـافتـ منـ حـوـافـ الـقـدـحـيـنـ : فـيـ صـحـةـ حـبـنـاـ ! ثـمـ شـرـبـاـ مـنـ الـحـافـةـ بـرـشـفـ عـصـفـورـيـ يـلـيقـ بـنـظـافـةـ الـمـكـانـ وـالـرـقـابـةـ الـمـسـلـطـةـ عـلـىـ رـعـاعـ الـدـرـجـةـ الثـالـثـةـ .

ابتسم مهدي وهو يمسح شفتيه .

- ها . غمزت آسيا . ماهنالك ؟

- تذكرت ، وأنا أشرب الآن كأنني أشم رائحة وردة ، كيف كان شرب النبيذ فيما مضى . وروى لها كيف كانوا يخرجون إلى البراري وضفاف الأنهار ومعهم جرار النبيذ ، واللحم ، والسمك ، والخضار . فوق العشب ينشرون مؤونتهم . جماعة مختصة للإشراف على وليمة شيء اللحم والسمك ، وأخرى للخضار والسلطة . هو مع جماعة ثلاثة لتحضير النبيذ داخل زير كبير من الفخار يوضع حتى يتبرد في جوف الرمل النهري ، وعندما تبدأ الوليمة يتناول كل كأسه وينضح به من القدر على الطريقة السبارطية : كنا نغْبَ النبيذ كما تغْبُ الخيول الماء . ومن يسخر يقذف بجسده أو يقذف به إلى النهر حتى يصحو ويعود من جديد . كانت احتفالات بدائية لوحوش جميلة تحب الحياة الآن انظري كيف نشم رائحة النبيذ كأنه طوق ياسمين !

- العراقيون والجزائريون يتماثلون . شهوة عارمة للمرأة والخمر والشجار دونما حساب للربح أو الخسارة أو الموت . عصبة مهابيل . قالت آسيا .

جاء النادل بالهمبرغر والبطاطا المقلية وسلطة الخس .

طلبت آسيا مايونيز وخردلاً وزجاجة ماء . كان واضحًا لهما أنهما مُهملان ، ينبعي الخلاص منهما كغريبين من الصنف المنحط الطارئ . وليثبتا أن بإمكان الرعاع ألا يكونوا رعاعاً ، كما تشير اللائحة الطبقية ، بدأ يأكلان بتقنية مدنية ذات إيقاع فيزيولوجي كاتم للحساسية والصوت . كانوا يمثلان دوراً هزلياً صامتاً في حركات اليدين وقطع اللحم والمضغ واحتساء النبيذ المهدب .

لكن آسيا ، خلال انحسار المراقبة وابتعاد الندل عنهم ، راحت تطلق شتائم بذئنة صامته ، مصحوبة بحركات إيمائية - جنسية موجهة نحو الندل ومدير المطعم الجاثم كالكردن وراء مكتبه الأنثيق . بصعوبة كان مهدي يكتم قهقهات على أبواب الانفجار .

بعد الكأس الثالثة ، تراءت لها وجوههم شبيهة بوجوه القردة تارة ، أو الحرباوات ، والسراطين تارة أخرى .

- انظر إلى أنوفهم وأصابعهم وذقنهم المهملة كقضبان عاجزة عن الجنس . إنها تنتظر رنين الدراهم لتنتصب إلى الأعلى . عيون مليئة بيرقات الأنفاغي وروث الخيول . قل لي ما الفرق بينهم وبين بلهوانني

السيرك . حقاً قل لي !

إنها تتحدث برشقات شبه مسموعة . رشقات متواصلة أطلقها بخار النبيذ .

بين كتم الضحك الصاعد إلى الحنجرة ، ورائحة الفضيحة ، غص مهدي فانفجر بالسعال . سعال خرج من أسفل البطن ، نثر على المائدة شظايا طعام ونبيذ . هرول النادل قافزاً منديله البيض عن ذراعه وراح يمسح بعصبية واشمئزاز النثار المختلط .

- بامكاننا مساعدة أنفسنا . هل تستطيع أن تبتعد . قالت للنادل . انكفاً متراجعاً .

- أووه . ولكن هذا لا يليق .

- كن مهذباً . آ . لسنا سكارى . قالت بالفرنسية ثم عقبت بالعربية : حلوف . انصرف إلى زريبتك في حديقة الخنازير .

كانت ترى من مكانها وجوه الندل والمدير المتوجهة وقد اكتست بوحلاً الشمئزاز . بفتحة أخرجت لسانها باتجاههم وراحت تبربر بخلط من البربرية وال محلية والفرنسية .

- خذ ماء مهدي . ولكن قل ماذا جرى ؟

- هل يمكن أن تكفي قليلاً عن هذه الحركات ؟ لقد أخرجتنى عن طوري . قال ذلك بعد أن شرب الماء ومسح فمه .

- كانت اللقمة في البلعوم عندما بدأت تلك الحركات اللعينة . لماذا لأنخرج ؟

- لم تنته المسرحية . مادمنا سندفع لأولاد العاهرة هؤلاء اللقطاء ونحن لانعجبهم فلماذا لانمسخهم ؟

- ولكن هناك إنذار فضيحة . لقد أثبتنا رعايتنا ولم ننجح في تمثيل الدور الآخر . كان مايزال يسعى بجلجلة أخفّ والمنديل على فمه .  
- انظر ..

وقطاعها : آسيا يرحم والديك .. إذا عدت إلى التمثيل فسوف أنفجر . دعينا نكمل المسرحية في الخارج قبل طردنا .

كان رشيقاً . كأنما على أهبة الطيران . ماكان متزعجاً ولا مضغونا من حركاتها . إنما ولدت في الأعماق رغبة عامرة في الصياح والضحك . الصياح والضحك المعتوهان .

كالطفلة الراغبة في اللعب ، هكذا كانت تبدو . من زمن بعيد غادرت حديقة اللعب . كان وجهها يكتسي شفقاً ذهبياً مناراً بأضواء طفولة أشعلاها النبيذ الشفاف الذي لاعهد لها به .

- آه . كم أنا فرحة !

بعد اجتياز ممر الرمل الخارجي ، وثبت مهدي في الفضاء . تناثر الضحك المكبوت كطائرة ورق حملتها الريح فجأة .

استدارت آسيا نحو المطعم ، وبحركة جنسية قدفت زندها : خدوا . هذا لكم جميعاً يالقطاء لا كوست .

رنت جلجلات الضحك صنووجاً نحاسية فوق كورنيش ومياه البحر . تلاقى جسداهما في نصف دورة تحت الغروب الشمسي وهما مطوقان ، ثم اندفعا يجريان على حافة البحر .

النبيذ والهبوط الناعم للريح وماحدث في المطعم ، كانت تتغلغل أمواجاً من الغبطة . النشوة التي تهبط فجأة من فضاءات غامضة لتكتسح ضباب الأسى والشقاءات القديمة .

ما أبهج الحياة في ظلال امرأة عاشقة ! تسر النشوة الهاابطة كموجة بحر في ضحى الأصياف القائمة .

أحدهما كان يغنى والأخر يرشق حقول البحر بالحصى .

كانت التلال الخضراء المواجهة للبحر تتلاألأ بنجوم الزهر الأصفر والبنفسجي ، وفوق خط الأفق البحري خفقت أسراب من البط المهاجرة على شكل مثلثات مضلعاتها مفتوحة من الوراء .

خلال لحظة ، شعرا بالشروع . بغتة كأنما سهم سري هبط من أفق غامض ، رشقهما انضما كطفلين مذعورين في غابة .  
- لنظرل معاً .

- أنت خائف ؟

- مضطرب . هذا الذي نحن فيه في عذوبة شيء لا يسمى .

- كيف لا يسمى ؟

- حالة مابين خفة الجنس والموت . أرغب أن أحافظ بك هنا .  
إنني أخفق بك كجنين . هذا ما اسمه ؟

- يا .. كنزي . ياطفلي الضائع . سأتبعدك بهذه الطيور الراحلة نحو البحيرات المتجمدة .

بدا الجسدان المتماسان مائلين تحت اشتباك الزنددين المطوقين للظهر والخاصرة ، بينما كانت الأصابع متوجهة على حواف الصدر . توأمان في انحصار الرحم أمام المداخل الخضراء للبحر .

آنذاك أو فيما بعد ، سيستعصي عليهما معرفة المواطن أو الكهوف التي انطلقت منها تلك الطيور الغريبة التي تشبه الخفافيش أو الغربان ، أصيل ذلك اليوم الذي بدا خارقاً في عذوبته .

كانت تلك هي المرة الأولى بعد عامين من علاقتها ، تحكي فيها آسيا عن شخص آخر في حياتها .

ستكون الدهشة - الصدمة أن الأمر حدث في ذلك الأصيل وهمما في قمة الغبطة .

بدأت الذكرى من أخضرار عينيه الصافيتين كهذا الماء .

مجيد بلقاسم . شاب جزائري ناضر الوجه ، أشقر الشعر يدرس الطب في باريس . تعرفت عليه على شاطئ شطايبى ذات صيف ثم اصطحبها إلى المطعم اللاكوسنـي - هكذا بدأت تسمى المطعم الذي خرجا منه للتو - في المطعم وعلى الشاطئ تحدثا طويلاً عن باريس والجزائر . عن العرب والأوروبيين . الأرض والظلمام والشمس ، كما عبرت على لسانه .

- لهذه الأسباب أعتقد أنني كرهته فيما بعد .

- أية أسباب ؟

- الاغتراب . كان مستقبلاً يكره بلاد العرب . كان يسميهما بلاد الظلمات .

هل كان النبيذ الطيفي هو الذي راوغ الذكرى وباح السر القديم ؟ أم أنها ألعاب الغيرة للطفلات الصغيرات اللواتي يحلو لهن العبث والمراؤفة ؟ أم هو الحنين المغناطيسي لأصيل عذب يشق زهرة الروح ؟

في ملامح وجهها المندى ببرطوبة المساء ، لم يلمح المكر أو استثارة الغيرة . لابد أنه البحر وظلال الغروب والمكان ، هيمنت الذكرى - الرائحة على شكل موجة عابرة مالبثت أن تبخرت !

هبط الصمت من فضاءات غامضة في ذلك المساء المنعش . صوت الأمواج وهي تلطم الصخور وترتد ، وحده كان يخرق الصمت .

بغفة ذعرت الطيور في الغابة . انحل الطوق تحت تأثير الأصوات

الغريبة وهذا الهيجان العميق للأرض والبحر معاً . اهتزأ برعشة سريرة فصلت الأصابع ومسام الجسددين .

المرأة والرجل الغريب ، وبينهما المدينة .

وكما يرى رجل منوم رأى في ذلك الزمن القديم أرضاً مخددة شفقتها حرارة الشمس . أرض العبور والحرائق والشهداء والشهوة والزلزال والصلصال القاتم .

وهو يعبرها في هذا الغسق الأسدي ، كان يتساءل : لماذا هو هنا ؟ ما الذي جاء به إليها ؟ بدت آسيا لخضر مضيئة وبعيدة كنجمة المساء في ذلك السهب الأغبر .

- لاجدوى . لاجدوى . الضلال أيضاً أيها الذئب التائه !

تشير المرأة المفصولة نحو حديقة مسورة سمت أشجارها قرب البحر : المقبرة . إنه يسكن هناك .

ينفض رأسه ليخرج من ضلاله اللعين ، فيرى الصنوبر والسرور والعرعار أشجار الجبل جاءت إلى المقبرة . أشجار باسقة في فضاء بارد تظلل القبور تتراءى الغابة الصغيرة مدثرة بالرياح والظلام داخل سلام خاص يجالها والأضرحة .

- لقد أعطوا الشهداء مقبرة وأعطوهن الأشجار .

- وأخذوا الوطن !

ينبتق شهاب لامع في بهمة الليل ثم يتزمد في قاع الأرض .  
ذلك الحوار الخاطف المنوم ، اكتسى أساه من الانعطافة المبالغة نحو مجيد بلقاسم وسي الأخضر ومدينة الحرائق .

\* \* \*

يكتب بشير حاج علي : في اللحظة التي كان فيها العربي بن مهيدى وموريس أودان وعلى بونجل يلفظون أنفاسهم تحت التنكيل ، كان بعض من ينتسبون لجبهة التحرير الوطني يذبحون في السراديب الباريسية ، وفي حي القصبة الجزائري ، بعض المناهضين للثورة من أتباع مصالى الحاج والحركيين . كذلك كان العكس يحدث : بعض الثوريين والمثقفين والشيوعيين كانوا يذبحون في بعض ولايات جيش التحرير . كان ذنبهم الوحيد أنهم مثقفون أو شيوعيون ، وفي ذلك الوقت كانت أنوف بعض القرويين تجدع لأسباب تافهة» .

وفي ذلك الزمن ، زمن الموت والاضطراب . ذبح الكومندان لزهر شرائيطي على الحدود التونسية بأيدي رجال الكولونيل محمد بوخروبة . لزهر الذي ضاع قبره في العراء ضياع قبور الحرس القديم ، يوم حلم في أقاصي الأوراس بتشييد كومونة فلاحين وجنود . كومونة مشاعية تعمل وتقاتل لأحد فيها يملك أو يستغل أو يضطهد .

## - 6 -

من المدرسة إلى البيت . ومن البيت إلى المقهى . ومن المقهى إلى زوغان الشوارع . ومن الشوارع إلى شطآن البحر . ومن الشطآن إلى المنازل . ومن المنازل إلى أحلام التعويض ، حياة تدور حول ذاتها كما يدور خذروف .

عشر الزمن في العمل . والتسعة الأعشار ، تتبدل . استرخاء ، ثرثرة ، كحول ، بيع وشراء ، أكاذيب يومية ، تلفزيون ، رياضة ، مضاجعات ، أكل ، نوم ، وحمقات أخرى سرية يرتكبها الآخر - فهو في أعماق ليل الشخص المعتم .

مدن عربية نموذجية يكتنفها التناحر والضجر واللاجدوى والدورة الواحدة للكوكب الدائري فوق شواطئ المتوسط . يحضر مهدي جواد الدرس الذى تكرر عبر حياته تكرار شروق وغروب الشمس . يخرج من الغرفة التابوتية ورائحته فيها . يلتقي بمهميار ثم يلتقي باسيا ثم بالمدرسین في ساحة بونه الظلالية ثم ينعطف نحو حانة المغرب ليكرع زجاجات البيرة مع الفول السوداني وتدخين سجائير الهقار المقيمة بين ضوضاء السكارى ، ويغيب .

تحت غمرة الضباب العابق بالرورائج والحموضة والصخب ، تنطلق طيور الحنين . الأرض القديمة والطفولة والأصدقاء القدامى . ازدهار متوجه في حدائق الحزن وحدائق الخدر والموت . ينفترق العالم بأشباح الطمأنينة الكاذبة . سلام عابر يخترق العاصفة . يتوهם أنه خارج الاعصار ، وأنه ناج تحت هذا الكنيف النائي . لقد رموا جمراتهم وأنت رميتك لكن الغابة لم تحرق . بدد . بدد . ثلاثون عاماً في حروب الريح . ثلاثون عاماً من الشوق إلى بلاد جديدة وأصدقاء جدد ونساء جديداً وعيش جديد . لكنها الحرب الدائرة راحها أبداً ولاجديد سوى هذا الصقر البري الذي ينهش الأحشاء فوق الصخرة القديمة والأرض الخراب . الأرض التي لم تحن قيمتها بعد .

في ثنايا الضباب الداخلي للحانة وغبش الروح المكلاة بالحنين ،  
تراءى الوجوه الكابية والمخمورة .

وجوه غريبة وأليفة احتوتها حميمية الحانة ، اليوم خمر وغداً  
الجحيم . الدورة اللولبية للكوكب المنجب في حلقة هؤلاء الدراويش .

إيقاع حركة النادل بين الطاولات المجاورة ، طقس ميكانيكي -  
يفتح الزجاجات المملوءة ويرفع الفارغة . دمية تنتقل من البار إلى  
طاولات الزبائن وبالعكس . تأتيه الصرخات فيهز رأسه استجابة يسمع  
الشتائم فيهرب إلى واجهة البار متظاهراً بتلبية الطلبات .

مهدي جواد مرمى في جزيرة حي بن يقطان ، يرى ويحلل ويستعيد  
اكتشاف بداية الأشياء التي اخطلت وتشابكت . الولادة ، الطفولة ، الثورة ،  
صدمة الوعي ، الموت ، الضلال ، الملاذ .

- الحياة ! هذا الفخ الفولاذى

يأتي النادل ويضع على الطاولة زجاجة بيرة ، مهدي لم يطلبها .  
يخرج من أمواج هراءات الطفولة ليسأله بوجهه .

- صديق . يقول الكلمة ويشير إلى الزاوية المقابلة .

رجل وحيد لا يعرفه . يشرب ويدخن . لكنه يرى ما حوله بصمت .  
صمت بارد .

يالغرابة !

الغربيان يتبدلان تقديم البيرة بالتناوب .

اعتكرت الجزيرة بهذا الارتباك الجديد . قال لنفسه : أي اقتحام  
لعين هذا الذي لم تكن محصناً في وجهه !  
بين الخوف واللامبالاة ينهض إلى المغسلة . يبول ثم يرشق وجهه  
بالماء البارد .

صاحب الآن . يرى الأشياء واضحة وتعيسة تحت نهار ساطع .

الطاولات ، الزجاجات الفارغة ونصف المليئة ، المنافض الطافحة  
بالأعقاب ، العيون الزائفة والمحرورة ، الأصوات المترنحة ، هو العربي  
المشع بأسراره الكهفية .

- مرحباً . أتسمح ؟

- مرحباً بك .

- اسمي مهدي جواد . هل التقينا سابقاً ؟

- لا .

- لا أعرف كيف أسأل : لماذا احتفظت بي ؟

صفق للنادل وطلب زجاجتين

قدَّم مهدي جواد للرجل الغريب سيجارة وأشعلها له .

تحت ضوء الثقب بان وجهه أسمراً ، كئيب . وجه طفل حزين معتكر العينين .

وجهه لوجه . الغريبان في الحانة التي يسمع خارجها صوت أمواج البحر .

- أنت لست جزائرياً

- كيف ؟

- الجزائري لا يجلس وحيداً . إنه يخاف الوحدة رغم ما يبذدو عليه من أثانية وتوخش . تحت مظلة الدخان والضوضاء قال وهو يمسح جبهته ، أنا مثلك عشت الزمان الغريب والناس الشبيهين بالحجارة . أنا جزائري من ولاية بجاية عشت في فرنسا خمس سنوات . عندما كنت أنتهي من عملي أذهب ليلاً إلى البارات أجلس وحيداً بين الناس . كم اشتاهيت أن يحدثني إنسان . أن يصافحني . أن يقدِّم لي كأساً لأقدم له زجاجة . لم يحدث هذا يوماً في غمرات الحنين والشوق الحار (اسمح لي ياخويا نقول : هم شيء بارد ونحن شيء حار . هم حجر ونحن دم) .

كنت كالطفل المرمى في غابة أصرخ : بجاية . بجاية . التراب والشجر والطفولة ورمل البحر ورائحة الناس . المهبط الأول للدم والألم والأعصاب وصراخ الفتيات العاريات على الشاطئ . شجارات المقاهي والأعراس . كنت أذكر كل التفاصيل والواقع الصغيرة ، التافهة ، والخرقاء ، لكنها كانت تبدو لي ساحة لعب تحت ضوء قمر . جديدة . مضاءة ، مفعمة بروائح المصطكي وزهر الليمون وحليب الأمهات .

- نحبك أيها الغريب .

مهدي جواد يستمع ويرى من خلال ضباب رأسه ما يمكنه أن يرى . مرور أو منتمر بالحنين أو سائب فوق الغمر . آنذاك ربما تساوت المشاعر والأذمنة والبلدان . لكن الرجل الآخر يريد أن يفصح عن وقائع ماجرى له في بلاد كان ملقي فيها - كما عبر - كحجر أو سلة قمامنة . كنت

أراهم كالوحوش أو الصناديق المقلفة . صناديق من الحديد أو الاسمنت .  
كيف أقول : الغرب لا يحب العرب ! اسمح لي : أنا عامل ميكانيكي أعمل في التوربيدات البحرية لكنني متعلم قليلاً وأقرأ الصحف . قد تكون متفقاً تفهم أكثر مني ، إنما أقول ، وأنا متأكد من ذلك ، أنهم يحددون علينا . حرب الجزائر التي خسروها واحدة من أسباب الحقد . الجزائر يعامل هناك كالكلب . لماذا ؟

السؤال الذي استعيد : لماذا احتفيت بي ؟ أحب عليه داخل مدار الهذيان الممل : رأيت نفسي فيك وحيداً في هذه الحانة . سعيد أنا بمعرفتك .

- هل لي أن أعرف الاسم ؟

ابتسم الرجل الثمل : الأسماء ليست مهمة . الآن التقينا وفيما بعد قد لانلتقي . المهم أننا شربنا وتحدثنا بحرارة أذابت حاجز الغربة . الأسماء تنسي أما هذا اللقاء فلا ينسى . الدنيا حلم .

وكما يحدث في السينما أو على المسرح ، نهض . صافح بابتسامة مترنحة : غداً سأعود إلى مدینتي . قد ألقى عملاً أو لا ألقى ليس هذا مهماً . المهم أن أعود إلى بلادي . الآن أنا سعيد بمعرفتك وسكنان سامحني ياخويا . طيز أم الغربية .

بين الطاولات وحشد السكارى والضباب والضوابع ، انسل كالشبح ، ثم اندفع خارج الباب الحديدى الأسود اندفاعة السهم في الليل الحالك .

الرجل الذي بقي وحيداً في ضباب الدخان والجلبة وفراغ الصدى ، اتكأ على إفريز النافذة ، وشرد .

هبط في ليلة من ليالي بونه العجيبة والعامرة بالأسرار ، في جزيرة حي بن يقطان ، وتلألأ الشهب .

- بيرة باردة من فضلك !

الغرباء . المنفيون . الملعون ، التائرون في بلاد العرب كالكلاب الضالة . والذين يموتون شوقاً لأوطانهم بينما القلب ينفطر كأفق الشفق .  
ليل بونه .

الشجر - الساحات - الفضاء الريح - رائحة الأرض في أعقاب المطر .

ثم خطوات الباحث عن الألفة والاندماج في العالم الهارب كوميخت البرق .

رائحة النساء في الشجر والفضاء ، وفي ما هو حي تحت هذا الليل الساجي .

تحت هذا الإله الحي . النابض بالمرارة والفقدان ، ولمعان أوراق الشجر ، وبريق الحجارة المنسنة . المساء . المساء . أصوات الخطوات التي عبرت في عصر ما تحت موسيقا البحر .  
ثم الرجل المهجور كأرصفة الشتاء .

- 7 -

أسرة يزيد ولد الحاج شبه السجينه .  
عائلة سي العربي سابقاً .

في الليل العايق بالشهوة والنسيان والظلال ، تهمس لا لا فضيلة في أذن يزيد بعد أن يرتوي من جسدها الريان : واش راك حبيبي نخرج غدوة للبحر ؟

ينتبر : البحر ! والناس وولاد الحرام هناك كيفاش يافضيلة ؟  
- نروح شطايبي . شاطئ بعيد وحلو . نأخذ الدراري معانا . نشم ريحه الدنيا ونشوف الشمس . زهقت أرواحنا من حبس البيت .  
تطوقة بشغف ابتزازي . ثم تنهر حوله كاغصان شجرة متسلية .  
- ربى يعيشك يا حنان .

يتراخي : نشوف . غدوة نشوف . كل صباح وله ربئه .

يفكر يزيد ولد الحاج بالعلطة البحرية . نفقات الرحلة : بنزين السيارة . الأطعمة وإيجار الشاليه وابتعاده عن رقابة شغيلة المقهي والحانوت . أية حماقات ترسمها مخيلة النساء المهدئات ! ماذا هناك على تلك الشواطئ المهجورة والتي لا يرتادها إلا المراهقون والعابثون والمبذرون . ماء وشمس ورمل وضياع وقت . هكذا العرب يبددون أوقاتهم . في الأمور التافهة والخامجة . أسبوع سيمضي بلا فائدة . الأم الدراري سيسبحون ويصرخون ويفرحون على حساب القهوة والدكان . العائلة الثانية وذلك الطفل اللعين المجنون بالسيارات والنساء ، هم أيضاً يأخذون ولا يشعرون . عائلتان ياولد الحاج . امرأتان وسبعة دراري

ينهبونك . وفي المقهى والحانوت ، العمال أيضاً يمتصون دمك . مزيد من المال . مزيد من المال . مزيد من عرق الجبين . مزيد من الدم . حياة ضائعة ومهدورة من أجل الآخرين وأنت كيما الشجرة تعطي ولا تأخذ شيئاً ومع هذا يهددك الحلوف بوخروبه بالتأمين والاستراكيه . ليأت هو واستراكيته القحبة ويريحونني من هذه الغوائل وأولاد الأفاعي .

يغفو بين أحضان لا لافضيلة الحارة ، العطرة ، اللدنة ، متعدداً من شياطين النساء ومشروعاتهن التدميرية ، مستجيراً بأرصدة أرباحه التي ستأتيه من صفقة شريكه الفرنسي في مدينة مرسيليا .

في الغدأة قبل الضحى رحلوا إلى مسبح شطايبى البعيد . سيارة البيجو الزرقاء حملت الأمتعة والأطعمة ولا لافضيلة وأسيا ومنار ورابح ، والسائق يزيد ولد الحاج .

وهما في سرير البحر تحت السقف الحجري الناتئ ، تروي آسيا الزمن الماضي . زمن العشق الخاطف والرومانتسي . العشق الشبيه بانخطاف لون البحر في ظهيرة صيف .

كعادتهم في ضحى الأحاداد ، يلتقيان في البيت ثم ينطلقان إلى السوق يشتريان الخضار والسينديويتش والبيرة والفاوكه . بعد أن تمتئل الحقيقة يتوجهان إلى موقف الباص .

يتوقف الباص على بعد كيلومتر من رأس الحمرا . نحو الحرف الصخري سيفدان السير على الأقدام . ينعطfan يساراً ثم ينحدران بين الحصى وأعشاب التلال ورائحة البراري التي اشتعلت تحت النور الشمسي . هناك على حافة البحر بين الصخور الغرانيتية المجوفة ، سيلبان كحيوانين طردتهما المدينة .

يلوح شاطئ شطايبى الساحر ، قطعة ماس هبطت من القمر سراً في ليلة ربيعية . مدى مهجور ، وموحش ، ولا مع تحت الضوء .

- بحر آخر تراه هناك . مختلف يامهدي عن لون بحر الحمرا .  
ياربى . عالم غريب في ألوانه .

وهي مغمضة العينين تحت السماء الزرقاء ، ترى سماء أخرى معصفرة الطيف المزجي يتراءى خلف جفنيها ، آخذًا شكل طيور وأزهار بنفسج وعباد شمس وغزلان وفراشات هناك على المساحة الأرجوانية المنسكبة من طيف الشمس .

حالة طيران خرجت من جاذبية الأرض .

- انظر . انظر . وردة عائمة .

يصطدم حلمها الطائر بحاجز صوت . صوت يصدى بين الحلم والقيقة بعيداً عن المدار البشري .

كانت تسبح بعيداً عن الأسرة بين الصخور الصغيرة ، في المضائق الوحشية النائية .

عندما فتحت عيني ، فرَّت الطيور والأزهار والفراسات والوعول ، وجاءت أشجار الصنوبر الباسقة والصخور وبرودة البحر والضوء ، وهذا الرجل .

على الصخور المواجهة كانت هناك قامة شاب نحيل ، طويل ، برونزي .

تراءى كجني أخرجته الأرض ولد للتو من زبد البحر . كان يتهدأ للغطس عن قمة الصخرة ، وقريباً منه كان هناك رجل آخر ممدد على الصخرة يقرأ في كتاب .

قبل أن أستوغل المشهد ، وأخرج من الحلم إلى الصحوة ، قمس الفتى في الماء ، وغاب . وفي اللحظة التي بدأت أجمع فيها شتات نفسي ، انبثق الرجل على حافة جسمدي .

أول مارأيت منه شعره السننجابي ولحيته وعينيه الزرقاويين ، ثم صدره العاري من الشعر .

حيا بالفرنسية : سالي . أنت تعومين جيداً . هل أنت جزائرية ؟  
باقتضاب وباستغراب أجبت : بلى . رنوت إلى عينيه وجهه الرقيق الهش ، الجميل ، ثم نفرت مسافة ذراعين عنه : خفت . قال الجني . واتجه نحوها وهو يضرب الماء كسمكة : ها . أنا لست من أولئك خمنت خطأ .  
ونحن عائمان في الدفء الحريري للماء قدَّم الرجل نفسه . جزائرى يدرس الطب في فرنسا . ويعمل هناك والآن يقضى عطلة الصيف هنا . اسمه مجید بلقاسم . أصدقاؤه وصديقاته يدللونه باسم ميمو .

كانت عيناه في لون وصفاء البحر . هكذا قالت وهي ترنو من حافة رأس الحمرا باتجاه المحيط الصاخب .

في البعيد ، الضباب والنوارس وصدى اصطدام الموج داغل الخجان ، وقربها مهدي جواد يتكئ برأسه على جدار الكهف المفتوح .

- أحبك كما أحببته ؟

كم بدا السؤال ردئاً ، وأخرق ، ومستفزًا !

لم تجب . استشفت ماوراء جوابها لو ردت . دفنت رغبتها في الشجار مواصلة حنينها أمام أبواب البحر .

أقدامنا كانت تلامس الرمل . منغمران بالبحر حتى الرقبة . تحت ضوء الشمس واخضرار الماء ، توضّح الرجل وسيماً يزخر بالحيوية . كان يطوف حولي وهو يضرب الماء بذراعين قويتين وأنا أبتعد عنه : لماذا تهربين ؟ لست غولاً . يضحك فتبعدو أنسانه ناصعة : لم تقولي ما اسمك ؟

آسيا . وماذا تدرسين ؟ محاسبة . وأين ؟ في الليسيه تكنيك . جيد . اختصاصانا علميان . الجزائر تتقدم . هذا أفضل من الاختصاصات الأدبية . المستقبل للعلم . في فرنسا يتهموننا بالقصور العلمي . كان يتحدث كالطلقات .

نقترب من الشاطئ وهو لايزال يبربر عن فرنسا . كولومبوس الذياكتشف قارة مجهولة يحاول أن يبهر قروية من بونه الصغيرة . الفرنسيون المطهرون من عقد الكبت . حرية الرجل والمرأة . صديقاته الفرنسيات الطليقات . اختلاف جوهر الحياة العربية عن الحياة الغربية . الحرية المطلقة للإنسان . الازدراء العنصري والاستباكات بين العرب والفرنسيين . ضرورة الاندماج في المجتمع هناك وخلع الجلد المختلف البالي الذي خاطه الإسلام فوق جلوتنا القديمة .

تغطس آسيا في الماء الملون ، الشفاف . أصابع يديها تلامس الرمل . تسير زاحفة فوق الرمل وفوقها الفقاعات . توغل أكثر في هذا الرحم البار والحميم . بحرها الذي قالت عنه لا لا فضيلة : لن تموتي إلا فيه . هو مقبرتك . وفي الممر الذي تشقه داخل البحر تحلم ببلاد بعيدة . أسفار وهجرات وقطارات ومراتب ومدن . بعيداً عن هذه الصدفة المغلقة المسممة بونه ، وبعيداً أكثر عن سطوة يزيد ولد الحاج .

كالريح في ليلة صيف عابقة برائحة زهر البرتقال ، يعبر مهدي جواد .

عندما تنبثق كالطائر المبتل ، تواجهها الصخور الرمادية والطحالب . جسد برونزى ، ناهض كأنثى الوعل يتلألأ تحت سطع الشمس . آسيا الأخضر مهبط شهوة الرجال الشبقين والنذير السري لتوق الأرض العطشى المطر . هذا الانبهار الشمسي المضيء لحلكة الليل .

وريثة أعراس الدم ، البهية ، الصلبة ، الناضحة بالبهاء والصحة ، والثقة ، واللامبالاة ، والقتل ، والجنون سليلة آلهة معابد الأزمنة المقدسة ، تختال كالأميرة فوق الحصى البراق تحت وشاح الضحى .

يخرج مجيد بلقاسم من البحر ، يرفع شعره السنجابي الذي يقطر ثم يمسكه بدلال الشاب الواثق من فتوته ووسامته . يخطو حيوياً بين الحصى والرمل الدافئ .

باطن كفيها على الرمل . الصدر ناهد إلى أعلى والعنق والوجه متلزان ، يصعدان مع الشمس ، ثم الفخذان الزهريان السائبان بانتعاش داخل الوهج الخدر لحرارة الأرض والرمل . يعبر الشعب الضيق بين الصخور ثم يثبت فوق إحداها . هو هناك بقامته السامقة ونحوlette . أكثر وضوحاً واستعراضاً تحت هذا العراء . أكثر لمعاناً تحت هذا الهدوء الفسيح . ابتعد الآن عن صديقه الجاثي هناك على مرمرى حجر .

- شواطئنا أجمل . شواطئ بدائية .

قال وهو يهبط بفتحة قربها .

سمعته وأنا أصعد في تيارات الأشعة . فتحت عيني قليلاً كان ملقى على بعد نصف متر ، يراقبني .

- الحي الوحيد هو الطبيعة أما الإنسان فيشبه الجثة . ببربرية أنت أم عربية ؟

- أؤوه . أئي سؤال ؟

- البربر أكثر تقدماً .

- كيفاش ؟

- أقل تعصباً ضد فرنسا واقتراباً من حضارة الغرب . العرب منغلقون كالسلاحف .

- والفرنسيون متسامحون وانسانيون ؟ سالت باستهزاء .

- أحرار من الداخل . بلا عقد .

- وما فعلوه هنا ؟

- أنا غير مهتم بالماضي . الأساسي نحن . الأجيال الجديدة .

- في الحرب ماذا كنت تعمل ؟

- طالب في السوربون .

- ومع من كنت أيام الحرب ؟
- أنا أكره الحروب . كنت ضد الحرب والموت .
- أوروه . ياللحياد الانساني الشريف ! هي كانت حرباً بين الهند والباكستان أم بين العدو والوطن ؟
- كل الحروب قدرة .
- لابد أنك كنت مع الحب ! في فرنسا الحب كالماء والهواء !
- أنت ضد الحب ؟
- أنا ! أبداً . فيفا الحب والحرية . فيفا الحضارة الغربية الساطعة كالشمس .

قلت الجملة الأخيرة بامتعاض وحنق . وليسَوْغ هو موقفه انطلاقاً يتحدث عن تقدمهم وتخلفنا ، عن حريةِهم واستبدادنا ، عن منطقهم وانفعالاتنا ، عن مدنيةِهم وبداويتنا . كان يحكي بكراهية واسميةً عن الفوضى البدائية والقصور العقلي والذهن الخرافي ، وعندما قلت له بأنَّ تردد مايقولونه هم عنا ، وأنهم سموك بالكراهية ، انقض قائلاً بأنَّ العرب ليسوا شيئاً في حساب العالم . وقلت مادمنا كالأصفار ولسنا شيئاً فلماذا استعمرونا وحاربناهم على مدى أكثر من سبع سنوات هنا . وسألَّ عما تكون الجزائر بعد الحرب : هل هي أكثر من مزرعة للبيروقراطيين والخبطاء والبورجوازيين ؟ وقلت بأنَّ عمر الاستقلال عشر سنوات فقط . الاستعمار ترك البلاد أنقاضاً وهانحن ننهض من الموت في المصانع والمزارع والمدارس والجامعات والمشافي وحقول البترول والغاز . كل هذا لنا . بلادنا تشييد وتتمو من العدم . هذه هي الجزائر الان . ولكنَّ أنت عدتَّ غرباء تأتون إلى بلادكم كسواح . كانت آسيا لخضر ، وهي تتحدث ، ترسم أشكالاً شبه هندسية على الرمل . رسمت شكل مصنوع وصورة إنسان وشكل رغيف ثم خطت دائرة كتبت داخلها 13 مليوناً . ورسمت بعيداً عن تلك المساحة صورة رجل شبه عار مالبثت أن مسحت رأسه .

وكان مجيد بلقاسم المسمى ميمو تدليلاً يرى ماترسمه المرأة ويضحك .

- أنت تعتقدين أنَّ الخبر يأتي أولاً ؟
- الحرية لا تؤكل . شعبنا جائع . قرن وثلث من الجوع والموت والمنفي . نريد أن نعيش بالخبر لنفكر .

الحوار تجاوز الوقت المسموح به بعيداً عن الأسرة . عن بعد لاحت منار قادمة . نهضت آسيا . سألهما إلى أين فقالت بأنها تأخرت وأنهم يريدونها للغداء .

- أنت هنا حتى متى ؟ قال الشاب الجندي

- مع أسرتي نمضي هنا أسبوعاً أو أكثر . لا أدرى !

- لقاونا اليوم كان عدوانياً . هل أراك غداً لنتصالح ؟

- ليس مؤكداً .

لوحت بيدها مودعة . ارتفت صخرة . مد ذراعين وكففة ألفت البحر واشتاقته بعد شمس ، اخترت البقعة الزرقاء العميقية .

ستقول آسيا لمنار وهما تعومان باتجاه الشالية التي استأجرها يزيد ولد الحاج : الجزائري ضائع .

تقول ذلك بعد أن تروي لمنار ماحدث لها مع مجيد بلقاسم .

ومعًا ستتحديثان عن التوق الجميل للرجل والحياة السعيدة والأسفار البعيدة خارج هذه المدينة التي لا يحبانها .

التسار الذي يحتفظ به البحر والفضاء ، الآن ، وفيما مضى الغرف السرية ، سيطلق الأشواق الشبيهة بطويور سجينه .

تسأل منار عما تريده أختها : العربي أم الجزائري أم الفرنسي ؟ وتقول آسيا لأختها بأنها ماتزال حائرة ولا تعرف ماتريد ، وإذا تحاول أن تشرح ميزات مهدي ، تستدرك بأنها ماتزال صغيرة ، وتأبه . في الرأس رغبات وأشواق ملونة ومتداخلة عن الدنيا الواسعة التي لم تتعرف إليها : الحق أنا أحب مهدي من أعماق قلبي . لكنني خائفة من المستقبل . خائفة منه . يبدو لي أحياناً رجلاً بلا مستقبل . السياسة في بلادنا محرقه . المنفى أو السجن أو القبر . هذا كريه . ألا يكفينا ماجرى لبابا وويلات الحرب !

منار للأبالية سوى بما ترغب ، تقول : عيشي حياتك الآن وكفى ، يوماً ما سننافر معاً ونخرج من هذه القوقة

- ولكنني أحب الجزائر ياختي . لماذا الجزائري فظ ؟ أوه . هذا الميمو المفرنس أصابني بالدوار . مرة واحدة التقينا ويرغب أن ينام معي . هزئ مني لأنني مازلت عذراء . قال : الفرنسيّة تخجل من عباء الغشاء . ترى فيه رمز غبائها . وقال بأنها تقدمه بنشوة وفرح لأول

صديق ينام معها . سمانی طفلة خرقاء ماتزال تغتسل بحلب أمها وتنام بين ذراعيها الحميمين .

تقهقه منار . ضحكتها تتموج مزققة في فضاء أبيض :

آه . يابوما . لا الذي سافر ولا الذي هنا يفهم الحياة .

تبتلع قليلاً من ماء البحر لاتثبت أن ترشقه رذاذاً فوق السطح الأزرق : طيز أمهم . طيز أم الحرب . المهم أن نخرج يوماً من حظيرة الحاليف . الحرية . الحرية . هذا هو ربى !

الطفلتان البهيتان تحت الشمس خرجتا من حقل البحر إلى الشاطئ . إحداهما تقوست وتناولت حصاة ثم قذفت بها بعيداً في عمق المياه ، بينما الأخرى بدأت تفني بالفرنسية : حدثني عنه .

وفي سرير البحر بعد أن تفيض الأعماق بجيشاناتها ، يبدأ الطقس الراغب للجسد . البحر والشمس والبيرة تختمر وتتوهج في الخلايا فتنطلق الطيور . في الزوايا الخلفية والمنسية ينام مجيد باقاسم طي أفكاره اللاوطنية والجنسية ، بينما ينطوي مهدي جواد في السفح المقابل . ويتقدم الجسد .

الجسدان المحتمدان فوق التراب والعشب ، في غمرة النار ، داخل الدوران الصاعق ، والصرخة المتواشجة مع الحجر والأرض واللحم . الجسد الحي ، الدموي ، الواحد ، وهو ينصله بجحيمه .

يسجل مهدي في اليوميات . سماء سحرية بلا نجوم . أرض مجللة بالعتم . أرض الوحل والدم . آسيا نجم يهدي في هذه البرهة المفلترة مع زوغان وسقوط الشهب . سأئند رأسى المتعب إلى بازلت هذه الصخرة الناهضة على مداخل البحر بانتظار السفن . لاشيء مضيء الآن للرجل المخذول سوى هذه النجمة .

- 8 -

في معهد المعلمين القائم على تلة مشرفة على البحر ، يخرج مهيار الباهلي عن سياق الدرس التربوي ، ليتحدث عن سفر التكوين النموذجي للعربي المنتظر كما يتراءى له في لوائح صبواته .

ترمح خيوله في الغابات والحقول ، فيرسم بو ثباتها الهوائية زماناً أخضر وببلاداً سعيدة ترفل بالنعوى والمسرات والضوء . يشتبك العقل المأخوذ بعصور التنوير ، مع الاصلاح اللوثري وتوما الإكوليني والقديس

أوغسطين ومونتسكيو والثورة الفرنسية ، عابراً إلى ابن خلدون وابن رشد الذي أحرقت كتبه في ساحات قرطبة . يروي محدث لغيلان الدمشقي المعزلي والسهوردي والحلاج وابن الرواندي الملحد .

- القرامطة كانوا تجسيد السلطة للاشتراكية المشاعية . لقد بلوروا كل التمرد والخروج الذي سبّقهم في كومونة الشعب .

وفي لحظة إشراق نزقة ، يسخر من اشتراكية الزكاة التي أقيمت على أنقاض مليون ونصف مليون شهيد .

- لماذا جرت سيول الدم هنا إذن !

باختدام ، مفعم بمرارة ، يقول ذلك . كان يبدو كالنمر بحركاته الجسدية وسط الطلاب وهو يزرع القسم من أقصاه إلى أقصاه ، مدوياً بصوت يسمع كضربة إزميل في صخر .

دون أن يدرك ، وهو في غمرة تشبيهاته لرأيات الزمن المضيء ، كان يدحرج كرة محسنة بقنبيلة بلاستيك نزع صمامها الداخلي . وهذا عندما سُئل إن كان ضد اشتراكية الإسلام ، واصل قناعاته : الإسلام . الإسلام وحد العرب لكنه لم يُشد الاشتراكية . واستطرد محتمياً خلف متراهنه : حتى الرق مانص الإسلام على محوه . أوصى فقط بالرفق بالعبد وأبقى على الجواري .

- ولكن الشيوعيين ماذا فعلوا ؟

هكذا قذف أحد الطلبة بالكرة البلاستيكية في وجه الباهلي ، الذي بوغت بعد صمت قصير ، ممض ، يتحدث محابياً عن السؤال ، عن الماركسية الثورية ، مؤكداً على ضرورتها التاريخية للعرب : الوحدة شرط جوهري ، لكن الاشتراكية هي صخرة الوحدة . ينتبه في اللحظة الأخيرة للورطة التي استجرأ إليها من خلال جموح جياد الدماغ .

الذي جرى فيما بعد داخل القاعة ماكان في الحسبان . لقد ابتدأ الهرج والغليان في القسم على شكل موجات أو فقاعات انطلقت من طالب متدين نقل عدواه إلى آخرين . كانت الأصوات تتعالى ، هادئة ، ثم حادة ، ثم مسحورة ، ضد الإلحاد .

- الشيوعيون إياحيون وكفرة .

- لأنريد الشيوعية في بلادنا .

وبدؤوا يهمون بالخروج احتجاجاً .

- درس فلسفة وتربيـة لادرس سياسة خامجة .

كانت الأصـاء ترن على الجدران والـقف وفي أـصـاب مهـيار التي  
الـتـهـبـ .

عندما انطلقت بعض الأصـاء المضـادة لـتواجـه المـجمـوعـة الـديـنـيـة ،  
تحـلـ جـارـ الحـصارـ وـالـوـحدـةـ حولـ مـدـرـسـ التـرـبـيـةـ الـفـلـسـفـيـةـ ،ـ لـكـنـ  
الـضـوـضـاءـ وـالـصـرـخـاتـ اـرـتـفـعـتـ أـكـثـرـ .

- الأـسـتـاذـ حـرـ فيـ دـرـسـهـ .ـ أـنـتـ فـوـضـوـيـونـ .

- إـنـهـ دـرـسـنـاـ .ـ وـقـتـنـاـ .ـ وـقـتـ ضـائـعـ فيـ الـخـمـاجـ .

- الـجـزـائـرـ اـخـتـارـتـ الـاشـتـراكـيـةـ .

- اـشـتـراكـيـةـ الـاسـلـامـ لـاـ إـلـحـادـ !

- لـاهـذـهـ وـلـاهـذـهـ .

ماـكـانـ بـاـمـكـانـ الـمـدـرـسـ الـمـرـتـبـ إـيقـافـ هـذـهـ الـفـوـضـىـ الـهـوـجـاءـ .  
كـانـتـ الجـلـبـةـ تـخـرـجـ منـ القـاعـةـ إـلـىـ سـاحـةـ الـمـعـهـدـ وـالـاقـسـامـ الـمـجاـوـرـةـ .  
عـنـدـمـاـ حـضـرـ الـمـراـقـبـ الـعـامـ ،ـ وـرـأـىـ مـدـرـسـ التـرـبـيـةـ الـقـصـيرـ مـغـمـورـاـ بـيـنـ  
حـزـمـةـ مـنـ الـطـلـابـ وـهـوـ يـلـوحـ بـذـرـاعـيـهـ لـيـفـضـ اـشـتـبـاكـاتـ الـقـبـضـاتـ وـالـرـؤـوسـ  
وـالـتـرـاشـقـ بـالـكـتـبـ وـالـكـرـاسـاتـ وـمـاتـخـلـعـ مـنـ خـشـبـ الـمـقـاعـدـ .

نـذـرـ الـقـيـامـةـ قـامـتـ فـيـ قـسـمـ مـهـيـارـ الـبـاهـلـيـ فـيـ بـدـاـيـةـ ذـلـكـ الصـيفـ .

- فـيـفـاـ التـثـوـيرـ .ـ قـالـ مـهـديـ جـوـادـ سـاخـرـاـ .

كـانـاـ فـيـ مـقـهـيـ الشـرـقـ ،ـ وـمـهـيـارـ يـرـوـيـ مـاـحـدـثـ فـيـ يـوـمـ الـقـيـامـةـ  
الـمـارـكـسـيـةـ .ـ وـعـنـدـمـاـ قـالـ مـهـيـارـ بـبـرـودـ ،ـ شـيـئـاـ عـنـ ضـرـورـةـ تـثـوـيرـ الـأـجيـالـ  
الـجـدـيـدةـ وـهـزـ النـاسـ ،ـ سـأـلـهـ مـهـديـ :ـ مـاـذـاـ سـتـهـزـ فـيـهـمـ ؟

أـنـفـضـ بـيـقـينـ شـبـهـ نـبـوـيـ :ـ الطـمـائـنـيـةـ .ـ الـمـسـتـنـقـ .ـ الـزـمـانـ الـمـيـتـ .  
يـنـبـغـيـ زـلـزلـةـ الـجـذـورـ الـقـدـيمـةـ الـتـيـ تـعـفـنـتـ .

نـفـخـ مـهـديـ فـيـ الـهـوـاءـ دـخـانـاـ أـوـ غـبـارـاـ أـوـ بـخـارـ ضـبابـ .ـ لـفـائـدـةـ مـنـ  
استـعادـةـ حـوارـ الـلـاجـدـوـيـ حـولـ الـمـمـكـنـ وـالـمـسـتـحـيلـ ،ـ الـوـاقـعـ وـالـحـلـمـ ،  
الـخـرـابـ الشـامـلـ وـجـنـةـ عـدـنـ .ـ فـقـطـ كـانـ بـالـمـكـانـ التـنـفـسـ بـهـدوـءـ فـيـ زـاوـيـةـ  
أـوـ إـطـلاقـ صـرـخـةـ مـوـتـ مـدـيـدةـ ،ـ مـدـيـدةـ ،ـ أـوـ طـعـنـ الـجـسـدـ بـالـزـجاجـ كـمـاـ حـدـثـ  
لـعـمـرـ يـحـيـاـيـيـ الـذـيـ تـحـوـلـ بـقـدـرـةـ مـغـنـاطـيـسـيـةـ إـلـىـ بـهـلـولـ نـسـاءـ وـحـانـاتـ .  
هـكـذـاـ خـاتـلـ عـنـ هـذـاـ كـلـهـ وـسـأـلـ مـهـيـارـ عـنـ رـاحـتـهـ الـشـخـصـيـةـ فـيـ الـبـيـتـ  
وـالـاهـتـزاـزـاتـ الـلـيـلـيـةـ لـفـلـةـ بـوـعـنـابـ .

دخول الشرقيين إلى المقهي على شكل عاصفة غبارية ، كتم الجواب . هبطوا كالذباب حولهما . دارت الأسطوانة إياها . الغثاء الأحوى . الرنين السرمدي لمتابعة التدريس . والأطعمة . ومشاركات العطلة والسيارات . واستبدال العملة من السوق السوداء . والمومسات . والأسواق المنوية لنساء البيكار في باريس إبان العطلة . آي . آي . آي . بونه . بونه . انشطار النيزك عن شهابه ثم دخوله في قاع الأرض ملايين السنوات المنطفئة .

لكنها المدينة . فضاء رطب . شجر يشتغل بالأخضر والندى ، مخترقاً فضاءه السماوي . وهما الغريبان ، المتلاصقان في بونه المنطفئة - الخضراء . كل منها يلوذ بالآخر ، حماية ودفناً ، وهما المفترقان .

وهذه البونه الملعونة . سادوم الزمن العربي المشظى ، شجو الغرباء في الليالي الرطبة ، المصدية بالأحزان حيث تعبّر مجرات الطفولة القديمة ، متسللة من سمائتها مناديل ورایات شهداء صعدوا إلى سماءات الحلم الذي تناثر ، لاتحنو أبداً ، شجومها وحده الحميم كالرحم ، في غلاف هذه الرطوبة الهاابطة .

الصديقان اللدودان ، في مدينة الاسمنت والقتل المباغت .  
هاهما يفران من المقهي هرباً من خنازير السوق السوداء وأحلام البيكار ووجوه البلاستيك والرماد .

- مارأيك ببيرة باردة في الموروك ؟  
يقول مهيار : أنت شهاب . لشرب السم بعيداً عن أولاد العواهر .  
هنا ينزو ي الغراء .

مع احتساء البيرة الباردة ينتعش الجسد . يأتي بائع الفستق السوداني . غلام في سن العاشرة يؤرجح قفة من القش أكبر منه تحتوي في قاعها نصف كيلو من حبات الفستق . يسأله الباهلي لماذا يبيع الفستق في البارات ، فيرد الطفل بأن أسرته في الريف فقيرة ، وهو ينزل ليلاً إلى المدينة ويعود صباحاً ومعه الخبز والتمر والكوشة . ثم يسأله عن المدرسة وعدد أفراد الأسرة والأحوال الاجتماعية للقرية ، فيجيب الغلام ويدله ممسكه بكأسه استعداداً للبيع . إذ يضجر الغلام من الأسئلة والاستجوابات يغطس كأسه في كيسه وينثر حقي فستق ثم يطلب دينارين وسيجارة . يشعّلها ثم يمْج دخانها عميقاً كرجل مدمٌ . وهو يهم

بالابتعاد يتناول زجاجة البيرة من أمام مهيار : تسمح لي يا خويا ؟ يكروع ماتبقى من الزجاجة ثم يرفع يده بالتحية ويستدير متربحاً كفراشة نشوى بين الطاولات .

تحت ضباب البار بدأ الجو يدوي بالصخب والثرثرة .

- لو لم تكن البارات لطق الجزائري غماً . كان العالم السفلي يصعد من قيعان ارهاقاته منتشرًا على شكل أبخرة بركانية . طيور سئمت ظلام الغابات كانت الخمرة تفرد أجصحتها وتطلقها أسراباً في هذه السماءات الرحبة . هنا كانوا خارج الجحيم النهاري ، يبحرون في هذا الزورق النشوان ، بعيداً عن الموت وقسوة المدينة والبشر . حتى مهدي حكاية الرجل الغريب الذي قدم له البيرة في الزاوية الغربية ، وكيف رحل كما ترحل الريح . كانوا في مدارات الغبطة والأسى والشفافية . غير أن الكآبة أطلت من وجه مهيار : متى تنتهي هذه الغربية اللعينة ! وبدأ حديثاً عن اللاجدوى : يبدو أننا ننحت جبلاً من الغرانيت بإبرة .

عندما يهاجمه الحنين يربد وجهه كجدار محترق . كانت تجربة الأهوار تدوم في أعماقه كدوامات الأنهر . لقد نسيها زمناً وأغلق عليها برتاج فولاذى ثم قذف بجراحه الرفاق والأخطاء والمرارات إلى أعماق البركان المنطفئ . لكن ذلك العالم المنسي كان ينقدف في أوقات الاضطراب كما تنفذ الجزر المغمورة فجأة من أعماق المحيط . تحت شجر المدينة والليل الساجي ، وهو في الساحة ، قال مهدي جواد شيئاً عن موت الزمن القديم والأحلام القديمة ، والمرأة الملاذ .

على نحو مباغت انفجر مهيار . كبا بوجهه على جذع شجرة دردار واندفع شهيقه . كان يضرب الجزء المخرش ، الصلب بقبضتيه وهو يهذى عن الدمار والغربة والتوحد والأطفال والثورات المغدورة .

- لا أمل . لا حل . الموت . الحروب الأهلية . الحروب الأهلية . آه . آه . يأممي . أين أنت ! أين النار !

أسبوع صيف شطايبى مضى بين البحر وكتبان الرمال الذهبية وأشعة الشمس وهذا الفتى الجميل : ميمو .

- ذلك الذي مضى يبدو الآن كأنه ضربة شمس قديمة . تقول آسيا بالفرنسية .

- أين هو الآن ؟

- في باريس . منذ شهرين كتب لي كي آتى إلى فنسا . كان سعيداً

بلقائنا وبشواظئ الجزائر الساحرة .

- كامو ، أنت تعرفين ذلك ، كان هو الآخر مسحوراً بطبيعة تبيازا وجهية . .

- ولكن لماذا حدث ذلك ؟ سألت باستغراب طفولي .

- ما هو ؟

- الحياد .

- حياد من ؟

- حيادهم . قبل الحرب وبعدها كانوا ضد أنفسهم . لماذا وحدها أزمة الحرب وحدتهم ! كانوا مع أنفسهم في الخطر وعندما زال عادوا إلى الشقاوة .

- ولكن من الذي انشق عنهم ؟

- ألا ترى كيف نحن ممزقون وضائعون بعد الحرائق ؟

كان الرجل المنسى في أعماق مهدي جواد يهدي بخفوت حول الانشقاق - الجذر . انشقاق الوهم المتوجه الذي لاث عقل الباهلي وأفقده صوابه حول صراع الطبقات في أعقاب الحرب الوطنية التي خلقت الحاجيل بالنابل وأودت إلى هذا الدمار الألهي .

ولاحت الموجة التي حملت بوخروبه وعبد الله الكلبي ، تتهاوى في قرارة اللاوعي القديم على شكل وساوس كابوسية تهجم في الساعات الأخيرة من هجوم البحر .

وفي ذلك الزمن الهلامي ، لما انقذت الروح البشرية بملائين النوترتونات المفجرة للخلايا ، فتشردت الذرات في كل اتجاه ، وابتداأت النيازك تتتساقط ، اصطدمت آسيا الأخضر ، الطالعة كالنرجس من أحشاء الأرض الخراب ، والرانية إلى الشمس ، بمهدى جواد المحطم كسفينة يوليسيس . إنها تندفع بشفاعة الجسد والنفس ليكون سي العربي الذي مازال حياً في نسغها الصاعد .

بجسد أفريقي عارم ، وروح فتية فتوة البحر ، تundo صوبه فتفطيه كفابة استوائية ، فلا يعود يرى سوى الأغصان المدلاة فوقه ، ولا يشم غير روائح عشب الجسد الغض . إذ ذاك تدخل الأسئلة والفواجع في فجوات الجسد الذي كان غائباً ومشتهى فيما مضى من العصور القديمة . الرجل الحي - الميت ، البديل - المزيف الذي ضيق هو الآخر أباه في صهارى

ومستنقعات الشرق ، هو ذا ينكمي محظماً على البرّ الافريقي ، لايسمع سوى عزيف الجنّ يأتي على شكل ايقاعات سحرية صادرة من كوكبين شاردين يقتربان من مركز الانفجار .

رجل وامرأة ، غريبان في الأزمنة والمدن ، هاهما يصطدمان على غير ميعاد في ليل عذب على حافة الموت .

## - 9 -

في تلك الأيام التائهة والصيف هاجم كلفح الحريق ، بدأت أطوار غريبة تظهر في مجرى حياة مهيار الباهلي من خلال سلوكه العدواني مع البشر . وفي الأمسى والنهارات كانت تذمراته تترااءى على شكل شكاوى وأشمئزازات وسوداوية . ففي أيام العطل كان يغلق غرفته أحياناً فلا يخرج حتى الصباح التالي منبهأً فلةً لا تفتح لأحد يسأل عنه . وعندما تحاول أن تسأله عن حالته كان يصرخ في وجهها مستخدماً أحاط النعوت من البلاهة إلى العهر إلى المسوخية العقلية . كانت المدينة بارتجاجاتها البدائية تبدو كأنما مسته بروح شيطانية لوثت عقله المتوازن . شجارات لأنفه الأسباب مع الآخرين . دوران ليلي وحيداً على شطآن البحر . أحاسيس مختلطة عن متآمرين يتربصون به لاغتياله في المنعطفات ، وفي منتصف الليل كانت فلةً تفيق هلعة على أصواته وصراخاته المحمومة فتوقه من كوابيسه . تجلس قربه لتمسح عرقه ودوائر الزبد الرمادية عن حواف شفتيه .

في فسحة الهدوء بعد أن يصحو من هذه النوبات يستعيد بحره المضطرب حاليه الزرقاء القديمة .

ماجرى في مطلع ذلك الصيف بدا عاصفة فوق بحر الرجل المصنوع من اسمنته المنطق . الرجل الذي ربى نفسه ونذرها لتكون أمثلة عصر اجتاحته الأوبيئة والخراب الذي لاحدود لدماره . ومع أنه كان رجلاً صلباً في أعماقه يقوم بوثبات طويلة تتجاوز قدرته على الوصول إلى هدفه ، إلا أنه كان يرى بوضوح تلك الأرض الخراب بهواتها وبراكينها وغاباتها وأمداد حياتها وموتها .

ورغم إحباطاته ومشروعاته الفاشلة التي خاضت حرباً رومانسية في مستنقعات الهور ، فخرج منها حياً بأعجوبة ، حاملاً وشم طلاقتين إحداهما في عضلة عرقوبه الأيمن والأخرى في عجيزته اليسرى ، إلا أنه

ظل صلباً ومتميزاً، قادراً أن يفعل ما يشبه السحر التنويمي وهو يتحدث مع من يلتقيه لأول وهلة.

فلة التي هوت أكثر من مرة فريسة نوبات عصبية جراء انعكاس هذه الحالات الباهلية عليها، كانت تقول بأن الشمس الاستوائية خللت عقل مهيار. الشمس التي تلتهب أشعتها العمودية مع بداية الصيف فلا يحتمل حدتها سوى الأفارقة من السكان الأصليين الذين يبدؤون حجيجهم إلى كعبة البحر منذ الأسبوع الأول من مايس، هرباً من هذا السعير الصاير للحجارة.

وبعيداً عن اكتناءات فله وهرطقاتها البدائية المحتملة، كانت الأشياء ترى تحت الظهيرة البوئية كأنها مرايا لامعة تتقد وهجاً بملائين الأشعة المبهرة للبصر: البحر وسهوب القمح الصفراء المشتعلة والجدران البيضاء وذرى الأشجار وحجارة الشوارع السوداء.

غير أن العاصفة كانت تهدأ في رأس مهيار في أعقاب العودة من البحر، أصيل يوم الأحد، تتبختر الأشعة الشمسية ليهبط على بونه سلام بارد، عذب عذوبة الندى، من سماء هاجمتها السحب فجأة منطلقة من قمم جبل سرايدي المغطى بالغابات. أنها، وبعيداً عن احتدامات المشارقة والمغاربة، وصدمة الجرح القديم تشف روح الباهلي ويعود لها وميضها الأخاذ. تنطلق إشراقاته مغلفة بأشرعة من الحبور والسخرية الطفولية، العاقلة. تندهش فلة من هذه الحالة الجديدة فتشفى هي الأخرى من وباء كابتها وتندفع كأم غمرها الحنان لتطوّق مهيار بذراعيها وجسدها النحيل: ياطفلي الجميل الضائع!

في ذلك المساء وهم على مائدة العشاء يفصح مهيار الباهلي لأول مرة عن أسرار حلمه القديم. لا يروي الواقع بقدر ما يصور الحنين إلى عالم جديد ارتسم في رأسه ربما قبل أن يقرأ أي كتاب ثوري عن حرب العصابات. كان يستعيد الشوق الأول للمغامرة الطفولية: أن تبدأ الأشياء دائماً كالخلق الأول نظيفة وعادلة وأن نرسم رسومنا على بياض بلا رقابة أو توجيه.

إذ تلتبس الأمور على شاشة عقل المرأة الساذجة، يحاول أن يوضح لها بأن في كل مغامرة ثورية استرجاعاً طفوليًّا للبقاء الأول الذي اعتكر. ويضيف: الكبار دائماً يلوثون العالم. لهذا ينبغي الخروج عليهم بين فترة وأخرى لتجديد الحياة. هل فهمت؟

- ولكن ماذن تعني بالكتاب؟ .

- الآباء والحاكمون وقادة الحزب .

- مارأيك ياسى مهدي؟

يهز مهدي جوار رأسه موافقاً . لقد أخرجته فلة من مدار ارتساماته التشكيلية . كان يرسم هذه العناية امرأة أخرى . نصف آسيا الآخر يتتجه إليه في الليالي تعويضاً عن آسيا التي لايراهما سوى في النهارات . وفي ذلك المساء أدركت فلة مذهولة أن رجلاً ليس عادياً يعيش معها . رجل يتساوى جرحة وخذلانه مع انكساراتها القديمة ، يوم كانت مثله ممتنئة بالرعد الذي تصورته يزلزل أساسات العالم .

- لماذا حدث ذلك على هذا النحو الفاجع؟

كاد الطعام يتحول إلى غصنة في حلق كل منهم . همدر مهدي وهو يتراجع قليلاً : أوه . فلة . ياللعنة . دعينا من هذه . . وانتبر الباهلي مقاطعاً : مهدي . أنت ماتزال على ستالينيتك لماذا تcumها؟

- نخبك أخي مهيار . قال مهدي مندياً الفضاء .

مهدي وفلة شربا النخب . الباهلي اكتب . وجهه اغتم ثم أربد حتى صار في لون الرماد .

بدأ الصمت ينذر بقدائف مدلاة من خيط واه .

أول قذيفة انطلقت ، اخترفت الخندق الستأليني والمنتربسين فيه من الأحزاب العربية القادمة من جبهة السفارات السوفياتية .

القذيفة الثانية دمرت الخط اللارأسمالي والنضال السلمي وجبهة البورجوازية القومية - العسكرية .

الثالثة وجهت من مدفع 155 ملم نحو خط التحريفية والوعي الاقتصادي الميكانيكي .

أما الرابعة فقد تناشرت شظاياها باتجاه الشعب الرجعي ، الخامل ، الاتكالي ، المعادي للعقل والماركسية .

قبل انسحاب مهيار العصبي نحو غرفته ، دفع دمه المحروم طلقتى رحمة نحو صدر ورأس العناية ومهدي : هه . يالكلما من صديقين متآمرين . بالامكان أن تفهمي الآن يامدام فلة المحترمة سبب فاجعة محدث .

في تلك الليلة ، بعد أن غادر بيت فلة مغموراً بالأسى ، استعصى على

مهدى جواد استبدال المعادلة الوضعية : أن تكون فلة بوعناب الدمية والشهوانية والمبذولة والثرثارة ، امرأة أحلامه الليلية . كما استعصى أن يكون مهيار الباهلي سوى طبيعته المقدوفة فوق فوهه براكينه التي تثور لحظة انفجار الحمم .

إقبل العالم كما هو أو غض كالصدفة في أعمق المحيط . هكذا فكر وهو مستلق في سريره قبل أن يدخل في نفق النرم . لكنه في الليلة الثانية بعد الألف ، وهومبحر فوق طوف موغل في البحر العاري ، اصطدم بالصور والأحلام والرغبات المستيقظة من كهوف البحر . هومت نساء بونه الشهوبيات بظلاليهن ، وصرخاتهن ، وحشد أجسادهن المضاءة بالعرى والتسبيح الديونيسيوسي ، لهذا البخار الخارج من تعرق الأرض وشمس البحر ودماء الأعضاء ورسوخ الشجر وانتصابات الجذوع ، وأهات الموت .

كن في المعبد . معبد عراء البحر الربح ، يصلين لإله ينبعق للتو من فجوات الصخر - الجسد ، يدخلهن الزيد الحميم الحار المذاب بقطرات الشمس فيرفعن الأذرع - الأغصان مهللات لهذا الإنهاصار العذب المتدقق من الشفاه والصدور والأفخاذ وهي تعبّر مفازة جحيمها الطفولي ، افترقت آسيا الأخضر مودعة فلة بوعناب في تلك الليلة . كانت المرأة - الطفلة تنام بوداعه بين ذراع أمها لاا ، تحلم برجل طويل ، أشقر ، عيناه بلون البحر ، يولدها أطفالاً بغزاره الأطفال - الأرانب ، ويحملها على كتفيه عبر العالم خارج بونه الأضال من حبة بندق .

وإذ قالت فلة : أنا كل نساء بونه التي تشتهي .

تذكر الذي أصابته السياسة بالعنّة . الرجل الطهراني المصايب برصاصتين إحداهما دخلت من الإلية وشرخت الصفن . هكذا استدار عنها وعن نساء بونه العلاقات كالبحر .

استبدل النساء بالوفاء العائلي ، ونقاء المدرس الغريب ، المنتدب لمهمة مقدسة تنزع نحو وهم تغيير التاريخ وتربية الأجيال الصاعدة .  
إننا نعبر ليلاً حالكاً في عصور منحطة لاتسمح لنا بإضاعة الوقت في اللذاذات التافهة .

مستر لوچيك أو السيد عقل ، حتى أبداً كالله . قاض وديان يحاسب الحماقات وكأنهنبي هبطت به مظلة العزة الالهية ذات غusc في هذه السادوم المعلومة .

- أغوتك النساء فبعت الثورة . قل لي ما الفرق بينك وبين الأسفريوطى !

ولكن لماذا ينقدف هذا الرجل المجنون على شاشة هذا الليل ! يقف على منعطف بين المرأتين وبينك . كموسى يشق البحر مستوهماً أنه يقود قوماً موهومين بعيداً عن الموت . لقد رأى الموت يأكل رفاقه واحداً واحداً ، وجاءه الموت وهو يغوص في وحول المستنقعات ، ويعرف ، من خلال الهمود الضوئي للتاريخ في عصره ، إن الموت هو السيمفونية الحزينة التي يعزفها الزمن الخائب .

- كالماس سنظل نشع ونحن في الوحل . يقول مكارباً . من أقواس دائرة السوداء : قلبك المقطور ، والمدينة التي تحاصر كالمشنقة ، وأسيا - الرئة التي تتنفس بها ، تنهر عليك اختلالات وحمقات . حقائق وأضاليل . شموس وظلال . أسى وصرخات . وأنت تحايد عن الهدف المركزي المشعل لرأسك : الصاعقة التي لاتبقي ولا تذر . الفيوضان الذي يسوّي الدنيا غمراً . الحياة المجيدة تولد من موت لائق . حروب أهلية تشق الأخ على أخيه وتفصل البنين عن الآباء فلا يكون سوى الموت الزوج ، سوى الذهول وصحوة القلب الذي غفا طويلاً على أنقام الرعاة والفتح القديم والدوران الأبله حول الحجر الأسود .

النهاية أو طرح البحر . هذا هو أنت في برهة ماقبل العاصفة . لكنك تسأل تحت رهج الهاляك : لماذا لا يكون العالم كما ينبغي أن يكون : متسقاً وعادلاً ، ومتماساً وصحيحاً ؟

والعالم لا يكون .

الإنهايار وعصور الانحطاط وخراب الدم وعبد الله الكلبي ، هو الذي يكون . وبين ماينبغي وهذا الإنهايار الشامل ، يتقدم هذا الباهلي الجريح - المنعطب . هذا الصارخ : الوحل والموت أو الجنون الذي نؤول إليه في النهاية .

هذا مايزال يضرب في مندل الرمل بحثاً عن أشباح الأنبيائه . الأنبياء الأسطوريون القابعون في تلافيف الدماغ .

يراهن على عصور التنوير تارة ، وعلى حروبه الأهلية تارة أخرى ، حيث تميد الأرض بجبالها وغاباتها وبحارها فتببدأ الحرائق والدمارات . كومونة العمال والفلاحين الناهضة من الوحل والمستنقعات التي ستقرّض العروش وسلالاتبني ضبيعة الكلبيين الولادة في النهب

والدم . سلالات ملوك الطوائف التي أعادت الزمن إلى ظلام الكهوف ورعب الغابة والقتل الضاحك . القيامة . القيامة .

النيران . انهيارات المدن . اشتغال القرى . الهلع يسري حتى أبواب القلب . الجوع والعطش ومقاصيل الإعدام وقسوة الفتاك الجميل من أقصى مشارق الشمس إلى مغاربها تتقدم تحت الرایات الحمراء . تنهض قبور المقتولين غيلة وغدراً . المنهوبون والذين قهروا بالسيف والنطع والتجويع إذ الثارات العادلة والقصاص العادل والقتل العادل اقتصاصاً من الكلاب والخنازير والجثراالت وأبناء العواهر وسدنة الكعبة .

بهاء الفزع تحت الأشعة الخاطفة للبصر والروح .

يوتوبيا .

يوتوبيا .

حلم الإشراق في العقل الصوفي المصايب بلوثة المستقبل الوضاء وهو يدخل تحت أمواج تحولاته . انهدام كلّي للعالم القديم وبناؤه أرضياً على شكل الله السماوي بدءاً من بشر جوهرهم جوهر ملائكي أما أجسادهم فمن لحم ودم يرتفون فوق رغباتهم وصفائرهم العضوية ليكونوا الحالة الجديدة الخارجة من الزمان القديم البالي والزمان الراهن الخرع . الزمان الصارخ : لا إله إلا الله . إلى الزمان الصارخ : لا إله إلا الإنسان . في وقت فسدة فيه كل شيء من الدم إلى الهواء المستنشق . وقت الاستعادة الطبيعية للحياة الأولى والهليولى الأولى بعد أن فتت ذراتها عبيد الله بن أبي ضبيعة الكلبي ظل الآلهة الممسوحة فوق الأرض فكونها على صورته الحيوانية ماحيا جوهرها الالهي الذي يقول للأشياء كوني فتكون .

غير أنك ماتزال هنا في مواجهة الطاعون . ترفع ذراعيك في مواجهة العاصفة . تزيح الأمواج الهاجمة موغلًا في عمق الماء بين الزبد وكريستال البحر باحثاً عن الصخور الصلبة واللآلئ وجنيات الماء ولمعان الضوء .

الحي - الميت الذي دُفن قبل أعوام في سجن الحلة بين خمسمئة سجين ضربوا وأهينوا وغذبوا ، بدءاً من تحطيم الأضلاع والرؤس بالأحذية العسكرية عبرأ بالصدمات الكهربائية علىأعضاء التناسل . خلع الأظافر بالكلابات وإدخال زجاجات البيبسي كولا في الإست وممارسة اللواط إلى حرق الجسد بأعقاب السجائر .

طقوس عذبة للجلادين . احتفاءات جنسية لآلهاة الليل . الضعفاء ماتوا تحت العذاب ، وأخرون فتحوا نفاؤُ بمفك برااغي ومدية مطبخ خلال شهر من الإصرار وتوهج الروح فخرجو إلى حرب المدن وحرب الأهوار وبقية الحروب الخاسرة .

آخرون أمضوا عقوبتهم أو جزءاً منها ليخرجوا حطاماً أو خونه .  
ثُمَّ واعترافات وشتات وانشقاقات ومحاولات لتأسيس جديد منافق لما مضى .

الذي تأسس وترسخ بعد الإنهايَر ، وصراخ عواصف الدم والموت : العودة إلى المؤَال القديم . إلتحق ذيلي بعربة كاليفولا عبد الله الكلبي الحاكم بأمر الله وأمر السيف . الحاج الثقفي المقعى على العرش . رب السموات والأرضين الذي يقول للشيء كن فيكون .

وما كان يمكن أن يكون في ذلك الزمن سوى الخيار بين المقبرة أو الانصياع . ال�لاك أو المنفى . فأما من خضع وخاف وانصاع فقد ابتلع الموسى . وأما من خرج صارخاً في براري الروح الناهضة هائماً لا يدرِّي تحت أي سماء أو في أي أرض يموت ، فقد اختار zaman الغامض . الزمان الأقصى .

يُوتوبِيا . يُوتوبِيا .

القيامة . القيامة .

أما أنا يامسيو عقل ويامتعهد الثورات . الرجل المدعو مهدي حِواد والخارج من سجل الحطام وأنقاض الخراب . فسأحنني رأسي منغمراً في عمق هذا البحر تاركاً لقيامتك أن تقوم بدوني .

ها إنذا أضمحل صَدفة في قاع رمل بحر الثوري العارم . أغوص بعيداً . بعيداً . لا لأن حروبي حطمته ولا لأن الروح تهفو لاستراحة أبدية ، ولكنني متعب الآن من هذه الأوهام والضلالات وتخطيطات الهواء ومرتسمات مندل الرمل .

إنني يائس الآن ومزعزع من أعلى عليين إلى أسفل سافلين ولا أرى سوى الأسود والوحش والموت .

متعب من الاسخريوطيين . من شتاتهم وانتهازيتهم وتهريجاتهم وانخذاليتهم وتاريخهم الذي لا يليق إلا باحتفال كرنفالي من الأقنعة والمسوخ فوق مسرح للدمى .

لأنشد غراناً أو تعزية من أحد ولست في المطهر . إنني في الشتات والغدر والخديعة والانحطاط وعلى حواف الإيغال في الدم وتحطيم العقل والجسد والروح ، ولست في منجي من صدمة العاصفة . إنما وأنا أرى الآن اهتزاز الهياكل القديمة وتشقق الأعمدة ، الأرضي القديمة وهي تتفسخ ناشرة عفونتها وفسادها وروائحها الكريهة وأفاعيها وزواحفها وشجرها المنخور وثمارها الفاسدة ، داخل نسيج الهواء والماء والترباب والدم ، ماعدت راغباً في الظهور على خشبة المسرح .

بداءً من هذه اللحظة سأحاول أن أكون خارج هذه الجوقة التهريجية وهذا اللغو .

سأكون مسيو آسيا لخضر أو مسيو فلة أو مسيو بحر أو مسيو سفر ، أو مسيو تفاهة أو مسيو لاشيء .

طفو هامشي خارج الخضم التاريخي . سفينة جانحة في ميناء مهجور على شواطئ بونه أو غيرها من المدن التي لا أعرفها وأحلم بها . صفر . أو نقطة . أو سحابة . أو طائر أسود في فضاء .

ولتتقدم قيامتك العظيمة أو عاصفتك الدموية التي تهلك القلوب منها أيها السيد العظيم .

ليشع مستقبلك الألأق بملائين الشموس . لتنهض ورودك الحمراء من أعماق هذا التحلل والفساد ، فأنا لا اعتراض لي على هذا الإنبثاق . وإذا ماتدفقت سيولك يوماً وجرفتني في مجراتها وأنا نائم كذرة غبار أو حشرة أو حصاة أو ورقة ذابلة فسوف لن أكون تعيساً وأنا أتدهدى متلاشياً في غمرة طوفانك الجميل القادر . على أبواب الفجر أيقظته الصرخة .

غرفة مسربلة بالظلمة والفراغ ووجيف الخوف والرجل يرتجف تحت ندى العرق الحار الذي بلله . كانت هناك أصوات يطلقها رجل كأنما يذبح . وكان يفتح عينيه ويغمضهما وهو يحاول الإفلات من براثن القطة الوحشية التي قيدت يديه ورجليه .

في أعلى سقيفة البيت ، فوق سريره ، حيث على حافة السقيفة رجل محروق الوجه يشبه الغجر وقد دلى قطاً برياً كان يمسكه من ذيله مهدداً بإفلاته على الرجل النائم - المستيقظ . ورأى الغجري ذا الوجه الصلب المحروق يقهقه كاشفاً عن أسنانه الناصعة وهو يلوح بهرءه الأرقط الشبيه

بنمر صارخاً : أن مجرى بولك مسدود وهذا القط سيدخل في مجرى البول .

و داخل الكابوس ، قبل قدوم القحط ، حلم بالذهاب إلى الصيد في الغابة المجاورة للبيت والمطروقة بالأنهار ، ليصطاد البط البري .

في البيت الواسع رأى أبياه الميت يتحرك على شكل طيف محموم المعالم يرتدي ثياباً بيضاء كأنما عصب رأسه المجروح بعمامة . كان قد طلب منه قبل ذلك بزمن أن يوقظه باكراً بعد أن جهز البدنية والخرطوش وسائر معدات الصيد . وإذا توجه نحو سريره لينام فوجئ برجل غريب ينام فيه . رجل تذكر أنه يشبه حارس زنزانته في سجن الحلة . وهو تحت موجة الإندهاش من قدوم هذا الرجل الذي ينام في سريره ، رأى البيت الواسع نصف المظلم يعجّ بآنس غرباء لا يعرفهم ، خيّل إليه أنه لمح بينهم أمه مرتدية ثوبها الريفي المزركش الواسع ، وبدا رأسها معصوباً بمنديل أسود . وقبل أن يذهب إلى النوم تذكر أنه كان يحكى ، قرب الموقد الأرضي ، حكاية مشوّقة وغريبة لا يذكر كل تفاصيلها . إنه يرويها للأب والأم والأخوات . حكاية عن السفر وجمال الطيور والأنهار والبحار و מגامراتهم والبلدان التي زارها والجزر الخضراء العائمة والنساء العاريّات فوق الصخور المغطاة بالطحالب الملساء .

وتذكر ، وهو يروي الحكاية ، عباره غريبة انفلتت منه حول عدم ضرر تناول الحشيشة والنوم مع ابنة الجيران الدمية التي رأى مابين فخذيها وهي تصعد الشجرة المجاورة للبيت ، وقال أن هذا أفضل من اللعب بالأعضاء وممارسة العادة السرية الضارة بالصحة ، وأنذاك نهره أبوه لأنه أفسد الحكاية برأي رديئة ومحظة لاتليق بقوم أتقياء يخشون الله . وإذا تحرك لينام منهوراً ومكتبراً رأى جميع الأسرة والفرش الملقاة على الأرض مليئة بناس غرباء استلقوا في حالة فوضى . ونادته الأم لتصالحه مع الأب لكن الرجل الأبيض نهر الأم : دعوه . غداً نصالحه فتذهب كتابته . إنك تفسدينه بالدلائل .

كالطيف رأى الأب يجهز له فراشاً لينام فوق أرض عارية في زاوية من البيت بدت منحدرة ومغطاة بالحصى والأوتاد التي تعرقل مد الفراش .

في تلك اللحظة المختلطة نهض الرجل الذي احتل سريره وتوجه إلى المغسلة ، لكنه بدا خائفاً من كثافة الظلام وانهيار المطر الغزير خارج البيت .

من جدار مفتوح في المنزل لاحت له الغابة . رابية معشبة تطوقها المياه حتى لا تكاد تبلغ حوافها ، ووسط الرابية الخضراء لمعت كؤوس من الكريستال الأبيض . وقال الأب للابن بأن الصيد مستحيل في هذا الجو الممطر والخطير ، وإن عليه أن ينام حتى يهدأ هطول المطر ، لكن الولد الممتلىء برغبة عارمة للصيد قال بأن رجلاً ينتظره في الغابة ليوصل إليه الخرطوش وعليه أن يأتي بالكؤوس الكريستالية الموجودة بين الأعشاب . وبدا الأب خائفاً في سره من أن الولد لو خرج في هذا الجو المكفر فقد لا يعود ، من أجل ذلك طلب منه متابعة سرد الحكاية الجميلة لأنه سعيد بها وفي الصباح ربما تحسن الطقس وأنذاك يذهب إلى الرجل الذي ينتظره ويأتي بكؤوس الكريستال . وتساءل الولد وهو يرى الناس نائمين في البيت منذ وقت طويل ، أين ينام ، ثم سأله أمه وأباه لماذا لا يوقظ هؤلاء ليخرجوا إلى الطبيعة بعيداً عن هذا الظلام حيث بدوا له كأنهم يتعرفون تحت الأغطية .

فجأة بدا البيت مقرضاً . كان الآن وحده تحت الفراش الثقيل وتحت ضغط الكابوس . عندما تحرك وصرخ ، رأى قطاً وحشياً ضخماً مدللي فوق قدميه وصدره . ورأى القطة يفتح فمه ويزأر كالنمر . وجاءت قطة أخرى فجثمت على يديه ورقبته ، وامتلأ البيت بآلاف الهررة البرية واثبة ، زائفة ، ومن حافة السقيفة رأى الغجري المحروق الوجه يؤرجم نمره الأرقط ويقذفه فصاح مستنجداً بأبيه لينقذه لكن أحداً لم يكن في البيت آنذاك .

- 10 -

في أصل اليوم التالي لليلة القحط الكابوسية شيخ رأس مهيار الباهلي بزجاجة كوكاكولا قذفها نحو صدغه عبد الحسين مسؤولبعثة العراقية في بونه .

كان الأصليل فوق شجر الساحة يتراخي كسلاماً ، وفي الفضاء بدت أسراب الخطاطيف المنطلقة كالسهام كأنما تقيم مهرجاناً ماقبل النوم بطيرانها الرشيق وانقضاضاتها فوق الشجر وسطوح القرميد . وكانوا كعادتهم ، يتحلقون حول الطاولات المتناثرة تحت شجرة الدردار . يترثرون عن هواجس السفر وتبدل النقود الجزائرية بالفرنك أو الدولار أو الاسترليني ، وبيع وشراء السيارات ، وآخر الفضائح والرشاوي ، والنميمة على الغائبين من زملائهم .

كان روتينياً ذلك بين هؤلاء المهاجرين والمنفيين والمقدوفين خارج بلادهم ، في مدينة صغيرة مغلقة لاتقدم أية مسيرة حقيقة تمتضى الوقت المضاع .

عندما انطلق عبد الحسين ونصر الطويل ينماّن على مهدي جواد الغائب ، استقرَّ الباهلي وبدأ يتململ .

طفقاً يتهكمان على الرجل الهارب من بلاده ، والذي يدعى الثورية في الوقت الذي لا يرى فيه إلا مع هذه الطفلة الجميلة المخدوعة بصلعوك لايساوي فلساً في بلاده .

في البداية جرى الحديث عارياً ، تدخل خالله ذو النون معلقاً : يامعوّدين قد تكون آسيا أحلى من مهدي لكنه عراقي أصيل في الفراش وهذا مايهم المرأة .

وعلق داود الذي ينصب أبداً الكمائن لذى النون : ها . عيني ذو النون أنت جربت مهدي في الفراش حتى تقول أنه أصيل !

وصرخ الشاعر مستفزاً ضاحكاً : أبو العدورة . اسكت أنت ياكرينجي . عندما أطلق عبد الحسين عبارة : لكن مهدي جواد ليس أكثر من طبل أجوف يتستر بالكلمات الرنانة والتعالي الثقافي والهجوم على بلاده تحت ستار النقد الديمقراطي ، تدخل الباهلي متساء : أي افتراء ! مهدي يهاجم روح الاستبداد والطغيان في العراق وهذه حقيقة ساطعة .

بعصبية سحق مسؤول البعثة سيجارته تحت قدمه . نظر إلى مهيار بعينين تقدحان شرراً : اسمع عيني مهيار . مهدي جواد وأنت وسائر الحاذدين لاهم لكم سوى التشنيع على بلادكم هنا . الشعب في العراق عارفكم زين . زمرة منبوزين معادية تشوّه المسيرة القومية بالكلمات الحادة اللامجدية . شنو هاي عيني الماركسية المستوردة التحكون عنها ! أصلاً أنتم في واد والشعب في واد . أنتم غرباء في بلادكم . من أجل ذلك لفظكم الشعب لفظ النواة .

واستطرد وهو يضرب على الطاولة بقبضته : انظر سيد مهيار . أنت والثوري مهدي لا شيء . قيادة الحزب الآن في الجبهة الوطنية تحت راية حزبنا وقد وقعت على عدم النشاط الحزبي بين صفوف الجيش والطلاب والمدرسين . قل لي . اسمع . باسم من تزاودون وتدعون المعارضة ؟ من تمثّلون هنا في الخارج حتى تقومون بتنظيم خلايا سورية ؟ هذه أمور نحن

نعرفها ويجب أن تعرفها السلطة الجزائرية أيضاً !

- أي افتراء . أي تزوير ! نحن لسنا من الحزب الرسمي .

كان مهيار الباهلي يتلوّن وتنقلص عضلات وجهه وهو يلطم برأس حذائه عارضة الطاولة .

تدخل ذو النون بحياده الحكيم . قال لعبد الحسين بأن الإتهامات تؤرث الأحقاد والصراعات : نحن هنا أسرة تدرّيس عيني عبد . كلامك مردود بخصوص مهدي . لأنك مسؤول عليك أن تكون حياديأً . أنت تتهم مهدي ومهيار بتهمة قد تؤدي إلى السجن أو الطرد . لا . لا . هذا لا يجوز أبداً . نحن في بلاد ليست بلادنا ومحرم فيها القيام بنشاط سياسي .

ولأن هؤلاء المهاجرين حول موائد صغيرة لم يكونوا كتلة متGANسة لا في السياسة ولا في الحياة اليومية الخاصة فلم يكن غريباً أن يقول حسان يحيى : خرا برب السياسة ومشاكلها . ويهمس داود في أذن ذو النون : عش امرأة أفضل من كل الثورات . عصفور باليد ولا عشرة عالشجرة .

كان كثيرون قد خرجوا - وهم غير مصدقين - من تلك الصحراء الحارة والجائفة ، وفي رؤوسهم الجزائر المتاخمة لباريس التي سمعوا أو قرؤوا عنها . باريس الحي اللاتيني والبيكار وأفلام العري وأسطوانات الجنس .

كانت الإتهامات تتعالى الآن على شكل صياغات بين مسؤول البعثة ومهيار حول خرق القانون المحلي والدعوة إلى تنظيمات سرية ، وحول بونه التي تحولت على يد المدرسين الأشاوس إلى بنك وخمارة وما خور وكاراتير سيارات وسوق سوداء ، وأورد مهيار حوادث متلاحقة كاغتصاب طفلتين في مدرسة عبان رمضان وقتل طفلة بسيارة عراقي مخمور ، واستباقات الليل بالمدى مع الجزائريين ، وعلاقة بعض المدرسين بالشرطة السرية المحلية .

واستطرد : مهدي جواد خارج هذا العفن ولم يفعل ما يعيشنه أو يشين هذا البلد . من أجل ذلك قلت بأنه ليس سافلاً .

سدى كانت تتبدّد جهود ذو النون ليهدئ هذه الانفجارات التي أثارت العابرين وشدّت أبصارهم .

لقد بدأت الأمور تأخذ اتجاهها آخر ، عندما اتهم مهيار عضوين من أعضاء البعثة بتقديم تقارير أمنية للسلطة الجزائرية وإرسال نسخ منها

إلى العراق : هل هناك ما هو أكثر خزيًّا من هذا البلد ؟ لماذا هذه النذالة ؟  
 كان الآن يوجه عينين تنضحان ازدراء نحو وجه المسؤول .  
 وعندما وصمه المسؤول بالكذب والتواطؤ السياسي مع مهدي ، بصدق  
 الباهلي في وجهه .

تلقي مهيار زجاجة الكولا المقدوفة إلى رأسه بأصابعه فشَّجَتْ  
 جبهته ورَضَتْ أصابعه ، كان عبد الحسين الذي نهض الآن يشتمن ببذاءة  
 متوعداً مهيار ومهدي ومن معهما بدفع الثمن الغالي . وقف الآخرون  
 يصرخون بالعيب والشماتة والولدنة منددين بهذه الحماقة والمهزلة  
 اللامعنى لها . تأبَّطَ ذو النون مهيار واتجه به نحو الصيدلية وتحلق  
 آخرون حول مسؤول البعثة يهدئونه .

في تلك الليلة والأيام التي تلت ، كالنار في الهشيم ، انتشر اللغط بين  
 أبناء البلدة عن اشتباك العرب في ساحة بونه الرئيسية ، وبولغ بالأخبار  
 على لسان المارة والمقاهمي الأخرى بأن العرب تعاركوا بالسكاكين  
 وزجاجات البيرة ، وأن عشرات الجرحى هم الآن في مشافي بونه ، وعلق  
 البعض على الدم السخون وأن العراقيين والجزائريين ، كيف .. كيف .  
 لا يختلفون عن بعضهم في خفة العقل وجنون الدم .

مساء جاءت فلة وأخبرت مهدي بالحادث فخرجا معاً إلى بيتها .  
 كان مهيار ملصق الجبهة بصلبيين من الشاش ومعصوب الأصابع . سلم  
 باليسرى وهو يبتسم قائلاً : نحن ندافع عنك ونجرح وأنت تعانق آسيا  
 الأخضر على البحر .

وضحك مهدي : هم أخوات القحبة تركوا لنا غير البراري ! قل لي  
 الأمر بتفاصيله ؟

بعد أن شرح ماجرى قال : أعتقد أنهم سيركلون مؤخراتنا قريباً  
 ليرموا بنا خارج هذا البلد .  
 - لماذا ؟

- لماذا ؟ شيوعيون هدامون معادون لمسيرة القومية في المشرق  
 والإسلام في المغرب ، هل هناك أسهل من هذه التهمة ؟ ثم استطرد :  
 حازر في لقاءاتك مع آسيا . ربما لفقو للك تهمة مزدوجة !

اغتبَّنَ مهدي . سُأله عن الجرح إن كان بليغاً وقال مهيار بأنه طفيف  
 حمته الأصابع . فكر : يزيد ولد الحاج وعيونه المبثوثة عليهما وهؤلاء  
 الكلاب أولاد الزوانى . يبدو أنك في الفخ والحياد مستحيل . وجاءت فلة

بقهوة وصحن كاتو . مهدي جواد وهو يحدق إلى جرح مهيار رأى الرجل يصعد من مرتفاه الأول في نفسه . الرجل الذي يفكر ويقاتل في اللحظة الحاسمة . كان مهيار الباهلي الآن يعلو في عيني مهدي ، لا لأنه دافع عنه على نحو شخصي وجراح ، بل لأنه أثبت أنه يملك قوة الفعل مع قوة الكلمات ، ومفعوله قلب المعادلة الأحادية عنه ، في الآن ذاته بدأت أفكار مهدي الهروبية تترنح ، كما بدا قراره في الجنوح نحو سفينه أو ملاذ أو إمرأة بعيداً عن العواصف ، هروباً أخرق لainجيه من الأعاصير . كان وسط العفن والوحول والموت والانحطاط والعار والتخازل والاسخريوطية ، كما كان في النار والرهانات ونجوم القيامة والحروب الأهلية والشقاء والمجاعات والقتل وجروح أهله .

وسأله مهيار : ها . أين وصلت ؟

وقال مهدي : أنا طاف ومزعزع وأحبك أيها الجريح أبداً !

- ولكن كيف نجابهم ؟

- من

- هؤلاء السفلة الوشاة !

وتنهَّد مهدي : السفلة . السفلة . إنهم يحاصروننا وهم الأقوى . صبَّت فلة القهوة . ثرثرت حول الحادث . بدت حزينة ومحروحة وفي مؤقِّيها عبرات تلمع . على وجه مهدي لاح غضب ممزوج باشمئزاز : أن تفعل شيئاً ضد المهانة وأنت أعزل ! كلاهما أحسا بالحصار الخانق في تلك اللحظة ، وبالعزلة . كرَّ على أسنانه وسجها :

- لا توجد أسلحة كما ترى . تلك المسألة دائماً .

- كما لا يوجد بشر ياصديقي . بشرنا ما زالوا يسبحون في رمال الله والعصور المنحطة . كل شيء يجري في حياتنا باسم الله مجراه ومرساه واسم الحاكم بأمر الله .

- ها . عدنا إلى الاسطوانة إليها ! بربك دعنا من هذا . خلينا بحالتنا وجرحك وكيف نعمل .

- سيشون بنا .

تدخلت فلة قائلة بأنها تعرف كوميسار الشرطة ويمكن أن تشرح له الأمر بكل ملابساته ليحميهما .

وسائل مهدي غامزاً : صديق أصلي . أصلي . قوله الحق فلة ؟

ابتسمت : نعم . يأستاذ . من النوع السريري .

- وإذا مابدأ استجواباً حول صلتك بنا وحماستك للدفاع عنا ؟

- أؤوه . دعك من هذا ياشيخ !

ورد مهيار : لا . عيني فلة . خليك من هذه المتاعب . حدا بيعلم الدب على رمي الحجر . مجرد التلميح السياسي لكوميسارك كافٍ لوضعنا في دائرة سوداء يبدأ بعدها التحقيق .

وقال مهدي بأن الأمر تافه ولا يستحق كل هذه اللهوجة ، فهو لاء الكلاب سيصفون حساباتهم في العراق فيما بعد . وما حدث هنا عابر لاقيمه له .

انفتح ذهن مهيار حول فكرة إعلام مدير المعهد بما جرى ، فهو عضو قيادي في قسمة الحزب وكمسؤول إداري ينبغي أن يدافع عن احتمال النيل منه كمدرس له حصانته .

- زين . فكرة معقولة . غداً تأخذ تقريراً وتقابل المدير .

قال مهدي .

وهو يودعهما : شدّ عزمك أخي مهيار . نحن أقوى منهم مadam الدم يسيل .

غمز فلة : قوله يا الحنانة . حتى الليلة على صديقنا الحالج الجريح . ضحك مهيار بجلجلة : ياحلوف . هاقد بدأت تعتنق ديانة الفاسق ذو النون .

وفي المدينة بـث يزيد ولد الحاج عيون مخبريه .

سرًا كانوا يطاردون آسيا ويتعقبونها بعد خروجها من المدرسة ، وهي تتجه إلى بيت مهدي ، أو تنزل إلى سوق المدينة لتتابع ، أو تتوجول في الشوارع مع صديقاتها .

حتى ولد الحاج كان يقوم أحياناً في أوقات فراغه بأعمال الدورية . كانت آسيا متوجسة تشعر بما يحدث . لقد أوحـت لـلاـ فـضـيـلـةـ من طرف خفي لابنتها بالأمر : عليك أن تعودي باكراً إلى البيت يا بنتي . تأخرك يسبب بعض المتاعب وأنت تعرفيـنـ يـزـيدـ وـعـقـلـيـتهـ الـجـزاـئـرـيـةـ الصـعـبةـ .

كما استطردت لـلاـ بأنـ مـهـديـ رـجـلـ عـاـقـلـ وـشـرـيفـ وـيـسـتـحـقـ كلـ خـيـرـ ،ـ وـهـوـ مـخـتـلـفـ عـنـ الشـرـقـيـينـ ،ـ وـأـنـهـ تـحـبـهـ كـوـلـدـهـ رـابـحـ .

- إنه منا وليس غريباً . لكن يزيد في هذه الأيام مهتاج وعصبي أكثر من أي وقت آخر . يزيد قوي يا آسيا ولانقدر على مقاومته . قادر على ايذائنا وايذاء مهدي .

على قلب آسيا يضغط الحزن والمقت ، وحب للا فضيلة . تدرك أن ولد الحاج يقف بينها وبين مهدي كالسيف المسموم .

- ماما . دعيه يكلمني . أنا أعرف كيف أجيبه .

- أنت تعرفيين كيف يحملني المسؤولية .

- أنا ماعدت طفلة يا يوما . لماذا يتدخل في أموري الخاصة ؟ ! وعندما تسأل الأم إن كان مهدي جواد حقاً شيوعاً ويميل لأن بيلا ضد بومدين ، تستنتج آسيا أن يزيد هو الذي أوحى للا بذلك .

تسأل البنت أمها عن جلية الأمر ، فترد للا بأن يزيد يقول عن الشيوعين بأنهم لا يؤمنون بالله ، ولا يفرقون بين الحلال والحرام ، يزوجون الأخ من أخته ويساورون بين الأمير والفقير ، وأنهم سيفتصبون الأموال والأموال ويعطونها للفقراء واللصوص والعاطلين عن العمل .

- يوما . أتصدقين ذلك حقاً ؟

- يا ابنتي أنا أمية لا أقرأ ولا أكتب لأنني لم أدخل المدرسة . هكذا يحكي لي يزيد .

- لأنه يكره مهدي يقول ذلك .

- ولكن أنا لا أصدق أبداً أن مهدي منهم . أعود بالله . مهدي أعقل رجل شفته في حياتي .

- عمي . قوله لماذا يكرهه اذن ؟

- يزيد لا يكره مهدي . يخشى أن تتعلم الشيوعية وهذا حرام ومخالف لدين نبينا محمد .

- بلـى . عيناه على مهدي كيما النار . يوما . ورحمة تربة بابا مهدي غير مايفترى عليه يزيد . أنت تتفقين بي أليس كذلك ؟

- أكيد .

- عمي لايطيق مهدي ويكره العرب . يرى فيهم غرباء قدموا الجزائر ليفسدوها وينهبوها . هذا هو الحق كما أقول لك .

- تُباغت للا فضيلة : كيف تصدق أن يزيد يحدّد على العرب . ألسنا

جميعاً مسلمين؟

وتوضح آسيا بأن يزيد بربيري مت指控 ، يرى في البربر الرقي والتحضر في حين ينظر للعرب كبدو متخلفين ، ولو لا السيف لما دخل البربر الاسلام . إنه يعتز بتاريخ الكاهنة وكسيلة اللذين قاوموا الاسلام مع الروم أكثر مما يعتز بتاريخ الاسلام .

تتشوش الأم فتختلط عليها الأمور . تقول : مادام الدين قد وحدنا  
فما الفرق بيننا الآن؟

- لافرق . لافرق الان يا يوما . الجزائر للجميع . كل الجزائريين اشتركوا في الثورة وطردوا الاستعمار . المت指控ون من أمثال عمي هم الذين يفرّقون . عمي مايازال يوالى فرنسا من خلال مصالحه التجارية وأنت تعرفي أنّه بدأ يهرب أمواله إلى مرسيليا وتونس . غبّ الحوار يرتكب عقل لا لا . قناعاتها تهتز بما يوسموس به يزيد في فراش الليل في اذن هذه المرأة الطيبة التي لا تعرف السياسة ولا الحقد ولا التاريخ .

لابد أن آسيا الذكية . طفلتها البكر ، بدأت تعرف كثيراً من الأمور  
المعقدة .

- 11 -

الليلة الليلاء .

الليلة الثانية بعد الألف .

سمتها فلة أو مهيار أو كليهما .

ليلة الضجعة الأولى التي تواصل حبها حتى الصباح .

فلة المعطرة ، الحزينة لجرح مهيار والساهرة عليه بحنان أمومي .  
ومهيار المحطمة أحلامه والملقى غريباً جريحاً في وطن الثورات  
المغدورة .

وهي التي جاءته في الهزيع الأخير . المرأة الخارجة من حمام  
دافئ والعابقة بالعطر في ثوب شفاف . خصبة ومتوهجة ، وهو المتعب  
من كل ماجرى ويجري . حسان المسافات الطويلة الذي ينهك قبل نهاية  
الرهان . وهي الجاثية قربه توشوش عن الزمان الصعب والأحزان وموت  
الحلم ، واللاشيء ، والتزوير ، والعصور الخنزيرية التي عاشتها . تمد  
أصابعها المعروفة إلى جرحه ثم تمسح وجهه وشعره . أصابع حنونة

وحارة لامرأة غدرها الزمان الأسود . وليل بونه سديم مغلق ، كثيب ومفزع للقلب الغريب ، ووحدها المرأة ربما كانت العزاء من الجنون والليلي المستوحشة . ومهيار الباهلي الذي كان يتوجس فيما مضى ، ويتصوّف توقاً إلى ما هو أبعد من صرخة الجسد ، يهبط عليه الآن دفء وعذوبة هذه المرأة التي ساكنها أكثر من نصف عام ولم يمسسها .

لكنه التوق أيضاً إلى امرأة بعد غياب طويل . هذا النداء الطبيعي للجذر المشتاق للري . إنه يغمض عينيه تحت نقرات الجرح ، واستیحاسه العضوي فيرتمي ستار شفاف بينه وبين المرأة البعيدة .

بغية تأتي الحمى ويببدأ الجسم نوبات البرد والحرارة . أمطار من الصقيع تهطل على الجسد النحيل فتببدأ الرعشات ورقصات الأسنان ورجفان الأطراف . لكان القلب يثبت من مكانه صاعداً خارج الأضلاع .  
أصوات :

الدفء . الدفء . النار . النار . مع الثلج المتهاطل على مسام الجسم المرتعش ، يقبل شبح الموت . مهيار تحت سطوة العراء البارد وأمواج الهاك .

تأتي المرأة بالألفة والبطانيات بينما الرجل يتململ صارخاً :  
آه . سأموت . ماما . ماما . أين أنت . ماما !

تفزع فلة بوعناب . صقيع البرد الذي راح يهمي على مهيار يختطفه ويرحل به إلى التلال الثلجية . نحو العراءات المكسوفة والريح الصرصار . أسنانه لا تتوقف عن الاصطكاك هذياناته تأخذ مدارها الموتى . يتذكر أهله وببلاده وأصدقاءه القدامى الذين ماتوا ، وطفولته يهذى ثم يبكي ثم يضرب الفراش دافعاً الأشباح التي تهاجمه .

كانت صرخات الآلام والطفولة والموت تترامي في أرجاء البيت كأنها أصداء نعي لرجل يحضر . أحسست فلة بأنها تتهاوى من ذروة جبل ، غير قادرة على فعل شيء أمام هذه الحالة المبالغة . فكرت للحظة أن تأتي بطبعي لكنها تذكرة أنها ستترك مهيار وحيداً بعد منتصف الليل وهو تحت صقيع الموت .

بهدوء تسللت قربه . طوّقته بحنان ضاغطة بلطف كلية جسدها بجسده الراعش الملتهب . بدا الليل طويلاً ومقلاً ، والحمى الصقيعية مدديدة كهذا الليل ، ومع أن فلة كانت تدرك أن ما ينتابه ليس إلا حمى عابرة جاء بها الجرح والغربة وأحزان مهيار المخترنة ، إلا أن الرجل بدا

مذعوراً وهاوياً تحت وطأتها ، مستسلماً لغياب سطا على وعيه وهبط به إلى هاوية الموت . كانت المرأة مربكة وخائفة ، راغبة في إدخاله بين أضلاعها لتعيد له حرارته واتزان جسده الهلع . اشتبت به بذراعيها وفخذيها وبطنها وصدرها وهي تشتمله تحت كتل من الأغطية والبطانيات . هو الآخر راح يتثبت بها كرضيع . كلها كان يتضرع ويوجل ويحتمي ويصدّ موجات الصقيع والموت والعزلة الروحية .

لا هي نَرَتْ ولا هو ، متى انجلت ريح الثلج ، وكيف هبطت حرارة ليل بونه عليهما في ذلك الصباح الجهم ، فبدأ التعرُّق والوهج لجسدين عاريين طال توقهما . كم بدت الحمى مريحة في أعقاب الثلج ، وكم كان الجسدان دافئين وحميمين وقدارين على عزل الموت ونفيه في لحظة التجسد الحريرية الوَهَاجَةِ !

سيقول مهيار الباهلي لمهدى في اليوم الثاني بأنه نجا من الموت بأعجوبة ، وإن يفلسف الحالة شاطحاً بها من مدارها الواقعى يؤكد بأنه نجا بجسد فلة : لقد افتدى كما افتدى الله اسماعيل بالكبش .

باغبطة ذاهل يروى محدث فيضحك مهدى جواد : إنها المرأة وكفى . مليون مرة وصفناها لك كتميمة لكن لا حياة لمن تنادي يامسيو طهارة .

- خرا بربك . دعك من الانحطاط العضوي . محدث كان خارقاً . ثمة أمور خارجة عن نطاق المعقول . بعدما حدث لي صرت من جماعة اللامعقول . أنت مفصول . أعني الجسد والنفس . الجسد مغمور بالثلج وهو يموت . النفس طائرة ونائية تريد أن تعود إلى جسدها ولا تستطيع . ألوان . ذكريات . طفولة الزمن الأول . الموت يأتيك على شكل موجات وأطياف زرقاء وصفراء . تصرخ : أمي . أهلي . أحبابي . لا أحد . عراءات بيضاء وصقيعية وليل مجوف . تهوى ولا تهوى . حي ويميت . لا الجسد جسدك ولا النفس نفسك . غريب ! من أين يأتي هذا التدمير المخيف لتماسك الروح والأعضاء ؟ أية هشاشة وأي خراب يسكن فينا ونحن لاندري ! نحن المأذونين بهذه العظمة المتباھية للإنسان . الإرادة . الوعي . العقل . المنطق . كل هذا تحول إلى نثارات . في تلك الليلة اكتشفت رثاثة الإنسان وخرابه . خراب جسده الجاهز للدمار في أية لحظة . حتى الأشجار والصخور تبدو أكثر ديمومة وخلوداً منا . عنيت أقل فساداً من هذا الجسد المخلوط من اللحم والعظم والبلغم والأمعاء الجائفة .

- لا إله إلا الله الحي القيوم الدائم الباقي والذى لا تأخذه سنة ولا

نوم . ها . عيني !

ينتفض مهيار من هذا الاستخفاف فيتحدث عن فلة التي أشعلت النيران في العراءات تحت الزمهرير . فلة المساوية لروح الله الجامحة هبّط كالروح القدس فجمعت الجسد إلى النفس وأعادت تناسق التكوين الأول بعد احتلاله .

- هكذا هن يامعلم . إما يجمعون كالجبنين في الرحم وإما يبددنك كالإعصار في كل اتجاه فلا تعرف بعد على ذراتك التي تناشرت . وفي تلك الأيام الأخيرة ، بدا مهيار الباهلي ، رغم يأسه العام ودمار أحلام ثوراته كأنما اتقد جسده وتوجهت روحه الخاصة بنار اسمها : فلة بوعناب .

كانت ناراً شخصية تراها له بغتة في وقت الضيق كما تراها العلقة الملتهبة لموسى في الوادي المقدس طوى . خاطبته : أنت في الوادي المقدس فاخلع ثيابك وتقمد . بغتة خلع أستاره كلها وتعرى . اندفع في اللهب فاكتشف الله في جسد فلة بوعناب : العاهرة المقدسة التي وطنها الثوريون والمنفيون والسفلة والخنازير ، ثم لفظوها لفظ النواة بعد امتصاص الثمرة .

وكما تأتي كل الأشياء الجميلة متأخرة ، هكذا جاءته تلك المرأة المنبوذة والتعيسة . وفي تلك الأيام القليلة المتبقية من حياته في مدينة بونه ، سيكتشف أنه كان شبه أعمى عن الأمور الصغيرة التي تستحق الانتباه حتى في عصور الدراما الثورية .

لقد غمرته المرأة بالدفء والحنو واللذة . أعطته في لحظة المصique وتوقف جريان الدم ، نبضها وحرارة دمها . اندفعت داخله كحب سري أمومي لتغذيه وتعيد له حرارة جسده الميت .

وعلى مدى الشهر الذي تبقى من عمر العام الدراسي ، سيظل الباهلي مسحوراً بتلك اللحظة الأسطورية التي استيقظ عليها بغتة عقله . فالذهول الذي داهم جسده المنسى ذلك المساء سيبقى متوجهاً أبداً وهو يسير في ساحة المدينة يودع شروق الشمس واخضرار البحر ولمعان أوراق الدردار وصرخات البشر على الشواطئ ، وكأنه يكتشف هذه الأسرار للوهلة الأولى بعد فوات الأوان . وعندما سأله صديقه في أصيل من أصائل بونه إن كان سيبقى في المدينة ، كان يعرف ما هو جواب مهدي جواد . لكن مهيار الذي انقلب بذرات العناية فتشظى ، كان يسأل نفسه

في اللحظة التي اهتزت فيها قناعاته .

في تلك الأيام التي يبتدئ فيها التحضير والاستعداد للرحلة الصيفية ، حيث المدرسون يبدون كطيور على أهبة الطيران والرحيل ، وهم مفعمون بالأسواق لبلدانهم ، كان مهيار الباهلي ومهدى جواد متلازمين معاً كأخوين .

كانت حادثة المقهى والتهديدات والاتهامات التي أطلقت حول قيامهما بتنظيم شيوعي ، وامكانية استعداء السلطة والبوليس ضدّهما ، تثير نذراً قائمة حولهما .

ورغم قسوة المدينة وفظاظة سكانها والكراهية المستبطنة للغريب حتى ولو كان عربياً ، فإن مهدى جواد بدا مصمماً على البقاء قرب آسيا . فيما قبل صدمة فلة بوعناب بمهيار الباهلي ، الصاعقة ، كان مهيار يتحدث مع صديقه حول ضرورة التحرر من استعباد الجسد . وفي المساءات التي مضت ، طفق يحلل بطريقة فظة ومثالية ، تلك العبودية الإمتالية للمرأة : عبودية الشهوة .

الرجل المأخوذ باليوتوبيا الثورية والمتوهم إنه منذور لأمور عظمى ستنتقل قطب التاريخ من جنوبه إلى شماله ، كان يرى في اعتناق المرأة هبوطاً نحو صفات الأمور وانحداراً نحو السفح .

وليلة تحاورا حول الفشل واليأس ، حول الدمار الراهن ونيران المستقبل ، أفصح مهدى جواد عن صورة الخراب التي يراها الآن ، قال في جلسة سرية : أرغب أن أنزوي الآن عن العالم لأنني عاجز ووحيد . لقد فسد كل شيء حتى الهواء ياعزيزي مهيار . سُمِّت وضجرت من دور دونكيشوت وحروب الفراغ والوحـل . إلى الجحيم عـرب هذا الزمان ! في تلك الجلسة تحدث مهيار الباهلي عن الاستدارة نحو الرحم الشهوي كاستعاضة عن الفشل .

- ولكن المرأة مسألة هامة في حياة الإنسان !

- مسألة هامة . لكنها ليست كل شيء . المرأة في هذه البلاد تنزع لأن تكون مركز العالم بالنسبة للرجل . عليك أن تنسى حتى حليب الطفولة وتدخل فيها . إن رائحتها تغرى بالالتصاق الأبدى . المرأة والحب الجسدي تساوى الموت والفناء . وهي تعطيك رحمها الحار تأخذ دمك وبذرة روحك . هناك تستوطن . عليك أن تسكن في ذلك الجحيم لأنك

تناثرت هناك . ذلك يشبه دخول الجذور في الأرض العميقة . أنت ماعدت قادرًا على سحب الجذور من الأعماق الحميمة . الاشتباك والصرخات البدائية والندي الدافئ وحريرية البشرة تتقمص أعضاءك وتتصعد إلى رأسك ل تستوطن الخلايا . تلك هي العبودية . عبودية ال�لاك . السطوة التي تستولي عليك فلا تكون إلا صرخة ونداء الجسد . الوحش هو السيد أما الإنسان فبعد . كم بدا في تلك الجلسة أخرى مكبوتاً ومصاباً بما يشبه العنة وسموم الأخلاق . هذا الثوري وهو يشئ ويحتقر الانصهار العضوي ، وفي برهة خاطفة تراءى لمهدى بمؤسس عالم يهيمن عليه مهيار الباهلي . هذا العقل الممحض الذي خطب يوماً فتاة جميلة عندما كان طالباً في جامعة بغداد . وفي ليلة مقمرة كانوا يسيران على ضفاف دجلة في شارع أبي نواس والريح رخاء ، وبدلاً عن الحب والليل الشفاف ، انطلق يثرث لها عن المادية التاريخية ناسيًا نفسه وجسده والليل والخطيبة . هكذا استمر يهلوس وحيداً بين الشجر والصمت بعد أن تركته الفتاة الجميلة عائدة إلى بيتها . يومها لم يلعن السياسة والفلسفة ، إنما صب جام غضبه على تفاهة النساء وغباءهن اللامحدود .

## - 12 -

كل شيء على أبواب الصيف العنابي يبدو كأنه يغادر طبيعته الأولى : البشر والحركة وحسن الوداع والشمس وسطوع البحر .  
الباهلي والعنابية .  
مهدي وأسيا .

آسيا ويزيد ولد الحاج .  
لكان شيطاناً أو ريحًا عاصفة اجتاحت المدينة ، بغتة .

وبدأت المفاجآت تتنالى كما في مسرحية شكسبيرية . في الشارع كان يتبعهما بسيارته البيجو الخضراء ، وعندما انتبهما لصمة الحادث ، شاهدا يزيد ينزل من سيارته التي اصطدمت بمؤخرة سيارة أخرى . لقد رأهما معاً على الرصيف . كان هذا كافياً لفقدان الصواب واندفاع الدم في الأعصاب . غير أنها وهما يلتقطان على صوت الحادث ويريانه يزمر مع السائق الآخر ، لم يباليا بالأمر . تابعا سيرهما باتجاه البيت . قالت آسيا : عندما يصل سيشعل عرساً نارياً في البيت .

وقال مهدى : ليذهب إلى الجحيم !

سبقها إلى المنزل . وفي غرفة لا لا فضيلة أشعل نيرانه الأخلاقية متهمًا آسيا بالعهر . وتلطيخ سمعته في الوحل : شوفي بناتك لا لا . لاحديث لبونه إلا عن بنتك وهذا الشيوعي الحلوف . تمشي معه في عز النهار وكأنه حليلها .

تصل آسيا إلى البيت . جو مكهرب تبدو علاماته في وجهه لا لا ومنار ورابع . أصوات يزيد تعلو وهو ينتقل في أرجاء البيت كثور هائج . تدخل آسيا . تقذف محفظة كتبها في الصالون وتتوجه إلى غرفة النوم وتسقط في على السرير . الأصوات تصدعها . الهيجان يتمدد في الأعصاب صاعدا إلى الرأس ، ويزيدي ولد الحاج ، هذا الوباء المقدوذف على جناح الريح السوداء ، يحيل بيت الأسرة الوديعة إلى جحيم . هو الآن يتحدث في الرواق عن الشرف والفسق والعهر تحت الشمس ، ولا لا فضيلة تحاول تهدئته ، كما يحكى وهو يزيد ويرغى عن حادثة السيارة وأسيا تتفرج عليه غير مبالية بما حدث .

مع دوي أصواته الوحشية في أرجاء البيت ، واتهاماته اللا أخلاقية للأسرة التي فسدت وخرجت عن طاعته ، كان الألم يصعد في أعصاب آسيا وأعماقها على شكل زفرات وورود دموية .

الرجل الذي اغتصب الأم والبيت ، هذا السيد بسطوة ماله ، كان الآن يدمّر أعمق آسيا مكتسحاً ميراث سي العربي ودمه الذي راح هدراً . ولأنهم صغار في هشاشة أغصان القصب ، كانوا يتربّدون تحت هذه الريح الصرير ، وينكسرون .

لكن آسيا الأخضر ، الحزينة ، والمتوحدة ، وصديقة مهدي كانت تنزع للمقاومة ومواجهة هذا الخراب . إن روح والدها تهبط عليها الآن في لحظات الضيق والاختناق لتهبها الصرخة . عندما كانت تعاتب سي العربي في أحلامها لموته وترك الأسرة وحيدة كان يبكي الأب فتبكي آسيا . تضغط على الفراش بجسدها غامرة وجهها في المخدة فتأتيها الأصوات البربرية : بناتك القحاب . شوفيهم . شوفي . لا لا .

- بالقحب . يا الحلوف . يايهودي . أيا بيوغ ! يا الكومي .

كالرعد يأتي الصوت فترتج جدران المنزل . صوت منشق من جحيم اللاوعي . تندفع آسيا من تحت الكابوس واثبة عن الفراش .

- خنزير . ياهاتك الأعراض . طيز أمك . وين هو ولد الزنا ! نحنا قحاب ياتاجر المارشيه نوار ! خماجنا أشرف من وجوه والديك . غير

نقتلك يا القحب يافطار رمضان .

بوغتوا بها ، وباندفعتها ، وبهذه الصرخة الانتحارية . كانت الآن تندفع كال العاصفة في الرواق الطويل رافعة نراعيها الطويلين وهي تمزق شعرها وتضرب الجدران : غير نقتلك . غير نذبحك ياكومي . يانهاب . من المطبخ تناولت سكيناً وهجمت نحو غرفة أمها حيث هرب يزيد واحتياً وراء الباب الموصد : صبرت عليك ياسر يا ولد القحبة .

اعترضوها أمام الباب . جاهدوا لتهديء ثورتها . كانت تدق الباب وتطعنه بالسكين صارخة بالرجل المختبئ كفار وهي تهدده بالذبح . ابتدأت أعصابها وجسدها وروحها الداخلية تنطلق من عقالها متحوله إلى عاصفة مجنونة فقدت وعيها وصوابها الهادئ .

طوقوها بين الحنان والبكاء ونزعوا منها السكين ثم أعادوها بصعوبة إلى الفراش تحت الرجاء والشفاعة واحتمال الفضيحة وقدوم الجيران . وهي ملقة على فراشها جاءتها الحمى والرجفة العصبية والبكاء المرير . بدأت تهذي وترتعش وتضرب حواف الفراش والجدار وتصرخ كملسوعة .

جرح ظاهر معصمها فسال الدم . أحست بالجرح وشمت رائحة الدماء فهدأت قليلاً ، أتوها بالضماد وسمعتهم يبكون قربها ولا لا فضيلة تندب : آي . يوماً . ياروحي . بنتي ستموت . ياولد الحاج قتلت آسيا الحنانة . ربي ياخذك من هالدار وييهنينا منك .

بعد أن ضمدوها استيقظت ورأتهم حولها . بدت هارئة لكنها زائفة البصر ، وشاردة . عانقت أمها وإخواتها . وبكوا . طلبت قهوة ثم صمتت . كان رأسها يؤلمها في المنطقة الخلفية .

وهي تصعد من دوارها والهالة المطوية للحواس والجسد ، تذكرت أنها لابد فعلت شيئاً قبيحاً وصفيفاً لايمكن أن تفعله وهي في حالة الصحو الطبيعي . لبرهة داهمتها شفقة مشوبة باحترار ، للرجل الذي اختباً وأوصد الباب خوفاً ثم مالبث أن ولّ الأدبار في لحظة الخطر . جاءت منار بالقهوة وفي وجهها إشراقة نشوة . لقد كسرت آسيا سطوة الفوهرر المصنوع من القش والأصوات الزاغة والفيضاء ، بعد أن حولته إلى أربب مذعور وهارب : ربي يعيشك يا آسيا . يابونديا الأخضر . قالتها في السر .

بهدوء شربت القهوة فانتعشت . سألتها لا لا عن حالتها فقالت أنها

جيدة . نهضت من الفراش واتجهت نحو المغسلة . رشقت وجهها بالماء البارد . كان معصمتها ينقر . نادت منار طالبة منها أن تساعدها في تسريح شعرها . تهامتا حول مافعلت آسيا : أنت راجل يا آسيا . رفعت رأسنا للسماء . قالت منار .

سألتها آسيا عن يزيد فقالت : هرب . ولئن كيما الفار . واستطردت منار : ننجم أنه بالفي سرواله . نظن . هاه ! وضحكتا بشماتة . كانت منار تسرح شعر آسيا وهي ترسم لها صورة يزيد ولد الحاج راكضاً في الشوارع وبوله وراءه يرسم خطوطاً متعرجة على الأرض والأطفال يهزون منه بينما يهربون ملتفتين بذعر فيما إذا كان البوندي آسيا الأخضر يجري وراءه شاهراً سكينه ، حتى إذا ماوصل دار زوجته الأولى اندفع إلى الحمام ليغتسل ويعود هثراً جديداً يسترد هيبيته بالأصوات والعبوس وإعطاء الأوامر واحترام الناس .

- الحلوف . البؤال . يظن أنه رب !

كانتا تهتزان بالضحك من خيال منار الكاريكاتوري .

وقالت آسيا : أنا خارجة إلى بيت مهدي .

في غرفة الجلوس فوجئوا بها وهي تسترد حالتها الطبيعية ، وكان ماجرى ليس أكثر من كابوس عابر . كم بدت الأم سعيدة بابنتها الجميلة القوية . سياج الأسرة ودرعها الفولاذي .

\* \* \*

في غرفة مهدي جواد ، بعد أن يحضرها طعام الغداء من البفتيك المشوي والخس وال الخيار والطماطم ، ويجلسان إلى المائدة ، تروي آسيا الحادث وهما يأكلان ويسمعان الموسيقا .

- مؤكد أنه سيتربيص بنا ويؤذينا . تقول بمرارة .

ولا يقول الرجل شيئاً . يقطع شرائح اللحم ويمضغها مع السلطة ثم يرجع جرعة نبيذ . يرمق آسيا خططاً فيشعر بالاعتزاز . يقول في سره : يالمرأة الرائعة ! يأتيه المستقبل على شكل بيت في الغابات أو أعماق المدن . هو وهذه المرأة ينشئان حياة جديدة تنفس فوق رماد الأزمنة ودمار الروح . معاً في البيت الجديد يضحكان ويعملان ويختصمان ويتضاجعان . معاً في العمل وعلى الشواطئ وفي مقاهي المدينة والسينما والمسارح وقاعات الرقص . ومعاً في ساحات القتال عندما تقع طبول

الحرب . المرأة التي تقول للرجل : أنت لباسي وأنا لباسك . أنت كنزي و أنا كنزنك . الرجل الذي يقول للمرأة : أنت شمسي وجزيرتي و صرخة الدم .

لكن الحلم يرحل . ينشرخ . لا فضيلة أو يزيد ولد الحاج أو سي الأخضر ، يزلزلون أساسات الأحلام ، فتنهار أعمدة الطفولة ، والحلم الذي لا يصل .

- ليس مهمًا ما يفعله يزيد . نحن الأساس . يقول العبارة ضارباً عرض الحائط بكل الإيذاءات وخسارات الأزمنة ، مدركاً بلا ندم أنه لن يخسر بعد أكثر مما خسر . ويستدرك كأنما يه jes لنفسه : ماعاد هناك شيء يخسر غيرك .

وتقول : لن أكون عبدة في بيت ذلك الوحش ولو قطعوني . وفي ذلك الوقت كانت الأحزان والأفراح ، اللامبالاة والأعمال ، تتقاطع وتتعدد ، وما كان هناك على الأرض أو الأفق أي شيء صلب أو راسخ أو مضيء . جميع الأشياء والرهانات وعلاقات البشر ، كانت تبدو تحت بصره محكومة بسطوة لا عقلانية ، وبقدرة لامثيل لها على الانزلاق الزئبي والفرار . وفي اللحظة التي بدأ يراهن فيها على آسيا الأخضر ، كان هناك خفكان سري ، رمادي الملامع ، ينبيء بخساران قادم . كان الخفكان شبيهاً برعشة الزلزال تحت القشرة الظاهرية ، في المناطق العميقة والنائية من أرضه الخراب . أرض الوحوش والمستنقعات وأجداث الآلهة والدم الخثر والعلامات الخائنة والهياكل العظمية وأرحام الطوطم الأول المصابة بالزهري والسفل وصراعات العصاب والكسوف الدوري للقمر .

وتحت هذه الرعشة كان حزيناً ومنقبضاً لتوريطه هذه الطفلة ودفعها نحو المضائق . وهجس عرضاً : إذا سُجنت أو طردت ياسي مهدي ما الذي سيحدث للفتاة ؟

تناول تفاحة . مسحها بكم قميصه ونهش منها . آسيا أخذت حبة فريز وردية .

وسألت آسيا سؤالاً مباغتاً عن المستقبل : مستقبلهما .

ورآها طي السؤال شفافة ، باسلة ، لكنها خائفة ومرتبكة وقابلة للانكسار بفاجعة طفل يتيم ، أعماقه كالينابيع .

- اسمعي . أنت معنـى أم معهم ؟

ووجئت : من تعني بـ «هم» ؟

- جميع الآخرين . هذه المدينة اللعينة وبشرها وأسرتك والله ويزيد ولد الحاج ، والأوطان ، والسلالات ، والأزمنة العفنة .

- لماذا هذا السؤال . هل تشك في حبي لك بعد كل ماحدث ؟

وضع بقایا التفاحة في الصحن . تناول سيجارة وأشعلها .

- لا . لا أشك في حبك إنما علاقتك بهم أقوى . لو قلت لك الان اتركهم لنتزوج ونرحل عنهم ماتقولين ؟

- مايزال ثمة وقت . بعد نجاحي نبحث كل شيء بهدوء .

- لماذا السؤال عن المستقبل الآن اذن ؟

ابتسمت وهي تقطع تفاحة : ليطمئن قلبي أننا لن نفترق .

وهز رأسه ناخراً بأنفه : قلبك أم قلبي ؟ يا للمعادلة المقلوبة !

- هل أنت غير مطمئن ؟

- أعرف أنني أحبك وكفي . دعينا من الاستجوابات . كل ما أستطيع قوله أنتي خائف أن نفترق يوماً في لحظة الخطر والضعف . هذا ما يحدث غالباً لأول حب .

- كم أنت مزعزع ياعزيزي !

- أعمق مما تصورين .

لملما الصحون والملاعق والشوك وبقایا المائدة ونقلها إلى المطبخ . انهمكت آسيا بالتنظيف وبدأ مهدي يحضر الشاي .

في غرفة النوم شربا الشاي ودخنا وتحدثا باختزال حول الأمور الصغيرة : المدرسة وضرورة نجاحها وسفالة الذين جرحوا مهيار والعشق الجديد للعنابية والبااهلي . وهما عاريان تحت الملاءة الخضراء ، ومطوقان جسداً لجسد ، حدثها عن ليلة مهيار وفلة ، وكيف أغمي على البااهلي تحت وطأة الحرارة العنابية . حرارة جسد فلة التي اغتصبت الرجل الجريح وهو فاقد الوعي .

وقالت وهي تمص ريقه : أخيراً ذاق صاحبنا طعم العسل العنابي .

- فاض حتى أغمي عليه .

- قل الحق . نمت مع فلة ؟ كانت تعابثه .

- من لديه هذه النعيم الآسيوية الخصبة لماذا يشتهي الصحراء ؟

كان يداعب تلال المؤخرة الحريرية وحلمة الثدي .

- للتنويع . الأمان لكم أنتم الرجال كالأمان للخنس الأرقط .

ضحك وهو يجمعها إلى جسده : صَحَّ . والله صَحَّ . خلق الرجل للمبيت في أكثر من عش . تلك رغبة ربنا وأنبيائنا المرسلين .  
كان ينادها وهمًا على أبواب هبوب الجسد .

- أي عش يفضل وريث الأنبياء ؟

- الدافئ والضيق الذي يغطيه بالأعشاب الندية في أوقات الحمى وهبوط الوحي .

انزلقا تحت الملاعة ، ودخلًا في حالة اللهب الأزرق والوردي . في ايقاعات الرقص الافريقي العاري وصرخات الدم والتآكل الجرثومي ووثبة الروح التي راحت تتصعد داخل أمواج إعصاراتها وصفير الرياح ودورة الطفولة البدائية ، والموت .

الجسدان العارمان ، المزهران كالليل الربيعي ، المصطدمان والألاقان كحد المدينة ، يرتفعان وينخفضان ويتماوجان ثم يتعانقان كأفعوانين بين الحشائش الندية ، واقعين تحت السطوة البربرية للدم وهو يندفع من الرأس العمود الفقري وفجوات الجسم التي اجتاحت بالنار ، خائفين تحت دفعات اللذة من اقتراب صرخة الموت القادمة .

\* \* \*

في تلك الليلة جاءه رجل غريب بثوب أبيض وعمامة خضراء وقال له انهض من سباتك وغوايتك . وقال للرجل الغريب لست بناهض . وهجس الرجل بأنك في الظلمة والوحول والناس في التيه والقتل ، وقال أريد أن أظل هنا في هذا الظلام السحيق .؟ وصرخ الرجل بأن الأرض مزهرة وتصطخب بالينابيع وأصوات الطيور وأنت بعيد في الكهوف المغلقة . وقال للرجل الهابط والمُلْفَع بابيضاض ريش الطيور البحرية : أنا خارج البياض ودفق الينابيع ، وما أرغب به الآن هو الموت .

ومن إزاره انتصري الرجل خنجرًا لامعًا ، لوح به في الفضاء وهدد به باتجاه القلب المظلم .

وكان هناك أفق معتم يضيء برق فضي يضيء بحراً والرجل الأبيض يتربع الأفق . يخاطب رجلاً وراء نافذة : ألا ترى البروق ؟ فيضحك الوجه الملصق بالنافذة . يضاء بالبرق للحظة ثم ينطفئ . ويقول رجل الآفاق : هي ذي رعودي . وفي أعقاب الوميض تهتز الدنيا بالرعد .

يقول تحت السطوة وموحات الكابوس : تلك المرأة تلك المرأة لاتضيعها  
إذا ضيّعها ضاعت حياتك .

مطر على النافذة . مطر على شط البحر . رجل وامرأة عاشقان على  
حافة الموج والمطر ينهر . مقوسان . هو في صدرها وبين فخذيها  
وهي منطوية فوقه تحميه من البلل وبرد الليل . يosoس للظلمة المطيرة  
أن أدخليني في الرحم الحار ، ويصرخ رجل البروق من أقاصي البحر :  
انتبه للكنز الذي وُهِبَتْه . يosoس للمرأة الدافئة والمفعمة بالحنان : أنت  
مقبرتي . افتحي صدرك . افتحي أبواب البحر .

ومرة أخرى يقذف رجل البرق مدية باتجاه القلب المظلوم . ويقول  
الرجل الضعيف والمهزوم والذي لم تجرحه المدية :  
أنت أيتها المرأة مأواي .

وبدا له الرأس مفصولاً عن باقي الجسد . الجسد الغارق في العتم  
والرأس المطل من وراء البلور على البحر المرصع بالبرق . وعلى الرمل  
كان القلب المشغوف .

ثلاثة أجزاء كانت موزعة ، والرجل يرمي سكاكينه إلى مدارات القلب  
المظلوم . وفلة بوعناب تقول بضراعة عارية : نم معى مرة واحدة . وخالد  
أحمد ذكي يطفو فوق الوحل ويسائله إن كان الدم قد تحول إلى طين .  
والرحم الحميم لآسيا الأخضر يطوقه على الشواطئ البليلة ، تحت شجرة  
الصنوبر فوق العشب الغض على مداخل الأصيل ، ويصرخان . هو وهي  
والأرض يصرخون تحت الهزيم الرعدي للجسد والأرض : أنت كنزي  
وبرق ظلامي . ادخل في . ولا يأتي شيء سوى الفراغ والظلمة وهذا البريق  
الكاذب لرعد سماوي يتآلق بتشكيله الجمالي والسريالي في ليالي الطبيعة  
المحايدة .

ثم تأتي الأشياء وتمضي . طيور الحجل والدراج والكروان واللقالق  
والدرغل والسمان والبط تعبر السهب الزرقاء ، والبنديبة لاتطلق . إنها  
تمر فوقه على شكل أسراب ملونة وسرعة خافقة بضوضائهما وخفقان  
أجنحتها ، وهو مرتبك باستحالة صيدها وعبورها الحر ، وحسراته ،  
والبنديبة التي تحول إلى عصا أو قصبة في لحظة الإطلاق . ويرى أنه  
تائه في هذه البراري بين العوسيج وحقول القمح ، والطيور تفرّ وتترنّج  
وهو لا يصطاد شيئاً ، ويتغير الحلم فتأتي النساء اللواتي يشبهن الطيور  
تارة وتارة يشبهن الأزنان وأحياناً يرتدين جلود الأفاعي أو أنواع طفلات

المدارس الزرقاء . يقبلن عليه فيخشى مسهن ، ينهض في أعماقه النائمة إحساس بأن المرأة هي الموت ، وهي البحار العميقه التي تجرفه بتياراتها المظلمة والحقيقة ، والفضاء الذي يرفعه إلى الجحيم الملون في أعلى السماء ، وأنه كان ملحداً ومجوفاً كان يتصور أن الله يتقمص المرأة ويعويه ليدخله في جسدها ثم يختطف روحه ليعاقبه في عرش مملكته . وهكذا كنَّ يأتين معطرات بالندَّ والصندل والعنب والبخور وفي أيديهن باقات من الآس الأخضر أو زنابق القبور البنفسجية أو مياхـر من الفخار الأحمر ، يرتدين أثواباً حريرية شفافة تشبه أثواب الملائكة في الصور والتزيينات ، يغرنـه بالروائح وملاسـة الحرير وانسـقال الجسد والتأوهـات الحارة ، لكنـه كان يرتعـد في لحظـة ولو جهنـ وهو تحت السطـوة البرقـية للجـسدـين اللـذـيـن سـيـاغـتـهـما اللهـ وـهـما مشـبـكانـ .

وـحـدهـ الـذـي يـرـى الـآنـ مـحـمـولاًـ عـلـىـ مـحـفـةـ أـوـ جـرـفـ صـخـريـ أـوـ تـابـوتـ الـمـقـبـرةـ . حـيـ وـمـيـتـ وـحـولـهـ الحـشـدـ .

أـصـواتـ : مـوـلـايـ صـلـّـ وـسـلـّـ عـلـىـ حـبـبـيكـ خـيرـ الـخـلـقـ كـلـهـ .

صـوتـ : مـوـلـايـ . مـوـلـاهـ . مـوـلـاـكـمـ . بـارـيـناـ ، وـمـنـشـؤـنـاـ ، وـفـانـيـناـ . فـاطـرـ السـمـوـاتـ وـالـأـرـضـ وـمـاـبـيـنـهـماـ . رـبـ الـأـوـلـيـنـ وـالـآـخـرـيـنـ . رـبـ الـبـشـرـ وـالـشـجـرـ وـالـحـيـوانـ وـالـمـاءـ وـالـصـخـرـ وـالـسـحـابـ وـالـطـيـرـ أـجـمـعـيـنـ . أـنـقـذـنـاـ فـيـ هـذـاـ الزـمـانـ الـخـطـيرـ .

أـصـواتـ : اـنـهـضـ وـقـلـ : بـلـ رـبـيـ وـرـبـكـ . رـبـ الـمـشـرـقـيـنـ وـالـمـغـرـبـيـنـ . وـقـلـ : سـبـحـانـكـ يـافـالـقـ السـمـوـاتـ وـفـاطـرـ الـأـرـضـ . آـمـيـنـ .

صـوتـ : هـوـ الـقـابـضـ عـلـىـ الرـعـدـ وـالـصـوـاعـقـ وـمـواـزـيـنـ الـعـدـلـ . الـعـارـفـ مـاـ فـيـ أـرـحـامـ الـأـمـهـاتـ وـفـيـ أـيـ أـرـضـ كـلـ نـفـسـ سـتـمـوتـ . الـحـيـ الـذـي أـوـقـفـ الـشـمـسـ فـيـ أـفـلـاكـهـاـ وـرـدـهـاـ عـنـ الـمـغـيـبـ .

أـصـواتـ : بـلـ قـلـ بـقـوـةـ إـمـامـ الزـمـانـ : مـوـلـايـ فـيـكـ اـسـفـتـحـتـ وـبـذـكـرـكـ أـفـوزـ وـعـلـيـكـ توـكـلتـ . أـنـتـ الـمـبـتـأـ وـأـنـتـ الـمـنـتـهـيـ وـإـلـيـكـ يـعـودـ جـوـهـرـ الـرـوـحـ .

صـوتـ : يـامـنـ لـاهـ إـلاـ هـوـ . يـامـنـ أـنـتـ مـنـهـ كـشـعـاعـ الشـمـسـ مـنـ الشـمـسـ وـالـبـصـرـ مـنـ الـعـيـنـ وـالـبـرـقـ مـنـ السـحـابـ وـالـمـوجـةـ مـنـ الـبـحـرـ .

أـصـواتـ : بـلـ قـلـ : هـوـ إـمـامـ الزـمـانـ وـكـلـ زـمـانـ . آـمـيـنـ .

صـوتـ : هـوـ الـقـادـمـ مـنـ عـيـنـ الشـمـسـ . الـمـمـسـوحـ بـهـالـاتـ النـورـ . مـالـيـ

الدنيا عدلاً بعد أن ملئت جوراً . سيد المنبودين والمنفيين والمقطولين غرداً والذين نهبت بيوتهم وهنكت أعراضهم فتاهوا في براري الرب بلا مأوى وهم جياع .

أصوات : بل قل : اللهم الموت حق والجوع حق والمنفى حق والحساب حق وهذا العبد الحقير الجاثي بين يديك مذنب فاغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر يا أرحم الراحمين .

صوت : يا إمام الزمان وكل زمان . نحو الموتى والجياع والتألهين والمسلوبيين . تعال واغمرنا بغرانك وعدلك يا أرحم الراحمين .

مواكب . مواكب . ليشر موشحين بالبياض . ملامحهم شبه ضائعة يرثلون آيات وسوراً وأدعية مقدسة قرب جنازته .

وما كان راغباً في الموت آن رأى جنازته على حافة القبر . كانوا يتلون عليه آيات وهو على حافة الحياة والموت . لكنه ما كان ميتاً . كان في الغيبة التي تشبه الموت أثر سهوته قرب المرأة الحميمة .

قرب بوابة البيت وهو يودع آسيا الأخضر في غروب ذلك اليوم ستسأله لماذا كان يصرخ في نومه ، فيقول بأن الأشباح جاءته فقاتلها . بخبث أو استهزاء سالت : كيف لي أن أعيش مع رجل تتقمصه الأشباح ؟ وهو يغادرها منكفاً باتجاه منزله يه jes : أيتها المرأة الضائعة لكم أنت بائسة !

### - 13 -

لقد حطمت آسيا كبريء يزيد ولد الحاج ومرغت هيبته في الر GAM غروب ذلك اليوم الفاصل في تاريخ العائلة .

فالرجل الذي كان يتبااهي مختالاً كالطاووس في بيت سبي العربي ، آمراً وناهياً ، غامراً بحرمحته من يشاء ، ولاعنًا بغضبه من يشاء ، تحول الآن إلى قط منهور يتسلل في أواخر الليل ، بعد أن ينام الأولاد ، نحو غرفة لا لا فضيلة ليتکور ذليلاً بين فخذيها .

لم يعد هو ما كان عليه من رب ممجَّد ، مطاع .

فيما مضى بعد أن يوقف سيارته البيجو الخضراء قرب فيلا دولي في شارع الكولونيل لطفي ، كان يدلُّف كأمير إلى المنزل . لقد أغلق المتجر والمقهى وأحصى أرباح اليوم ، وحاسب العمال ، وأكَّد على

ضرورة الانضباط في العمل ناخراً بأنفه امتعاضاً من فوضى بعض العمال ولامبالاتهم واقتدائهم بعمال القطاع العام المستهترين . إنه يتوجه من ساحة أفريقيا عابراً شارع عبد الناصر منعطفاً نحو حديقة العشاق حيث في زنقة اللاكولون يقيم صديقه الفرنسي روبير بائع الخمور .

بعد حديث خاطف يطلقه بفرنسيته المهشمة بربيراً حول الصحة وأحوال التجارة والكساد في عصر الاشتراكية الزائفة ، وضرورة الهجرة من هذا البلد إذا ما استمرت الحال على هذا النحو ، يناوله مسيو روبير زجاجة سكوتشر ويسكري في كيس بلاستيك . وهو يهم بالخروج يتائفف من الخراب الاقتصادي وفساد البلد . يضحك مسيو روبير الذي جاوز الخمسين واختار الجزائر على فرنسا بعد الاستقلال : إنها لحالة حقاً . كما ترى .

وهو يخطو خارجاً ببطء ، يقف ملتفتاً إلى صديقه : لاشيء يدوم يامسيو روبير لاشيء . الفرنك الفرنسي هو الأقوى .

يبتسم تحت شارب بدا الشيب يخطه ببياض فضي .

- نحن هنا في الحالين . ها . مسيو تذكر ذلك . تذكره يامون أمي .  
يهز الخمار رأسه ببلاده رجل لم يفقه حرفاً واحداً من العبارة الأخيرة التي ألقاها يزيد ولد الحاج بانتفاج جزائري مفعم بالخرافة .

لقد سبقته اللحوم والأسماك والفواكه والحلوى والخضار إلى الفيلا . جاء بها عاملان من المقهى يدخلان المنزل بثقة مجرئة .

هام الأولاد والأم ، خدم الأمير ، يقفون على الباب كحراس الملك ، ليؤدوا التحية مرحبين بسيد البيت .

لا لا فضيلة في أجمل ثوب حرير ، مبرجة ، ومزنرة بطوق الذهب الغالي المحقق بالليرات العثمانية ، وفي معصميها تلمع أساور الذهب .  
كورد الربيع تزهر ضحكتها في أرجاء الغرف .  
ابتداًت ورشة العمل المسائي .

منار تجهز الحمام الساخن . آسيا تقليل اللحم والسمك وتقرم السلطة . لا لا فضيلة منهكة بترتيب الطنافس والفرش وجلود الغنم التي ستمدها على الأرض في غرفة الجلوس والتلفزيون .

رابح الولد المشرف على التاسعة عشرة ، يتهيأ للصمت والموافقة على ما سيدلي به السيد من حكم وفلسفة وضعية خارقة . إنه بيت سي

العربي . يحتفل بولي النعمة ، منقذ الأسرة من الفقر واليتم والتشرد في  
أعقاب استقلال الوطن .

الرجل الأمي ، تاجر المارشي نوار ، المالك عشرين مليوناً من  
الدنانير ، يتحرك ويفكر بمستوى ملكيته .

بأبهة ملك ، بعد الحمام الساخن ، مجللاً بالرورب دي شامبر  
الأخضر ، يستلقي فوق الفراش الزهري الناعم ، وحوله طنافس الساتان  
الوردي .

في البدء تقدم له منار كوباً من عصير البرتقال .

بعد دقائق يطلب حساء السمك ليسهل الهضم .

بإيماءة ، وهو يتفرج على مسلسل «الهارب» في التلفزيون ، يومئ  
ببدء العشاء .

بهدوء تأتي آسيا بالطبق الفضي الواسع لتضعه على السجادة بين  
الفرش الممدودة .

مع اكتمال المائدة ، تكون زجاجة ال威isky تحت يديه قرب إناه  
الثلج .

يرفع الكأس إلى أعلى ليتأكد من صفائمه . وبحركة خفيفة يفتح  
الزجاجة ثم يصب قدحاً صغيراً يغمره بالثلج ثم يضيف له بعض الصودا .  
الحاشية تهيء الجيدور والكولا وماء سعيدة . لقد حدد لهم مطارح  
الجلوس حوله .

لا لا عن يمينه قربها آسيا وإلى اليسار منار فرابع .

هو الآن في بداية فرجه وتجلّى سعادته .

يتناول سمكة بلا خبز ، فهو لا يحب اللحم المقلي ، لكنه يلتزم سلطة  
الحس والطماطم والبصل ، المفلفلة بالهريرة الحمراء .

بعد جرعتين عميقتين من ال威isky ، تبدأ ملاحظاته حول الطعام  
غير الناضج الذي يزيد في الحموضة والأملاح . خلال العشاء يتجشأ أكثر  
من مرة . يطلب ماء فتقدم لا لا كأساً من المياه المعقمة ، مرتبكة وخائفة  
من مزاجه الناري .

يأكل الأولاد بصمت وتوجس ، لكن منار ، هذه الفوضوية اللعينة ،  
تخرق الصمت الطقوسي ساخرة من آسيا التي تعرّبت وطبّقت تعريبها على  
الطعام .

يُضحك يزيد بجلجلة : يعطيك الصحة يا منار . صَحَّ . ورببي صَحَّ .  
شوفي . شوفي كيف خربت بونه بالتعريب الخامج .  
تعلق آسيا ممتعضة من منار بعبارة : يا الكحلة الفرنسية علاه تشعلني  
النار علاه يا مهبولة !

يزيج ولد الحاج قناع الإله الممتعض . يأخذ جرعة من الكأس  
الثانية ، ويلبس قناع الحبور . لابد للا لا فضيلة أن تمنحه في آخر السهرة  
جسدتها الغض الشهي .

يسترخي السيد قليلاً ، متكتئاً على الطنافس والحائط وملكه .  
هاقد بدأ ضباب الويسكي المتقد يصعد في خلايا الجسد نحو  
الرأس الخفيف .

تزاح المائدة لتتم أطباق الفواكه والحلوى . البرتقال والموز  
والمشمش الهندي ، والكنافة وفطائر التمر .

بعد انتهاء الوليمة العضوية التي سخا بها ولد الحاج ، تبدأ وليمة  
الثقافة والتربية .

ومن يعتقد أن التاجر العنابي أهوج وأحمق في حياته التجارية كما  
هو في حياته النفسية ، لابد له أن يقع في خطأ فادح مرده إلى الخلط  
الميكانيكي بين المسألتين .

فيزيذ ، في حياته اليومية ، الاقتصادية ، عملي ودقيق . يعرف جيداً  
كيف يفكر ويعمل ويدير مصالحه .

هاهو ، بعد الكأس الثالثة ، والحاشية تشرب القهوة ، يشرح ماذا  
حدث له في يومه التاريخي .

للا فضيلة مبهوتة برجلها الفهلوى ومعلوماته الدقيقة ورحاب  
أفكاره التي تستعصي أحياناً على وزير اقتصاد أو مالية .

بعد أن يسبه في متاعب نهاره مع الناس وعمال المقهى ، ينتقل  
إلى الوضع الاقتصادي العام . إنه يشرح بمزاج من فرنسيّة ركيكة مع  
لهجة عربية وبربرية ، الفلسفة الميركانتيلية التي ستنهض الجزائر من  
مائزها الاقتصادي المنهاج .

ها هونا يعبر على اصلاحات بومدين الاشتراكية والثورة الزراعية  
والتعريب فيقول بأنها ستجر الخراب على البلاد . وإذا يرى هذه الرعية  
الوديعة حوله صامتة ومدهوشة ، يتوجه أنه نطق بالحق ، فيبدأ اتهاماته

لموظفي الدولة بالجهل والرشوة والنهب . يسم الفلاحين والعمال بالحمير الذين يدورون حول الجب وهم مغلقو العيون : لقد دمروا الاقتصاد والبلد بالتسخير الذاتي . هؤلاء البغال .

لقد أطلق رقمأً قياسياً ووهمياً عن خسارة القطاع العام : مئة وعشرون مليون دينار خسرتها الدولة في التسيير الذاتي منذ السنة الأولى بعد انقلاب بوخروبه . تصوروا بلداً كهذا . كل عام تتفاقم خسائره إلى أضعافها . بلد لا هو اشتراكي ولا هو بورجوازي ، أين يقع ؟ من ينقذه وهو يتدهور ؟ أغنى بلد في الدنيا في البترول والغاز والمناجم والمزروعات واقع في العجز والديون ! لماذا كان الاستقلال اذن ! ها قد أرسى أسس انتقاداته على أساس رياضي وعقلاني ، ومن هذه الأسس سينطلق إلى نقطة الهجوم الثانية على اشتراكية بومدين الروسية واليوغسلافية والصينية التي ستقود البلاد إلى الإفلاس : أنا ضد فرنسا الاستعمارية . لكن الفرنك الفرنسي أقوى من الدولار . الجنرال ديغول رفض تبعية الاقتصاد الفرنسي لأمريكا . لكن بومدين على ماذا يستند ؟ الدينار الجزائري يهبط والمهاجرون يرفضون المجيء إلى جزائر الجوع والاشتراكية كما يرفضون تحويل أموالهم من فرنسا .

سوف لن يكون حظ التعريب بأقل من نصيب الاشتراكية والتسيير الذاتي . فيزيد ولد الحاج ، الضليع بالأرقام ، سيقذف رقمأً خيالياً عن خسارة التعريب يتجاوز المليار دينار سنوياً .

- هؤلاء الذين جاؤونا تحت اسم التعريب لاهم لهم غير التجارة في المارشي نوار وتبدل السيارات والسطو على الأعراض .

ويضيف : يادين الرب . ماصدقنا نتخلصوا من الأحمر بن بيللا حتى بلونا بهذا البوخروبة خراب البلد .

كان يعتقد أنه ينال من بومدين وهو يعيد تسميته باسمه الأول في بلدته العنابية هليوبوليس التي ولد فيها .

هكذا كانوا ينعمون بهذه السمفونية الممتعة في ليلة شهريار لدى الملكة شهزاد . الفارق البسيط أن شهزاد صامتة ومدهوشة من حكايات شهريارها فيلسوف العصر الذي يحكى للرعية ويبهر شهزادة الجميلة .

يتتابع فيثاءبون . يتململ فيهرعون ناهضين باتجاه مراقدهم . لقد انتهت حفلة السيرك المسائي للأطفال ، وبدأ الطقس الآخر ليزيد ولد الحاج . طقس الخليفة في مخدعه الزوجي المقدس بين أحضان الجارية

الثانية للا فضيلة صاحبة الحظ السعيد في هذه الليلة .

كان هذا الطقس الروتيني ، مع بعض التنويعات الطفيفة ، يجري في منزل الأسرة ، قبل المعركة التي شنتها آسيا في وجه عمها ، هادمة بكرياءه بتلك الصرخة التي استمدتها من روح أبيها الحي في دمها ، ومن ازدهار علاقتها بذلك الغريب الذي اقتحم حياتها اقتحام العاصفة .

\* \* \*

يبدو أن هناك عرساً .

البيت مشتعل بالفرح والهرج .

في رواق المدخل اندفعوا إليه يغمرونه بالقبلات والعيون المشعة .  
للا فضيلة أطلقت زغرودة اجتاحت الرواق وخرجت مرفرفة فوق  
بيوت الحي .

مهدي جواد مبهوت ، مرتبك بفرحهم المتدقق .

- نجحت آسيا . نجحت في الباك . ربى يعيشك يا ولدي ! هكذا  
صرخت الأم في غمرة من النشوة .

التنقت عيناه بوجه آسيا الربيعي . كتما خفقاتاً كاللينابيع .

- مبروك . تلجلج بها صوت مبحوح .

وهو يتعرّث بفرحة الداخلي ، ولج الصالون . قذف محفظته على  
طاولة واستند إلى الجدار .

في الدم كانت موجات السعادة تغمره بزبدها الأبيض . موجة  
انتصار صغيرة اندفعت إلى عينيه فترقرقتا .

على وجوههم وفي عيونهم لمع الإشعاعات .

الأسرة السعيدة بنجاح آسيا التي رسبت عامين بسبب اللغة العربية .

عندما خرجنوا ليجهزوا مراسيم الاحتفال ، اندفعت آسيا تطوفه .  
انغمرا ببرهة بصمت . قالت الأذرع والأصابع والمصدران والوجهان  
والشفاه والدم أشياء غامضة ، حميّة ودافئة ، وقالت الروحان ماتقوله  
الريح للشجر .

طارت آسيا كعصفورة ووضعت أسطوانة فيروز : عمق البحر بحبك .  
وسع السماء .

جلسا معاً على الأرض بعد أن أغلقت الباب . تحت غمرة العناء

الدافع للدم في الأعصاب ، كان الموت يهاض ويندحر ، بينما كان البيت يعلو ويطير مع فيروز نحو الأدغال وتلال البحر . هما الآن موغلان داخل المياه والحقول الخضراء والشموس التي سطعت . طائران يرحلان فوق العالم في فضاء رحب .

- نرقص ؟

- نرقص .

بالجسدين كانوا يتكلمان . لم تُقلْ كلمة واحدة أخرى في تلك اللحظة . الموسيقا والأرض التي صارت فضاء . الأطراف تحولت إلى أجنحة واندفعات الدم في الدم تحت هذا الخفكان المصطفق بملابيin الرایات .

وجه باش يتلأّا عذوبة وقاممة خصبة ناهضة ، بعد أن قرعت الباب ، هكذا أطلت للا فضيلة حاملة القهوة والحليب والكافو ولفواكه .

في لحظة الدخول فاجأتهما في الرقص فابتسمت . فيما مضى كانت تشك في علاقتها ، وفي أعماقها كانت تتوجس ، لا رفضاً للرجل الغريب ، إنما خوفاً من افتقاد آسيا ورحيلها عنها إلى البلاد البعيدة .

كانت للا ترى في آسيا صورة الأخضر ، الذي كسرته الريح وهو مايزال غضاً ، وكانت البنت البكر بمثابة البرعم الذي نبت في مركز الكسر .

الآن ، في غمرة النجاح ، باغتها اليقين أن ابنتها عاشقة . لكنها كتمت السر ووارته في قرارتها .

دخلت منار بثوب فاضح يبرز نهديها الواثبين الشرسين .

كراقصة مجرية بدت جميلة ووحشية ومبتهجة . غيرت الأسطوانة العربية ووضعت أخرى فرنسية . جلست تندنن وترقص بحركات طفلية عابقة بالاثارة وشهوة الانطلاق المراهق .

مهدي وأسيا شبه متلاصقين ، ومنار وأمها في المواجهة ، الجميع يتناولون القهوة والحليب .

تحت الدندنة الخارجة من شفتيها الشهوتين ، وحركات جسدها الراقص ، تحدق منار إلى آسيا ومهدى . تراهما متعاقبين ، متداشرين وراحلين معاً . إنها فرحة حتى الأقصى ، لكنها تتساءل من خلال عينيها السنجبaitين إن كانوا عاشقين حقاً . لكن آسيا العزيزة ، الجميلة ، الذكية ، خلقت لتكون زوجة فتى فرنسي طويل ، أشقر الشعر ، أزرق العينين .

شاب معاصر يعرف الحياة الحديثة . يحب الموسيقا والرقص والحلقات والرياضة والسفر والمغامرات . في أعماقها تشك أن يكون هذا العراقي هو البديل رغم ما يبذلو عليه من اختلاف وفهم . ولعلها تتساءل : كيف يكون العربي إلا جزائرياً . يشتهر بلا حب . يتزوج ويغلق الدار على أنثاه خوف الخيانة . يرى في المرأة طاهية ومنجبة وفاردة ساقين في آخر المساء . ينتقل من أنثى إلى أخرى ومن حانة إلى حانة ، وعندما يمل أمرأته يطلقها حسب الشريعة الإسلامية ويتزوج أخرى . وإذا ما اشتبه بها يذبحها كالنعجة .

كانت تسمى بلاد العرب : حظيرة الخنازير .

أكثر من مرة اصطدمت مع أختها . كانت آسيا تقول لمنار : أنت لستِ عربية . في دمك يسيل الدم الأزرق . دم جدتك الفرنسية .

- شكل عربي بتفكير أوروبي . محال ! تقول منار .

وترد آسيا : لا شكل عربي بتفكير عربي جديد ليس أوروبياً . لماذا لا ؟

- أوهام !

- مهدي . مثلاً !

- لا . لا . لا أعتقد . أنت مخبولة . محال ! العربي عربي والفرنسي فرنسي . وبينهما مسافة . مهدي حالة غريبة ملتبسة . كانتا تتحدثان سراً في الفراش قبل هجعة النوم . وعندما كانت آسيا تحتم : لماذا يكون الفرنسي من جنس الملائكة والعربي من جنس الشياطين ؟ كانت منار ترد بثقة : لأن الأمور هكذا في الواقع . ألا ترين الجزائريين الحلاليف كيف يفكرون ويعيشون ؟ العرب . كلهم خمّاج رؤوسهم بين أفخاذهم .

احتفاءً تقدم لا فضيلة قطع الحلوى والفواكه لمهدي جواد : كيف نشكرك لأنعرف . نجاح آسيا من الله ومنك يا ولدي . أنت واحد منا . ربى يعطيك الصحة وينصر العرب .

يقول مهدي للمرأة الفرحة كلمات مفككة عن جهد آسيا وذكائها وتصميها على النجاح . في غمرة الارتباك تسعفه التي يرغبها زوجة وحمامة حلم ، بافتراءات طفولية حول قدرته الخارقة على التدريس .

وفي عثرات المجاملة والخجل تستدرك آسيا : أنا نجحت في العربية لكن هذه ستظل رومية . مشيرة إلى منار .

تتموج ضحكة منار الفاسقة : أنا والعربية كيما النار والماء . لا  
نلتقي أبداً العربية وعراة .

وتقول للا : وعلاه ! آسيا حصلتها في أقل من عام ؟  
حصلتها من أجل الشهادة . بعد شهر ستنسى العربية . ها . قولي  
الحق آسيا وإلا نقول ! تغمز آسيا .

في مهرجان الفرح تضحكان : لا . لا . أنا أحب العرب والعربة  
حقيقة . أنت واحدة رومية طالعة لجذتك .

تقول ذلك وهي تدق سطح الطاولة مؤكدة .

وترنح منار : هاو ، دورت الهدرة ، أنا أعرف كلش . والله غير  
نقول الحقيقة . هانقول ! والله غير نقولها يا العراقية ! كانتا الآن  
تتفامزان ، وتبتسمان ، مازجتين اللغة العربية بالفرنسية في تراسق  
طفولي غامر بالبهجة والنكد .

- أوه . ياللأطفال ! من يسمعهم يظن أن بينهم أسراراً هامة ! تعلق  
للا فضيلة التي اختلطت عليها الألغاز بالبهجة .

ينعزل مهدي للحظة . يتأمل من النافذة نؤابات الشجر وفسحة  
السماء الزرقاء .

آسيا تقرص بأصابع قدميها العاريتين قدمه . تمد تحت الطاولة  
كفها اليسرى وتضفط على الفخذ .

فجأة تسأله عن الدراسة الجامعية إن كانت أفضل في الجزائر  
العاصمة أم في فرنسا ، فيباغت . يرفع كتفيه ويزم شفتيه ولا يجيب .  
من النافذة تأتي موجة ريح صيفية عليلة . ينقض طائر الفقدان من  
عشه ، يرفرف ثم يحلق في سماوات سحرية .  
الأم تفضل الجزائر ، ومنار تختار فرنسا .

وهو يرشف بقايا القهوة ويدخن ، يلمح في لوحة البحر سفينة  
تنقاذها أمواج فوقها نوارس تفرد أجنحتها . سماء مموجة بغيوم  
رمادية والأفق ممحو .

تخرق للا الصمت : أنت مدعو يوم الخميس إلى العشاء .  
ينتبه من شروده : أوه . شكرأ . نحن لسنا غرباء .

ينهض ، يتناول محفظة الكتب . وهو ينهي مراسيم الخروج يلمح  
لوحة البحر مرة أخرى .

## - 14 -

في الحادية عشرة وصلًا تلال رأس الحمرا .  
 المرأة والرجل المغموران بوشاح المسرة .  
 المندمجان الآن في الضحى ، والمشتملان بهوس البحر .  
 يحتفيان آسيا في أقصى البر البوئي .  
 بين صخور البحر الثالثة ، في منأى موحش ، اختارا هذا  
 الاعتزال .

هبطا إلى ودهة ، تاركين خلفهما جدران الصخور الغرانتية ،  
 وأمامهما البحر ولمعان الشمس .  
 هاربان كالمعتاد من المدينة ، ومن شهر رمضان والصيام  
 الاجباري .

من الحقيقة يخرج مهدي البيرة والساندويش والفواكه والراديو ،  
 وتفرش آسيا حصير النزهة والصحف القديمة . يفتح الراديو . ينضو  
 ثيابه . هي الأخرى تتعرى . أحدهما يسبق الآخر إلى البحر . صرخة أو  
 شتيمة ثم يصطفق البحر وينخفض تحت انغمار الجسدتين ، ثم تستطع  
 الشمس .

- هنا نحن بعيدان كالكواكب عن الأرض .  
 - وهنا نرتوي كطiyor الماء .

مسرات صغيرة ، ممنوعة . تبدأ من الفرح بخضرة البحر وشفافيته  
 الطلقة ، ولا تنتهي باللمس الحريري للجسدين ، ولكنها هنا يلعبان لعبة  
 الطفولة في غياب الأبوين . الأطفال يخلعان القماط الأول للمهد . إنهم  
 يتظهرون من دنس التربية المقدسة والعائلة المقدسة في أملاح البحر .

عندما تأتيهما سطوطفات الشمس ، وهما طافيان ، ينفرد الجسد  
 الصلب البرونزي للمرأة العارية وهي توغل تحت كريستال البحر مهاداً  
 من أزهار اللوتس المشعة .

على الصخور المسننة يتحرك مهدي جواد باتجاه المائدة . وهو  
 يقطر ماء يفتح زجاجة بيرة ويكرع من فوهتها الباردة . يجلس على  
 الحصير مستندًا إلى صخرة منخورة ، ويستقبل الأشعة مغمضاً .  
 أضواء حمراء فأرجوانية فخضراء ، تتخاللها أطيفات على شكل

دوائر بنفسجية راقصة ، معلقة بخيوط لامرئية ترقص في الحقل الأرجواني . مسراة . الطفولة الوردية القديمة على ضفاف الأنهار والمراعي وسفوح الصيد .

صوت آسيا ينهر كالظلال : إلى أين جنحت السفينة ؟

فوقه . ساقمة ، مشعة ، ت قطر ماء . وهي تضحك .

يناولها البيرة فتقول : اشع لي لفافة .

- ياللنعمـة الـالـهـيـة الـتـي هـبـطـت عـلـيـك !

صوت رجل يخترقه زهو عبادة امرأة في غمرة ضحى متفجر .

تجلس مادة ساقين مغسولتين بملح البحر والقطرات .

ثرثرة جميلة عن البحر والنساء والأيام القادمة . هراءات مختربة ومغيبة عن السفر والوداع والدنيا الواسعة والأزمان المفتوحة . أشواقها للمدن التي لم ترها . حكايا مضمة عن بونه الضيق كالخاتم أو رحم الأم . انفساح النفس تحت هذه البراري وقرب أبواب البحر ، يكسر الغشاء .

- كيف نبقى معًا ؟

- ما هو مستقبلنا ؟

وخارج نطاق الأشعة واخضرار البحر ، مكان هناك من شيء واضح . لا هو يعرف إلى أين تسير هذه السفينة ، ولا هي . تحت السطوة العذبة للجسد ، كانت التواطؤات تنسر布 في الخلايا والمسام ، لتقيم احتفالاتها ، غافلة في تيار تدفق الدم عن الصرخة الجائمة في الظلام . هي وهو والبحر ، وهذا السلام الهابط على الصخور والماء المترافق كقطع الماس .

وبغتة قدموا . حطموا مرايا البحر والطفولة وهجعة البراري .

ذئاب عارية اندفعت من الصحاري والمدن .

هاهم يملؤون تخوم البحر بضوضائهم الوحشية .

عذرية العالم ، عبر أصواتهم وهديرهم ، افتضَت بكارته . ملايين من الجن والأبالسة ، هبّت من كوكب غامض . من أين أتوا ؟ وكيف اكتشفوا هذه البقاع المنسيّة ؟ لقد حدث خلل مباغت للهواء والشمس والعراء والصمت . واندفعت النوارس تزقو مذعورة نحو الأفاق البعيدة .

آنذاك كانت آسيا في الماء . وكانت هناك فراشة بيضاء تاهمت عن حقولها إذ التبس عليها البحر والحقول . آسيا تطاردها ، لكنها إذ تعيما عن إمساكها تنادي : تعال . مهدي ملقي على جنبه يحترق بالشمس ولسع الصخر وهو يراقب المرأة التي تنأى وهي تقسم وتبتعد . اندفع إلى البحر غاطساً عن قمة صخرة ، وإن خرج زفر الماء في وجهها .

- تسبح جيداً تحت الماء .

- الصخور اللعينة .

- تخافها ! لماذا ؟

- مرَّكب طفولي قديم . تصوّر لا أعرف من شأنه يوحى لي بأنّ بطني سيُشوق يوماً بصخرة جارحة .

- اسمع . دعك من أوهامك . ستعلب الآن لعبة الطائرة . امسكني من قدمي واتبعني . سأقطرك ورأئي .

اندفعت ، وهو ممسك بمعصمي قدميها ، تضرب صدر البحر بثقة ورشاقة سمكة . يوغلان ثم ينكفئان ثم ينفلتان ويستلقي كلّ منهما على ظهره طافياً تحت الشمس .

آنذاك قدموا .

معهم سلال وشصوص ومدى مدلاة من خصورهم .

كانوا عراة وهم يندفعون إلى البحر .

وقالت آسيا : لخرج . هيا . ياللحلاليف ما الذي جاء بهم إلى هنا ! كانوا يتناسلون كالفطر من وراء الصخور صارخين صرخات وحشية ، هابطين كالقردة من المنحدر وأذرعهم مفرودة وجامحة شوقاً للبحر .

عندما عادا إلى الشاطئ الصخري وجلسا متقابلين ، كانوا منتشرين حولهما كالذئاب وعلى وجه البحر .

- حتى إلى هذه الأقصاص النائية يتبعوننا !

- أوه . يادين الرب . إنه هناك .

لمح مهدي الزنجي الذي اعترضهما يوماً في الشارع . كان يحمل قصبة طويلة من الزان ، ومن إزاره تدلّى خنجر . لقد استند إلى جدار صخرة مرتفعة ثم لوح خيط الشخص وقذف به بعيداً إلى الماء . كان آخرؤن يعبرون جوارهما بحركات عدوانية ونظرات وقحة . وعلى جسد آسيا

اللامع بالأشعة والقطارات ضوّبت عيون كعيون القطط المفترسة . تناولت منشفة البحر وغطّت ساقيها . كان التوجس يتموج بخفقات فزعة ، وابتدأ البحر يضرب الصخور ناثراً زبده في الفضاء .

أقبل فتى أبيض الملامح عاري نصف الصدر يتحدث مع الزنجي وهما يرمقانهما .

الحركة الثانية التي بدرت من آسيا بعد تغطية ساقيها ، كانت أخفاء البيرة بين شقوق الصخر . وبحركة خاطفة تناول مهدي ذات المقبض الأسود ، فتحها ووضعها تحت متناول يده .

ثمانية شباب مفعمون بالحيوية والضوضاء والإيقاع المعادي ، فاجأهم البحر برجل وفتاة وحيدين تحت هذا العراء البحري .

عبر بريق لحظة ، تسلل الخوف إلى أعماقهما . ظهر في ارتعاشة اللقمة التي تمضغ ، ثم انتقل إلى الدم والبحر ، والموسيقا التي صمتت . كانت الصخور تنبض بأصدائهم ، ارتجاجات تخلخل التوازن الطبيعي . انعكس الوضع على وجه آسيا وهو يكتسي بهوتاً في لون الشمع .

لقد لمحته أخيراً . كان هناك على بعد عشرين خطوة ، مستنداً إلى جسد الصخرة ، يحدق بنظرات شريرة ، وهو يمضغ علقة بحركة سوقية مبتذلة .

فجأة نظر إلى صاحبه وقهقه ثم بصدق في البحر .  
كان هو والشمس يشعان غضباً .

في انهمار برقى ، ابتدأت خفقانات غريبة في صدر آسيا ومهدي .  
الخفقة الأولى فصلتهما .

كانت هناك روائح كريهة تفتت الذرات وتعكر الهواء .  
الخفقة الثانية صهرتهما .

إيماسات سريعة خاطفة كإيماسات هذه الأشعة فوق حقل الماء .  
في الشوارع كانت الجثث وعلى ضفاف دجلة . جثث مثقوبة بالرصاص في مؤخرة الجمجمة ومركز القلب .  
والأبواب تحطمها أقدام القتلة .  
الذعر والحسnar والقتل المجاني .

وهم الآن بين الفرار والمقاومة البائسة والاستسلام . وفي أعقاب فشل بؤرة الأهوار ، دوهم وكر مهدي جواد ورفيقيه . كانت المعركة خاطفة ، استشهد فيها الرفيقان وشق مهدي الحصار برشاشه . كان جريحاً في كتفه وفي اليوم الخامس اعتقل في بيت أخته . الآن . وحيد هو بين هذا القطيع من النئاب ، وبدل الرشاش هذه المدينة .

لو هوجمت تطعن واحداً أو اثنين ثم تسقط فوق الصخور .  
أوه . ياللتفاهة . دائمًا هذا الحصار اللعين ! ضغط قبضتيه على الصخر وكزَ أسنانه . كان رأسه يتتصعد وكأنه عالق في شق صخرة .  
أحس نبض الدم يتتسارع .

الخوف والصمت يتناميان . وبينهما فاصل .  
هذه الأصوات العكرة ، وذلك الرجل الأسود .  
عراء يعودان داخله غريبين .

- آسيا . ألا تعرفين القتال ؟ كان يحتمي بجسدها العملاق .

- بلـى . أعرف الجيدـو .

- أنا بالـمـدـيـةـ وأنـتـ بالـجـيـدـو .

- أـنـتـ خـائـفـ ؟

- ليس الخوف إنما الحصار !

كالبرق كانت تلمع الآن صورة مهيار الباھلي في أعماق الھور الغريني . خالد أھمد زکي یموت على ركبتيه وهو ینزف من كتفه الأيمن وعجزه الأیسر وأمامه سد من الجنود وفوهات البنادق المسدة . وحده كان الحي والألم يصعد من الجرح نامياً نحو أقصاه وهو یفكـرـ لو یستطـعـ أن یطالـ الدـکـتـرـیـوـفـ وـیرـکـزـهـ بـینـ الـیـدـیـنـ الـواـهـنـتـیـنـ .ـ لـوـ یـسـتـطـعـ الضـغـطـ عـلـیـ الزـنـادـ لـیـفـتـحـ فـجـةـ فـیـ السـدـ فـیـنـهـارـ بـابـ وـاسـعـ مـنـ هـؤـلـاءـ الـذـيـنـ یـحـجـبـونـ السـماءـ عـنـ باـصـرـتـهـ .ـ آـنـذاـكـ سـتـرـىـ روـحـهـ النـورـ وـھـيـ تـصـعـدـ بـارـتـیـاحـ طـائـرـ .ـ یـرـتـفـعـ وـیرـتـفـعـ نـحـوـ الـفـضـاءـ الـرـحـبـ .

جرى الحوار سرياً وغامضاً وسريالياً ، بين فاصل الخوف والصمت .

و عبرت لحظة غريبة . مشعة وضاربة .

وكان عيونهم وخطوطاتهم تتقدم .

كانوا الآن يعبرون ذهاباً وإياباً ، قربهما .

وما كان واضحًا ماذما يريدون من خلال هذه الحركات المهاجمة .  
تركزت عيناً مهدي جواد على المدينة . نصلها كان يلمع .

وفي اللحظة الضاربة شعر بأنه قادر على القتال بالمدينة كما قاتل  
برشاشة في شوارع الكاظمية .

- لن تخاذل أيها الشيوعي القديم . هجس الزمن القديم الذي انتقض  
الآن في رأسه كإعصار .

مسحت آسيا شعرها نصف المبتل ونفخت رأسها . وبحركة غريزية  
رفعت منديل البحر لتغطي بطنهما الأبيض العاري . كانت الأمواج عاتية ،  
وهي تصدم الصخور ناثرة الرذاذ المثير للأعصاب .

تلك القوة الغريبة التي ولدت في داخله ، حطمت كوة في الحصار  
الأبله .

سألها عن الخوف والرجلين اللذين يقتربان .

قالت بأن الأبيض صديق مجيد الذي التقته على شاطئ شطايبى .  
وسألها إن كانت تعتقد أن في الأمر شرّاً ، فردت بهدوء : لا أعتقد .  
كل ما في الأمر أنهم غير عرب ولا يرغبون أن يروا الجزائرية مع غريب .  
كانا يتحدثان همساً بالفرنسية .

- يمكن أن ننهض ونرحل .

وقال مهدي : لا . لا .

أمسك بمقبض المدينة ورفعها في مواجهة عينيه . كانت شفترتها  
تومض . بفتحة غرس النصل في تفاحة .  
- كن هادئاً .

بدت متقبضة . في عينيه رأت الغضب ، وعلى جبهته تشنج خطوط  
العصاب .

وفي كريات الدم ، تحت نبض القلب المتتسارع ، شعت شمس  
الصحراء القديمة .

وقالت آسيا : لتكن لامباليين . ظاهرهم شرس لكنهم جبناء من  
الداخل . أهداً قليلاً .

فتحت الراديو . ثم تناولت قطعة خيار وقضمتها .

اقرب الأبيض ووراءه الزنجي . كانا عاريين إلا من ثياب البحر . نزع مهدي المدية من التفاحة وراح ينكت حواف الصخرة . كان الآن يرسم في خياله الحركة الأولى للوثوب والمباغطة والضربات السريعة المركزة للعينين والأعضاء التناسلية ومراكيز القلب . وهو يقوم بحركات داخلية خاصة وتمرينات وهمية ، كان يشعر بقوى غريبة تتركز في العضلات والأصابع القابضة على السكين ووهج الدم الصاعد من الجبهة والصدغين والصدر .

على بعد مترين توقفا . الأبيض نحيل ، سنجابي الشعر منبسط الأسارير ، وإلى يساره الزنجي . هذا الآخر كان متحفز الوجه فوق صدر كثيف الشعر وقدمين كقدمي قرد .

فكَّر مهدي : لو خطأ أحدهما خطوة عليه أن يباغتهما معاً . حيا الأبيض آسيا بالفرنسية فردت باقتضاب .

ابتدأ حواراً عادياً حول الطقس والدراسة والعمل والأسرة . كانت آسيا تجيب ببرود وثقة .

تناول مهدي برقة وراح يقشرها بهدوء .

وانطلق الحوار إلى صيف الجزائر وشاطئ شطايبِيِّ الجميل ، وإن سُئل الأبيض عن مجید ردت آسيا بأنها لا تعرف عنه شيئاً منذ أكثر من عام . وسألتها إن كانا يتراسلط فأجابـتـ بأنـهاـ منهـكةـ بالـدـرـاسـةـ .

في انقطاعات الصمت ، كان يأتي صوت البحر وأصوات الآخرين ، وموحـاتـ التـوجـسـ التـيـ خـفتـ حدـتهاـ .

وتتابعـ الرجلـ مـداـخلـاتهـ عنـ الأـسـرـةـ وـيـزـيدـ ولـدـ الحاجـ وـتـجـارـتهـ الكـاسـدـةـ ، وـتـخـرـجـ مجـيدـ وـعـودـتـهـ هـذـاـ العـامـ مـنـ فـرـنـسـاـ إـلـىـ بـوـنـهـ .

وـهـوـ يـفـتـرـ اـفـتـرـارـةـ خـرقـاءـ سـأـلـهـاـ هـمـسـاـ عـنـ مـهـديـ فـقـالتـ بـأـنـهـ صـدـيقـ الأـسـرـةـ وـمـدـرـسـهـاـ .

- عربي؟ سـأـلـ

وقـالـتـ :ـ بـلـىـ .ـ عـرـبـيـ .

- مصرـيـ؟

- لاـ .ـ عـرـاقـيـ .

- خـمـنـتـهـ مـصـرـيـ .ـ الـعـرـاقـيـونـ كـيـفـنـاـ .ـ دـمـهـمـ سـخـونـ .ـ نـاسـ مـلاـحـ .

ودخلوا في ثرثرة حول الأعراب وتمايزات حياتهم اليومية وعاداتهم . العرب الذين جاؤوا الجزائر طلباً للدرارهم والسيارات النساء . المصريون البخلاء الذين يعشون على الفول . يجمعون الدينار فوق الدينار ليشتروا السيارات ، والعراقيون والسوريون الذين يشبهون الجزائريين في حب النساء والخمر والغضب وتبذيد الأموال . بغة قال الأسود بفظاظة : كلهم عرب . نحن البربر لا دخل لنا بهؤلاء . واعتراضه الأبيض بالفرنسية : أغلق فمك . أي أحمق ! لكن الأسود استطرد : العرب سرقونا . رزقنا طاح لغيرنا . قال ذلك بسخرية لئيمة ثم بصدق باتجاه البحر .

من آسيا ندت عبارة : اسمع . كن مهذباً ولا تتدخل في شؤون الآخرين . فهمت . كل انسان حر بروحه ، أوه ، ياللخراء ! وتحفظت محظمة عنق زجاجة بيرة . كانت تمسك وسط الزجاجة وتدقها بتهديد مباشر .

بحركة لاسعورية نفض مهدي جواد رأسه إلى أعلى . حطَّ بصره على جسده الأسود . تذكر أنه كان عليه أن يطعنه يوم تبعهما في شارع عبَّان رمضان . وقال لنفسه الخائفة أشياء غامضة حول الرجلة والجبن والموت . وهو ينهض والمدية تلمع ، تراقصت على شاشة العين الحمراء نافورات من الدم . ورأى الجسد نازفاً وملطخاً وممدداً فوق الصخور الرمادية .

صرخت آسيا ضارعة : مهدي . مهدي . . .

بينهما وقف صاحب مجيد : ياخويا يرحم والديك . . . بالعقل . نحن أهل . هذا أبله . مجنون !

- بباباك . ولد القحبة . صرخ مهدي والمدية في يده .

اندفعت آسيا تصدِّه بينما انعطف الأبيض يدفع الزنجي بعيداً وهو يبربر هائجاً كثور .

تخلخل التناسق الطبيعي . البحر والضياء والكتل الصخرية وجمال آسيا ونبض الدم . كان العالم يرتجف ويتدخل ثم ينتشر تحت إيقاع البصر المهزوز والجسد الذي فقد توازنه .

داخل هذا الصخب ، بغة ظهرت ثلاث فتيات على التلال المجاورة . كنَّ في ثياب البحر ، وجاءت أصوات الفتية من الماء : هاي . هاي . ثم رفعت الأذرع باتجاههن . بأصوات أعلى وهتافات صرخن وهن يلوُّحن

بأذرعهن ثم ابتدأن الهبوط باتجاه نئاب البحر . عبرن الصخور قرب آسيا ومهدى والأبيض والزنجي غير مباليات ولا منتبهات لجو المعركة ، وباندفاعة فقمات البحر وتبين عن حافة الصخور نحو لجح الماء . إذ رأهن الزنجي اندفع وراءهن صارخاً : هاو . هاو ، يا الحلوفات . وعلاه . وعلاه حتى ذركه يا القحبات . وهوى بينهن .

حدث الأمر كمشهد مسرحي لامعقول خارج توقعات العقل والمنطق .

على الصخرة المستدقة التي وثبت عنها الفتيا ظهر رجلان أجنبيان يحملان سلاً وشصوصاً ومعهما امرأة وطفلان . وابتدأ عالم البحر يستعيد توازنه الطبيعي في أعقاب اهتياج كان ينذر بكارثة .

استند مهدى إلى مسننات الصخرة المنحنية . وضع ظاهر يده اليسرى على صدغه الملتهب فرأى في وسط السماء زهرة . طرق الخفافن الداخلي يهبط متربضاً نحو القاع . انتبه إلى المدينة بين أصابعه المشدودة . تراخت الأصابع فسقطت المدينة فوق الصخر برنين مصمت : أوه . ياللتفاهة ! مازا كان يمكن أن يحدث !

وغررت موجة باردة . هل كان ذلك بسبب الشمس ؟ أم أنها الأحزان القديمة والعزلة ووحدة القلب المنقبض ! المرارة والجتون الدوري للغير وهذا السطوة الوحشية للجسد في وهذه العقل الغافي ؟ كم يبدو الأمر طفولياً ، ضالعاً في بدايته وانفصامه : يالبلاد المسكونة بالجتون !

أحس بأصابع تمسمح شعره . استيقظ . قالت المرأة : مازا ؟

- لاشيء .

- نرحل ؟

- بلـى . هيـا .

ارتديا ثيابهما . لمـلـماـ المـائـدةـ وـغـادـراـ .

من الوهدة الصخرية صعدا إلى التلال المعشبة . سارا بين الأجمات صامتين . بعد أن نأيا عن اليأس والشواطئ الصخرية ، هبطا على الحشائش .

- متعبة . دعـناـ نـسـتـرـحـ هـنـاـ قـلـيلـاـ .

ماكان قادرـاـ عـلـىـ الـكـلـامـ . فيـ الـحـلـقـ صـخـرـةـ تـجـثـمـ عـلـىـ الصـدـرـ .

تمددت آسيا على العشب واستلقي جوارها بين الأجم المشتعل بالزهور  
الصفراء والبنفسجية .

في عمق السماء كان يراقب الضياء الساطع المنسكب على العالم ،  
وفي ذلك الفراغ الأزرق راح شريط الحدث الغريب يستعاد ثم يُمحى . في  
عمق الضياء شاهد حداة بحرية سوداء تدور كطائرة ورق . اقتربت من  
الصخور وسطح البحر وفجأة ضمت جناحيها وانقضت مخترقة سطوح  
الماء ثم شالت وفي منقارها سمكة .

تحت ارتجاعات الصور الكابوسية للحادث ، سأله آسيا إن كان  
مايزال مغبوناً فلم يجب . كان يراقب صقر البحر وهو ينقل أشلاء السمكة  
بين مخالبه وينهشها بمنقاره . جست جبهته ماسحة الصدغ ببرؤوس  
أناملها . كانت الحداة تختال فوق سهب البحر منهكمة في تفتت  
فريستها ، وإذا عبر ظلها الأسود فوقهما سدد بإيهامه والسبابة إلى  
السماء وصرخ : طاق . طاق .

ارتبكت آسيا : أنت محموم يا عزيزي ؟

- لا . لا .

- بلى . جبيتك ملتهب .

وقال وهو يغوص في عمق السماء : إنني حزين ومع ذلك فأنا  
أعبدك أكثر من أي وقت مضى .

- لماذا تقول هذا يا صغيري ؟

- انظري إلى السماء كم هي شاحبة وسوداء !

كان يرى السماء مغطاة بأشباح ملايين الطيور السود .

- أوه . ما الذي جرى ؟

- ألا ترين الأشباح ؟

وطوّقته : أنت تهذى . دعك منهم .

- لا . بل أرى ما وراء الأفق .

- وماذا وراء الأفق ؟

- أشباح . أشباح الطيور السود .

- واه . يا إلهي !

وهزته : ما بك ؟ قل . هيا . مازا ؟

نهضت ورفعت رأسه عن العشب . فتواجها .

عيناه مبتلتان .

وصرخت : لماذا ؟ لماذا ؟

بحنان أم طوقته ضامة رأسه إلى صدرها . كان يشدق ويهدى عن الطيور والخوف والموت ، وهو يرتعد على صدرها .

- أنت قوي وشجاع يا حبيبي .

- لا . جبان . أنا جبان ومهزوم وساقط . أنت امرأة جميلة وعظيمة وأنا لا أستحقك .

اصطدم وجهاهما داخل انغماس منتخب وضارع .

- لا تقل هذا . لا تقل . أنت شجاعتي وعظمتي وحياتي . بدونك أنا لا شيء . أوه . يا للوحوش ! أمر تافه كهذا يحرك ؟

- بلـى . بلـى . شيء صغير لكنه جارح . كنت مطوقاً وراغباً أن أدفع حتى الموت ، لقد شعرت بالمهانة وأنت منعتني . لماذا لم تدعيني أكسر مهانتي ؟

كان جسده يتقصّف تحت نوبات من الصقيع والحمى . أحس أنه عار فوق قمة جبل ثلجي والريح تخترق عظامه .

ورأى آسيا تنـأى وهو يزحف نحوها فوق بياض الصقيع وهي تبتعد متلاشية داخل الضباب والبرودة .

كانوا يأخذونها منه .

- لماذا تبتعدين ؟ لماذا الأشياء الجميلة ترحل ولا يكون سوى هذا القبح !

- معك . معك . حتى الموت . أنت كنزي وضيائـي !

كالطفل انضم بين أحضانها . قريباً من رائحتها ونبضها وتنفسها ، والحرارة التي تتدفق من جسدها فوق العشب .

- 15 -

. الصيف .

بوـنه . الشوارع وـمنـازـلـ القرميد والـشـجـرـ والـسيـارـاتـ الـهـادـرـةـ وـمقـاهـيـ الـأـرـصـفـةـ ،ـ ثـمـ الضـوـضـاءـ .

زـمـنـ الشـمـسـ الصـاحـبـ ،ـ وـهـذـاـ الشـجـبـىـ .

والـشـجـوـ فيـ بـهـوـتـ جـدـرـانـ المـدـيـنـةـ ،ـ وـالـحـرـكـةـ ،ـ وـمـاـ سـيـفـارـ وـيـترـكـ

من علامات الأقدام والعيون والنبضات الخافقة في مسامات المدينة الباقيّة داخل الذين سيهاجرون قريباً إلى أوطانهم الأولى والذين سيظلون هنا وحيدين في عراءات المدينة المستوحشة تحت القيظ والممل والفقدان .

الكل سيسافر . هاهم يندفعون نحو المصارف وشركات الطيران ليهياوا البطاقات ، في ساحة المدينة يوشوشن حول صفاقات السوق السوداء واحتياز العملة الصعبة عن طريق المهربين والمضاربين .

وفي غياب آسيا تلوح هذه البوّنة صحراء من الرمل والهجير والانقباضات اللعينة والخرايب .

لقد سافرت بالأمس لتحضر أوراق الجامعة في الجزائر العاصمة .

كم تبدو المدينة كئيبة وخاوية وبلا معنى في حيادها .

يجلس مهدي جواد في مقهى الأوريان ، في الزاوية المطلة على الشارع . يراقب حركة البشر وعبور السيارات وذؤابات الشجر . سيلان مجاني ، بطيء ، سوداوي ، قابض للنفس .

في غياب هذه المرأة يكتشف مدى غربته وحياده عن تلك المدينة . عبر لحظة انبعثت من الشارع ، أو نفذت من صوت ، أو من ورقة من أوارق الدردار المرئية من الزجاج ، بوغت بانفصال غريب عن المدينة وعن كل ما يجري فوق سطحها من حركات وإيقاعات وأصوات هو الآن بمنأى عنها .

ما كان يوماً هنا فيما مضى . وهذا الذي يراه الآن ويسمعه ويطوقه ، يبدو خارجاً و بعيداً ومفصولاً . كان على كرسي المقهى متضاماً كتوبيخ الزهرة الوحشية . ليس هنا ولا في هذا الآن . وما كان معنياً بشيء خارج الجسد والكرسي ووحدة الذئب التي اقتضته في غفلة غياب آسيا . تلك المرأة بدت في هذه الوحشة اللئيمة حبله السري يصله بالأشياء والمدينة والعالم .

ضوء عتمة الأيام للقلب المظلم والناضب .

كان الشجي يتتساعد ضباباً نحو مضائق الحلق . وزادته الضوضاء والجلبة ضغطاً . تحت هذه الأوجاع والوخز الروحي انقضعت في الضفة الأخرى ، وراء ستار الزجاج ، مدينة كريهة ، رتبية ، تصدأت تحت حوافر الأيام ، وحوافر البشر التافهين ، والأصوات والبذاءات ، والحيض والبول والجنس المنوي وحوانيت الثياب والمقاهي وسيارات الشرطة الزرقاء وتلهيلات صلوّات الجمعة والأسماء الحسني والعاهرات الرخيصات

والشهداء المنسيين والمؤامرات الدنيئة والصفقات والقتل المستتر .  
سفينة قديمة راسية من العصر الفينيقي أكلها حث أمواج البحر  
والطحالب والرياح . هنا أبداً لاتريم ولا تبحر ولا تتجدد .  
كان الآن عائماً ، فائضاً عن الحاجة وعن الزمن .

آه . أين الهواء ؟ من أين جاء هذا الاختناق ! كيف انقلبت مدينة الحب والبحر إلى جثة عالقة في سقف الحنجرة ! وجاءته رغبة الجري . ركضاً . ركضاً . مخترقاً الشوارع والجلبة ونفسه والبشر والحجارة باتجاه روابي البحر . بعيداً عن هذه المدينة الملعونة ، الخاوية . إلا من روائح البوليع وصديد القضبان والفروج الملتهبة ، وهذه الأصوات الفاشية والهلاك اليومي . وما كان يائساً في تلك اللحظة بقدر ما كان مروراً . مرور لأنه عاجز عن توجيه الضربة العظمى التي تعيد التوازن لهذه الخلية الضائعة بين الله والشهوة وبين الموت والسطوة .

علا صوت مغن ، صافياً ، رناناً كصخور الجبل : ارجعوا يا هاجرين الدار .

دندن مهدی من المطبخ : آه . آه . یاودیع . یا إله الحزن .

هرهـر الـبـاهـلـيـ: رـنـدـحـ عـيـنـيـ . رـنـدـحـ . عـماـ قـرـيبـ سـتـقـذـفـ كـقـمـلـةـ  
خـارـجـ هـذـهـ الـبـوـنـهـ غـيرـ مـأـسـوـفـ عـلـىـ رـحـيـلـكـ .

- القومية العربية حنونة في قصر النهاية .

- هناك تجerd من أقوى موهبة تتميز بها .

- أي موهبة مسيو عقل؟

ـ موهبة القصيب وبكارة الإست .

- ها . ها . لا عيني . لا . كلش ولا هذا . نتعرف ثم نوقع صك  
براءة ونخلّى عن الشيوعية . أما الخصي واللواط فلا . آني حريص جداً  
على مداخل ومخارج الشرف العربي .

نخر مهيار : لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى . . .

وأتم مهدي : ما لم يرافق على طيوزهم الدم .

وهو يأتي بالشاي قال : شف سيد مهيار . بالعربي المشرح أنا  
انسان تعبان . يائس ! قل ذلك . ساقط على دروب النضال . قل أكثر .  
غاوي زواج واستقرار وغربة . ممکن . أعراض بأسيا خسارات  
واندحارات . ليس الأمر بعيداً عن الصواب . لكنني لن ألدغ من تلك

الجحور اللعينة مرة أخرى . السم دخل في الدم ويكفي استشهاداً وتضحيه عن الآخرين . اسمع . هم يريدون أبداً ضحية ليتاجروا بها . وأنت أعرف الناس بهم كيف يبحثون عن سيزيف أو بروميثيوس ليكون رمزاً أو قميص عثمان يمسكون به ويرفعونه كالراية أمام زحفهم الذي لا يزحف أبداً . أما هم فلا يفعلون شيئاً سوى الاتهامات .

اكتأب مهيار الباهلي وهو يرشف الشاي . كان يفكر الآن بهذا السقوط العضوي واستعباد الجسد . بهذا الاستبدال الآخر للمبادئ الكبرى بعضو امرأة .

وقال مهدي جواد بأن المرأة ليست شيئاً هامشياً وفائضاً عن الحاجة كما توحى طهرانية العقيدة ، وأنه سيبحث مع آسيا موضوع الزواج بعد عودتها من العاصمة .

- أنت ضد هذا وترى فيه هزيمة . أعرف ذلك !

أشعل الباهلي سيجارته الثالثة . أطفأ عود الثقب بحركة مسرحية ، ثم نفخ : لماذا تؤولني خطأ . مهدي ؟

- اكتناه شخصي مستنبط من ماهية العقل الممحض . ربما !

- تصورات . تصورات . يا للأحادية العربية !

واستطرد : ربما كنت مخطئاً . إنني أفهم حالتك وأسوغها . مرارات وخيبات وآفاق معتمدة على مدى عمر الإنسان . لكن الحياة بما هي نبض عضوي تستحق أن تعيش وأنا لست ضد هذا . قل لي : لماذا يتعنك في رأسك اختلاطات وخيوط توحى لك أنني ضد علاقتكم ؟

حركة مهيار ذهاباً وإياباً في الغرفة ثم من الغرفة إلى الشرفة بدت كأنها تحقق له نوعاً من التوازن النفسي . أبداً كان يوحى للآخرين أنه كتلة متراصة من الاسمنت المسلح بالوعي والارادة . لقد رسم عبر حياته التي تدرّب عليها حتى فقدت عفوية طفولتها ، أن يكون رجل الملمات إذ انتدب نفسه للتنظيم والزعامة عندما تأتي اللحظة الحاسمة . لحظة بدء صناعة التاريخ من جديد .

ولأمر ما ، خارج عن طواعية مهيار ورغبته واندفاعه وبراءته وصدقه اللامحدود ونبله ، كان التاريخ ينأى عن متناول يديه ويتشكل كالأباريق على أيدي خزافين آخرين يصنعون التاريخ بشكل مغلوط ومشوه يدعوه للرثاء . وفي غضون جبهته وخطوطها الخمسة ، كان يتجلّى الألم والغضب معاً . هناك كنت تقرأ أن الأشياء ليست هي الأشياء التي

يبيغيها ، وأن هذه التغصنات والتموجات الصدغية تشكلت من هذه الخيانة الواقعية للتاريخ الملعون الذي صدم تهيؤات النفس بما لم تكن تتوقع . غير أن تمایزه عن مهدي والكثيرين كان يعلن عن ذاته بالماكابرة وبهذا الرهان البروميثيوسي أو السизيفي للحشا المنهوش والصخرة التي يعاند ليرفعها كلما هوت نحو السفح .

وفي تلك الليلة لم يتشارجا . بِمُوَدَّةٍ كَانَ الْعَتَابُ حَزِينًا . أَحَدُهُمَا قَالَ شَيْئًا عَنِ الْمَرَأَةِ وَالْآخَرُ قَالَ شَيْئًا عَنِ نَصْبِ الْتَّارِيخِ .

رجل كان يتحدث عن الغربة الأعمق والعزلة السرية والخصام مع الحياة في كون مسدود الخلايا ، مسمم ، بينما الآخر كان يتحدث عن الصرخة المدمرة والدامية والخيانة الجماعية للكتلة وهي تتفتت في لحظة الاحتدام .

كل منها كان مدركًا أنه مكسور الجناح تحت الريح الزعزع . واحد يهرب إلى أعماق حرارة فخذلي امرأة ، وآخر يهرب إلى الخجان الوهمية والأهوار السحيقة التي رؤيت ذات ليلة حلمًا أبيض في المستنقعات السومرية الوضاءة ، الفسحة ، الأسطورية ، والتي ينام فيها البردي والوحشة والبراءة وأصوات الليل وابتهالات الطفولة ، وصرخة الزنج .

وهما ، التاعسان ، لكن أحداً منها لا يريد أن يعترف بشقائه وبؤس العقل والعضوية . لا يريد أن يرى الانهيار كيلا تسقط الهالة الفروسية للتاريخ . التاريخ الشخصي بما هو اقتحام ذكري ، غاصب للأنثى ، والتاريخ السياسي بما هو اغتصاب لمنبر الخطابة الأنثوية ، والولوج فيه إلى رحم السلطة .

وهما ، النازعان إلى أزمنة أخرى وبلاد جديدة ، ارتسمت على الخرائط الدmagية في لحظات المراة والأشواق الحارة ، العاجزان في هذه اللحظة التي تهرب منها ، كانوا يشبهان خلدان الحقول التي تراكم كتل ترابها فوق سطح الأرض وهي مستترة في أعماق دهاليزها الرطبة . وفي العتم المطلق لمجرات الأرض وجيو لو جيتها الطبقية كانت تتراءى الهواجس والمسرات وحرروب التحرير الحمراء وساحات الإعدام للأعداء الطبيقيين والجنرالات ورجال الدين والتجار والمخبرين والشرطة والمتقفيين الأنذال . جميع هؤلاء كانوا يشكلون كومات التراب الفائضة عن حاجة الأرض والملقاء على السطح .

كانا اثنين ، وكانا معهما ، كتضامن معنوي ، فلّة بو عنّاب وأسيا

الأخضر ، وبدت ساحة المدينة في ذلك الصيف العنابي شبيهة بخلية نحل مهتاجة ، ولأن قضية اشتباك العراقيين انتشرت في أواسط المدينة الصغيرة ، فقد بدا كأن العنابيين يتوقعون صداماً أعنف بالمدى بين العرب في ساحة البلدة .

كالنار في الهشيم انتشرت الأخبار والشائعات غذاها المخبرون ، حول معركة قادمة بين الشيوعيين والقوميين ، وزاد في القناعة ذلك الانقسام الواضح بين الفريقين في الساحة والمقهى ، والوشوشرات واحتدام الحوارات والأصوات في قهوة الأوريان والمغرب وأمام شركات الطيران والبريد .

وفي الوقت الذي كان الجو فيه ينذر بوقوع صدام ، كانت فلة تظهر مع مهيار عليناً أمام الآخرين في غياب مهدي ، وإلى جانب حبها المشوب لهذا الرجل الغريب والمفعم بالنبل ، كانت تنزع إلى حمايته من أي اعتداء يقع عليه . عندما كانت تسأله وهي تسير قربه تحت شجر الساحة إن كان خائفاً ، كان يضحك بجلجلة . كانت تشجعه على نحو أمومي وهي تطوفه بتحدد سافر : نقولك . أنا الآن معك وكأنني في الجبل . عند الحاجة أنا فدائمة . أنا وجميلة بوعزة زر عنا القنابل في البارات كما قلت لك . لاتخاف من هؤلاء الحلاليف . ويقول مبتسمًا بأنه ليس خائفاً لكنه مرور .

وهو يครع حجارة الساحة ويرى ذؤابات الشجر والندى على الأوراق يحسّ بتماس جسد فلة . يتذكر بلاده وأطفاله فيهفو إلى العودة . لقد شرخته المدينة وتبددت الأحلام ، ومن كل الرؤى والأخيلة عن أوهام الثورة ذوهم بهذه المرارة والرماد .

كان صوت الضوضاء يطفى على صوت البحر ، وفي الفضاء كانت الخطاطيف تتموج كأسراب طائرات من ورق بينما أصوات الآذان تدوي من المآذن : حي على الصلاة .

بغتة يخترق فضاء المدينة صفير حزين لباخرة وشيكة الاقلاع .

\* \* \*

على السرير في مواجهة جدار أزرق كان مهدي جواد مستقياً يقرأ كتاب «المسيح يصلب من جديد» ، منتسباً بعالم كازنتراتكي ورائحة الأرض اليونانية التي تعيد إلى روحه رائحة الشرق وما سيه المستعادة أبداً عبر العصور . رائحة الزمن الذي يدور حول محور فلا يتجدد إلا وهو يستعاد ويتأصل ويذوم ديمومة الآلهة .

ريح رخاء مضمضة بالشمس اللزجة . الوقت أصيل وبونه مهجورة في الخارج . من النافذة تتمايل أشجار الدردار تحت بهوت رمادي غبوق حار .

لقد تأخرت عودة آسيا .

عندما طرق الباب على ذلك النحو الشبيه بالطلاقات ، تذكر طرقات الحاج محمد في البيت القديم . كان الباب يتزعزع تحت القبضات : افتح ، افتح .

وتحت الطرقات هدرت أصوات وجبلة ، رجت العمارة والشارع . نهض مهلوعاً وفتح الباب . فاحاءه رجل أصلع ، ضخم ، جسده كأجسام المصارعين وجهه ينضح غضباً .

كان مهدي جواد مايزال على وصيـد العـتبـة : نـعم ! قـالـهـا رـاعـشاً !  
وـين هـنـ القـحـابـ ؟

اندفع الأصلع داخل الغرفة كثور هائج .

في الممر كان هناك رجل آخر يراقب درج البناء .

حتى استوعبت المباغة ، كان عليه أن يخفف من رعشات الهلع التي صدمت القلب . طفق الأصلع السبارطي يدور في الغرفة وينتقل نحو المطبخ والحمام باحثاً عن النساء العاهرات اللواتي يخبنهن مهدي جواد في ذلك الأصيل الرومانسي الهادئ داخل ثنايا البيت الصغير الذي لا تتجاوز مساحته خمسة عشر متراً مربعاً .

مهدي جواد مايزال مبهوتاً أمام عتبة البيت ، شابكاً يديه وراء ظهره يوزع نظره بين حارس الممر الخارجي ، وبين الأصلع الأكرش وهو يقلب البيت ناثراً الفراش والكتب والدفاتر ، زاحفاً تحت السرير ، منحنياً تحت طاولة الطعام والكتابة بحثاً عن المؤمسات المختبئات هناك .

مضت عشر دقائق على المسرحية الصاخبة ، خلالها كان جمهور الشارع والمقهى القائم في الطابق الأول ، يتربّق أمام البناء مفاجأة فضيحة الشرقيين الذين قدموا من أقصاصي بلادهم لهتك الأعراض وتفریغ الشهوة بدلاً عن تربية الأجيال الصاعدة .

بعد هدوء رعشات الهلع ، واستيعاب المسـرحـيةـ الـهـزلـيةـ ، والـادرـاكـ الحـدـسيـ السـريـعـ للـحادـثـةـ ، ومـصادـفةـ غـيـابـ آـسـياـ ، قـرـرـ مـهـديـ جـوـادـ ، باستجابةـ خـاطـفـةـ ، أـنـ يـكـونـ لـامـبـالـيـاـ وـسـاخـرـاـ ، جـلـسـ عـلـىـ العـتبـةـ ومـدـ

رجلية على مداهها . كان يري إلى مفتش البوليس بعينين هازئتين وهو يدور كالثور الأهوج مصطنعا دوراً بائساً في مسرحية هزلية مفرقة في الانحطاط .

عندما سأله مهدي إن كان لم يتعب من هذا الدوران الأبله ، ارتد المفتش صارخاً بعربة محطمة فحواها أن العرب جاؤوا البلاد للعمل لا للتحبيب . ضحك العربي القحب من رجل البوليس ومخاطبه بالفصحي التي لا يفهم بها : الحب مسراً للجسد والنفس وبه تشف الروح ويتفتح الجسد .

وقال رجل البوليس بعصبية وفرنسية معربة إيلَّا فو احترام القانون . ها ؟ كيفاش هكذا الليبرتي مع الطفال وانتو لستم في بلادكم ؟ هيا . هيا «دي موا» اسلام ولا روم هادي البلاد . هيا قل ! وعلاه «ترافيبي» هكذا وعلاه ! وكما كان المفتش يخلط أثاث البيت ويبعثره في كل اتجاه هكذا كان يخلط الجزائرية بالفرنسية وهو يتحدث . شعر مهدي جواد ، في ضباب اختلاط وإبهام اللغة ، أن بإمكانه الاستمرار في لا مبالاته وسخريته . ماعاد خائفاً من هذا الخنزير البليد ، فواصل سخريته داخل الدهليز المعتم للغة ، وقال مستفصحاً ، معمياً كلامه الساخر بأن الدخول بلا إذن إلى بيوت المسلمين رجس من عمل الشيطان يعاقب عليه المقتحم بالقذف إلى بوابات جهنم . وقد نهى رسول الله عن ذلك قائلاً : لا تدخلوا المنازل إن لم يؤذن لكم . وأنت اقتحمت بيت مسلم بلا إذن ولذا حقت عليك لعنة الله واستحققت جهنم وساعات مصيرأ . كان مهدي جواد يتحدث بسرعة فائقة وصوت واثق ، مدركاً أن هذا الأحمق لا يفقه مما يقول حرفاً واحداً .

وصرخ البوليسي الذي هشم البيت وقلب عاليه سافله : يزي . يزي . كيفاش . واس تقول ! هاي البلاد تاعنا . فهمت ! حررناها من الكولون . العرب عملوها بورديل يقبحوا فيها . سيارات . بوليتيكا . فوا . واس دخلك بالبوليتيكا يادين الرب هاه . دي موا !

هي البولتيك اذن وليس القحاب !

قال مهدي لنفسه ساخراً .

كانت الدقائق تتك تحت ايقاع البلاهات ومظلة هذه الميلودراما التي تمثلها شرطة المدينة ، في الحي الشعبي المجاور لمحطة سكة الحديد . وللخروج من الفشل ومهزلة التفتيش ، قرر رجل البوليس وهو يرى التمدد الأحمق للرجل الغريب على الأرض ، ويستمع إلى لغته الغريبة ، أنْ

يصطحبه إلى مركز البوليس .

- هيا . هيا . نوض . يرحم والديك . يزيينا تمنييك . نوض . نوض .  
هيا .

أمسك مهدي جواد من ذراعه وأنهضه فنهض . صاح بالحارس  
وطلب منه أن يقذفه إلى السيارة .

في الطريق إلى السيارة الزرقاء ذات الشبك المعدني الأسود  
المفتول : لاحظ الجمهور المحتشد رجلاً نحيلًا ، صامتاً ، وحيداً ، يقاد  
من إبطه ويدفع به إلى مؤخرة سيارة الشرطة .

لم يكن هناك مايدعو إلى الدهشة أو الغرابة سوى أن العاهرات  
المنتظرات لم يصعدن إلى السيارة . بدا الحدث عادياً ومتلوفاً في حياة  
المدينة اليومية ، وفي مجرى هذا المألف ، اعتبر الأمر عرضياً يدخل في  
إطار الخرق اليومي للقوانين السائدة .

داخل السيارة لم يكن مهدي جواد مرتبكاً أو خائفاً . موجة مرارة  
كانت في الحلق غطّاها زيد من العزلة والابتدا .

لقد أتوا أخيراً

على المقعد الخلفي كان هناك رجلان يرتديان الثياب الرسمية  
الزرقاء ومن إزاريهما تدلّى مسدسان .

ولأمر لم يدرك كنهه ، كان الشرطيان جهمين ، غارقين في  
الصمت . من خلال النافذة الشبكية كانت ترى بونه : جدران منازلها  
ومقاهيها وشجرها وعبر حافظ للحمامات والبشر وساحة المدينة  
وبواخر البحر الراسية . كاللومض تعبّر تحت باصرتيه .

المدينة التي دخلت فيما مضى نبض الدم من خلال آسيا ، والمدينة  
التي تجرح الآن كالمدينة .

من خلال الشاشة المعدنية تراهم المرأة البعيدة . المرأة التي  
أشرقت يوماً في ظلام حياته . الآن تتأى .

في المركز الرئيسي لبوليس المدينة . مثل الضابط دوراً بعيداً عن  
الفاظطة . بعد الترحيب وتقديم السجائر ، انطلقت الأسئلة حول الحياة  
الشخصية ، والتدريس ، والمصاعب ، والغربة عن البلاد والأهل .

المقدمات بدت مريحة ، استسلم مهدي جواد لها واسترخى في  
طمأنينتها . وعندما تحدث للمحقق عن اقتحام المنزل على ذلك النحو

الفظ ، استنكر الضابط الأمر ونعت المخبرين بالجهل وقلة الذوق ، واعتذر عنهم . ثم أوضح بأن العمارة مشبوهة أخلاقياً واقتحام داره أتى عرضاً دونما قصد . حتى استواعبت مقدمة المسرحية واندمج مهدي جواد في الدور ، كان الزمن قد تقدم أكثر مما ينبغي في عملية التخدير . بدا الأمر شيئاً باسترخاء على سرير في غرفة هادئة بعيدة عن الضوضاء .

داخل الهدوء المتتسق مع جو غرفة الاستجواب ، راح الحديث يجري حول أمور أخرى ، لاصلة لها بالمقدمة المسرحية والأحزان الخاصة ومتابعة العرب ، والأخلاق المنتهكة .

كان الرجلان ، دونما صراخ ، يستوعبان المسألة من خلال الأسئلة والأجوبة ، كما كانت الإشارات والرموز واضحة بما فيه الكفاية . وفي ربع الساعة الأخير ، أفهم الرجل المستجوب أنه ارتكب خطأً يصعب غفرانه والسماح به في بلاد أخطأها بلاد هو حُر فيها بالشكل الذي استووهنه .

عندما خرج من مركز البوليس ، واستقبل الشارع ، تنفس الهواء بقوّة . هواء المدينة المسائي في هذا الصيف الأخير .

كان المساء عذباً وأسيئاً كما لم يكن فيما مضى . بدت الشوارع شبه خاوية . ومن خلال أغصان شجر الدردار في ساحة المدينة لمح نجمة المساء في سماء صحو . نجمة وحيدة تشع .

في طريقه إلى البيت أحسّ أنه متعب وراغب في النوم . وإذا داهنته ذكري المرأة البعيدة ، وغيابها ، شعر بالصداع ، والاسترخاء ، وفراغ المفاصل .

كان وحيداً الآن ، وعارياً ، يعوم على سطح مدينة حتى شجرها وحجارتها كانت أكثر رسوحاً منه . المدينة التي تفرّ منه ويرمى خارجها نهاية فائضة عن الحاجة .

ككيس محسو بالقش سقط على السرير المبعثر بكمال ثيابه ، ونام . فوق حقل نومه تراءت صور وواقع وأطياف غريبة في أماكن يعرفها ولا يعرفها . سواق صغيرة ، ضحلة الماء وأطفال عرايا تحت غروب الشمس ينغمرون في الماء ويحاولون صيد أسماك برأفة براحة اليد . إذ يصيد أحدهم سمكة زرقاء فيرفعها من ذيلها ويصرخ ليهرب الأطفال ويحاولون اقتناصها وهي مدلاة بين أصابعه ، يهرب وهو يخوض في الساقية نحو الأرضي المعشبة .

تأتي طيور تشبه اللقالق حيناً وحينماً البط . ممدودة في أفق بمنسجي . رجل يرتدي سترة عسكرية ومعه بندقية صيد يقف على الصفا . يطلق النار فتخرج الطلقات سريعة ثاقبة ، تتهاوى طيور كالحمام وتختلنج فوق المياه . الرجل يطلق والحمامات تتهاوى وهو لا يهرب إليها . ليلاً يدخل الرجل إلى بيت طيني فيه امرأة وصبيان صغار يندفعان إليه : بابا . بابا . لماذا غبت طويلاً ؟ يخرج الرجل من حقيبة شبكية طائراً ملوناً يشبه الصقر أحد جوانحه مكتوف . يفلته على أرض البيت . الطائر الجميل المكتوف يعرج في مشيته لكن عينيه الخضراوين ورأسه المرفوع يشعان زهواً واغتراباً وحزناً . أحد الصبية يحاول الامساك به فينقره بمقاره الحاد ويصرخ الطفل .

كانت الصور تمر خاطفة والأحداث لا متراقبة . شيء شبيه بالبرق يتسرع ويومض في السماء الطيفية الملونة حيناً والباهنة أحياناً . داخل تلك المدارات والأمواج التي تتراءى عليها الكائنات . والأنهار والطيور والشجر ، كان يرى انشطاً آخر يشبه روحه أو جسده ، ينفصل عنه ويرحل مع هذه الأطیاف مندمجاً فيها تارة ومفصولاً عنها في أحياناً ، مأخوذاً بقوانينها السرية وبهذا الرحيل السحري لامرأة أنته على شكل نورس مائي ، حطّت على صخرة ثم بدأت تنزع ريشها فإذا هي من حوريات الماء ، تقدمت منه وقالت بأنها آتية من الجزر السعيدة لترحل معه . ورغم أن يطير معها لكنه أحس أنه غير قادر على الطيران فتعثر وانكب على وجهه . وقالت المرأة - الطائر لماذا تبكي . سأخذك إلى بلاد الطيور ، لكن الانهمارات التي تدفقت من أفق لامرئي على شكل جنائز مرفوعة أو سابحة في الفضاء ، والتي ما لبثت أن تحولت إلى زوارق وسيارات زرقاء مليئة بالقتلى والأصوات ، قطعت طيوف الرحيل السعيد والمرأة التي غابت .

لم يغف طويلاً . الكوابيس . الحزن الذي سدَّ الأفق وهذه المرارة التي صعدت كالجثة إلى حافة الحلق .

اندفع تحت العرق والفزع والاشمئزاز والكراهية إلى الحمام . حاول أن يتقى فاستعصى عليه . فتح الصنبور واضعاً رأسه تحت المياه المتتدفة . لو يتحول هذا الصنبور إلى بحر . رغبة مجنونة ولدت تحت تدفق المياه . أن يهوي عميقاً في الطبقات السفلية . بعيداً . بعيداً . خارج هذه الأرض . موغلًا في النسيج الأخضر الجميل والقاتل . بعيداً أيضاً نحو الأعماق وغابات المرجان ومراعي الحيتان . بعيداً أكثر نحو الغابات

المائية والأشكال الأسطورية لمخلوقات البحر . مستترأً بهذا الغلاف الشفاف والكتيم والذي لا تصل قاعه هزات الأرض وزلازلها . حيث يتحول إلى شجرة أو سمكة أو ذرة رمل أو طحلب ، أو لاشيء له معنى .  
عندما استيقظ من حلم اليقظة ، الموتى ، سمع الباب يقرع .  
باللعنة !

و غت بها .

بوقت بها .

كان مبللاً مأيذال ، والماء يتقاطر على ثيابه والأرض .

- أوه . غير معقول !

- واحش بييك مثل الطير المبلول ؟

- حبیبی! آی . .

- آه . يالحلوف واش راك ؟ اشتقت لك .

كان يطوقها من خصرها وهمَا يدخلان البيت : بالعقل . بالعقل !  
هات الحقيقة عن الباب .

كلمات . حركات مرتبكة . أشواق امرأة لرجل وحنين رجل لامرأة غائبة . لكان دهراً مضى على افتقادهما . حملها ودار بها الغرفة ثم هويا على السرير المبعثر وانغمسا في القبل والعناق والتلوق الناري لجسدين ابتعدا طويلاً هما كالنار والهشيم في لحظة اندلاع .

حلم . يلتصقان . لو تتحطم هذه الأضلاع فيتداخلان لحماً ودماً وصرخة روح . مهدي جواد ينغرم داخل آسيا ليحتمي من الخارج والرياح . كان يصرخ بصمت ، صراخ حشرة تبحث عن جحر . صرخة طفل يتکور في رحم أم .

يتشم رائحتها من الشعر إلى الجبهة عابرًا بشفتيه فوق العينين  
والخدین وماوراء الأذنین والذقن والرقبة ومسرى النھدین .

هي كانت تضغط الظهر والصدر بصعوبة تحت هذا الانسحاق العذب للجسدين المتشابكين كالأغصان .

- يا الله . من أي نجم هبطت !

- اشتقت إلَيْكَ . موت . كنت أموت في غيابك .

هائلة وعملاقة وصلبة ، هذه الطفلة التي انبثقت جواره كشجرة في صيف حارق . ليس الحنان والدفء ما يمنحك الآن . الأمان وصخرة الارتكاز ، امكانية الحرب وأنت تستند إلى جبل يحميك من غارات وغدر الأعداء . واحتسبها في النك العاشر .

- مؤكـد كان هناك رجل . جـربـتـ الجـزاـئـريـ ؟

- عـطـايـ . هـيـاـ . قـلـ . كـمـ قـحبـةـ جاءـتـ فـيـ غـيـابـيـ !

- قـلتـ أـسـبـوـعـاـ وـبـقـيـتـ اـثـنـيـ عـشـرـ يـوـمـاـ . الـأـورـاقـ تـنـتـهـيـ فـيـ يـوـمـيـنـ .

- اـسـمـعـ . اـسـمـعـ هـاـوـ الـبـيـتـ مـشـتـ . قـلـ الـحـقـ . نـمـتـ مـعـ فـلـةـ أـمـ لـ ؟

قل الحق ؟

- لا . مـهـيـارـ غـطـسـ فـيـ الـبـيرـ تـاعـهـاـ .

- وـأـنـتـ كـيـفـاشـ دـبـرـتـ رـاسـكـ ؟

- مع طفـلـاتـ الـمـدـرـسـةـ .

نسـفـتـهـ صـفـعـةـ زـاغـ مـنـهـاـ . أـرـدـفـ مـغـيـظـاـ : هو لـازـمـ أـتـصـوـفـ فـيـ غـيـابـكـ ! بـعـدـ أـسـبـوـعـ غـلـىـ الدـمـ . قـلـتـ : الطـفـلـةـ دـبـرـتـ رـاسـهـاـ مـعـ الـجـزاـئـريـيـنـ . وـأـنـتـ يـاـوـلـدـ دـبـرـ رـاسـكـ . وـاحـدـةـ بـواـحـدـةـ وـرـبـيـ يـنـوبـ عـلـىـ الـخـاـسـرـ .

لم يستطع المضي أكثر فاندفعت الضحكات . اغتناثت وصدقـتـ . كان يضحك على شكل موجات لأشعورية لاصلة لها بهذه التخرصات التي يبتدعها للنكـ . كان بإمكان الرجل الخنزيري الذي داهم المنزل أن يغتصبه بسهولة قانونية عندما هزـىـ منهـ واستلقـىـ على مدخلـ الـبـيـتـ على ذلك النحو الكاريكاتوريـ .

وـهـوـ الـآنـ يـسـتـلـقـيـ مـنـ الضـحـكـ . نـهـبـ نـجـاتـهـ مـنـ اـغـتـصـابـ الـبـولـيسـ وـنـهـبـ سـعـادـتـهـ الـمـطلـقـ بـقـدـومـ آـسـياـ فـيـ هـذـهـ الـلـحـظـةـ الـلـعـيـنـةـ . هـدـرـتـ آـسـياـ أـشـيـاءـ عـنـ أـقـارـبـهـاـ الـحـقـيـقـةـ فـيـ الـعـاصـمـةـ . كـيـفـ كـانـواـ يـراـقـبـونـهاـ وـيـرـسـلـونـ مـعـهـاـ الـحـرـاسـ وـكـائـنـهاـ بـوـمـيـنـ . وـرـوـتـ عـنـ اـكـتـظـاظـ الـجـزاـئـرـ بـالـبـشـرـ وـكـرـاهـيـتـهاـ وـتـحرـشـ الـرـجـالـ بـالـمـرـأـةـ . عـالـمـ آـخـرـ غـرـبـ عـنـ بـوـنـهـ لـكـائـنـكـ فـيـ بـارـيـسـ أوـ لـنـدـنـ . عـالـمـ حـرـ وـسـائـبـ فـيـ الـجـامـعـةـ وـالـمـقاـهـيـ وـالـخـمـارـاتـ وـالـشـوـارـعـ . أـلـفـ رـاجـلـ طـارـدـونـيـ . هـيـاـ يـاطـفـلـةـ . هـاـوـ بـاـيـنـ عـلـيـكـ سـخـونـةـ . وـعـلـاـهـ شـايـفـةـ روـحـكـ . هـيـاـ نـنـامـوـ سـوـيـةـ . نـمـوتـ فـيـ الـعـنـابـيـاتـ . تـاعـهـمـ سـخـونـ كـيـماـ الفـرنـ . أـوـهـ . أـوـهـ . يـاـيـوـماـ . الـخـماـجـ . الـعـطـاـيـيـنـ !

ثم رـوـتـ كـيـفـ كـرـهـتـ الـمـديـنـةـ وـرـغـبـتـ الـعـودـةـ ، لـكـنـ اـبـنـ عـمـتـهـ الـضـابـطـ

في الجيش قال : لو جاء ربي لن تعودي قبل أسبوعين . كل عام أو عامين نشوفك مرة . واسف فيها هادي البوته الفارغة يادين الرب ؟ وضحك . شدّت شعر مهدي : في بونه ربى . واسف لي في العاصمة القحبة ! وأردفت : محال أن أأسافر بعد اليوم . روحني خرجت . صرخت : ياربى . وعلاه نحبك هكذا . وعلاه ؟

كان يختنق بالغبطة . الغبطة التي تنهر عليه في لحظة ما قبل الإعدام .

هل ينبغي أن يتحدث لآسيا عما جرى المداهمة وتحقيق البوليس وتهمة الشيوعية وموالاة بن بيللا وقرار مغادرة الجزائر خلال أسبوع ! تحت غمرة الغبطة القاتلة جاءت موجة عاتية . وكانا عاريين . حاول صد الأشباح والغمرة . وكانا في الليل الأخير والعشاء الأخير . مسموح لهما بالوداع قبل انبثاق الفجر .  
كان العالم يرتج بضوضاء وحشية .

وقال لنفسه : كن متوازناً أيها الرجل المطرود في ليلتك الأخيرة . وخرج من حاليه . سألهما عن الهدايا فنهضت إلى الحقيقة والأكياس . نثرت هدايا الأم ثم منار ورابع . هدايا بسيطة . غندورة للا فضيلة من الساتان الأزرق بلوزة وردية لمنار وبنطلون رمادي لرابع وقالت : أغمض عينيك . جاءته وهو مغمض وقبلته : افتح عينيك . بين أصابع ذراعيها نشرت قميصاً نيليًّا : مارأيك .

- هذا لي ؟

- بلى !

- ياله من قميص ينم عن ذوق في منتهى الرداءة !

- وعلاه ؟

- لأنني لا أحب النيلي . ألف مرة قلت لك هذا .

- فلاج . كم أنت مختلف . أي لون تحب ؟

- الرمادي أو البنبي .

صاحت : قلبك معتم . منذ الآن ستلبس على ذوقك ياالهمجي . فهمت . هيا نوض وقشة .

- من بعد . من بعد . هذا كل ماجئت به ؟

واندفع يبعثر الثياب ومحظيات الأكياس والحقيقة .

لم يصدق عينيه وهو يمسك بزجاجة الكونياك .  
 ضمئها إلى صدره : أنت أجمل عاشقة في العالم . هذه أجمل هدية .  
 - أهدانيها ابن عمتي ليزيد .

- من أجل هذه الخمرة المقدسة أنا الليلة أسمي يزيد ولد الحاج .  
 فتح الزجاجة وجرع منها . ضحكت عالياً :

- اسمعي . رتبني الكتب والغرفة وأنا سأجهز الحمام . ستتدافن الليلة هنا فهم لا ينتظرونك . أكيد .

- أتيت مباشرة من محطة القطار إليك .

- عظيم . أنت امرأة ذكية حقاً وأنا أطلب يدك الليلة .

- مامعني ذلك ؟

- هل تقبلينني زوجاًك ؟

- ياللهمسيبة ! واش ندير بيك . يزيوني مصايب . خويا . يرحم والديك . أشعلا سيجارتين تحت المسرة والنكد والعشق النازف . تناول جرعة سريعة من فم القنينة . قال مهدي جواد بين الهزل والجد : إذا تزوجتنني صدقيني لن تندمي . من الشقاء والتشرد وحبى المجنون سأبني لك أيكة من التصوف والعبادة . قالت آسيا الأخضر مغفظة : إنما أنت رجل هالك ودمك مباح . وقال مهدي جواد بين الجد والهزل : أنا رجل عاشق يا عزيزتي قبل أن أكون سياسياً . الحب في دمي ككريات الدم .

وقالت آسيا الأخضر : ستطويني كما يطوي الغجري الراحل خيمته فلا يكون لي قرار ولا بيت . هذا أنت .

وقال الذي نبذته الأرض : سأحملك في حقول دمي أينما رحلت . ستكونين مسرتي وأكون نجمك الذي لا ينطفئ .

وقالت آسيا : لأمان للغرر الرخّل والرجال القساة . أنت رجل وعر يا عزيزي ومحروم .

وقال المغمور بالشقاء بين الوعي والعاطفة : آه . لماذا كنت أبحث عن الشخص الثاني فلا أصطدم إلا بالواحد !

هو ذا جسد آسيا يلمع تحت الماء . بياض مقصوق ينفذ من الغرفة الكتيمة ، الضيق ، مشاعير فضاء العالم . صدرها الفسيح ونهوض نهديها ، وهذا التكوين المتناسق لجذعها مع فخذيها ، لكانها ديانا آلهة الصيد .

لأول مرة يستحمان معاً بعريهما الكلي . هي ترى تفاصيل جسده وهو يرى .

المحارم المغطاة بالثياب والشرائف ومايوهات البحر ، انزاحت فبدًا الجسدان ، الصلبان المشعران ، الهاباطان من الرحم وهما يضحكان تحت الماء ويتراشقان ويمسان الأعضاء المحرمة . القصيب وشعر العانة المثلث والمؤخرة .

بدت بعد الوهلة الأولى لاتختلف عن الذراع والفم والجبهة ، ولعلها وهي تتجلّى تحت البصر الآن فاقدة قداستها وحرمتها الدينية ، أكثر جمالاً وطفولة وتناسقاً وتطهيراً للنفس .

من رقتها حتى منحدر الفخذين ، فرك ظهرها وصدرها بالإسفنج والصابون . الجسد الناعم ، الطفل ، الصقيل . هي أيضاً غسلته طفل استسلم لذراعي أمه . وكما لم يحدث في عصورهما الشابة ومسار حبهما ، اغبطة كطفلين في غدير كانوا يستعيدان أزمنة بدائية قديمة دمرت طقوسها وشعائرها سطوة القرآنين والشرايع واستعباد الجسد .

بين الضحك ورشق الماء والبذاءات المقدسة والتضام العاري ، والصيحات البدائية ، كانت النشوة الصاعدة في مسام الجسدتين تأخذ شكل العشب الأول وهو يكسر القشرة الخارجية للأرض ليصعد ناماً نحو فضاءات الشمس ، مفتاحاً بنضارته .

في السرير وهم ملفوظان بالمناشف تحت الشرشف ، قبلته بدفعه . من جسديهما كانت تفوح رائحة مابعد الاغتسال . رائحة البخار الدافئ . رائحة طفولة الجسد ، العبة بالغار . هو ارتدى منامته وهي لبست غندورتها الزهرية وشرعأً يحضران العشاء .

انهمكت آسيا بتقشير البطاطا وراح مهدي يغسل الخضار لتهيئة سلطة البنودرة والبصل والخس . بعد أن أنهت البطاطا تناولت شرائح البفتيك وراحت تملحها . كانا يثرثران عن الغياب والشوق والسفر واستفارات يزيد ولد الحاج على للا فضيلة .

- سيقول لها بأن ابنتك لم تذهب إلى العاصمة لتهيئة أوراق الجامعة . العاصمة ياللا شيء آخر مختلف عن بونه . هناك ستضيق الطفلة . ماكانش أخلاق ولادين في البلاد لمخلطة . آسيا طفلة حلوة وبسيطة وأي حلوف ينجم يضحك عليها ويطريح بها . أنا خايف عليها يا للا تهمل روحها وتتوه في الزحمة .

آسيا تتنطق باسم أغوار سي يزيد الشفوق ، وهي تسخر من غيرته الخرقاء . تتساءل باستغراب : وعلاه يشوف فينا جزءاً من أملاكه ! كرسي أو بقرة أو بورمه . كأننا مازلنا في سن الخامسة . تتهكم وهي ترمي البطاطا في المقلة : لا لا . وينها آسيا ؟ لا لا . وينو رابع . لا لا وعلاه تأخرت منار في التنس الخامج ! لا لا . عيونك على بناتك من الذيبان . غريب ! العالم في رأسه غنم وذيبان . والمرأة وجبة طعام للرجل .

كان يستمع وهو يفرم البندورة في صحن البلاستيك ويراكم فوقها الخس والبصل . وإذا سأله كيف أمضى أيامه في غيابها تحدث عن فلة وعشق مهياً لها والامتحانات الطلابية ، وساحة المدينة التي كانت خاوية في غيابها ، وشرب البيرة في قهوة المغرب وحده حالماً بعودتها .

لم يقترب من حادثة البوليس . لابد أن تكون هذه الليلة عذبة واحتفالية . وعندما يدرك شهرزاد الصباح تكون الحكاية الأخيرة قد انتهت ، ولن يكون هناك ما يُروى في ختام هذا الكابوس الطويل .

ستظل المدينة راسخة رسوخ الزمن فوق أساساتها الصلبة . أبداً هنا في هذا المكان . تسمع الحكايات وتستقبل العشاق والمجانين والبحارة واللصوص والزناة والمعربين والهاربين من أوطانهم واللواطيين . مدينة القديس أوغسطين وهواري بومدين وريزي عمر وسي العربي ، ومدينة آسيا الأخضر ، ولاتريم . ستكون هناك مدينة أخرى . ستسمى مدينة الصدمة التي سقطت فيها بيضة رخ فكان في داخلها طفل وبعد أن انكسرت خرج منها فرأى نفسه على شاطئ غريب ، وجميل ، وفي غمرة تيهه وشروعه وخوفه رأى فيما رأى : المدن البيضاء والشوارع المنارة ، وأشجار الدردار دائمة الخضرة ، والسماء الملائكة بالخطاطيف ، وخفقان موج البحر ، والصدى الليلي فوق نتوءات الصخر ، ودبب الصراصير والنمال وهي تتسلق العشب ، ولمعان المطر فوق الأرصفة .

ثم فجأة لاحت امرأة .

هذه المرأة .

كانا يأكلان ويشربان بغيطة ، وفي أعماقهما توقي مؤجل لمسرّة جسدين مشتاقين ، يصرخان بعد هجر .

هذا البراندي اللعين حاد ، سريع الفعالية ، وهذه المرأة النادرة هنا الآن ، ومهدى جواد رجل مسافر فوق عباب هذا البحر يطارد سحابة أو لمعة موجة أو طائراً داخل الليل والموت والهواجس السرية .

لقد ابتدأ الـدوـي والـبرـوق ، ورـاحـت طـبـقـات اللـيل تـشـطـر . وـهـما مـتـعـانـقـان ، روـىـ شـيـئـا عـمـا حـدـث . شـيـئـا موـجـزاً .

من أين جاءـهـ الحـزـنـ . هو يـنـشـدـ الحـبـورـ ؟

تسـاءـلـ بـعـدـ هـمـودـ وـجـيـبـ القـلـبـيـنـ وـاسـتـراـحةـ النـحـيـبـ .

عـنـدـمـا صـرـخـتـ : آـهـ . يـوـمـاـ ! وـهـوـتـ فـوـقـ صـدـرـهـ أـحـسـ الـهـشـاشـةـ تـحـتـ رـأـسـهـاـ .

لم يكن يعرف من هو في هذه اللحظة الحرجة ، ولاـماـ إـذـاـ كانـ يـسـطـيـعـ أـنـ يـشـيلـ هـذـاـ التـقـلـ المـلـقـيـ . وـتـذـكـرـ بـرـقاـ كـلـمةـ أـمـهـ : آـهـ . يـاجـمـلـ المـحـاـمـلـ ! وـسـمـعـ المـرـأـةـ تـحـتـ بـرـيقـ الـخـمـرـةـ ، تـتـحدـثـ عنـ يـزـيدـ وـلـدـ الـحـاجـ الذي استـجـارـ أـخـيـراـ بـالـبـولـيـسـ وـوـصـمـتـهـ بـالـخـتـزـيرـ .

نـفـضـ رـأـسـهـ خـارـجاـ مـنـ ضـبابـ الـبـحـرـ . أـمـسـكـ بـأـعـمـدةـ الـكـذـبـ وـالـلـيـالـيـ السـوـدـاءـ فـهـزـهـاـ . قـالـ لـلـغـبـطـةـ النـائـمـةـ تـحـتـ أـعـشـابـ الـبـحـرـ : أـنـتـ سـفـينـتـيـ . أـنـقـذـيـنـيـ مـنـ صـخـبـ هـذـاـ الغـمـرـ !

عـنـ وـجـهـ المـرـأـةـ مـسـحـ الدـمـوعـ بـشـفـتـيـهـ . دـاعـبـ الشـعـرـ وـالـوجـنـتـيـنـ وـالـأـذـنـيـنـ وـاحـتـضـنـ الرـقـبـةـ المـتـلـعـةـ : كـيـفـ أـقـوـلـ لـكـ أـنـتـ حـلـمـيـ وـمـلـاذـيـ ! لـكـنـهاـ روـيـتـ تـرـشـحـ بـالـمـرـارـةـ وـهـيـ تـسـأـلـ : مـاـذـاـ عـلـيـنـاـ أـنـ نـفـعـلـ اـذـنـ؟ وـفـاجـأـهـاـ : نـنـهـضـ إـلـىـ الرـقـصـ .

بـحـرـكـةـ مـسـرـحـيـةـ نـهـضـ إـلـىـ المـسـجـلـةـ فـوـضـعـ شـرـيطـاـ رـاقـصـاـ . وـبـحـرـكـةـ أـخـرـىـ عـادـ لـيـتـنـاـوـلـهـاـ مـنـ خـصـرـهـاـ : هـيـاـ . هـيـاـ . إـلـىـ الجـحـيمـ كـلـ شـرـامـيـطـ الـأـرـضـ .

نـحنـ مـعـاـ وـهـذـاـ هـوـ الـحـقـيـقـيـ .

بدـتـ الإـيـقـاعـاتـ الـأـوـلـىـ لـلـرـقـصـ وـجـلـةـ . لـلـمـرـةـ الثـانـيـةـ يـجـربـ الرـقـصـ بـعـدـ تـلـكـ الـلـيـلـةـ التـيـ سـهـراـهـاـ مـعـاـ فـيـ بـيـتـ السـوـرـيـ . كـانـ رـقـصـ آـسـيـاـ بـطـيـئـاـ مـرـتـبـكـاـ بـمـرـارـتـهاـ . وـكـانـ هـوـ يـضـرـبـ وـيـدـورـ تـحـتـ الـمـدارـ الطـفـيـلـ الـمـنـسـوـجـ مـنـ الـخـمـرـةـ وـالـغـضـبـ وـالـقـصـورـ .

الـغـرـفـةـ تـدـورـ . شـالـ شـوـقـ لـلـخـرـوجـ مـنـ الـأـطـوـاقـ الـمـغـلـقـةـ بـاتـجـاهـ الطـفـولـةـ وـعـضـوـيـةـ الـجـسـدـ وـالـحـنـينـ السـرـيـ لـلـغـابـاتـ الـعـذـراءـ . حـالـةـ هـرـوبـ . وـاستـحـثـهـاـ لـتـخـرـجـ مـنـ حـالـتـهـاـ : هـاـ . وـيـنـ الـأـفـرـيـقـيـةـ تـاعـكـ ! سـلـبـوـهـاـ فـيـ الـعـاصـمـةـ ! يـاجـبـ الـثـلـجـ اـسـخـنـ شـوـيـاـ .

مـعـ اـرـتـفـاعـ صـخـبـ الـموـسـيـقـاـ تـنـاـمـتـ حـيـوـيـةـ آـسـيـاـ . اـبـتـدـأـ اـيـقـاعـ قـدـمـيـهـاـ

يتناجم رشيقاً مع تلويع ذراعيها وهما يختلجان حول محور الصدر النافر . كانت الرقصة تنموا نمو اشتعال النار في حزمة حطب . بحركاتين سريعتين نصف دائريتين متعارضتين ، رسم نصفها الأسفل المدخل البدائي لرقصة الجيرك .

ومع الصخب الموسيقي والرغبة الداخلية التي اتقدت ، التهب الجسد الأفريقي مخترقاً وقار العالم وحزنه .

من وجه آسيا ، وهي تحت سطوة الجسد ، شغ ألق سحري ضرّاج وجهها فأنضج قطرات من العرق . قدماها ثم فخذها فالحوض انطلقت ترسم بالحركة فرح طيور غابة اشتاقت الطيران بعد سجن .

كانت الآن تتلوى في فضاء الغرفة نصف المضاء كموجات النار الزرقاء تحت هبوب الريح .

وابتدأ العرق يقصد نابذاً معه صديد الألم .

وهو يرقص معها باهتزاز بطئ كان يرى الحبور الطفلي لهذا الجسد العذب وهو يغنى .

هل كان هذا هو العشاء الأخير ؟ وهل كانت المرأة تعزف لحنها الوداعي في هذا الليل الأفريقي الغريب ؟ وهل كانوا معاً الآن حقاً ؟ تخاصرا . أخذته بين راحتيها وابتداً يدوران كطيف . الجسدان ينضوان الشقاء ، والطفولة المنسوجة من حلم الطيران هي ذي تستعيد زمنها البدائي وتحقق بعيداً .

لم تكن هناك حدود ولا قسوة ، في لحظة امتزاج الخمرة بالعرق بالتوقع العضوي المنفلت .

وراحت الغرفة تتبسط وتمتد وتتطير ، بينما الجسدان يرسمان في الفضاء الطائر حقولاً وبحاراً وطيوراً وأفراحًا لا تُحده .

في حميّا الرقص قالت آسيا : لم أكن أعرف أنك تجيد الرقص .  
وغضبك مستمتعاً .

- أنت علمتني .

لم يكن رقصه منتظماً . نوع من الهياج أو انبعاث عفوي يكسر حالة حصار لتحقيق التوازن .

لو لم يرقص على ذلك النحو الأهوج لكان عليه أن يكسر شيئاً أو يطعن . كان على أبواب الصرخة عندما أتى الرقص فجأة .

- آي . تعبت . استمري وأنا أصفق لك .

الغرفة تدور وهي ماتزال تطير في سماء غريبة . زهرة عباد شمس تدور وتنأى وتطاير أوراقها .

وماكان هناك من شيء يُحسن أو يلمس . عالم من الأطیاف والشظايا والنشرات . الألوان خضراء وصفراء وبنفسجية وحمراء تأتي وترحل داخل مدارات اهليجية أو مربعات أو أقواس . رسوم تنبثق ثم تُمحى ثم تتخذ أشكالاً سريعة الإنطفاء والوميض . كون غريب سطا عليه اللاوعي وخداع البصر والحواس والرغبة والجنون والشبق والمسرات المنطوية والحزن والفقدان والطاقة الروحية التي كسرت احتمال الجسد وحدوده القصوى .

وماكان مدركاً إن كان في النشوء القصوى أو الألم الأقصى ، أم أنه في النزع الأخير وصرخة الدم .

كطوف كان يجرفه تيار . مفلتاً على سطح الغمر ، وماكان محمياً في تلك اللحظة من السحر .

عار في الزمان العاري . والعالم مفتوح بلا مدى . ومن كل الجهات كان الصقيع يشع .

- أوه . لماذا تبكي ؟

غمرته بحنان أصابعها ودفء الجسد .

- لمثني البكاء يا عزيزى .

- لا تبتعدى . أنا بحاجة إليك .

وانغمرا .

- ياطفلي الصغير . ياطفلي الخائف !

- 16 -

جميلة بونه وحزينة تحت هذا الضحى . اليكترا جلاها الأسى ، تقف على شاطئ المتوسط مزدهرة بوجدها وأسرارها الغامضة ، تتراءى كأنما تودع عاشقاً يرحل أو أبياً محمولاً إلى مدفن .

كذلك بدت في صباح ماسي يلمع كموح الماء تحت أشعة صيف . أنها الشمس هذه التي تتوهج فوق ذرى الجبال وعلى العشب ، منحلة في مياه البحر .

وهو ، المندفع في أعماق المدينة ، يلمح خطأ الوجه والجدران البيضاء والباهتة وواجهات الحوانيت والسطوح القرميدة والخطاطيف المذعورة في فضاء أبيض .  
سفينة على وشك الإقلاء .

يقطع شارع أول نوفمبر ثم الساحة وينعطف إلى زنقة ابن باديس فمحطة أوتوبيسات القالة وسوق أهراس ، يصعد تسع درجات وثبات ويقرع الجرس . تفتح فلة بو عناب الباب المرتج . وجهها مرید مسحوب الدم : أهلاً سي مهدي . ادخل . على العتبة يسأل عن مهيار يقول فلة : أخذوه في المساء الفائت . تقول ذلك وهي على أبواب الانهيار ثم تقول أشياء غاضبة وبذئنة عن الكلاب والحاليل وسهرها الليلي بانتظار عودته .

يغادر فلة وينحدر مسرعاً على الدرج . يسير بخطوات سريعة ، يفتش في المقاهي وبيوت الأصدقاء سائلاً عن الباهلي .  
الأرصفة مبللة بمياه البالوعات . عاصفة غبار ورمل تلف المدينة ومن المرفأ يرتفع صفير باخرة .  
لأثر الباهلي .

يسير مهدي جواد . يسرع ويتباطأ تائهاً تحت سقف السماء .  
جدران العمارات صلبة وراسخة ومتجاورة كأنبياء حوت ضخم يسد منافذ البحر . والرجل يخترق الشوارع مفلتاً كسهم بين أنبياء الحوت . تحت هذا الانهدام الكابوسي لمدينة ترتج بزلزال وعما قريب ستتساقط . مدينة الروائح الكريهة والجراثيم والأحماس والبالوعات والنفايات الصاعدة من براميل القماممة . المدينة المزدحمة بالأجساد والعرق والسيارات والغيظ والملل والزمن الملتصق بجدران المنازل ومطاعم الكسكسي والعدس واللوباء العامرة بالذباب الأزرق والفنادق التي بناها الفرنسيون ليسكنها القمل والبدو والبقاء الأحمر والسفل . عاهرات الدرجة الرابعة والمخبرون السرييون والسكارى ولصوص الليل بعيداً عن العمارات والفيلات البيضاء المحروسة بالحرس الأزرق وسيارات البوليس الزرقاء حيث يتختر الشرط بستراتهم الأنثقة ومسدسات الماغنوم الأميركية والهراوات المدللة من الخصور داخل أحزمة من الجلد الأسود بعيداً جداً عن مدافن الشهداء والنصب التذكارية التي سالت على جدرانها دماء

السارخين : بن بيللا . بن بيللا . ليبرتي . بوخرّوبه ياسفاج ! ظهيرة اقتحم ذلك الكولونيال الصعب المراس خشن الطباع والذى لا يبتسם حتى لحليب أمه ووزارة الدفاع والإذاعة ليعلن أن حكم الفوضى والتسبيب قد انتهى وبدأ حكم النظام والسلطة والقانون لأن البلاد التي كانت سائبة آن لها أن تعود إلى رشدتها ومرافقها أمانها بالرعب والسيطرة والضرب بيد من حديد على رؤوس المشاغبين والفوضويين ودعاة الثورية المزيفة يوم خرج الشعب في بونه معقل الكولونيال بوخرّوبه ومسقط رأسه صارخاً : لا للعسكر . لا للديكتاتورية . نعم لـ بن بيللا . نعم للحرية . في ذلك اليوم العاصف - التاسع عشر من شهر جوان - حزيران تلقى الجندي الأوامر بمواجهة الشعب الغاضب فنزلت البذات الكاكية إلى شوارع المدينة وابتدأت حصادها الدموي في شارع أول نوفمبر وعيان رمضان وريزي عمر وساحة أفريقيا والأسوق الشعبية حيث احتلت الدماء بأوراق الشجر وأشعة الشمس وعربات الباعة والخضار والفاواكه فصعد الهلع إلى عنان السماء ، آن كان الجنود يتقدّمون صفاً صفاً وينبذّون من المنعطفات على شكل مفارز قتال شوارع والرشاشات في وضعية الرمي الغريزي تبهق رصاصها ضد العدو الأعزل إلا من الصرخات في تلك الظهيرة الساطعة بينما كانت الأجساد تُثقب وتتهاوى والولايات الأخرى تشهد المداهمات والاعتقالات والتصفيات كانت الدورة القمرية للكوكب العربي تدخل في حقبة المحاقد موائلة انهيار الزمن عبر شلالات الدم والانشقاقات الثأرية التي ابتدأت مع خلافة عثمان بن عفان ومعاوية والعباس السفاح والتي لم تنته بعد بعصر عبيد الله الكلبي ومحمد بوخرّوبه وسائر السلالة المنحطة التي جاءت بها الصحراء الكاوية وحروب القبائل والرجع الديني وغريزة الوحش الضاري في أعماق الفرد - الله التوّاق لأن يقول للبشر - الأشياء كوني فتكون ، بعيداً أكثر عن أ��واخ الصفيح وأحزنة البوّس والمستنقعات الدووية والموت غير الهدائى بالبلهارسيا والتيفوئيد والمalaria والجوع والقتل الدورى .

فجأة هذه الموسيقى ومهدى جواد مايزال يركض في شوارع المدينة وأغنية «حدثني عنه» تخرج من مخزن لبيع الاسطوانات . وجيب احتفالى مدرع بالشقاء والخيال المراهق . تتوّيج امرأة في طرف قصي ومهجور من العالم مكان مجلل بالثلج . بياض يحاكي بياض أشرعة تقلع أو أكفان في مقابر أو طيور بيضاء تتنفس في شبكة .

تلوح المدينة العظيمة ، البيضاء . مدينة القديس أوغسطين وريزي عمر ومحمد بوخروبه ونبي العربي وعمر يحياوي وأسيا لخضر ويزيid ولد الحاج راسخ رسوخ الالهة تحت هذه السطوة الأبدية لشروع وغروب شمس الراعي الصالح الذي يفتح المدينة لرعايته في الصباح لترعى ثم يغلقها مع أول المساء لتنام .

مهدي جواد مايزال يسير أو يعدو وتحت قدميه ترن الأرصفة وترن المدينة . على الشبكية تفرّج بونه بقاماتها الشاهقة والمنحنية والمكسورة هاوية على مهل نحو قاع الذكرة .

وهم . وهم . حكاية يرويها أبله بعد ضربة كابوس .

وما قبل ذلك كانت تلمس وتحسن . صلبة كانت المدينة والبشر . المدينة البيضاء التي كانت تُرى برجالها ونسائها وأطفالها . بحجارتها وشجرها الأفريقي العارم والسامق ، كانت في العين وتحت الأصابع وعلى حواف الأنف والجلد وفي مجرى الدم .

آه . يالخدية وبالسراب الحواس !

مدينة المنفى والحب والملاذ والطبيعة الوهاجة تتناثر الآن ذرات هلامية ممحوّة المعالم كبقايا سفينة تغرق في أعماق محيط . على سطح البحر المختلج تعوم منها ندبة .  
آسيا .

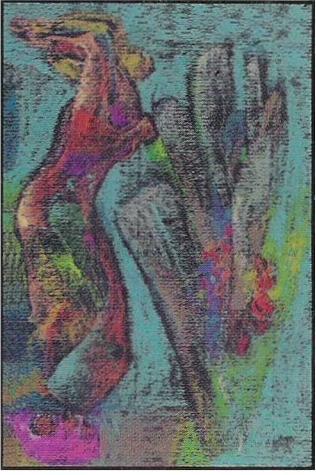
ها قد ظهرت الحدائق ومقابر الشهداء وأبواب البحر أخيراً . من سياج حديقة يقطف الرجل وردة حمراء ثم يلتج المقبرة المتاخمة لفاصل البحر .

نصب تذكاري يرتفع على بوابة المقبرة . رمح من الرخام علاه غبار . على قاعدة النصب ينحني الرجل ويضع الوردة الحمراء ثم يخطو نحو البحر . على الرمل يتعرى ثم يصعد صخرة . يتنفس بعمق ، الهواء الطلق ، وباندفاع طائر يقذف جسده إلى البحر .

الجزائر - بيروت - قبرص

1983 - 1974





وكانت بلاداً جميلة.

إنها لتألق أبداً بالبحار والغابات والسموات الزرقاء كما تألق بنساء جميلات وشهيات كالكرز.

البلاد العذراء التي تخزن المعادن والحبوب والبترول والغاز والمستقبل الغامض، وهذا الذي يُسبّح ليلاً ونهاراً باسم الله مجراه ومرساه.

لكنها كانت تلوح بلاداً جارحة كحد المدية.

فكمَا تخزن الجمال وعدوّية الطبيعة والمواد الخام، كانت تخزن الزلزال والأعاصير وئُثر الحرب ومقاصل الإعدام. وفيما مضى في عصور سحرية في القدم، يوم كانت قارة من الصحراء المُموجة تحمل على ظهرها النوق والخيول والخيام الراحلة. كانوا يسمونها: مهابط وأرض الأنبياء.

غير أنها مع تقدم الأزمنة، عندما ستمزق مسامها لتفجر بالدم الأسود، ستُسمى مهبط ومرقى فرق الكوماندوس، وحملة بنادق الناتو، والبحارة اليانكيين، ومُخبراً لصنوف تجارب التعذيب.

## وَمِنْ لِلْأَعْشَانِ الْجَزْرَ

---